مُحَاضَرَاتٌ في

الأدَبِ الجاهليِّ

السنة الأولى

قسم اللغة العربية

منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مُحَاضَرَاتٌ

في

الأدَبِ الجاهليِّ

الدكتور
محمَّد شفيق البَيْطار
أستاذ في قسم اللغة العربية

الدكتورة
هبة عبد الوهّاب عَقيل
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية

جامعة دمشق
١٤٤٤- ١٤٤٥ هـ
٢٠٢٢- ٢٠٢٣ م

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المحتوى

المقدّمة	**١٣**
(تاريخ الأدب الجاهليّ) وما يَنبَغِي أَنْ يُدْرَسُ فيه	**١٧**
القسم الأوَّل: قضايا توثِيقِ الأدبِ الجاهِلِيّ	**٢٣**
تمهي٥	٢٥
أولًا: الكتابةُ وأثَرُها في حفظ الشّعر في الجاهليّة والأدلَّة على انتشارها عندَهمُ	**٢٧**
١- النُّقوش	٢٧
٢- الازدهار التّجاريُّ في مكّةَ وغيرِها	٢٧
٣- الأخبار الـموثَّقة	٢٨
٤- الإشارات في الشِّعر الجاهليِّ إلى الكتابة وأدواتها	٢٨
أثرُ الكتابة في حفظ الشّعر في الجاهليّة	**٢٩**
١- وجود الكتابة	٢٩
٢- معرفة عدد من الشّعراء للكتابة	٢٩
٣- أخبار الشّعراء	٣٠
٤- الإشارة إلى تدوين الشِّعر في الجاهليّة	٣٠
ثانيًا: الرِّواية	**٣٣**
مصطلَح الرواية	**٣٣**
١- الرّواية في العصر الجاهليّ:	**٣٣**
أ- الإشارات في الشّعر الجاهليّ إلى قيمةِ الرّواية	٣٣
ب- تعلُّمُ بعض الشّعراء مِن بعض	٣٤

ج- قبيلة الشّاعر وأسرته ٣٥
د- القبائل الأُخرى ٣٦
٢-الرّواية في صدر الإسلام: ٣٧
رواية الشّعر الْـجاهِلِيّ في عهد النّبيّ صلّى اللهّ عليه وسلّم: ٣٧
أ- لم يَنْهَ عن رواية شيءٍ من الشّعر الْـجاهِلِيّ إلّا بِضْعَ قصائد ٣٨
ب- كان يتمثّلُ بالشّعر الْـجاهِلِيّ ٣٨
ج- كان يطلُب إلى أصحابِه أنْ يُنشِدُوه الشّعرَ الْـجاهِلِيّ خاصّةً ٣٨
د - إقرارُه الصّحابةَ على إنشادِ الشّعر في مجلسه ٣٨
رواية الشّعر الْـجاهِلِيّ في عهد الخلفاء الرّاشدين: ٣٩
أ- موقف أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ٣٩
ب - موقف عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه ٣٩
ج – موقف سائر الصّحابة ٤٠
٣-الرِّواية في العصر الأمويّ: ٤٠
أ-تفضيلُ الرِّواية على الكتابة في بعضِ البيئات ٤٠
ب-اهتمام الخلفاء والولاة ومَن إليهم بالرِّواية ٤١
ج-اهتمام الشّعراء الأمويّين بالرِّواية ٤١
د-المُؤَدِّبون ٤٢
٤- الرِّواية في العصر العبّاسيّ: ٤٣
أعلام الرُّواةِ في البصرة ٤٤
أ- أبو عمرِو بنُ العلاء ٤٤
ب- خَلَفٌ الأحمر ٤٤
ج- الأصمعيّ ٤٥

د- أبو عُبَيْدةَ مَعْمَرُ بن المُثَنّى ٤٦
هـ- أبو زيدٍ الأنصاريّ ٤٦
أعلام الرُّواةِ في الكوفة: **٤٧**
أ- حمّاد الرّاوية ٤٧
ب- المُفضَّلُ الضَّبِّيُّ ٤٨
ج- أبو عمرٍو الشّيبانيّ ٤٩
د- بُزُرْجُ بن محمّد العروضيّ وجنّاد بن واصل . ٤٩
حالُ الرِّواية في العصر العبّاسيّ **٥٠**
ثالثًا: تدوين الشّعر الْـجاهِلِيّ **٥٣**
١-التّدوين في العصر الْـجاهِلِيّ ٥٣
٢-التّدوينُ في القرنِ الأوّلِ الهجريّ ٥٤
٣-التّدوين في القرن الثّاني الهجريّ ٥٥
رابعًا: النَّحْلُ في الشّعر الْـجاهِلِيّ **٥٩**
تمهيد **٥٩**
محمّد بن سلّامٍ ونَحْلُ الشّعر **٥٩**
١- تنبيهُه على ظاهرةِ النّحل وموقفُه من الشّعر الـمنحول ٥٩
٢-قرائنُ ابنِ سلّامٍ لكشفِ الشّعرِ الـمنحول: ٦٠
القَرِينَةُ الأُولى: الذَّوْق ٦٠
القَرِينَةُ الثّانية: مخالَفَةُ التّاريخ ٦١
القَرِينةُ الثّالثة: فَنُّ الشّعر ٦١
القَرِينةُ الرّابعة: مصدَرُ الرِّواية ٦٢
القَرِينةُ الخامِسة: اللُّغة ٦٢

٣-عواملُ نحلِ الشّعر عندَ ابن سلّام: ٦٣
أ- القبائل ٦٣
ب- الرُّواة ٦٤
موقف الـمُتأخِّرين من قضيّة النّحل ٦٥
خامسًا: الاضطراب في نسبة الشّعر ٦٧
١- الاضطرابُ بسَبَبِ وَحْدَةِ النَّسَب ٦٧
٢- الاضطراب بسبب تشابُهِ أسماء الشُّعراء ٦٩
٣- الاضطرابُ بسبَبِ تشابُهِ القصائد ٧٠
٤- الاضطراب بسبَبِ تشابُهِ الأغراض ٧١
٥- الاضطرابُ بسبَبِ الوَهْم وقِلَّةِ التَّثَبُّتِ ٧٢
القِسْمُ الثّاني: ظواهِرُ فَنّيّة وأغراضٌ في الشّعْرِ الجاهِليّ ٧٥
الـمقطَّعات في الشّعر الجاهليّ ٧٧
أوّلًا - نشأة الشّعر وعلاقتها بالـمقطّعات ٧٧
ثانيًا - أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ الشِّعْرَ وقَصَّدَ القصيد . ٨١
ثالثًا- متى يُعَدُّ الشِّعْرُ مُقَطَّعةً، ويُعَدُّ غيرَهُ قصيدةً؟ ٨٦
رابعًا - لِـمَ يكتفي الشّاعرَ بالـمُقَطَّعةِ ...؟ ٨٧
خامسًا - أغراضُ الـمُقَطَّعات في أشعار الجاهليّين ٨٩
المقدّمة الطّلَلِيّة في الشّعر الجاهليّ ٩٣
تمهيد ٩٣
أوّلًا: أمثلةٌ من الـمُقَدّمات الطَّلَلِيَّةِ، وألفاظها الغريبة، ومعانيها ٩٤
ثانيًا: مَنْشَأُ شعر الوقوف على الأطلال ١٠٢
ثالثًا: الرَّائدُ الأوّلُ للوقوف على الأطلال، وصِدْقُ مَنْ تابَعَه ١٠٥

رابعًا: المعَاني العامّة في شعر الوقوف على الأطلال ١٠٨
المُقَدّمات الغَزَليّة في الشِّعر الجاهليّ ١١٧
تمهيد ١١٧
أوّلًا: أمثلةٌ من المقدّمات الغزليّة، وألفاظها الغريبة، ومعانيها ١١٩
ثانيًا: وَقْفَةٌ عندَ المُصْطَلَحِ ١٢٧
ثالثًا: سبب تقديم الشّعراء الغزَلَ على غيره في قصائدهم ١٢٨
رابعًا: مضمون المَطالع الغزليّة في الشّعر الْجاهليّ ١٢٩
خامسًا: سماتٌ عامّةٌ في المَطالع الغزليّة ١٣١
نَظَراتٌ في أبياتِ طَرَفَةَ والأَعْشَى والشَّنْفَرَى ١٣٥
المدْحُ في الشّعر الْجاهليّ ١٥٥
تمهيد: أصلُ المديح، واشتقاقُه، وعلاقتُه بأغراض الشّعر ١٥٥
أوَّلًا: معاني المدح وفروعُها ١٥٦
ثانِيًا: التّكَسُّبُ بالشّعر، و الأَنَفَةُ مِن ذلك ١٥٩
ثالِثًا: مثالان من مدائح الجاهليّين ١٦١
رابِعًا: دوافع المديح ١٦٧
خامِسًا: قيمة شعر المديح فنّيًّا واجتماعيًّا ١٧١
سادسًا: ظَواهِرُ فَنّيَّةٌ في شِعْرِ المدِيحِ ١٧٤
الرّثاء في الشّعر الجاهليّ ١٧٧
تمهيد في المصطَلَح ١٧٧
أوَّلًا: صِلَةُ الرِّثاء بأغراض الشِّعر الأُخرى ١٧٨
ثانِيًا: دوافع الرّثاء ١٧٨
ثالثًا: مشهوراتُ المَراثي وأصحابُها ١٧٩

رابِعًا: أمثلةٌ من مراثي الْـجاهليّين، وألفاظها الغريبة، ومعانيها ١٨٢
خامِسًا: الـمعاني العامّة في الرثاء ١٨٩
سادِسًا: ظواهرُ فنّيّةٌ وأسلوبيّة في الـمراثي الجاهليّة ١٩٨
القسم الثّالث: فنون النّثْرِ الجاهِلِيّ ٢٠٥
تمهيدٌ في النّثر الجاهليّ ٢٠٧
أوّلًا: الخَطابة الجاهليّة ٢١١
١ – دَوَاعي ازدهارِ الخَطابة في الجاهليّة ٢١١
٢ – أشهر خطبائهم ٢١١
٣ – مكانةُ الخَطيب ٢١٢
٤ – هَيْئَةُ الخطيب وصفاته ٢١٢
٥ – مناسبات الخَطابةِ وأمْثِلَتُها ٢١٣
٦ – الظّواهر الفنّيّة في الـخُطَب الجاهليّة ٢١٦
أ – ظواهرُ في الشّكل ٢١٦
ب – ظواهرُ في الـمَضمون ٢١٧
ثانيًا: سَجْع الكُهّان ٢١٩
١ – الكهانة عند العرب ٢١٩
٢ – مناسبات الكهانة وأمثلةٌ مِنْ سَجْعِ الكُهّان ٢٢٠
٣ – الظّواهر الفنّيّة لسجع الكهّان: ٢٢٢
أ – ظواهرُ الشَّكل ٢٢٢
ب – ظواهرُ الـمضمون ٢٢٢
ثالثًا: الوَصايا الجاهليّة ٢٢٥
١ – تَعْرِيفُ الوَصِيَّةِ وبعضُ ما أُلِّفَ فِيها ٢٢٥

٢-دَواعِي الوصايا وأَمْثِلَةٌ مِنها ٢٢٥
٣-الظَّواهِرُ الفَنِّيَّةُ في الوَصايا الجاهليّة ٢٣٠
رابعًا: أمثال الجاهليّين وحِكَمُهم ٢٣٣
١- تعريف ٢٣٣
٢- التّأليفُ في الأمثال ٢٣٣
٣- أشهرُ حُكَماء الجاهليّة ٢٣٥
٤- أمثلة من أمثال الجاهليّين وحِكَمِهم ٢٣٥
٥- الظَّواهِرُ الفنّيّةُ للأمثالِ والحِكَمِ الجاهليّة: ٢٣٧
أ- ظَواهِرُ في الشَّكْل ٢٣٧
ب- ظواهِرُ في المَضْمون ٢٣٨
أعلام الشّعراء الجاهليّين ٢٤١
أهمّ مصادر الشّعر الجاهليّ ٢٦١
صَفَحاتٌ مختارةٌ من كتاب (شعرنا القديم والنّقد الجديد) ٢٧٣

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

بِـسْمِ اللّـهِ الرَّحْـمَنِ الرَّحيمِ

مقدّمة

هذا الكتابُ أوّلُ كتابٍ نظريٍّ لـمقرَّر الأدبِ الجاهليِّ يُعَدُّ لطلَّابِ السَّنة الأولى مِـن قِسْـمِ اللّغةِ العَرَبِيّة في جامعة دمشقَ، وقد سبقَتْهُ أُمليةٌ **للأستاذ الدّكتور عبد الحفيظِ السّطليّ** رحمه الله، وعنوانُها (**محاضراتٌ في الأدب الجاهليّ**)، وقفتُ مؤخَّرًا على نسخةٍ منها مِن إصدار (مؤسَّسة الأمالي الجامعيّة) في العامِ الجامعيّ (١٩٧٤- ١٩٧٥)، مِن (إعداد فئةٍ مِن الطّلّاب)، في (٣٤) أربعٍ وثلاثينَ صفحةً من القَطْعِ الكبير، **فيها**: دراسةٌ لحياةِ زُهير بن أبي سُلمى وأخبارِه في كتاب (الأغاني)، وما يُستفادُ من هذه الأخبار، وبعض أخبار حرب داحسٍ والغَبْراءِ الّتي قالَ فيها زُهيرٌ مُعلّقتَه، ودراسة هذه المعلّقة من حيث: الباعثُ على نظمها، وصحّةُ نسبتِها، وشروحُها وترجماتُها إلى اللّغات الأُخرى، وأقسامُها، ودراسةُ مقدّماتها (الوقوف على آثار الدّيار، والظّعائن، والغزَل)، وخصائص شِعْرِ عَبيدِ الشّعر الّذين كان زُهَيرٌ منهم وسمّاهم طه حسين (المدرسة الأَوْسيّة)، وغَرَضُ المديح، ورسالةُ زهيرٍ إلى الأحلاف لتحذيرهم من العَودةِ إلى الحرب، وتصويرُ الحرب، وغرَضُ الحكمة، وقد قارنَ بين شعر زهيرٍ وشعرِ غيرِه فيما يحتاجُ إلى مقارنةٍ تُثْري معرفةَ الطّالب، وذلكَ مِثالٌ يُحتَذى لدراسة أيّ شاعرٍ وشعرِه؛ وألّفَ رحمه الله بعدَ ذلك كتابَه (**مختارات من الأدب الجاهليّ**) عام (١٩٨١)، وهو مَبنيٌّ على «**اختيار قصائد لعشرةٍ من الشّعراء يمثّلون أكثر الاتّجاهات الأدبيّة للشّعر الجاهليّ**»، ولا تزالُ هذه الاختيارات مُقَرَّرةً حتّى اليَوم.

ثمّ مَضى زَمَنٌ على الطُّلّاب وهم يتلقَّوْنَ مُقَرَّرَ الأدبِ الجاهِلِيِّ مِن الـمُحاضَراتِ الّتي يُلْقِيها الـمُدَرِّسُون، ليسَ بينَ أيديهم شَيْءٌ مكتوبٌ يعتمدون عليه سِوى ما يُمْلَى علَيْهِم، أو ما

يَكْتُبُونَهُ على عَجَلٍ وراءَ الـمُدَرِّس إذا كانَ لا يَسْتَسِيغُ الإملاءَ على الطّلَبَة، أو ما يَكْتبُه زُمَلاءُ لَـهُمْ ويُقَدِّمونَهُ إلى بعضِ الـمَكتَباتِ الّتي تُتاجِرُ بِمُحاضراتِ الـمُدَرِّسِين بغيرِ وَجْـهِ حقٍّ؛ فيأتي ذلـكَ كُلُّهُ مَحْشُوًّا بالتَّصحِيفِ والتّحريف وأخطاءِ الإملاءِ والنّحوِ والصَّرْفِ والعَرُوضِ، فضلًا عـمّا تتفتَّقُ به قرائحُ الكَتَبَةِ مِن إضافاتٍ ونَصائحَ وإرشادٍ!

فإذا تقدَّم الطّالبُ إلى اختبارِ الـمُقَرَّرِ معتمِدًا على ذلك، ظانًّا أَنَّـهُ كَتَبَ في ورقةِ الاختبار ما يُؤَهِّلُهُ للنَّجاح، وهو غافِلٌ عَـمّا حُشِيَتْ به ورقَتُهُ مِـنْ الأخطاءِ السّابقةِ، وأضافَ إليها مِن أخطائِهِ ما تَيَسَّرَ لَه! ثُمَّ قرأَ الـمُدَرِّسُ الورقةَ فهَالَهُ ما يَرَى، وكانَ مِن واجِبِهِ أن يُحاسِبَ الوَرَقَةَ على الإجابةِ الصّحيحة وسلامةِ الأُسلوبِ واللّغة والنّحو والإملاء والعَروض، أشارَ إلى كلِّ خَطأٍ وحذَفَ مقابِلَهُ دَرَجَةً، فإذا الإجابةُ الّتي تستحقُّ خَمْسِينَ دَرَجَةً أكَلَتْها أخطاؤُها فصارَت أربعين أو ثلاثين أو عشرين على قَدْرِ الأخطاء؛ فإذا ظهرَتِ النّتائجُ صُدِعَ الطّالبُ بها، وراحَ يتّهِمُ الـمُدَرِّسَ بالظُّلْمِ وغَيْرِه!

ولذلك كانَتْ في أواخِرِ العَقْدِ الأخيرِ مِن القرنِ الماضِي مُبادَرَةٌ مِنِّي ومِنْ زميلَيْنِ عَزيزَيْنِ شَريكَيْنِ في تدريسِ هذا الـمُقَرَّرِ إلى تأليفِ كِتابٍ جامِعِيّ، فاقتَسَمْنا مُفْرَداتِه، وكانَ مِن نَصِيبِي تأليفُ القسمَيْنِ الخاصِّ بقضايا توثيقِ الأدب والخاصِّ بالنَّثْرِ الجاهليّ، فأنجَزْتُها أوسَعَ كثيرًا مِمّا وضعتُه في هذه الـمحاضرات، مع إحالة الـمَقبوساتِ إلى مصادِرِها ومراجعها، وانتظرتُ إنجازَ نَصِيبِهما، فلمْ تُسْعِفْهُما ظروفُهما.

ثُمَّ شارَكَني في تدريسِ الـمُقَرَّرِ بعضُ الزُّمَلاءِ مِمَّن ليس الأدبُ الجاهِلِيُّ اختصاصَهم، فأعطيتُهم ما لَدَيَّ، وبدأتُ بإعدادِ محاضَراتٍ تتعلَّقُ ببعضِ الظّواهِرِ في الشّعْرِ الجاهِلِيّ (الـمُقَطَّعات، والـمُقدّمات الطّلليّة، والـمقدّمات الغَزَلِيَّة) وبعضِ أغراضِه (الرّثاء، والمدح)، وأَدْرَجْتُ في أثناء ذلك الحديثَ عن بعضِ الظّواهر الفنّيّة؛ ورأيتُ أنَّ الأصلحَ للطَّلَبَةِ أن يُوضَعَ ذلكَ كلُّه بَيْنَ أيديهِم، فأنْشَأْتُ صفحَةً على بعضِ مواقع التّواصُلِ في الشّابكةِ، ووَضَعْتُ فيها: ما أُحاضِرُ به ويُحاضِرُ به مَنْ يُشارِكُني في التّدْريس، مَنَضَّدًا مُنَسَّقًا، وطلبتُ إلى الطّلَبَةِ أن تكونَ هِيَ

لا غَيْرُها مَصْدَرَ قراءَتِهم واستعدادهم للاختبار؛ غيرَ أنَّ (عُمَلاءَ) المَكتباتِ الّتي تُتاجِرُ بالمحاضَرات عادُوا عَوْدَةَ (حَليمةَ إلى عادَتِها القديمَة!)، فأخذوها من الصَّفحة وزادُوا عليها ما جادَتْ به قرائحُهم، بل إنَّ بعضَهُم تبرَّع -جزاه اللهُ خَيْرًا!- وقالَ للطّلّابِ: هذا مُهِمٌّ وهذا غيرُ مُهِمّ! ووضَعَ أسئلَةً مُتَوَقَّعةً!! وزاد بأن تَبَرَّع باختصَارِ المُحاضَرات!!! وما هيَ كما كنتُ أضَعُها للطُّلّابِ إلَّا مُخْتَصَراتٌ؛ فصارَ ما يعتمد عليه الطّالبُ وُرَيقاتٍ وأسئلَةً مُتَوَقَّعَة!! فهَيْهاتَ هَيْهات أنْ يُحَصِّلَ شَيْئًا مِن العِلْمِ، وهَيْهاتَ هَيْهات أن يَنْجَحَ في الاختبار حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياط!

فَمِنْ أَجْلِ هذا كُلِّهِ رأَيْتُ أنْ أجعلَ هذه المُحاضَراتِ المُختَصَرَةَ في كتابٍ تتولَّى مَطْبَعَةُ الجامِعَةِ طَبْعَهُ وتوزِيعَهُ على الطّلبة، وأن يكونَ هوَ لا غَيْرُه مَصْدَرَ الطّالب لقراءَةِ المُقَرَّر والاستعداد لاختباره، حِرْصًا على أن ينالَ مِن العِلْمِ حَظًّا مَقْبُولًا.

وقسمتُها **ثلاثَةَ أَقْسام**: فالقِسْم **الأَوَّلُ** لقَضايا توثِيقِ الأَدَبِ الجاهِليّ، **والثّاني** لبعضِ ظواهر الشّعر الجاهِليِّ وأغراضِه، **والثّالث** للنَّثر الجاهِليّ؛ ورأيْتُ أن أُجرِّدَ الكتابَ مِن الإحالةِ إلى المصادرِ والمراجع لئَلَّا يُشَتِّتَ ذلك الطّالب، وأشرتُ إلى بعضِ مصادِرِ القسم الأوّل ومَراجِعِه في التّمهيدِ له، ووضعتُ بعضَ مصادِرِ القسمَيْنِ الثّاني والثّالثِ ومَراجِعِهما في أواخِرِ بعضِ الظّواهر والأغراض، وأهمُّ ذلك بعدَ دواوينِ الشّعرِ وكتُبِ الاختياراتِ الشّعريّة وكتُبِ الأدبِ العامّة: كتاب الدّكتور شوقي ضيف (العصر الجاهليّ)، وكتاب الدّكتور يحيى الجبوريّ (الشّعر الجاهليّ: خصائصه وفنونه)، وكتاب الدّكتور غازي طليمات والأستاذ عرفان الأشقر (الأدب الجاهليّ ...)، وكتاب الدّكتور شكري فَيْصَل (تطوُّر الغَزَل بين الجاهليّة والإسلام) وغيرها، وما بدا ليَ مِنْ رأْيٍ في الجوانب الّتي تناولتُها.

وقدّمتُ لها بهذه المقدّمة وبحديثٍ موجَزٍ عن معنى (تاريخ الأدب)، و(ما ينبغي أنْ يُدْرَسَ فيه) في كلّ عصرٍ- من عصور الأدب، ومنها العصر- الجاهليّ؛ وأحببتُ أن تُشاركني الزّميلةُ الفاضلةُ الدّكتورة هبة عَقيل -وهي تشارك في تدريس المقرّر منذ سنوات- في فصلَيْنِ

عن (مصادر الشّعر الجاهليّ ومراجعه) و(أعلام الشّعراء الجاهليّين) ليكونا عَونًا للطّلّاب على معرفةِ هذّينِ الجانبَيْنِ مِن تاريخ الأدبِ الجاهِليّ، ومصادِرُ الأدبِ وأعلامُه مهمّانِ لكلّ عصرٍ من عصُوره، ففعلَت وأحسنَت، فلها الشّكرُ الجزيل.

ورأينا معًا أنْ نُزيّن هذا الكتاب بخمسٍ وعشرينَ صفحةً من كتابِ الأستاذ الدّكتور وَهْب أحمد روميّة (شعرنا القديم والنّقد الجديد)، لتكون مِثَالًا لِمستوًى عالٍ مُختَلِفٍ في دَرْسِ الشّعر الجاهليّ وفهمه وتحليلِه ونقده، تناول فيها قصيدتَيْنِ من عيونِ الشّعرِ الجاهليّ، ونظر إليهما نظرةً شاملةً، وخصّصَها للوقوفِ عند (الذّاتِ الشّاعرة) وتَقَنُّعِها بقناعِ (النّاقة) لتُلْقِيَ عليها ما في نفسِ الشّاعرِ من همومٍ ومواجعَ وآمالٍ.

وعسى أن يكونَ في هذا الكتابِ –على ما فيه من قصورٍ– نفعٌ للطّلَبَةِ الشُّداةِ، وأن يكونَ منطلقًا لآفاقٍ أرحبَ وأعمق؛ والله المُوفِّق.

(تاريخ الأدب الجاهليّ)
وما يَنْبَغِي أَنْ يُدْرَسَ فيه

يُقْصَدُ بـ**(تاريخ الأدب)** عامّةً تتبُّعُ أحوالِ (الأُدَباءِ) و(الأدَبِ) شِعْرًا ونَثْرًا، عصرًا بعدَ عَصرٍ، لمعرفة البيئاتِ والظُّروفِ الّتي أُنتِجَ فيها، ووسائِلِ وصُولِه إلى النّاس والحِفاظِ عليه إلى العصورِ اللّاحقة، ومصادِرِهِ الّتي يُؤْخَذُ منها، وأعلامِهِ وطبقاتِهم وتَصْنيفِهم، وأغراضِه، وظواهِرِه الفَنّيَّةِ شَكْلًا (بِناءً) ومضمونًا (مَعْنًى)، ورصدِ ما جَدَّ فيه، والنّظرِ إلى ما وَرِثَهُ المتأَخِّرون من الأدباء عن المُتَقدِّمين.

و**(تاريخ الأدب الْجَاهليّ)** يُدْرَسُ فيه ذلكَ في العَصْرِ الجاهِليّ، وهو أقدَمُ عصورِ الأدبِ العَرَبِيّ المَعْروفة، وذلكَ نحوَ مئةٍ وخمسينَ إلى مئَتَيْنِ وخمسينَ عامًا قبلَ الإسلام؛ أمّا ما قبلَ ذلكَ من الأدَبِ فلم يَصِلْ إلَيْنا منهُ شيءٌ بالعَرَبيَّةِ الفُصْحى يُوثَقُ به إلّا النَّزْرُ اليَسِير؛ ثُمَّ يُدْرَسُ تاريخ الأدب في صَدْرِ الإسلام، فالعصرِ الأُمويِّ فالعصْرِ العبّاسيِّ، وهلُمَّ جَرًّا إلى عَصْرِنا هذا، ثمَّ يَدْرُسُ النّاسُ بعدَنا تاريخِ الأدَبِ الَّذي تُنتِجُه أجيالُنا والأَجيالُ القادِمة.

إذًا ينْبَغِي أنْ يَدْرُسَ الطّالِبُ في مُقَرَّرِ (الأَدَبِ الجاهِلِيِّ) ما يَجْعَلُهُ مُطَّلِعًا على أحوالِ الأُدَباءِ العَرَبِ وأَدَبِهم في العَصْرِ الجاهليّ؛ وهذا يَعْنِي الاطِّلاعَ على ما يأتِي:

أَوَّلًا - البيئات الّتي نَشَأَ فيها الأدَبُ الجاهليّ:

١- الزَّمان (العَصْر): وهو نحو مئةٍ وخمسين إلى مئتَيْنِ وخمسينَ سنةً قبل الإسلام.

٢- المكان (بلاد العرَب): أقسام بلاد العرب، وحَواضِرهم، وبواديهم، وصحاراهم؛ وما فيها من مِياهٍ وحيوانٍ ونَباتٍ ومعادِن.

٣- الإنسان (العَرَب): أَصْلُ العرَب (البائدة والباقية) و(العارِبة والمُسْتَعْرِبة)، وأنسابُهم وتقسيماتُها؛ **ومَنْ دَخَلَ بلادَ العربِ من غيرِهم:** العَبِيدُ مِن الزّنجِ وغيرِهم، واليهود، والرُّوم، والفُرْس، والأحباش.

٤- الحياة (المَعِيشة):

أ- المجتمع: الحَضَرُ والبَدْوُ.

ب- السّياسة:

- الممالك (في اليمن: معين وسبأ وحِمْيَر وكندة؛ وفي الشّام: تدمر، والضّجاعِمة السَّلِيحِيّون، والغسّانِيُّون؛ وفي العِراق: الحَضْرُ، والحِيرة).
- القبائل.
- الأحلاف.
- الحُروب.
- علاقاتُهم بسائر الأمم من الرّوم والفرس والأحباش والهنود: اقتصاديًّا وسياسيًّا.

ج- الاقتصاد:

١. التّجارة.

٢. الزّراعة.

٣. تربية الحيوان.

٤. الصّناعة والمِهَن.

د- الثّقافة:

١. اللّغة والكتابة والقراءة.

٢. العلوم: العِمارة، والطِّبّ، والبَيْطَرة، والفلَك والأنواء ... إلخ.

٣. الأديان والعقائد: الحَنيفيّة، الإشراكُ بالله، والنّصْرانيّة، واليَهُوديّة ...

- الفنون: الغناء، والعَزفُ، والرَّقْص، والنَّحْتُ، والرَّسْمُ ...
- الأدب: الشّعر، والنَّثْر، والنّقدُ.

ثانيًا- قضايا توثيق الأدب الجاهليّ، وأهمُّ مصادرِه:

١- قضايا توثيق الأدب الجاهليّ:

أ- الكتابة وأثرها في حفظِ الشّعر في الجاهليّة.

ب- الرِّواية.

ج- التّدوين.

د- النَّحْل.

هـ- الاضطِراب في نسبة الأدب.

و- الضّياع.

٢- أهمّ مصادر الشّعر الجاهليّ:

أ- دواوين الشّعراء.

ب- دواوين القبائل.

ج- الاختيارات الشّعريّة وشروحُها.

د- كتب تراجم الشّعراء والأعلام.

هـ- كتب الأدب العامّة.

و- كتب التّاريخ والجغرافية.

ز- كتب اللّغة والنّحو وسائر علوم العربيّة.

ثالثًا- أعلام الشُّعراء الجاهليّين وتصنيفهم:

أ- فحولُ الشّعراء.

ب- الشّعراء الفرسان.

ج- الشّعراء الصّعاليك.

د- الشّعراء الـحُنَفاء.

هـ- شعراء أهل الكتاب.

و- شعراء القُرى ... إلخ.

رابعًا- أغراضُ أشعارهم، ودوافعها، ومعانيها:

- الحماسة، والفخر، والرّثاء، والمدح، والهجاء، والغزل، والوصف، والحكمة والاعتبار.

خامسًا- الظّواهر الفنيّة في أشعارهم:

١- الظّواهر الشّكليّة:

أ- مناهج بناء الشّعر: التّقليديّ، وغير التّقليديّ، والمُقَطَّعات.

ب- موسيقى شعرهم: بحور الشّعر وتنوّعها وأكثرها استعمالًا وما يعتريها، وقوافي الشّعر وأكثرها استعمالًا وما يعتريها، والمُحَسِّنات اللّفظيّة (التّصريع، والجناس، والتّصدير، والتّرصيع، والمماثلة، والموازنة ...).

ج- لغة الشّعر: غرابة الألفاظ، وأثر اللّهَجات، وأوجُه تَصَرُّفِهم في اللّغة لِضَرورةِ الشِّعر (صرف ما لا ينصرف، ومنع المصروف من الصَّرْف، وتسكين المتحرّك، وتحريك السّاكن، وقَصْر الممدود، ومدّ المقصور، وتسهيل المهموز، والحذف، والتّصرُّف في الأسماء ...).

٢- الظَّواهر المعنويّة:

١. وضُوح المعاني وبُعدُها عن التّعقيد والتّكلُّف، وأسباب الغموض أحيانًا.

ب- الأساليب: الخبَر وأنواعُه، والإنشاء وأنواعُه.

ج- الصُّوَرُ البَيانيّة لإبرازِ المعاني وتوضيحها (التّشبيه، والاستعارة، والكناية)، وأركان التَّصْوير الفَنِّيّ (الزّمان، والمكان، والألوان، والحركة، والدّقائق المُوحِية ...).

د - المُحَسِّنات المعنويّة (براعة الابتداء، وحُسْنُ التّخلُّص، والطِّباق، والمقابَلة، والتّكرار، براعة الانتهاء،...).

هـ – مصادِر معانيهم: أشعار الشّعراء السّابقين، وتجارب الشّعراءِ أنفُسِهم، والمعتقدات والأعراف، والأمثال الشّائعة، وأخبار الأمم السّالفة وتجاربها.

و – صيرورة أشعارهم أمثالًا ومصادرَ لأشعارِ مَنْ بَعْدَهم.

سادسًا– النّثر الجاهليّ: فنونُه وأعلامُه وأمثلته وظواهره الفنيّة.

١. الخَطابة.

٢. سَجْعُ الكهّان.

٣. الوصايا.

٤. الأمثال والحِكَم.

٥. القِصَص.

هذا ما ينبغي أن يطّلِع عليه الطّالب ليكون قد عرفَ تاريخَ الأدبِ العربيّ في العصر الجاهليّ، غير أنّ وقتَ العام الدّراسيّ لا يُسعِفُ على ذلك كلّه، ولهذا يُضْطَرُّ المُعَلِّمُونَ إلى الاكتفاء بالوقوفِ عندَ جَوانبَ ممّا سبق؛ ويبقى على الطّالبِ المُجِدِّ أن يرجعَ إلى كتبِ تاريخ الأدبِ ليستدرِكَ لنفسِه ما لم يقِفْ عليه في أثناء العام الدّراسيّ.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

القسم الأوَّل

قضايا توثِيقِ الأدبِ الجاهِلِيِّ

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

تمهيد في قضايا توثيق الأدب الجاهليّ:

يتناول الحديث في هذا القسم خمسًا من القضايا المتعلّقة بالأدب الجاهليّ، هي: الكتابة، والرّواية، والتّدوين، والنَّحْل، والاضطراب، وهذه القضايا تدخل تحت عنوان واحد هو (التَّوثيق)؛ ولا بُدَّ للباحث والدّارِسِ في الأدب القديم من دراسة هذه القضايا وهو يَبْنِي الأحكامَ عليه، لأنّه لا يَصِحُّ أن يُدْرَسَ شعرُ شاعرٍ أو شعرُ قبيلةٍ أو فَنٌّ مِن فنونِ النَّثْرِ ولا أنْ تُدْرَس ظاهرةٌ من الظّواهر الفنيّة في الأدَبِ أو غَرَضٌ من أغراضِه إلّا إذا كانت الأدلَّةُ والشّواهدُ ممّا يُوثَقُ بأنّه صحيح النّسبة إلى مَن نُسِب إليه، وإلّا فإنّ الأحكامَ الّتي تُطْلَقُ إنّما تكون مبنيَّةً على أساسٍ هَشٍّ يجعلُها أحكامًا ضعيفةً غيرَ مُستقِرَّة.

والدّافِعُ إلى دراسة هذه القضايا هو أنّ الأدبَ الجاهليّ، بل الأدبَ القديمَ عامةً، لِحِقَهُ شَيْءٌ مِنَ الزّيادة عليه، وشيءٌ من الاختلاف في نسبةِ بعضِه، لأسباب سيكون لها حديثٌ فيما بعدُ، فذهبَ بعضُ المُغْرَمِينَ بالشّكِّ إلى الشّكِّ في صِحَّةِ الأدبِ الجاهليّ جُملةً واحدة! فزَعَمُوا أنّه لم تكن هناك وسيلةٌ لِنَقْلِه إلى العصور التّالية إلّا الحفظُ والرِّواية، وأنّ هذه الوسيلةَ عاجزةٌ عن حَمْلِ هذا الأدب مئةً وخمسين سنة أو أكثرَ قبلَ الإسلام، ثُمَّ مئةً وخمسين سنةً أُخرى أو أكثرَ بعدَه، حتَّى كان عصرُ التَّدوين.

ولذلك سيتناولُ هذا القِسمُ أوّلًا قضيَّةَ (**الكتابة**)، ويُجيبُ عن أسئلةٍ عدَّة: أَعَرَفَ أهل الجاهليّة الكتابة أم لم يعرفوها؟ وإذا كانوا قد عَرَفُوها فهَل مِن دليلٍ؟ ثُمَّ هل للكتابة في الجاهليّة أثرٌ في حِفْظِ الأدب الجاهليِّ؟ وما مِقْدَارُ هذا الأثر؟

ثمّ سيتناولُ (**الرِّوايةَ**) الّتي هِيَ الوسيلةُ الرئيسيّة في تداوُلِهِ بين العرب، في الجاهليّة، وصَدْرِ الإسلام، وعصر بَنِي أُمَيَّةَ، وعصرِ بَنِي العَبّاس؛ فإذا ظَهَرَ أنّها كانت قادرةً على حفظِ ما حَفِظَتْ من هذا الأدَب أُلْقِيَ بِشَكٍّ المُشَكِّكِينَ خَلْفَ الظُّهورِ، وإذا تَبَيَّنَ أنّها غيرُ قادِرَةٍ كانَ الأَوْلَى التَّسْلِيم لهم بما يقولونَ.

ثـمّ يقِـفُ الحـديثُ عنـد (**التَّـدوينِ**) ليُجِيـبَ عـن أسـئلَةٍ عـدّة: مَتـى بـدأَ تـدوينُ الأدب الجاهليّ؟ وكيفَ كانَ ذلك؟ ومَتى دُوِّنَتْ دَواوِينُ الشّعراء ودواوينُ القبائل؟ ومَنِ الَّذينَ دَوَّنُـوا؟ وما أهمُّ الـمُدَوَّناتِ القديمةِ الّتي وصلَتْ إلينا؟

وينتقلُ الحديثُ بعـد ذلـك إلى ظـاهرةِ (**النَّحْـلِ**): فـمَا هـذه الظّـاهرة؟ وهـل تنبَّـه القُـدَماءُ عليها؟ وعند مَـنْ نجِـدُها؟ ومَـنِ الَّـذينَ شـارَكُوا فيهـا؟ ومـا الأسـباب الّتـي دَعَـتْهُمْ إليهـا؟ ومـا السّبيلُ إلى كشف الأدبِ الـموضُوع الـمَنْحُول الـمَكْذُوب؟ وما موقفُ الـمُتأخّرِينَ أَمامَها؟

ويَنْتَهِي هذا القِسْمُ بتَناوُلِ ظاهرةِ (**الاضْطِرابَ**) في نسبةِ الأَدَبِ الجاهليّ: ما هذهِ الظّـاهرة ؟ ولِـمَ تَقَعُ ؟ وهل مِن سبِيلٍ إلى معرفةِ صاحبِ الشّعرِ أو النّثر الـمنسوبِ إلى غَيْرِ ما واجِدٍ؟

فهذه القضايا يتعرَّضُ لها دارسُ الأدب القديم، ولا سِيَّما الجاهليّ؛ وستظهَرُ الإجابة عـن أسئِلَتِها فيما يأتي مـن هـذا القِسْـمِ الَّـذي كـان مِـن أهـمِّ مصـادرِه الـ**مُحاضَرات الّتي كـان يُلْقِيهـا الأستاذ الدّكتور عبدُ الحفيظِ السّـطلي** في جامعـة دمشـق، وهـي العِـمَادُ، وكتـاب (**مَصـادِر الشِّـعْرِ الجـاهليِّ وقيمَتُهـا التّاريخِيّـة**) للأسـتاذ الـدّكتور نـاصر الـدّين الأسـد، وكتـاب (**العصر الجـاهليّ**) للدّكتور شوقي ضيف، وكتاب (**قضايا الأدب الجـاهليّ**) للـدّكتور عـليّ العتـوم، وغـير ذلـك مـن الـمَصادِرِ والـمَراجِعِ.

أولًا: الكتابةُ
وأَثَرُها في حفظ الشّعر في الجاهليّة

مَنْ يَقرأْ في بعض الكتب المتقدِّمة أو المتأخِّرة يَجِدْ أصحابها يصفون العربَ بأنّهم أمّةٌ لا تقرأُ ولا تكتبُ بحُجَجٍ وشُبَهٍ واهيةٍ لعلَّ أهمَّها: أنَّهم كانوا في (**جاهليَّة**) مِنَ الْجَهْلِ الَّذي هو خِلافُ العِلْم، وكانوا (**وثنيِّين**) ليسَ لدَيْهِم كتابٌ مُقدَّس، وكانوا (**بُدَاةً**) والبَداوةُ لا تَسْمَحُ بالاستقرارِ وإنشاءِ الحَضارَة، وكانوا (**محصورِينَ في جزيرتِهم**) لا يتَّصِلُونَ بالأُمَمِ المتحضِّرة فيتعَلَّمُونَ منها، وأنَّهم وُصِفوا في القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريفِ بأنَّهم (**أُمِّيُّون**) والأمِّيَّةُ هي الْجَهلُ بالكتابةِ والقراءة.

ولا حاجةَ إلى التّفصيل في ردِّ هذه الشُّبَهِ؛ لأنَّها تَدُلُّ على قلَّةِ معرفةٍ بأحوالِ حياةِ العربِ في الْجَاهليَّة وبأصول اشتقاقِ (الجاهليّة) و(الأمِّيَّة)؛ ويكفي للرَّدِّ الوقوفُ على:

الأدلَّة الّتي تؤكِّد أنَّ الكتابة كانت منتشرةً عندَهمُ انتشارًا لا شَكَّ فيه، وأنَّه كان انتشارًا مُتفاوِتًا بين بيئةٍ وأُخْرى؛ ومِن تِلْكَ الأدلّة:

١- النُّقوش:

وهي الكتاباتُ الّتي تركَها العربُ الأقدمون على الحجارة ونحوِها، وتؤكِّد هذه النُّقوش أنّهم قد عرفوا الخطَّ منذ أقدم عصورهم، وأنّهم في القرون الأخيرةِ بدؤوا يُوجِدُون صِلاتٍ بين حروف خَطِّهم بعدما كان بِحُرُوفٍ مقطَّعة، حتّى إذا كانت أواخرُ العصر الجاهليِّ صار ناضجًا على النّحو الَّذي نعرفه اليوم؛ وهي نقوشٌ تُذكَرُ فيها أسماءُ أعلامٍ عربيَّةٍ من النّاسِ والقبائلِ والبلدان، مثلِ: جَذِيمةَ الأَبرشِ، وامرِئِ القَيْسِ بنِ عَمْرٍو ملِكِ الحِيرة، ونِزار، أسد، ونَجْرانَ.

٢- الازدهار التّجاريُّ في مكّةَ وغيرِها:

فقد عُرِفَت أسواقٌ عدّةٌ في بلاد العرب كانت تشهد نشاطًا على مَدار السَّنَة، وتبلغ ذروتها أيّامَ الحجِّ، وتشارك فيها قوافل من خارج بلاد العرب؛ ومن أنشطِ التُّجّار تُجّارُ قُرَيْش، وكان قُرْبَ مكّةَ أسواقٌ عدَّةٌ كـ (ذِي المَجَازِ وعُكَاظ)، وذكرَ اللهُ تَعالى ما كان مِن نِشاطهم في قولِه:

﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ**﴾، وذكرَ اللُّغَوِيُّون والمفسِّرون والمؤرِّخون أنَّ أصحابَ الإيلافِ هم: هاشِمٌ وعبدُ شَمْسٍ ونَوْفَلٌ والمُطَّلِبُ بَنُو عبدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بنِ كِلابٍ، وقد أخذ كلُّ واحدٍ منهم حَبْلًا -أَيْ مِيثاقًا- مِن أحدِ ملوكِ الممالكِ في ذلك الزَّمَن، فكان تُجَّارُ قريشٍ يدخلون بلادِ الرُّومِ والفُرْسِ والحَبَشَةِ واليَمَنِ فلا يتعرَّضُ لهم أحد؛ ولا بُدَّ لهذه التِّجارة الواسعة مِن وسيلةٍ لضبطِ أمورِها، وتلك الوسيلةُ هيَ الكتابة.

٣- الأخبار الموثَّقة:

وهي مجموعة من الأخبار الّتي رواها الثِّقات من العلماء، وبلغ بعضُها من الشُّهرةِ ما لا يستطيع أحدٌ إنكارَه، ومن ذلك: **خبرُ صحيفةِ المُتَلَمِّسِ وصحيفةِ طَرَفَةَ بنِ العَبْدِ،** وفي الخبر أنّ غُلامًا مِن أهل الحيرة قرأ للمتلمّس صحيفتَه فنَجا مِنَ القتل، وركِبَ طرفةُ رأسَه فكان سببَ هلاكِه.

ولا يقلُّ عنه شهرةً خبرُ **صحيفةِ مُشْرِكي مكَّةَ** في مقاطعةِ المسلمين، وقد علَّقُوها في جَوْفِ الكعبةِ توكيدًا لأَمْرِها.

وكذلك **الكتبُ الّتي أرسلها النّبيُّ عليه الصّلاة والسّلام إلى الملوك ورؤساء القبائل والأفراد،** وقد كتبَها عددٌ من الصّحابة الَّذين تعلّموا الكتابةَ في الجاهليّة.

و**خبرُ أَسْرَى يَوْمِ بَدْرٍ** الَّذين عجَزوا عن دفعِ الفِداء، فكان فداءُ أحدهم تعليمَ عشَرةٍ من أبناء الصّحابة الكتابةَ والقراءة.

بل إنّ بعضَ الأخبار تؤكّد **معرفةَ عددٍ من الجاهليّين لغاتٍ أُخرى** كالسّريانيّة والعبرانية والفارسيّة، ومنهم ورَقَةُ بنُ نَوْفَلٍ القُرَشيُّ، وأُميَّةُ بنُ أَبي الصَّلْتِ الثَّقَفِيُّ، وعَدِيُّ بنُ زَيْدٍ العِبَاديُّ الحِيرِيُّ وكانَ تَرْجُمانًا لكِسْرَى، ولَقِيطُ بنُ يَعْمُر الإياديُّ وكانَ ترجمانًا لكِسْرَى آخَرَ أيضًا.

٤- الإشارات في الشِّعر الجاهليِّ إلى الكتابة وأدواتها:

تكثُرُ الإشارات في الشّعر الجاهليّ إلى الكتابة وأدواتها، ولا سيّما حين يقفون على آثار الدّيار ويصفونها، إذ يشبِّهونها بالكتابة على الصّخر أو الأَديمِ أو الرَّقِّ أو الصَّحيفة، وأوصافُ

هذه الكتابة تدلُّ على تمييزهم بين أشكالها، ويذكرون في أثناء ذلك أدواتِ الكتابة؛ ومن هذه الإشارات قولُ المُرَقِّشِ الأكبرِ البَكْرِيّ:

الـــدَّارُ قَفْـــرٌ والرُّســـومُ كـــما رَقَّـــشَ في ظَهْـــرِ الأَدِيـــمِ قَلَـــمْ

وقولُ سَلَامَةَ بنِ جَنْدَلٍ التَّمِيمِيّ:

لِـــمَنْ طَلَـــلٌ مِثْـــلُ الكتـــابِ الـــمُنَمَّقِ خَـــلا عَهْـــدُهُ بَـــيْنَ الصُّـــلَيْبِ فمُطْـــرِقِ

وقولُ حاتِمٍ الطّائيِّ:

أَتَعْـــرِفُ أَطْـــلالًا ونُؤْيًـــا مُهَـــدَّما كَخَطِّـــكَ في رَقٍّ كِتابًـــا مُنَمْنَمَـــا

وغيرُ ذلك كثيرٌ في المقدِّمات الطَّلَلِيّة؛ ولو أنّ الشّاعر لم يرَ الكتابةَ وأدواتِها لَما شَبَّهَ آثارَ الدّيار بها.

وما سبقَ يؤكِّدُ أنَّ الكتابةَ كانت منتشرة في جميعِ البيئاتِ العربيّة.

أثرُ الكتابة في حفظ الشّعر في الجاهليّة:

إذا كانت الكتابة في ذلك العصر منتشرة في بيئات مختلفة، فهل مِن دليلٍ على أنّ لها أثرًا في حفظِ شيء من الشّعرِ الجاهليّ؟

إنّ الباحث عن جواب هذا السّؤال يجد أربعة أدلّة تؤكّد أنّه كان لها أثرٌ قَلَّ أو كَثُرَ، وهي:

١- **وجود الكتابة**: إذا كانت الأدلّة أثبتَتِ انتشار الكتابة لدى العرب الجاهليِّين، وأنّهم كتبوا أمورًا تتعلَّق بحياتهم العامّة كالأحلاف والرّسائل والتّجارة وغيرِها، فإنّ الشّعر كان عندهم في مكان عالٍ، ولذلك مِنَ المُتَوَقَّعِ أنَّ بعضَهم على الأقلِّ كتب شيئًا منه.

٢- **معرفة عدد من الشّعراء للكتابة**: فقد عُرِفَ عن عدد من شعراء الجاهليّة أنّهم يقرؤون ويكتبون، أمثال: لَقِيطِ بنِ يَعْمُر، وعَدِيِّ بن زيدٍ، أُميّةَ بنِ أَبي الصَّلْتِ، وورقةَ بن نَوفل، والرَّبيعِ بن زيادٍ العبسيّ، والنّابغةِ الذُّبيانيّ، والمُرَقِّشِ الأكبر؛ وهذا يقْتَضِي أنَّ بعضَهم كتب شيئًا من شعره قليلًا كان أو كثيرًا.

٣- أخبار الشّعراء: وهي أخبار ليست بالقليلة، كتبَ فيها هذا الشّاعر أو ذاك أبياتًا أو قصيدةً قد تطول في أمرٍ ما طارىءٍ؛ فمن ذلك:

أنّ **لَقِيطَ بنَ يَعْمُرَ الإياديَّ** كان ترجمانًا لكسرى فعلم أنّه يريد غزوَ قومه، فكتب إليهم في صحيفةٍ مُقَطَّعةً وقصيدةً، فبدأ بالمقدِّمة قائلًا:

سلامٌ في الصّحيفةِ مِن لَقِيطٍ إلى مَنْ بالجزيرةِ مِن إيادِ

في أبياتٍ، وأتبعَ بها قصيدةً طويلة مشهورة نصح فيها قومَه بتوحيدِ صفِّهم وبأخذِ حذرهم، وختمها بقولِه:

هذا كِتابي إلَيْكُمْ والنَّذيرُ لكمْ لِمَنْ رأى رأيَهُ مِنكمْ ومَنْ سَمِعا

وأفاقَ أهلُ مكّةَ يومًا فوجدوا على بابِ دارِ النَّدْوة مكتوبًا:

أَلْهَى قُصَيًّا عنِ المَجْدِ الأساطيرُ ورشْوةٌ مثلَما تُرْشَى السَّفاسِيرُ

وأَكْلُها اللَّحْمَ بَحْتًا لا خَلِيطَ لَهُ وقَوْلُها رحَلَتْ عِيرٌ أَتَتْ عِيرُ

ثمَّ علِموا أنّ الكاتبَ هو عبدُ الله بنُ الزِّبَعْرَى السَّهْمِيُّ القرشيّ.

٤- الإشارة إلى تدوين الشِّعر في الجاهليّة: إذا كانت أخبار الشّعراء تدلّ على أنّ قصيدةً أو مُقَطَّعةً قد كتبها هذا الشّاعر أو ذاك، فإنّ مِن الأخبار ما يدلّ على أنّ أشعار الجاهليّين قد كُتِبَتْ في دواوين، وذلك أنّ محمَّدَ بنَ سلَّامٍ وابنَ جِنّي بسنده إلى حمّادٍ الرّاوية يَذْكُرانِ أنَّ **النُّعمانَ بنَ المُنْذِرِ** مَلِكَ الحِيرَةِ أمرَ فدُوِّنَت له في الكراريس: أشعارُ الفحول، ما مُدِحَ بهِ هُو، وما مُدِحَ به أهلُ بيتِه، ووضَعَها في قصره الأَبيض، فلمّا كان العصرُ الأمويّ وخرجَ المُخْتارُ بنُ أَبي عُبَيْدٍ على بني أميّةَ قيلَ له: إنّ تحتَ القصر كَنْزًا، فاحتفَرَه، فوجد تلك الأشعار، ثُمّ آلَتْ إلى بني أميّة بعدَ القضاءِ عليه.

فهذه الأدلّة تؤكّد أنّ الكتابة كان لها أثرٌ ما في حفظ الشّعر الجاهليّ، وصحيحٌ أنّها لا تسمَحُ بالقول: إنّ الكتابة كانت وسيلة أساسيّة لحفظ الشّعر، ولكن يكفي أنّه كان لها أثر،

ووسائلُ حفظ العلوم تختلف بين عصر وعصر، وكان النّاس أيامَ ذاك يعتمدون على الحفظ والرّواية أكثرَ من اعتمادهم على الكتابة؛ فلننظر إذًا في **الرّواية** وتاريخِها وأثرِها في حفظِ الشّعر.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

ثانيًا: الرِّواية

مصطلَح الرواية:

يرجع لفظ الرّواية إلى الأصل اللّغوي (روي)، وهي مادّة يدلّ النّظر إلى ما يُشْتَقُّ منها على أنّها تدلّ على الامتلاء، مثل: ارتَوَى، والرّيّانِ والرَّيّا، وراويَةِ الماء، والرّاويةِ الَّذي يحمِل دِيَاتِ القتلى، وراوية العِلْم؛ وهذا يقتضي أنّ الإنسان لا يُسَمَّى راويةً للشِّعْرِ إلّا إذا كانَ ممتَلِئًا مِن حفظِه.

وسنرصد روايةَ الشّعر من العصر الجاهليّ إلى العصر العباسيّ، لنرى قوّتها واتّصال الاعتماد عليها في حفظ الشعر الجاهليّ وغيره.

1- الرّواية في العصر الجاهليّ:

إنّ رصدَ هذه الوسيلة من وسائل حفظ الشّعر في العصر الجاهليّ يقدِّمُ أدلَّةً تؤكّد انتشارها انتشارًا يمكِّنها مِن نقلِ كثير من الشّعر الجاهليّ إلى صدر الإسلام، **وهذه الأدلة:**

أ- الإشارات في الشّعر الجاهليّ إلى قيمةِ الرّواية: وهذه الإشارات تبيِّنُ أنّ الشّاعر كان على يقين بأنّ الرّواية أفضلُ وسيلة لحفظ شعره ونقله من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان؛ فمن ذلك قول المُسَيَّبِ بنِ عَلَسٍ من قصيدة:

فَلَأُهْدِيَنَّ مَعَ الرِّياحِ قَصِيدَةً ... مِنِّي مُغَلْغَلَةً إِلى القَعْقاعِ

تَرِدُ المِياهَ فَلا تَزالُ غَريبَةً ... في الحَيِّ بَيْنَ تَمَثُّلٍ وسَماعِ

وكذلك قولُ الأَعشى:

اوإِنَّ عِتَاقَ الخَيْلِ سوفَ يَزُورُكُمْ ... اثَناءٌ عَلى أَعْجازِهِنَّ مُعَلَّقُ

ابِهِ تُنْفَضُ الأَحْلاسُ في كُلِّ مَنْزِلٍ ... اوتُعْقَدُ أَطْرافُ الحِبالِ وتُطْلَقُ

وممّا يدلّ على قيمة الرّاوية كَثْرَةُ ما يُسمَّى بالرّسائل الشّعريّة، وهي في الغالب مقطَّعات يبدؤها الشّاعر بعباراتٍ مألوفةٍ لدى الشّعراء القدماء، مثلِ: (فمَن مُبْلِغٌ عَنّي ...) و(فأبلِغْ إنْ عرَضْتَ ...) و(يا راكِبًا إمّا عرَضْتَ فبلِّغَنْ ...)

ومثال ذلك قول زهيرِ بنِ أَبِي سُلْمَى:

فأبلِغْ إنْ عَرَضْتَ بهِ رَسُولًا ... بَني الصَّيْداءِ إنْ نفَعَ الجِوارُ

بأنَّ الشِّعرَ ليسَ لَهُ مَرَدٌّ ... إذا وردَ المِياهَ بهِ التِّجارُ

وقول النّابغة:

أَلِكْني يا عُيَيْنَ إلَيْكَ قولًا ... سَتُهْدِيهِ الرُّواةُ إلَيْكَ عَنِّي

قوافيَ كالسِّلامِ إذا استمَرَّتْ ... فليسَ يَرُدُّ مَذْهَبَها التَّظَنِّي

فهذه الأشعار والرّسائل يؤكّد أصحابُها أنّها تنتقل من قوم إلى قوم ويتمثّل بها النّاس من الرُّواةُ والتّجار والمقيمين والظّاعنين على كلِّ حالٍ مِن أحوالهم، وهذا يؤدِّي إلى انتشارها.

ب- تعلُّمُ بعض الشّعراء مِن بعض: وذلك أنّ الشّاعر المبتدئَ مَثَلُه مَثَلُ كلِّ صاحب صَنْعَةٍ، يحتاج إلى أن يتدرَّب على يدِ شاعرٍ فحلٍ، أو أن يأخذ أصولَ فنّ الشّعر وأدواتِه عن شاعرٍ متقدِّم شُهِدَ له بالفحولة، ويكون ذلك بأن يحفظ شعرَهُ ويُرَدِّدَهُ ويرويَهُ في المجالس ليتمثَّلَ لغتَهُ وأساليبَه الفنّيّة، وهذا التّعَلُّمُ إمّا أن يقوم على أساس القَرابة، وإمّا على أساس الصّلة القبليّة، أو على أساسٍ مِن الإعجاب الفنّيّ.

فمثال التعلُّمِ المَبنيِّ على أساس القَرابة: أنّ الأعشى كان راويةَ خالِه المسيَّبِ بن عَلَسٍ، وأنّ طَرَفَةَ بن العبد كان راويةَ عمِّه المرقِّشِ الأصغر، والمرقّش الأصغر كان راويةً لعمِّه المرقِّش الأكبر، وكَعْب بن زهيرٍ كان راويةَ أَبيه زهيرٍ، وكان زهيرٌ راويةً لخالِ أبيهِ بَشَامَةَ بنِ الغَدِير وزَوْجِ أُمِّه أَوْسِ بنِ حَجَرٍ؛ **ومثال التعلُّمِ المبنيِّ على الصِّلة القبليّة:** أنّ أبا ذُؤَيْبٍ الهُذَلِيَّ كان راويةً لشعرِ ساعدةَ بن جُؤَيَّةَ الهُذَلِيّ؛ **ومثال التعلُّمِ المبنيِّ على الإعجاب الفنّيّ:** أنّ الحُطَيْئَةَ

العَبْسِيَّ كان راويةَ زهير بن أبي سُلمى المُزَنِيِّ وولَدِهِ كعبِ بن زهير؛ ورِوايَةُ هؤلاء المتأخِّرين لأشعار معلِّميهم السابِقِينَ تؤدِّي إلى نشرها في عصرهم ونقلِها إلى العصور الآتية.

ج- قبيلة الشّاعر وأسرته:

عند النّظر في أخبار الشّعراء نجد ما يدلّ على أنّ أُسَرَهم كانت حريصة على رواية أشعارهم لأسباب قبليّة أو عاطفيّة؛ لأنّ هذا الشّعر يحتوي مفاخر القبيلة ومآثرها، والمطاعن على أعدائها، إلى جانب ما يحتويه من حكمةٍ ومعانٍ وفنٍّ مُعجِب.

فمن ذلك: ما رواه الإمام عبد الغنيِّ المقدسيّ في (أحاديثِ الشِّعر) بسنده إلى يزيدَ بنِ عَمْرِو بنِ مُسْلِمٍ الخُزاعيِّ قال: حدَّثني أبي عن أبيه قال: كنت عند النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم فأنشدتُه قولَ سُوَيْدِ بن عامرٍ المُصْطَلِقِيِّ:

لا تـــأْمَنَنَّ وإنْ أمسَـــيْتَ في حَـــرَمٍ ... إنَّ الـــمنايا بِجَنْبَـــيْ كُـــلِّ إِنْســـانِ

وهي أبيات؛ وبنو المُصْطلِق قومُ الشّاعِرِ بطنٌ مِن خُزاعةَ قَوْمِ الرّاوية.

ومنه أنّ بني تَغْلِبَ كانوا يعظِّمون قصيدةَ عَمْرو بن كُلثوم (أَلا هُبِّي بِصَحْنِكِ ...)، وكان يرويها صغارُهم وكبارُهم، حتى هجاهم بعضُ الشُّعراء، فقال:

أَلْـــهَى بَنِـــي تَغْلِـــبٍ عـــن كـــلِّ مَكْرُمَـــةٍ ... قَصـــيدةٌ قالَـــها عَمْـــرُو بـــنُ كُلْثُـــومِ

يَرْوُونَهـــا أَبَـــدًا مُـــذْ كـــانَ أَوَّلُهُـــمْ ... يـــا لَلرِّجـــالِ لِشِـــعْرٍ غَـــيْرِ مَسْـــؤُومِ

يعني: أنهم لا يملّون روايتَها.

ومنه أنّ الفارعةَ بنتَ أبي الصَّلْتِ قدِمَت على النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام بعد إسلامِها فسألها: هل تحفظين مِن شعرِ أخيكِ شيئًا؟ قالت: نعم؛ وفي الخبر أنّها أنشدَتْهُ قولَ أخِيها:

كـــلُّ عَـــيْشٍ وإِنْ تَطـــاوَلَ دَهْـــرًا ... صـــــائِرٌ مـــــرَّةً إِلى أَنْ يَـــــزُولا

لَيْتَنِـــي كنـــتُ قَبْـــلَ مـــا قـــد بَـــدا لي ... في رُؤوسِ الجِبـــالِ أَرْعَـــى الوُعُـــولا

وأنشَدَتْهُ غيرَ ذلك مِن شعره، وحدَّثَتْهُ عن خبرِ وفاتِه.

د- القبائل الأُخرى:

للقبائل الأخرى دواعٍ تجعلها تحفظ أشعار مَن لم يكن منها، إمّا لأنّه مدح أحدَ أبنائها أو رثاه أو هجا أعداءَها، وإمّا لأنّ الشّعر نفسَه يستحقّ الحفظَ كالمعلَّقات وغيرِها من القصائد المشهورات.

ومن ذلك: أنّ خالد بنَ جعفرٍ الكِلابِيَّ العامريَّ قتلَ زهيرَ بن جَذيمةَ العبسيَّ- (سيّدَ بني عبس) في أحد الأيام، فخرج ولَدُهُ قيسُ بن زهيرٍ ليشتريَ سلاحًا من يَثْرِبَ، وسيّدُها يومَئذٍ صديقُه أبو عَمرٍو أُحَيحَةُ بنُ الجُلَاحِ، فأرادَ شراءَ السّلاح منه فأَبَى، فسألَه عن السّبب فقال: إنّ خالدَ بن جعفرٍ هو الَّذي يقول:

إذا مـــا أَرَدْتَ العِـــزَّ في دارِ يَثْـــرِبٍ فنـــادِ بصـــوتٍ: (يـــا أُحَيْحَـــةُ) تُمْنَـــعِ

رأَينـــا أبـــا عَـــمْرٍو أُحَـــيْحَةَ جـــارُهُ يَبِيـــتُ قَريـــرَ العَـــيْنِ غـــيرَ مُـــرَوَّعِ

فعذَرَهُ قيسُ بنُ زهير.

ومثالٌ ثانٍ: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبا بكرٍ رضي الله عنه كانا واقفَيْنِ أمامَ بابِ بَنِي شَيْبَةَ أحَدِ أَبْوابِ المسجِدِ الحَرام، فمرّ رجلٌ يُنشدُ:

يـــا أَيُّهـــا الرَّجُـــلُ الـــمُحَوِّلُ رَحْلَـــهُ هَـــلّا نَزَلْـــتَ بـــآلِ عَـــبْدِ الـــدَّارِ

هَبِلَتْـــكَ أُمُّـــكَ لَـــوْ نَزَلْـــتَ بِـــرَحْلِهِمْ مَنَعُـــوكَ مِـــن عُـــدْمٍ ومِـــن إِقْتـــارِ

فالتفَتَ النّبيّ إلى أبي بكر وقال: أهكذا قال الشّاعر؟ قال: لا، والَّذي بعثك بالحقّ! ولكنّه قال:

يـــا أَيُّهـــا الرَّجُـــلُ الـــمُحَوِّلُ رَحْلَـــهُ هَـــلّا نَزَلْـــتَ بـــآلِ عَبْـــدِ مَنـــافِ

وأنشد أبياتًا من القصيدة، وهي في رثاءِ عبدِ المطّلب جدِّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومَدْحِ بني عبدِ مَنافٍ.

فهذا الَّذي مرّ يؤكّد أنّ العرب في الجاهليّة كانت تَعْرِفُ قيمةَ الرّواية وتُولِيها الاهتمامَ الكبير، وشارك فيها الشّعراء والقبائل والتّجّار وغيرُهم، وهذا يؤهِّلُها لأن تحملَ قدرًا ليس بالقليل من الشّعر الْجَاهليّ إلى صدر الإسلام.

فهل بقيَت الرّواية في صدر الإسلام على حالها مثلما هي في العصر الجاهليّ أو زادت قوّةً أو ضعُفَت؟

٣-الرّواية في صدر الإسلام:

قد يُظَنّ أنّ الإسلامَ عندما جاء بقِيَمِه الجديدة أراد أن يقضيَ على كلِّ ما كان معروفًا لدى الجاهليّين ومنه الشّعر، غَيْرَ أنّ الإسلامَ ليسَ كالثّوراتِ الهائجةِ ولا الانقلاباتِ الهَدّامَةِ الّتي تحاوِلُ مَحْوَ آثارِ كُلِّ ما سَبَقَها، فهو لم يأتِ ليقضيَ على كلِّ ما كان في عصرِ الجاهليّة، إذْ كان فيه مِن مَكارِمِ الأخلاق وأعمالِ الخَيْرِ والمَآثِرِ ما مدَحَهُ النّبي عليه الصّلاة والسّلام، والشِّعرُ كثيرًا ما يتضمّن الحضّ على مكارمِ الأخلاقِ وأعمالِ الخَيْر؛ وينبغي ألَّا يُفهَمَ مِن بعض الآياتِ الكريمةِ والأحاديثِ الشّريفة أنّ الإسلامَ قد نَبَذَ الشّعرَ ونَفَّرَ منه، فإنّ العلماءَ أكّدوا أنّ ذلك لم يَكُن، وأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقف من الشّعر مَوْقِفًا حسنًا، وتؤكّد ذلك سُنَّتُه وسِيرَتُه، فقد حَضّ شعراءَ المسلمين على الرَّدّ على شُعَراءِ المشركين ومواجهتِهِمْ في قوله: «**اهْجُوا المُشْرِكينَ فإنّه أَشَدُّ عليهم مِن رَشْقِ النَّبْلِ**»، فرأى أنّ الشّعر سلاحٌ أَمْضى منَ السّلاح المعروف، والَّذي يُهِمُّنا الآن هو موقف الإسلام من روايةِ الشّعر الجاهليّ خاصَّةً، ولذلك سنقف أوّلًا على **روايتِه في عَهْدِ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ عهد الخلفاء الرّاشدين.**

رواية الشعر الْجاهِلِيّ في عهد النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم:

لا بُدَّ مِنَ الإشارةِ إلى أنّ **ما كانَ في الْجاهِلِيّة من الإشارة إلى قيمة الرّواية وتعلُّم الشّعراء المبتَدِئين على السّابقين واهتمام أُسَرِ الشّعراء وقبائلِهِم والقبائلِ الأُخْرى بَقِيَ على حالِهِ في صَدْرِ الإسلامِ وما تلاهُ مِنَ العُصُور**، وفَوْقَ ذلك هناك أدلّة تؤكّد أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقف من الشّعر الْجاهِلِيّ موقفًا حَسَنًا، وهذه الأدلة هي:

أ- أنّه لم يَنْهَ عن رواية شيءٍ من الشّعر الْـجاهِلِيّ إلّا بِضْعَ قصائد، فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «**رخَّصَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم في شعر الْـجاهِلِيّة، إلّا قصيدةَ أُمَيّة بن أبي الصَّلْتِ في أهلِ بدرٍ، وقصيدةَ الأعشى في علقمةَ بنِ عُلَاثَة**»، وهناك قصيدةٌ أُخرى للأَفْوَهِ الأَوْدِيِّ فيها نَيْلٌ مِن إسماعيلَ عليهِ السّلام وأشياءُ أُخْرى ذُكِرَ أنّه نهى عن رِوايَتِها، ولكنّ هذه القصائدَ الثّلاثَ وصلَت إلينا، لأنّ المسلمين قد علموا أنّ النّهي إنّما كان خَشْيَةَ أنْ تقعَ فِتنةٌ بينَ المسلمينَ أو لأسبابٍ أُخْرى، ولَـمّا زالت أسبابُ الخشية واستتَبَّتْ دولةُ الإسلام عادَ النّاس إلى روايتِها.

ب- وأنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يتمثّلُ بالشّعر الْـجاهِلِيّ، فمن ذلك: أنّه كانَ إذا أبطأَ عليه خبرٌ ما يتمثّل بقولِ طرفةَ بن العبد: (**ويَأتيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوِّدِ**)، وقال يومًا: «**ما قالتِ الشّعراء بيتًا هو أصدقُ مِن قولِهم: (أَلَا كلُّ شيءٍ ما خَلَا اللهَ باطِلُ)**»، وهذا الشّطر لِلَبِيدِ بنِ رَبِيعةَ من قصيدةٍ في رثاءِ النّعمانِ بن المنذِرِ حينَ قتلَه كِسْرَى.

ج- وأنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يطلُب إلى أصحابِه أنْ يُنشِدُوه الشّعرَ الْـجاهِلِيّ خاصّةً، فعن محمّدِ بنِ سَلَمة قال: كنّا عند النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يومًا فقال لحسان بن ثابت: «**أنشِدني قصيدةً مِن شِعر الْـجاهِلِيّة**» فأنشده قصيدةَ الأعشى في هجاء علقمةَ بنِ عُلَاثة، فنهاهُ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن أن ينشدَه إيّاها بعد ذلك المجلس، لأنّ علقمةَ ردّ على أبي سفيانَ بنِ حَرْبٍ في مجلس قَيْصَرَ حين أرادَ النَّيْلَ منَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

د - وإقرارُه صلّى الله عليه وسلّم الصّحابةَ على إنشادِ الشّعر في مجلسه، فقد وصفَ جابرُ بنُ سَمُرَةَ رضي الله عنه مجلسَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فذكَرَ أنّ **الصّحابة كانوا يذكرون في مجلس النّبيّ أمرَ جاهليّتهم وما فيه من أشعارٍ وغيرِها، فيضحكون ويبتسم**؛ وذكر ابنُ عبّاس رضي الله عنهما أنّه **قُرِئ في مجلس النّبيّ قُرْآنٌ وأُنشِدَ شعرٌ، فقيلَ: يا رسولَ الله! أَقُرآن وشعر؟ قال: نعم**.

ففيما سبق من أحاديثَ وأخبارٍ دلالةٌ على أنّ الإسلام لم يُرِدْ طَمْسَ أشعارِ الْجاهِلِيّين لأيِّ سبب، وأنّ الاهتمام برواية الشّعر الْجاهِلِيّ لم ينقطع حتّى في مجلسِ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

رواية الشّعر الْجاهِلِيّ في عهد الخلفاء الرّاشدين:

لم يكن للخلفاء الرّاشدين ولا لسائر الصّحابة أن يقفوا موقفَ المعادي للشّعر بعد الموقفِ الحسن الَّذي وقفه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، إذ كان كثيرٌ منهم شُعَراءَ فُحُولًا أَو يقولونَ الشّعر، ونذكر مثالًا لموقف الخلفاء الرّاشدين موقفَ أبي بكرٍ وعمرَ بنِ الخطّاب، ثُمّ نذكر موقفَ عائشةَ وابنِ عبّاس مثالًا على موقفِ سائرِ الصّحابة.

أ- موقف أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه:

وُصِفَ أبو بكرٍ بأنّه كانَ مِن أعلمِ النّاس بأشعار العرب وأخبارها وأنسابها منذ الْجاهِلِيّة، وقد مرَّ بنا بعضُ الأخبار الّتي أنشد فيها شعرًا جاهليًّا في عهد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأمّا في خلافتِه فنجدُه مثلًا يخاطبُ الأنصارَ ويذكر ما كان لهم مِن فضلٍ على المهاجرين، ثُمّ يتمثّلُ قولَ طُفَيْلٍ الغَنَوِيِّ:

جَزى اللهُ عنّا جَعْفَرًا حينَ أَزْلَقَتْ ... بِنا نَعْلُنا في الواطِئِينَ فَزَلَّتِ
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونا ولو أنّ أُمَّنا ... تُلاقِي الَّذي يَلْقَوْنَ مِنّا لَمَلَّتِ
هُمُ أَسْكَنُونا في ظِلالِ بُيوتِهِمْ ... ظِلالِ بُيوتٍ أَدْفَأَتْ وأَكَنَّتِ

ب - موقف عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه:

كان عمرُ أعلمَ النّاس بالشّعر، وكان **لا يَعْرِضُ له أَمْرٌ إلّا أَنْشَدَ فيه بيتَ شِعر**، وذلك دليل على كثرةِ حفظِه؛ وله معَ هذا أحكام نقديّةٌ لَمّاحَةٌ، مثلُ **وصفِه زهيرَ بن أبي سُلْمى بأنّه (شاعرُ الشّعراء)، ووصفِه النّابغةَ بأنّه (أشعرُ شعراءِ غَطَفانَ)، ووصفِه امرأَ القيس بأنّه (سابِقُ الشّعراء).**

وإذا تابعنا الأمْرَ في عهد **عثمان وعليّ** رضي الله عنهما وجدنا حالهما ليست بأقلَّ مِن حالِ أبي بكر وعمر.

ج – موقف سائر الصّحابة: ونتبيّنُ ذلك مِن موقف عائشةَ زَوجِ النّبيّ وعَبْدِ الله بنِ العبّاس بنِ عبدِ المُطَّلِب؛ فأمّا **عائشةُ** رضي الله عنها فإنّ عروةَ بن الزُّبَيْرِ وصفَها فقال: «**ما رأيْتُ أحدًا أعلمَ بشعرٍ ولا فريضةٍ ولا أعلمَ بِفِقْهٍ مِن عائشة**»؛ وكانت كثيرةَ التمثُّل بالشّعر، ومن ذلك تمثّلُها بقولِ لَبِيدٍ:

ذهــبَ الَّــذين يُعــاشُ في أكنــافِهِمْ وبَقِيــتُ في خَلَــفٍ كجِلْــدِ الأَجْــرَبِ
يَتَأَكَّلُــونَ مَشِــيحَةً وخِــيانَةً ويُعَــابُ قــائلُهُمْ وإنْ لم يَشْــغَبِ

ثمّ تقولُ: «فكيفَ لو أدرك زمانَنا هذا، **إنّي لَأَرْوِي لَهُ ألفَ بَيْتٍ، وإنّه أقلُّ ما أَرْوِي لغيرِه**».

وأمّا **ابن عبّاس** رضي الله عنهما فكانَ لِسِعَةِ علمِه قد جعل لكلِّ علمٍ يومًا، منها يومٌ للشّعر، ويوم للتّفسير؛ وكان مِن منهجِه في التّفسير اللُّجوءُ إلى الشّعر لفهمِ ألفاظِ القرآنِ الكريم وعباراتِه، وكان يقول: «**إذا قرأ أحدُكم شيئًا منَ القرآنِ فلَمْ يَدْرِ ما تفسيرُه، فلْيَلْتَمِسْهُ في الشّعر، فإنّه ديوانُ العرب**»؛ وطلب إليه عمرُ رضي الله عنه يومًا أن يُنشدَه لزهيرٍ، فأنشدَه ليلةً طويلةً حتى بَرَقَ الفجرُ مِن شعرِ زهيرٍ وحدَه.

٣- الرّواية في العصر الأمويّ:

في العصر الأمويّ أمورٌ تؤكّد أنّ الرّواية بقِيَتْ قويّةً قادرةً على حفظ كثيرٍ مِن الشّعر الْجاهِلِيّ، إذْ جَدَّتْ أمورٌ لم تكن ظاهرةً فيما سلف، إلى جانب ما كان في العصور السّابقة، ومِن هذه الأمور:

أ- تفضيلُ الرّواية على الكتابة في بعضِ البيئات:

فهنالك أخبار ينتقِدُ فيها النّاسُ الشّاعرَ في بعضِ البِيئاتِ إذا كان يُجيدُ الكتابة، منها أنّهم عابُوا على أَبي النَّجمِ العِجْلِيّ قولَه واصفًا نَفْسَهُ وقد شَرِبَ عندَ صديقٍ له اسمُهُ زياد وخرجَ سَكْرانَ:

أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ زِيادٍ كالخَرِفْ
تَخُطُّ رِجْلايَ بِخَطٍّ مُخْتَلِفْ
تُكَتِّبانِي في الطَّرِيقِ لامَ الِفْ

فقالوا: لولا أنّه يكتُبُ ما عَرَفَ صورةَ (لام ألف).

وكان ذُو الرُّمّةِ يقرأُ ويكتُبُ ويكتُمُ ذلك، فقد قالَ لِعِيسى بنِ عُمَرَ يومًا -وعيسى أحدُ رُواةِ الشّعر وقُرّاءِ القرآنِ الكريم-: **ارْفَعْ** هذا الحَرْفَ؛ فقال له: أتكتُب؟ فوضعَ يدَهُ على فَمِ عِيسى، وقالَ: **أُكْتُمْ عَلَيّ فإنَّهُ عَيْبٌ عندَنا**.

وهؤلاء النّاس الَّذين كانُوا في بعضِ البِيئاتِ ينتقدونَ الشّاعر إذا كان كاتبًا إنّما يريدون أن يكون راويةً يحفظ الشّعر لا كاتبًا يدوّنه.

ب - اهتمام الخلفاء والولاة ومَن إليهم بالرِّواية:

فخلفاء العصر الأمويّ ووُلاتُهم عُرِفوا باهتمامهم الشّديدِ بالعلم، وكَثْرَةِ مجالس العلم لَدَيْهم، **وكانوا لِشَغَفِهم بالعلمِ ربَّما اختلَفوا في بيتٍ منَ الشّعر أو خبرٍ فيُرسِلون بريدًا إلى العراقِ ليسألَ علماءَهُ**؛ وكانوا يستقدِمُون العلماءَ إليهم ويكرمونهم ويُثِيبُونهم، فقد طلَبَ عبدُ الملك بن مروان إلى الحَجّاجِ عالمًا بأشعار العرب إلى جانب علمِه بالفقه، فأرسلَ إليه الشَّعْبِيَّ؛ قالَ الشَّعْبِيُّ: «**فلم ألقَ سُوقةً ولا مَلِكًا إلّا وهو يحتاجُ إليَّ ولا أحتاجُ إليه ما خلا عبدَ الملك، ما أنشدتُه شعرًا ولا حدّثته حديثًا إلّا وهو يزيدُني فيه**».

ج- اهتمام الشّعراء الأمويّين بالرِّواية:

إذا رجعنا إلى أشعار شعراء العصر الأُمَوِيِّ وجدنا فيها ما وجدناه في أشعار الْجاهِلِيّين من إشارات إلى قيمةِ الرِّواية في حفظ شعرهم ونقله، ولكنّ الَّذي يهمّنا الآن هو روايتهم للشّعر الْجاهِلِيّ، ويظهر ذلك من أمرَيْنِ:

الأوّل: أنّ عددًا من هؤلاء الشّعراء كانوا مصدرًا لروايةِ الشّعر الْجاهِلِيّ وتفسيرِ معانيه وسردِ أخبارِ الشّعراء الْجاهِلِيّين، ولا سِيَّما الفرزدقِ وجَريرٍ ورؤبةَ بنِ العجّاج، ومثال ذلك: أنّ أخبارَ امرِئ القيس كانت لدى الفرزدق، لأنّ امرَأَ القيس أقامَ زمنًا في ديار بني تميم (قومِ الفرزدق)، وهو الَّذي قصّ على النّاس خبرَ دارةِ جُلْجُلٍ المذكورةِ في معلَّقة امرِئِ القيس:

أَلَا رُبَّ يومٍ لكَ مِنهُنَّ صالحٍ ... ولا سِيَّما يومٍ بدارةِ جُلْجُلِ

الثّاني: ما نجده لدى عدد من فحول هذه العصر ـ مِن ذكرٍ للشّعراء الْجاهِلِيّين والمُخَضْرَمِين الَّذين تعلَّمُوا من أشعارِهم بروايَتِها، ومثال ذلك قولُ الفرزدق:

وَهَبَ القصائدَ لِي النّوابِغُ إذْ مَضَوْا ... وأَبُو يزيدَ وذُو القُروحِ وجَرْوَلُ

والفَحْلُ عَلْقَمَةُ الَّذي كانَتْ لَهُ ... حُلَلُ المُلوكِ كَلامُهُ لا يُنْحَلُ

وأَخُو بَنِي قيسٍ وهُنَّ قَتَلْنَهُ ... ومُهَلْهِلُ الشُّعَراءِ ذاكَ الأَوَّلُ

وهي أبياتٌ كثيرةٌ تكفينا منها هذه الثّلاثةُ، وقد ذكر فيها أسماءَ ما يزيدُ على عشرينَ شاعرًا وهَبُوهُ القصائدَ، وذلك لا يكونُ إلّا بأن يحفظَ أشعارَهم ويتمثّلَ طرائقَهم في قولِ الشّعر.

د- المُؤَدِّبون:

وهم جماعةٌ من النّاس انتشروا في ذلك العصر بعد أن عمَّ الاهتمامُ بالعلم بفضل دعوة الإسلام، وكان عمَلُهم أن يؤدِّبوا النّاشئين، وإنّما كان التّأديبُ بتعليمِ القرآنِ الكريم وحفظِ أشعارِ العرب، وقد كان الحضُّ على تأديبِ النَّشْءِ بالشّعر قديمًا، إذْ كانت السيّدةُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها تقول: «**رَوُّوا أولادَكم الشِّعرَ تَعْذُبْ أَلْسِنَتُهم**».

وفي هذا العصر يقولُ عبدُ الملك بن مروان لمؤدِّبِ ولَدِه: «**روِّهِمُ الشّعرَ يَمْجُدُوا ويَنْجُدُوا**»، ويقول: «**أدِّبْهُم بروايةِ شعرِ الأعشى، فإنَّ لكلامِه عُذوبةً**»؛ ولهذا كان الشّعر مادةً علميّة مهمّة لمؤدّبي هذا العصر، وكان بينهم شعراءُ مثلُ الكُمَيْتِ بنِ زَيدٍ والطِّرِمَّاح بنِ حَكيم، وهذا أَدْعَى للاهتمامِ برواية الشّعر ليكون مادةً بين أيديهم يؤدّبون بها الصّغار، ويتعلَّمون هُم مِن هذا الشّعر لِيرتَقِيَ مُستَوى أشعارِهم.

فهذه الأمور تؤكّد أنّ الرِّواية في العصر الأمويّ وجدَتْ حوافزَ جديدةً تجعلُها قادرةً على حمل كثيرٍ من الشّعر الْجاهِليّ إلى العصر العبّاسيّ.

٤- الرّواية في العصر العبّاسيّ:

لم يَنْقُصِ اهتمامُ النّاس بالرِّواية في هذا العصر عمّا كان عليه في العصور السّابقة، فإن **قبائل الشّعراء وأسرَهم والقبائلَ الأُخرى والخلفاءَ والولاةَ والمغنّين** والمؤدّبين **والشّعراءَ وغيرَهم لم ينفكُّوا عن اهتمامهم برواية الشّعر**، بَل إنّ هذا الاهتمامَ اتّسع بعد انتشار حلَقاتِ العلم في المساجد، إذ نتج عن ذلك **ظهورُ فئةٍ من العلماء احترَفُوا روايةَ الشّعر وما يتعلّق به من أخبارٍ وأنسابٍ وغريبِ لغةٍ ومعانٍ**، حتى لُقِّبَ عددٌ منهم بـ(الرَّاوِيَة)، وكان ظهورهم بارزًا في مدينتَيْنِ أنْشِئَتا في الإسلامِ هما **البَصرةُ والكوفة**، وقدِ اجتمعت فيهما قبائلُ كثيرةٌ، فأفادَ ذلك العلماءَ، إذ وجدوا رواةَ القبائلِ فيهما، وكان اجتماعُ القبائلِ محرِّضًا على الاهتمامِ برواية الشّعر والأخبار، لِما نعلم من التّنافس والتّفاخر بين قبائلِ العرب، وكان التّنافس بين علمائهما محفزًا آخَرَ على طلب الرِّواية؛ ثمّ أُنشِئَت مدينةُ بغدادَ في مكانٍ أقربَ إلى الكوفةِ في العصر العبّاسيّ، فكان الرّواة ولا سِيَّما الكوفيّين يَفِدُون عليها فيكرمُهم الخلفاء.

وسنقف فيما يأتي عند **أشهرِ علماءِ المدينتَيْنِ**، فنترجم لهم تراجمَ مُوجزةً مُستخلَصة من كتب الطّبقات والتّراجم والتّواريخ، ثمّ نقف بعد ذلك عند صورةٍ مُجمَلةٍ للرّواية في هذا العصر:

أعلام الرُّواةِ في البصرة:

في المصادر أسماء عدد كبير من الرّواة كانوا في البصرة، وقد سبقهم رواةٌ علماءُ كانوا في عصرِ بني أُمَيّة أمثالُ: أبي الأسودِ الدُّؤلي ونصرِ بن عاصمٍ وعبدِ الله بن إسحاقَ الحضرميّ؛ ومِن أعلامهم في العصر العبّاسيّ:

أ- أبو عمرِو بنُ العلاء (٧٠ هـ-١٥٤ أو ١٥٩ هـ):

أحدُ علماء العرب مِن بني تميم، وكان جليلَ القدْرِ عند النّاس، فلم يُسأَل عن اسمِه، فاختُلِف فيه على واحد وعشرين قولًا؛ وُلِدَ بمكّة ونشأ بالبصرة، ويُعَدُّ أحدَ أعلام القراءاتِ القرآنيّة السّبعِ المشهورات، وكان يُقرِئُ النّاس القرآنَ والحسنُ البصريُّ في المسجد؛ وُصِفَ بأنّه أعلم النّاس بالأدب وبأشعار العرب وأيّامها، وأنّ عامّةَ أخبارِه كانت عن أعرابٍ أدركوا الْجاهِلِيّة، وكان موثوقًا به في علمِه، حتّى قال فيه يونس بن حبيب: «**لو كانَ أحدٌ يَنبغي أن يُؤخَذَ بقولِه كلِّه في شيءٍ واحدٍ كان ينبغي لقولِ أبي عمرٍو في العربيّة أن يُؤخَذَ كلُّه**»؛ وكان يكتب ما يسمعُه عن العرب حتّى ملأ ما كتبَه بيتًا له إلى قريبٍ من السّقف، ثُمّ تنسَّكَ فاحرقَها، وندم على ذلك فعادَ إلى الرِّواية مِن حِفْظِه، وقد عَدَّه تلميذُه الأصمعيّ مِن أَذْكَرِ المعمَّرين.

وهذا كلُّه يدلّ على عالمٍ واسع العلم بالقرآن واللّغة والشّعر وما يتعلّق بذلك، ومصدرُه هم العرب الفصحاء، ولم يطعن عليه أحد لأنّه كانَ ثقةً عاليَ الأخلاق، وقد استدرك تلاميذُه كثيرًا ممّا أحرقه حين تنسّك، إذ كثيرًا ما نجدهم يذكرون روايتَهم عنه؛ فهيّأ أبو عمرو بذلك منهجًا سويًّا للرّواية في البصرة سار عليه تلاميذُه مِن بعدِه.

ب- خَلَفٌ الأحمر (وفاته ١٨٠ هـ):

هو خلَفُ بن حيّان، وكُنيتُه أبو مُحْرِز، وهو مِن الموالي، كان عالمًا راويةً وشاعرًا مُجيدًا، وأخذَ عَنْ أَبِي عَمْرِ بن العلاءِ وحمّادٍ الرّاوية؛ وقد اختُلِفَ في توثيقِه: إذ **نجد أخبارًا كثيرة توثّقه** وتجعله راويةً ثقةً علّامةً يسلك الأصمعيُّ طريقَه ويحذو حذوَه حتّى قيل: هو معلِّمُ الأصمعيّ ومعلِّمُ أهل البصرة، وأنّه كانَ أفرسَ النّاس بالشّعر وأصدقَهم رِوايةً، وأعلمَهم بصحيح الشِّعرِ

مِن منحوله؛ وكان يردُّ كثيرًا ممّا يُروَى، ويُشَنِّعُ على مَنْ يكذِبُ في حديثه، فقد عابَ رجُلَيْنِ كانا يَضَعانِ الأحاديثَ والأخبارَ والأشعارَ هما ابنُ دأْبٍ وشَوْكَرُ، إذ قالَ لتلمِذِه الأصْمَعِيّ: « آفَتانَا بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ابنُ دَأبٍ يَضَعُ الحَدِيثَ بِالمَدِينةِ، وشَوْكَرُ يَضَعُ الحديثَ بِالسِّنْد»؛ وإذا قِيسَ به أمثالُ الأصمعيّ لم يكونوا يُعَدُّون شيئًا، حتى إنّه حين مات قال الأصمعيُّ: ذهبَتْ بَشاشَةُ الشّعر بعدَ خلَفٍ، فقيلَ: كيفَ وأنتَ حيٌّ؟ فقال: إنّ خلَفًا كان يُحسِنُ جميعَه، وما أُحسِنُ إلّا الحواشي.

في حينِ **نجدُ أخبارًا أخرى تجعلُه مِن الوضّاعين** الَّذين نحلُوا الشّعراءَ القدماء -كأبي دُوادٍ الإياديّ والشّنفرَى وتأبّط شرًّا- كثيرًا من الشّعر، فرواها لأهل الكوفة فأخذوها عنه، ثمّ تنسّك فعاد إليهم فأخبرهم بذلك فلم يَقبَلوا منه، ويؤكّدون نحلَه الشّعرَ بأنّه كان شاعرًا مُفْلِقًا ولكنّه يُعَدُّ مُقِلًّا.

وهذا التّناقض بين الأخبار يرجّح أنّه راجعٌ إلى التّنافس بين أَتْباعِ علماء البصرة والكوفة، إذ جُعِلَ خلفٌ مَعْبَرًا للطّعن على رواةِ الكوفة بأنّهم أخذوا عنه الشّعر المنحولَ ولـمّا نبّههم لم ينتَهُوا عن روايتِه؛ ويؤكّد هذا أنّ ألصقَ تلاميذِه به هو الأصمعيّ، وكان متشدِّدًا في العِلْمِ ولا يقبلُ الرِّوايةَ إلّا عن ثِقَةٍ.

ولو افترضنا صِحّةَ الأخبار الّتي تتّهمه، فإنّ علينا ألّا نَرُدّ روايتَه كلَّها، لأنّه روى شِعرًا كثيرًا صحيحًا، وإذا رفضنا روايتَه كلَّها رفضنا شعرًا كثيرًا صحيحًا.

ج- الأصمعيّ (١٢٣ هـ - ٢١٦ هـ):

هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْبٍ، عربيٌّ مِن باهِلَةَ، أخذَ عن أبي عمرو بن العلاء وخلفٍ الأحمر وحمّادٍ الرِّواية وغيرهم، وُصِف بأنّه أسدُ الشّعر والغريب والمعاني، وكان أكثرُ سماعِه مِن الأعراب أهلِ البادية، وهو مِن أَروَى النّاس للرَّجَزِ، إذ كان يحفظ نحو ستَّةَ عشَرَ ألفَ أُرْجُوزة ما بين قصيرةٍ وطويلة، وكانت بينه وبين أبي عُبيدة منافسةُ الأقرانِ؛ وكان مِن حرصِه على العلمِ يكتب جُلَّ ما يسمعه، وكان شديد التأُّله لا يفسِّر شيئًا مِن القرآنِ ولا شيئًا من اللّغة له

نظيرٌ في القرآن وكذلك الحديث، وكان صدوقًا؛ وترك عددًا من الكتب تزيدُ على خمسين، منها عدد من دواوين شعراء الْجاهِلِيّة؛ فهذا يؤكّد أنّه سار على نهج أستاذِه أبي عمرو، واعتمد إلى جانب الرِّواية على التّدوين والتّصنيف.

د- أبو عُبَيْدةَ مَعْمَرُ بن المُثَنّى (١١٢هـ - ٢١٠هـ):

كان مولى لبني تَيْمٍ، وهو من تلاميذِ أبي عمرو بن العلاء وغيرِه من علماء البصرة، وأخذ عن جماعةٍ مِن ثقات الأعراب، ووُصِف بأنّه مِن أجمعِ النّاس للعلم وأعلمِهم بأيّام العرب وأخبارها وأكثرِهم رواية، ولا يقاس به أقرانُه كالأصمعيّ وأبي زيدٍ في ذلك، غير أنّه كان فيما يُقالُ شُعوبيًّا يُبغِضُ العرب، مَدْخُولَ الدِّينِ والنّسَب، كثيرَ الطّعن على النّاس، حتّى لم يسلَمْ منه شريفٌ ولا غيرُه؛ وله كتبٌ طُبِعَ عددٌ منها، معظمُها متعلّق بأشعار العرب وأخبارها؛ فهذا يؤكّد أنّه كان راويةً عالمًا، ولكنّه طعّانٌ على النّاس، ولذا لا نطمئِنُّ إلى طعنِه فيمَنْ عاصَرَه.

هـ- أبو زيدٍ الأنصاريّ (١٢١ هـ - ٢١٥هـ):

هو سعيدُ بن أوسٍ الخزرجيّ، وهو منهم صَلِيبَةً؛ كان أعلمَ الثّلاثة (هو والأصمعيّ وأبو عُبيدة) بالنّحو، وهو مِمَّن أخذُوا عن أبي عمرو وغيرِه مِن علماءِ البصرة، وكان كثيرَ السّماع مِن الأعراب، ويُعَدُّ من رواة الحديثِ الثِّقات، وهو مِن شُيوخِ سيبويهِ وإيّاه يقصِد سيبويهِ حين يقول: «وحدّثني مَن أثِقُ بعربيّته»، وله كتب طُبِعَ بعضُها، فهو كالأصمعيّ سار على منهج أبي عمرو بن العلاء.

فهؤلاء مِن أهمِّ أعلام رواةِ البصرة، ويدلّ ما سبق على أنّهم كانوا يهتمّون بتلقّي العلم عن مصادرِه من العلماء الثّقات والأعراب، وكانوا يدوّنون ما يَرْوُون، وإذا كان قد طُعِنَ في خلَفٍ فإنّ وجودَ أمثال هؤلاء - إنْ صحّ ذلك- كان كفيلًا بالتّنبيهِ على ما شابَ روايتَه.

أعلام الرُّواةِ في الكوفة:

وفي الكوفة كما في البصرة رواةٌ علماءُ نأخذ بعضَ أعلامِهم لنتحدّث عنهم، وقد سبقَهم في العصر الأمويّ علماءُ آخَرون كالشَّعْبِيّ ومحمّد بن السّائب الكلبيّ؛ ومن أعلامِهم في العصر العبّاسيّ:

أ- حمّاد الرّاوية (٧٥ هـ - ١٥٤ أو ١٥٦ هـ):

اختُلِفَ في اسم أبيه، ولكنّ الإجماعَ على أنّه من موالي بني شيبان، عاش زمنًا طويلًا في العصر الأمويّ وأدرك صدرَ العبّاسيّ، وقد اشتُهِرَ بعلمه الواسع بأشعار العرب وأيّامهم وكلّ ما يتعلق بذلك في عصر بني أُمَيّة، فكان الخلفاء يستقدمونه ويُجْزِلُون عطاءَه، فلمّا كان عصر بني العبّاس ذهبت دولتُه.

وبلغ مِن علمِه أنّ الوليدَ بنَ يزيدَ سأله عن سببِ تلقيبِه (بالرّاوية) وعن مبلغِ حفظِه، فذكر له أنّ كلامَ العرب على ثمانيةٍ وعشرين حرفًا، وأنّه قادر على إنشاد مِئَةِ قصيدةٍ طويلة على كلّ حرف منها، فامتحنَه فوجده صادِقًا، وكان يميّز الشّعرَ وينقدُه، على أنّه كان يلحَنُ في كلامِه.

وحالُه في التّوثيق كحالِ خلَفٍ، إذ نجد شهاداتٍ توثّقه وأُخرى تتّهمه؛ **فمِن الشهادة له** أنّ أبا عمرٍو الشيبانيَّ قال: ما سألْتُ أبا عمرِو بنَ العلاء قطُّ عن حمّادٍ الرِّواية إلّا قدّمه على نفسِه، ولا سأَلْتُ حمّادًا عن أبي عمرو إلّا قدّمه على نفسِه؛ ومن ذلك: أنّ الأصمعيَّ يذكر أنّ روايتَه لشعر امرِئ القيس إنَّما أخذها عن حمّادٍ إلّا قليلًا مِمّا سمعه من أبي عمرِو بن العلاء؛ وذُكِرَ في أمر طلبِه للعلم أنّه كان في بداية حياته يتشطَّر - أي يسرق- ويصحَبُ اللّصوص، فنقَبَ ذات يومٍ على رجلٍ فوجد في بَيْتِه جُزءًا من شعر الأنصار فحفظَه وطلبَ الأدبَ وما يتعلّق به فبلغ من العلم مبلغًا عظيمًا؛ فهذه الأخبار تجعله رجلًا واسع الرِّواية يشهَدُ له أمثالُ أبي عمرو بن العلاء، ويأخذ عنه الأصمعيُّ الَّذي كان يتشدّد في طلب العلم.

أمّا **الرّواياتُ الّتي تتّهمه** فمنها ما رواه ابنُ الأعرابيّ عن المفضّلِ الضَّبّيِّ أنّه قال: سُلِّطَ على الشّعر مِن حمّادٍ ما أفسدَه، فسأله ابنُ الأعرابيّ: وكيف ذلك؟ فذكر أنّه رجلٌ عالم بأشعار

العرب ولغاتها ومذاهب الشّعراء وطرائقهم ومعانيهم، فلا يزالُ يقول الشّعرَ يُشْبِهُ شعرَ الرّجل وينسِبُه إليه، فيُحمَلُ عنه على أنّه شعرٌ صحيح، ولا يُميِّزُ ذلك إلّا عالمٌ ناقد؛ وفي خبرٍ آخرَ أنّ حمّادًا والمفضَّل اجتمعا عند الخليفةِ المهديّ في قصره بـ(عيساباذ) فسأل المهديُّ المفضَّلَ عن مَطْلَعِ قصيدةِ زهير الّتي فيها:

دَعْ ذا وعَدِّ القَوْلَ في هَرِمٍ ... خَيْرِ الكُهولِ وسَيِّدِ الخُضْرِ

فذكر المفضَّل أنّه ليس لها مَطلَعٌ، ولكنّ حمّادًا قال إنّ لها مَطلَعًا من ثلاثة أبيات أوّلُها:

لِمَنِ الدِّيارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ ... أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ ومِن دَهْرِ

فأنكرَها المفضَّل، فاستحلَفَ المهديُّ حمّادًا بكلِّ يمينٍ مُحْرِجَة، فأقرَّ بأنّه وضعَها مِن ساعتِه؛ ومِن ذلك أنّ يونسَ بنَ حبيب كان يقول: العَجَبُ مِمَّنْ يأخذ عن حمّاد، كان يكذِبُ ويَلْحَنُ ويَكْسِرُ؛ فمِثْلُ هذه الأخبار تجعلُه رجلًا يزيدُ في أشعارِ العرب أشعارًا يؤلِّفُها، ويخلِطُ في نسبَةِ الشّعر، ويَكْسِرُ وزنَهُ، وفي ذلك إفسادٌ للشّعر.

غيرَ أنّ بعضَ العلماء وقفوا عند هذه الأخبارِ الّتي تتّهمه وناقشوها ورجّحوا أن يكون وراءها الصّراعُ بين أَتباعِ علماءِ الكوفة والبصرة، أو هوًى سياسيٌّ، أو ما عُرِفَ عَن حمّاد في نشأتِه الأُولى، إذ كان فاسقًا ماجِنًا؛ فخبرُه مع المفضَّل في قصر المهديّ ممّا يُضْعِفُه أنّه رُوِيَ عن طريق أحد طلّابِ المفضَّل، وقد كان بينَه وبينَ حمّادٍ تنافسٌ وخلافٌ في الهوى السّياسيّ؛ بل يجعلُه خَبَرًا موضوعًا أنّ قصرَ المهديِّ بعيساباذ بُنِيَ سنةَ أربعٍ وسِتِّينَ ومِئة (١٦٤هـ)، أي بعد وفاة حمّادٍ بزمن، فكيف يصِحُّ اجتماعُه بالمفضَّل فيه؟ ولهذا نقول ما قلنا في خَلَفٍ: لو افترضنا أنّ مِثل هذه الأخبار صحيحةٌ لَما كان لنا أن نَرُدَّ روايتَه، لأنّه روى شعرًا كثيرًا صحيحًا، وكان وجودُ الرُّواة الثِّقاتِ كفيلًا بتصحيحِ ما أفسدَه.

ب- المُفَضَّلُ الضَّبِّيُّ (١٠٠ هـ- ١٧١ هـ):

هو المفضَّل بن محمَّد بنِ يَعْلَى، أحد بني ضَبّةَ، كانت ولادته ونشأته في الكوفة، فأخذ عن علمائها كعاصم بنِ أبي النَّجُود والأعمشِ وغيرِهما من علماء اللّغة والقرآن والحديث

الشّريف، ثمّ انتقل إلى البصرة فأخذ عنهُ علماؤُها ولا سيّما أبو زيدٍ الأنصاريّ، وفي البصرة شارك في خروج بعض الطالبيِّينَ على المنصورِ العبَّاسيّ، فظفِرَ به وعفا عنه وألزمَه ولدَهُ المهديَّ ليؤدِّبَه، فألَّفَ له اختياراتٍ شعريَّةً عُرِفَت باسمِ (المفضَّلِيّات)؛ وكان كثيرَ الحجِّ يمرُّ في طريقه على الأعراب فيأخذُ عنهم؛ وذكر ابن سلّامٍ الجُمَحِيُّ أنّه أعلمُ مَن قدِمَ على البصرة مِن غيرِ أهلِها، وهو مِن أوثقِ الكوفيّين، ويدلُّ خبرُ تأليفِ (المُفَضَّليّات) على أنّه كانت لدَيْهِ كتُبٌ منها انتخبَ الأشعارَ؛ وللمفضَّلِ كتبٌ غيرُ ذلك طُبِعَ منها كتابُ (الأمثالَ)؛ وذُكِرَ أنّه كان يكتبُ المصاحِفَ ويَقفُها في المساجد تكفيرًا لِما يُدَوِّنُه من أشعارٍ فيها هجاء؛ فما سبق يدلُّ على راويةٍ مِن العلماءِ الثِّقات.

ج- أبو عمرٍو الشّيبانيّ (٩٤ هـ - ٢٠٦ هـ):

اسمه إسحاقُ بنُ مِرَارٍ، مِن المَوالي، كان يؤدِّبُ أولادَ بني شَيْبانَ فنُسِبَ إليهم؛ أخذَ عن المُفَضَّلِ وحمّادٍ وأَبي عمرِو بنِ العلاءِ، وارتحَلَ إلى الباديةِ فأخذَ عن ثِقاتِ الأعراب، وانتقل إلى بغداد فكان راويةَ أهلِها، وكان واسعَ الرِّواية، موثَّقًا لدى المُحَدِّثِين، وكان يَلْزَمُ مجلسَه الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبَلٍ، وجمعَ أشعارَ ما يزيدُ على ثمانينَ قبيلةً فصنَّفها، وكان كلّما صنّف ديوانَ قبيلةٍ كتب مُصْحَفًا بيدِه ووَقَفَه في مسجدِ الكوفة؛ ويؤكّد سعةَ روايتِه ما ذكره ثَعْلَبٌ (أحمدُ بنُ يَحْيَى) أنّ أبا عمرٍو كان لديه منَ العلمِ عَشَرَةَ أضعافِ ما لَدَى أبي عُبَيْدَةَ، ويُصَدِّقُ ذلك كثرةُ النُّقولِ عنه في كتاب الأغاني ودواوينِ الشّعراء؛ وما سبق يدلّ على راويةٍ واسع الرِّواية موثوقٍ به.

د- بُزُرْجُ - ويُصَحَّفُ فيُقالُ: بَرْزَخ- **بن محمّد العروضيّ وجنّاد بن واصل:**

وهما معدودانِ في الرُّواةِ الحفَظَةِ، وكانا معاصرَيْنِ لِحَمّادٍ الرّاوية، وقد اتُّهِما؛ فأمّا **بُزُرجُ** فهو مولًى لِبَجِيلَةَ أَو كِنْدَة، وقِيل عنه: إنْ لم يكنْ أَزْوَى النّاس فهو أكذبُ النّاس، وذكر بعضُ العلماءِ الثّقات أنّ النّاس قد أَكَبُّوا عليه، فساءَ ذلكَ حمّادًا وجنّادًا فدَسَّا عليه مَنْ أَسْقَطَه، فتركَه النّاس حتّى كان يجلس وحدَه؛ وقال شعرًا يشكو فيه حَسَدَ الحاسدين:

لَيْـــسَ بَيْنِـــي وبَيْـــنَ قَـــوْمِيَ إلّا أَنَّنـــي فاضِـــلٌ لَـــهُمْ في الـــذَّكاءِ
حَسَـــدُوني فزَخْرَفُـــوا فيَّ قَـــوْلًا تَتَلَقّـــاهُ أَلْسُـــنُ البُغَضـــاءِ
كنْـتُ أَرجـو العَـلاءَ فـيهِمْ لِعِلْمِـي فَـأَتاني مِـنَ الرَّجـاءِ بَلائـي

ولعلَّ لِتَطاوُلِهِ على الخليلِ بنِ أحمدَ الفَراهيديِّ رحمَهُ الله أثراً في الطّعنِ عليه، فإنَّ له كُتُبًا في العَروضِ طعَنَ في بعضِها على الخليلِ، ورَدَّ عَلَيْهِ بعضُ العلماء.

وأمّا **جَنّادٌ** فكانَ مولًى لِبَنِي غاضِرَةَ، وكان **لديْهِ ديوانُ أشعارِ العرب، وكتُبُ أخبارِها وأنسابِها**، وكان أهلُ الكوفة لا يَشُكُّون في شعرٍ ولا يَغْرُبُ عنهم اسمُ شاعرٍ إلّا سألوا عنه جنّادًا فيجدونه لذلك حافظًا وبه عارفًا؛ ولكنّه **كان يلحَنُ** أكثر مِن حمّادٍ حتّى قال بعض العلماء: «اتَّكَلَ أهلُ الكوفة على حمّادٍ وجنّادٍ ففسدَت رواياتُهم مِن رجُلَيْن كانا يَرْوِيانِ ولا يَدْرِيان، **كثُرَت رواياتُهما** وقلَّ علمُهما»؛ على أنّنا لا نجدُ لهذَيْن الرجلَيْنِ روايةً في كتاب الأغاني مثلًا، وهو مِن أهمِّ كتب الشّعر والشّعراء، فسقَطَتْ رِوايتُهما لِما كانَ فيها.

فهؤلاء مِن أبرزِ أعلام الرُّواةِ في المئةِ الأولى من العصر العبّاسيّ، وقد خلّف معظمُهم كتبًا دوّنوها ممّا تلقَّوه عن العلماء أو مِمّا سمعوه منَ الأعراب؛ وجاء بعدَهم طائفةٌ من التّلاميذ أكثروا من التّدوين، أمثال: أبي حاتِمٍ السَّجِسْتانيّ وابنِ الأعرابيّ وابن السِّكِّيتِ وثعْلَبٍ وأبي سعيد السُّكّريّ وغيرِهم، فكان لهم فضلُ روايةِ دواوينِ أشعار العرب وشرحِها والتّعليقِ عليها.

حالُ الرِّواية في العصر العبّاسيّ:

بعد ترجمة هؤلاء العلماء يمكننا أن نتصوّر حالَ الرِّواية في العصر العبّاسيّ بإعادة النّظر إليهم وبالرّجوع إلى المصادر، وقد أجملَ ذلك الدّكتور عبدُ الحَفِيظِ السّطلي في بعض محاضراتِه، فذكر أنّ الرِّواية في هذا العصر اتّخذت مَظْهَرًا جديدًا، إذ جعل عددٌ من الرُّواة رواية الشّعر شِبْهَ مِهنةٍ لهم، إذ لم يكتفوا برواية الشّعر وَحْدَه، بل أضافوا إليه ما يوضحه من شرحٍ للّغة وذكرٍ للأخبار المتعلِّقة به والأنساب والبلدان المذكورة، مع التّنبيهِ على لَهَجاتِ القبائلِ إن كان لها

أَثَرٌ، فكانوا رواةً مُحْتَرِفِين أو مُتَخَصِّصِين؛ ويمكننا التعمُّق في تخيُّل حالِ الرِّواية عندَهم بالنّظر إلى أمور هي: طرائقُهم في التَّلَقِّي والرِّواية، وأهدافُهم، ومدارسُهم.

فأمّا **مدارسُهم** فقد مَرَّ أنّ البَصرةَ والكوفة هما المدينتان اللّتان كثُرَ فيهما نشاط الرّواية، فظهر في كلٍّ منهما رواةٌ ثِقاتٌ، كأبي عمرِو بنِ العلاء والأصمعيّ والمُفَضَّل وأبي عمرٍو الشيبانيّ، وظهر أيضًا رواة اتُّهِمُوا، كخلَفٍ الأحمر وحمّادٍ الرّاوية وبُزُرْج، وقد أخذ رواةُ المدرَسَتَيْنِ بعضُهم عن بعضٍ؛ وكانت روايةُ أهل الكوفةِ أكثرَ مِن روايةِ أهلِ البصرة، حتّى قِيلَ إنَّ ذلك بسبب تساهُلِهم في الرِّواية، في حينَ قلّت روايةُ أهل البصرة لتثبُّتِهم؛ ونَتَجَ عنِ اجتهاد علماءِ هاتَيْنِ المدرستَيْنِ خِلافٌ في أمورِ اللّغة والنّحو أُلِّفَتْ فيه بعضُ الكتبِ، مثلُ: كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) لأبي بركات الأنباريّ، وأمْرُ هذ الخِلافِ أَهْوَنُ مِمّا يُظَنّ.

وأمّا **طرائقُهم** في التّلقّي والرِّواية فإنّها كانت تعتمدُ على الأخذ عن الأعراب وقبائل الشّعراء، إمّا بالخروج إليهم في ديارهم، وإمّا بتلقِّيهِمْ حين يَفِدُون إلى إحدى المدينتَيْن، وإمّا بالتّلقّي عن علماءَ سبقُوهم وأخذوا عن الأعراب وقبائل الشّعراء؛ وكانوا يُدَوِّنون كتُبًا إلى جانب سَماعِهم، وكان أحدُهم يجلس في المسجد فيروي على النّاس ما يحفظُ وقد يَرْوِي لهم من كتابٍ يقرؤهُ أو يُقْرَأُ عليه، وربّما سُئل أحدهم وهو في الطّريقِ أو في أيِّ مكانٍ عن شيءٍ من الشّعر فيُجِيبُه ويتحوّل المجلس إلى مجلسِ عِلْم.

وأمّا **أهدافُهم** فكانت كأهدافِ مَن سبقهم مِن الرُّواة والشّعراء في العصر الْجاهِلِيّ وصدر الإسلام وعصر بني أُمَيّة، وهو حفظُ هذا الشّعر الَّذي أُعْجِبُوا به، والتّعلُّمُ منه؛ وقد أفادَ مفسِّرُو القرآنِ الكريمِ من ذلك في تفسِيرِ غريبِ القرآنِ الكريمِ بعدَما سنَّ لَهُمُ ابنُ عبّاسٍ ذلك، وكذلكَ فعلَ أهلُ النّحو في الاستشهاد به لقواعدِ العربيّة، وكذلك المحدِّثون والمؤَرِّخون وغَيْرُهُم، فأدّى ذلك كلُّه إلى حفظِ ذلك الشّعر.

وكان إلى جانب هؤلاء العلماءِ الرّواةِ في العصر العبّاسيّ **رُواةُ التّاريخ والأخبار،** كابنِ إسحاقَ ومحمّد بن السّائب الكلبيّ وابنِه هِشامٍ وعبد الملكِ بنِ هشامٍ الحِمْيَرِيّ، وقدِ اتَّخَذُوا

سُنَّةً في روايةِ الأخبارِ التّاريخيّةِ وهي أن يعتمدوا على الشّعر لتوثيقِ الأخبارِ، وذلك أنَّ **الشّعرَ ديوانُ العرب فيه ذِكْرُ أيّامِهم وأعلامهم وأنسابهم**، فكلَّما مرّ بهم شيءٌ من ذلك ووجدوا شِعرًا يدُلُّ عليه أَوْرَدُوه في كتبهم، بل إنَّ بعضَ ذلك الشِّعر كانَ جُزْءًا من ذلكَ التّاريخ؛ ولكنّ ابنَ إسحاقَ لم يكن منَ العلماء بالشّعر، فكان لا يميّز بين الشّعر الصّحيح والشّعر المنحولِ، فيُورِدُ هذا وهذا معًا في كتبِه، ولا يَعْرِضُه على العلماءِ به، فطعنَ النّاس في روايته للأشعار، ولذلك ولِنَحْوِه هذَّبَ ابنُ هشامٍ ما رواه في كتاب (المَغازِي والسِّيَر)؛ على أنّنا ينبغي أن نقف من روايةِ الأشعار موقفَنا مِن سِواها ممّا يُنقَل إلينا، فنتَّهِمَ ما نجدُ دليلًا على اتِّهامه، وإلّا فإنّنا نُسَلِّمُ بصِحَّةِ ما يُرْوَى.

ثالثًا: تدوين الشّعر الْجاهِليّ

ثمة فكرة شائعة لدى كثير من النّاس هي أنّ تدوين العلوم عامّةَ - ومنها الشّعر الْجاهِليّ- لم يبدأ إلّا في القرن الثاني الهجريّ، وأنّ الرِّواية كانت الوسيلةَ الوحيدة لنقلِ هذه العلوم، ولكنّ الأدلّة تؤكّد أنّ للتّدوينِ أثرًا في حفظ الشّعر الْجاهِليّ قبلَ ذلك، وسنتتبّعه عصرًا فعصرًا على التّوالي:

1-التّدوين في العصر الْجاهِليّ:

نجد في هذا العصر نصوصًا وإشاراتٍ تؤكّد أنّ العرب الْجاهِليّين اعتمدوا كتابةَ الشّعر وتدوينِه لحفظه ونقلِه، إذ سبَقَ في الحديث عن (الكتابة في العصر الْجاهِليّ) أنّ عددًا من الشّعراء الجاهليّين كانوا كتّابًا، وكتبوا بعضَ شعرهم إلى عشائرهم وغيرِها، وأنّ النّعمان بن المنذر آخِرَ ملوك الحيرةِ أمر فنُسِخَت له أشعارُ العرب في الكراريس؛ كما نجد في أشعار بعض الْجاهِليّين ما يؤكّد أنّهم اطّلعوا على شيءٍ من الشّعر الْجاهِليّ كان مكتوبًا أو مُدَوَّنًا، فمن ذلك قولُ مَعْقِلِ بنِ خُوَيْلِدٍ الهُذَليّ من قصيدةٍ:

فإنّي كما قالَ مُمْلِي الكِتَا ... بِ في الرَّقِّ إذْ خَطَّهُ الكاتِبُ:

(يَرَى الحاضِرُ الشّاهِدُ المُطْمَئِنُّ ... مِنَ الأَمْرِ ما لا يَرَى الغائِبُ)

فهو يَنقُلُ البيتَ الثّاني تضمينًا مِن كتابٍ رآه؛ وفي شعرِ بِشْرِ بنِ أَبي خازِمٍ الأَسَدِيّ:

وَجَدْنا في كِتابِ بَنِي تَمِيمٍ: (أَحَقُّ الخَيْلِ بالرَّكْضِ المُغَارُ)

وكُتُبُ القبائلِ -وقد وصل إلينا منها كتاب هُذَيْلٍ- تَضُمُّ أشعارَها وبعضَ ما يتعلّق بمناسباتها، فالشّاعر يَذكُرُ أنّه قرأَ الشّطرَ الثّاني في كتابِ بني تميم؛ وفي شعرِ الفرَزْدَقِ قولُه وهو يعدِّدُ الشّعراءَ الَّذين روى أشعارَهُمْ:

وَالْجَعْفَرِيُّ وكانَ بِشْرٌ قَبْلَهُ ... لي مِنْ قَصائِدِهِ الكِتابُ المُجْمَلُ

فقصائدُ بِشْرٍ كانَتْ في كتابٍ يقرؤهُ الفرزدقُ، إمَّا أنّه وَرِثَهُ عن آبائِه، ويُحْتَمَلُ في هذه الحال أن يكون تدوينُه في الْجاهِلِيّة، وإمّا أنْ يكون قد جُمِعَ في أوائلِ القَرْنِ الأوّل؛ ولهذا لا يجوزُ إلّا أن نقول: إنّ للتّدوينِ أثرًا في حفظ الشّعر الْجاهِلِيّ في الْجاهِلِيّة لا يُنْكِرُهُ إلّا مُجادِل.

٣-التّدوينُ في القرنِ الأوّلِ الهجريّ:

تؤكّد الكتب الّتي تَرْصُدُ التّأليفَ لدى العرب أنّ كتبًا كثيرةً في فنونٍ مختلِفة (كالسِّيرة النّبويّة وتفسيرِ القرآن والأمثال والأنساب) دُوِّنَتْ في القرنِ الأوّلِ الهجريِّ، وأمثالُ هذه الكتب لا تخلو من الشّعر الْجاهِلِيّ؛ لأنّ كُتّاب السّيرة كثيرًا ما يذكرون الأشعار في هذه الحادثة أو تلك، وكتب التّفسير اعتمدَت على الشّعر الْجاهِلِيّ لتفسير غريبِ القرآن، سَيْرًا على نَهْجِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه، وكذلك كتُبُ الأمثال والأنساب وغيرها.

ولكنَّ لدينا نصوصًا تؤكّد أنّ الشّعرَ الْجاهِلِيّ قد جُمِع في هذا القرن شيءٌ منه، **ففي عهدِ عُمَرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه** قَدِمَ مِن مكّةَ إلى المدينة المُنوَّرةِ عبدُ الله بنُ الزِّبَعْرَى وضِرارُ بنُ الخطّاب الفِهْرِيُّ - وكانا شاعِرَيْ قُرَيشٍ قبلَ أن يُسْلِما- فلقِيَا حسانَ بنَ ثابتٍ الأنصاريّ شاعِرَ الرّسولِ ليتناشَدُوا ما قالوه قبل فتحِ مكّة، وفي الخبرِ أنّ عمرَ رضي اللهُ عنه خاطبَ النّاس بقولِه: «إنّي قد كنْتُ نَهَيْتُكم أَنْ تَذْكُروا مِمّا كان بينَ المسلمين والمشركين شيئًا؛ دَفْعًا للتَّضاغُنِ عنكم وبَثِّ القَبيحِ فيما بينكم، **فأمّا إذْ أَبَوْا فاكْتُبُوهُ واحْتَفِظُوا به»، فدَوَّنُوهُ فكانت الأنصارُ تُجَدِّدُه إذا خافَتْ أن يَبْلَى**؛ ويؤكّد هذا أنّ حمّادًا الرّاوية كانت بدايةُ اهتمامِه بحفظِ الشّعر أنّه نَقَبَ على رجلٍ فكان فيما وجدَهُ جُزءٌ مِن شِعْرِ الأَنصار.

وفي عهدِ مُعاويةَ بنِ أَبي سُفيانَ أَمَر الرّواةَ أَن يَنْتَخِبُوا قَصائِدَ يَرْوِيها ابْنُه، **فاختارُوا له اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قصيدةً**، منها (السَّبْعُ الطِّوالُ ولَامِيّةُ الأعشى وبائيّةُ عَبِيدِ بنِ الأَبْرَص وغيرها).

ثُمّ **في عهدِ عبد الملكِ بنِ مَروانَ** ذُكِرَ أنّه **أوّلُ مَنْ سَبّعَ سَبْعَ قَصائدَ**، منها أربعٌ مِن السّبْعِ الطِّوال؛ فهذه الأدلَّةُ تؤكّد أنّ الشّعر الْجاهِلِيّ في القرن الأوّل وُجِدَ مَنْ يَهتمُّ به فيُدَوِّنُ ويَخْتارُ؛ وسنجِدُ فيما يأتي بعضَ الإشاراتِ الّتي تؤكّد ما سبق.

٣-التّدوين في القرن الثّاني الهجريّ:

كان في القرن الثّاني الهجريّ معظَمُ أعلامِ الرُّواة الَّذين سبق ذِكْرُهم في الحديثِ عنِ الرِّواية في العصر العبّاسيّ، ونرصد التّدوين عندهم على طبقتَيْنِ:

الطَّبَقةُ الأُولى: تضمّ أبا عمرِو بنَ العلاء وحمّادًا والمفضَّل؛ فأمّا **أبو عمرو** فكانَ يُدَوِّنُ ما يَرويه عن العرب حتّى بلغ ما دوّنه إلى قريبٍ مِن سَقْفِ بيتِه؛ ووصل إلينا من روايته ديوان الخِرْنِق بنةِ هِفّان، وفي أخباره: أنّ الأصمعيّ قرأ عليه شعرَ الحُطَيْئَة.

وأمّا **حمّادٌ** فقد كرَّر أبو حاتِمٍ السَّجِسْتانِيُّ تِلْمِيذُ الأصمعيِّ وهو يعلِّقُ على قصائدَ للحُطَيْئةِ هذه العبارةَ: **«وفي كتابِ حمّادٍ الرّاوية»**، وهذا يَعْنِي أنّ لِحَمّادٍ كتابًا كان أبو حاتِمٍ ينقل عنه ويقارن روايته برواية غيره؛ وفي خبرِ الخليفة الأمويّ الوليدِ بن يَزيدَ أنّه أرادَ أن يجمعَ ديوانَ العرب وأخبارَها وأنسابَها ولغاتِها، ورَدَّ الدّيوانَ إلى حمّادٍ وجَنَّادٍ، فيُفْهَمُ مِن عبارةِ (ردّ الديوان) أنّه استعان بِهِما لِجَمْعِ ديوان العرب، أو استعارَ منهما دواوينَ كانت عندهما لِتُنْسَخَ ثمّ ردّها إليهما؛ وفي خبرٍ آخَر أنّ الوليدَ أرسل إلى العراق في طلب حمّادٍ، فتوقَّع أن يسألَه الوليدُ عن أشعارِ قريش وثقيف -قبيلتَيْ أَبي الوليدِ وأُمِّه- قال: «فَنَظَرْتُ في كِتَابَيْ قُرَيْشٍ وثَقِيف»، فهذا يعني أنّ ديوانَيْهِما كانا عنده؛ فإمّا أن يكون حمّادٌ قد جمعَ ذلك، وإمّا جَمَعَ ذلك مَن كانَ قَبْلَه من العلماء في القرنِ الأوّلِ الهجريّ.

وأمّا **المفضّل** فإنّ اختياراتِه الشّعريّة المعروفة بـ(المفضّليّات) وصلَتْ إلينا وطُبِعَتْ، ووصل إلينا مِن كتُبِه كتاب (الأمثال) وفيه قِسْطٌ مِن الشّعر الْجاهِلِيّ، وفي أخبارِه أنّه قُرِئَ عليه شِعْرُ الهُذَلِيِّين، وفي خبرِ جمعِهِ للمفضّليّات ما يؤكِّدُ أنّه كانت عنده كتبٌ لِعُلَماءَ سابِقينَ انتخَبَ مِنْها هذهِ المُخْتارات.

الطَّبَقةُ الثّانية: وتضمُّ الأصمعيَّ وأبا عُبَيْدَةَ وابنَ الأعرابيِّ وأبا عمرٍو الشيباني؛ فأمّا **الأصمعيُّ** فلَهُ تصنيفٌ كثيرٌ في دواوينِ شعراء الْجاهِلِيّة وغيرِهم، إذْ عَدَّ له ابنُ النّديمِ ما يَزيد على خمسةَ عَشَرَ شاعرًا جاهليًّا ومُخَضْرَمًا جمعَ دواوينَهم، منهم امرُؤ القيس والأعشى والحُطَيْئةُ

والـمُهَلْهِلُ، إلى جانب كتبٍ أُخرى لا تَخلو من أشعار الْجاهِلِيّين وقِصَصِهم وأمثالِهم وأخبارهم وأنسابهم.

وأمّا **أبو عُبَيْدَةَ** فله تَآليفُ كثيرةٌ زادَتْ على مِئَة، وسبقَ في ترجمتِه أنّ ديوانَ العربِ كان في بيتِه؛ ومعظمُ مؤلفاتِه الّتي ذكرها العلماءُ تَهْتَمُّ بأخبار العرب وأيّامها ولغاتها، ومنها: كتابُ (الشّعر والشّعراء)، و(نقائضُ جريرٍ والفَرَزْدَق)، وفي شرحِه لنقائضِها شعرٌ جاهليٌّ وأخبارٌ جاهليّة، وكتاب (مجاز القرآن) وفيه استشهاد بشعرٍ جاهليٍّ كثير.

وأمّا **ابنُ الأعرابيِّ** فصنّفَ عددًا من دواوين شعراءِ الْجاهِلِيّة والـمخضرَمِينَ، كالأعشى والخنساء والنَّمِرِ بنِ تَوْلَبٍ؛ وقُرِئَ عليه شعرُ بني أَسَدٍ، وأصحُّ رِوايةٍ للمُفضَّليّاتِ هي روايتُه، لأنّه كانَ رَبيبَ الـمفضَّل الضَّبّيِّ.

وأمّا **أبو عمرٍو الشَّيْبانيُّ** فكان مِن أكثرِ هؤلاء العلماء تدوينًا وتصنيفًا للشِّعر، فهو الَّذي جمع أشعارَ ما يَزِيدُ على ثمانينَ قبيلةً، وصنّفَ أشعارَ عددٍ مِن الشّعراء، كامرِئ القيس والأعشى وعمرِو بنِ مَعْدِيكَرِبَ وتَميمِ بنِ أُبَيٍّ بنِ مُقْبِلٍ؛ وله كتب أُخرى طُبِعَ أَحَدُها، وهو كتابُ (الْجِيمِ) في نوادرِ اللّغة، وفيه شعرٌ جاهليٌّ كثير.

وإلى جانب هاتين الطَّبَقَتَيْنِ **فِئَةُ عُلَماءِ الأخبارِ والسِّيَرِ والأَنْسَاب**، ممَّنْ كانَ لهم اهتمامٌ بالشّعرِ يعتمِدُونَ عليه في مؤلَّفاتِهم، لأنّه ديوانُ العربِ الَّذي يُوَثِّقُ كلَّ ما يتعلَّق بحياتِهم توثيقًا أَدَبِيًّا، فهم يَجعلونَ الشّعرَ أداةً لهذا التّوثيق، ومنهم: عَوانةُ بن الحَكَمِ الكَلْبيّ، ومُحَمَّدُ بنُ إِسْحاقَ، والواقِديُّ، والـمَدائِنِيّ، ومحمَّدُ بن السّائب الكلبيّ، وابنُه هشامٌ أبو الـمنذِر، ومُحَمَّدُ بن سَعْدٍ، والهيثَمُ بنُ عَدِيّ وغيرهم؛ وكان منهم مَنْ ألّفَ كتبًا كثيرةً في الشّعر والشّعراء، كهشامٍ والـمدائنيّ؛ ومراجعةُ كتبِهم تؤكِّدُ عنايتَهم بتوثيقِ أخبارِهم بالأشعار.

ثُمَّ جاء مِن بعدِ هؤلاء جميعًا عددٌ مِن العلماءِ والرُّواةِ كانوا في القرنَيْنِ الثّالِثِ والرّابع، كأبي حاتِمٍ السَّجِسْتانيّ وابنِ قُتَيْبَةَ وابنِ السِّكِّيتِ وأَبِي الفَرَجِ الأصفهانيّ وابنِ دُرَيْدٍ وابنِ

الأَنْباريِّ والـمَرْزُبانيّ؛ فكانوا يَجمعونَ ما رواهُ العلماءُ السّابقون، ويؤلِّفونَ كتبًا جامعةً في مُختَلِفِ فنونِ العربيّة وأشعار العرب وأخبارهم.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

رابعًا: النَّحْلُ في الشّعر الْجاهِلِيّ

تمهيد:

يُقْصَدُ بالنّحل في الشّعر الْجاهِلِيّ ما قاله أناسٌ بعدَ الإسلام ونَسَبُوهُ إلى شعراءِ الْجاهِلِيّة، وفي المصادر ألفاظٌ مختلِفةٌ تَدُلُّ عليه، منها (الوَضْع، والصُّنْع، والافْتِعال، والاخْتِراع، ونحو ذلك)؛ على أنَّ بعضَ العلماءِ يَذكُرون مُصطَلَحَ (النَّحْل) و(الانْتِحال) في سِياقِ الحديث عنِ اضطرابِ نِسْبَةِ الشّعر بينَ شاعرٍ وآخَر، ويَقصِدُون أنّ القصيدةَ لِفُلَانٍ وليسَتْ لِفُلَانٍ لا أنّها ممّا ألّفَهُ النّاسُ ونسبوه إليهم، كما أنّ الانتحالَ يُسْتَعْمَلُ أحيانًا مُصْطَلَحًا مُقابِلًا لِلسَّرِقَةِ الشّعرية.

وقد نبّهَ العلماءُ منذ القديمِ على ظاهرةِ النّحل، إذ قلَّما نجد عالـمًا منهم (كأبي عمرِو بنِ العلاء والأصمعيِّ وأبي عُبَيْدَةَ وخَلَفٍ وحمّادٍ وأبي عمرٍو الشَّيْبانيِّ وابنِ هِشام – صاحب السِّيرة – وغيرهم) إلّا وقد نبَّه على أنَّ بَيْتًا أو أبياتًا أو قصيدةً مَوضُوعَةٌ أو مَنْحُولةٌ؛ وأكثرُ العلماءِ اهتمامًا بهذه الظّاهرة وتَنْبِيهًا عليها هو محمَّدُ بنُ سلّامٍ الْجُمَحِيُّ في كتابِهِ (طَبَقَات فُحُول الشّعراء)، ثمّ ابنُ هشامٍ في (السِّيرةِ النَّبَوِيَّة)، وسيكون الحديث عن محمّد بن سلّام مِثالًا لِما كانَ مِن جهودِ العلماءِ في رَصْدِ هذه الظّاهرةِ والتّنبيهِ عليها وتنقيَةِ الشّعْرِ الجاهليِّ مِمّا أُلْحِقَ به.

محمّد بن سلّامٍ ونَحْلُ الشّعر:

ويَخُصُّ الكلامُ ابنَ سلّامٍ لأنّه عالج هذه القضيّةَ معالجةً واسعة في كتابه (طبقات فحول الشّعراء)، ففي مقدّمته قواعدُ وأحكامٌ عامّةٌ عن النَّحْل، ثُمّ نَبَّهَ في تراجم الشّعراء على الشّعرِ المنحول، أو أثارَ شكًّا في بعض الشّعر، وأَشارَ في أثناء حديثه عن الظّاهرة إلى أساليبَ عدَّةٍ لكشفِ الشّعر المنحول، وأشارَ أيضًا إلى العواملِ الّتي أدّت إلى نشوءِ الظّاهرة.

1- تنبيهُه على ظاهرةِ النّحل وموقفُه من الشّعر المنحول:

كان تنبيهُ ابنِ سلّامٍ على الشّعر المنحول في مقدّمته حيث يقول: «**وفي الشّعر مصنوعٌ مُفْتَعَلٌ موضوعٌ كثيرٌ لا خَيْرَ فيه**»، ووصف هذا الشّعر المنحول بأنّه: «**لا حُجَّةَ في عربيّته، ولا**

أدَبٌ يُستَفاد، ولا معنًى يُستَخْرَج، ولا مَثَلٌ يُضْرَب، ولا مَديحٌ رائعٌ، ولا هجاءٌ مُقْذِع، ولا فَخْرٌ مُعْجِب، ولا نَسِيبٌ مُسْتَطْرَف»؛ وعلّلَ انتشارَه فقال: «**وقد تداولَهُ قومٌ مِن كتابٍ إلى كتاب، لَمْ يأخذوه عن أهلِ البادية، ولم يَعْرِضُوهُ على العلماء؛ ولَيْسَ لأحدٍ إذا أَجْمَعَ أهلُ العِلْمِ والرِّواية الصّحيحة على إبطالِ شَيْءٍ منه أَنْ يَقْبَلَ مِنْ صَحِيفَةٍ؛ ولا يُرْوَى عَنْ صحفِيٍّ؛ وقدِ اختلَفَ العلماءُ في بعضِ الشّعرِ كما اختلفَتْ في سائرِ الأشياء، فأمّا ما اتَّفَقُوا علَيْهِ فليسَ لأحدٍ أَنْ يَخْرُجَ منه**».

فأَشارَ ابنُ سلَّامٍ في هذا الكلامِ إلى كَثْرَةِ الشِّعْرِ المَنْحُول، ووصَفَهُ بِمَجْمُوعةٍ مِنَ الصِّفات تغلب عليْهِ في لغتِه ومعانيه ونسيجِه الفَنِّيِّ، وهيَ صفاتٌ تُخالِفُ صفاتِ الشّعرِ الصّحيح؛ وعلَّلَ انتشارَهُ وشيوعَه بأنَّ بعضَ النّاسَ لَمْ يَلْجَؤُوا في تَلَقِّي الشّعرِ إلى المنهجِ السّليم بأَخْذِه عن المَصْدَرِ الرَّئِيسيِّ وهو قبائلُ الشّعراءِ أو العلماءُ الرُّواة الَّذينَ يُمَيِّزُونَ بسِعَةِ علمِهم الشّعرَ الصّحيحَ منَ المنحول، بل تناقَلُوه مِن كتابٍ إلى كتاب؛ ثمَّ بَيَّنَ موقفَه مِن هذا الشّعر، فما اتَّفَقَ أهلُ العلمِ على أَنَّهُ منحولٌ فلا يجوزُ قَبُولُه، وما اتَّفَقُوا على أنّه صحيحٌ فلا يجوزُ رَدُّه إلّا بدليلٍ قاطعٍ، وثَمَّةَ شعرٌ اختَلَفُوا فيه، فهذا يكونُ مِن حَقِّ الباحثِ أنْ يقفَ منه مَوْقِفًا بِحَسَبِ ما يَراهُ منَ الأدلَّةِ المُرَجِّحَة.

٢-قرائنُ ابنِ سلّامٍ لكشفِ الشّعرِ المنحول:

يُشِيرُ ابنُ سلّامٍ في فِقَرٍ أُخرى من كتابه إلى قرائنَ عِدَّةٍ تجعلُ الباحثَ أو العالِمَ يَحْكُمُ على هذا الشّعر أو ذلك بأنَّه منحولٌ، وهي:

القَرِينَةُ الأُولى: الذَّوْق؛ ويُقْصَدُ بِهِ المَلَكَةُ الّتي تُرَبَّى لدى العالمِ بالشّعرِ بعدَ طُولِ الحِفْظِ والمُدارَسَةِ والقِراءة، وهيَ مَلَكَةٌ عامَّةٌ في كلِّ مِهْنَةٍ، ويقولُ في ذلك: «**وللشِّعْرِ صِناعَةٌ وثَقافَةٌ يَعْرِفُها أَهْلُ العِلْم، كَسائِرِ أَصْنافِ العِلْمِ والصِّناعات**».

ثُمَّ يُشيرُ إلى أنَّ هذا الذَّوْقَ قد لا يَعتمِدُ على تعليل منطقيّ، وإنّما يَرْجِعُ إلى كثرةِ المُثاقَفَةِ والمُدارَسَة، ويَضْرِبُ أَمْثِلَةً مِنْ معرِفَةِ الْجَواهِر والأَمْوالِ والأَمْتِعَةِ والرَّقِيقِ والخَيْلِ والقُرّاءِ

والـمُغَنِّين؛ ثُمَّ يقولُ: «**وإنَّ كَثْرَةَ المُدارَسَةِ لَتُعْدِي على العِلْمِ به، فكذلكَ الشّعرُ يَعْلَمُه أهلُ العلـمِ به**».

ويَضرِبُ مثالَيْنِ على ذلك نأخذُ أحدَهُما، وهو أنَّ أحدَ العلـماءِ الرُّواةِ سألَ خَلَفًا الأحْمَرَ عنِ الأشعارِ الّتي يَحْكُمُ بأنَّها منحولةٌ ويَرُدُّها، بأيِّ شيءٍ يَرُدُّها؟ « فقال: هل فيها ما تعلمُ أنتَ أنَّه مَصْنُوعٌ لا خَيْرَ فيه؟ قال: نعم؛ قال: أفَتعلَمُ في النّاس مَنْ هو أعلَمُ في الشِّعْرِ منك ؟ قال: نعم؛ قال: فلا تُنْكِرْ أنْ يَعْلَمُوا مِنْ ذلكَ أَكْثَرَ مِمّا تَعْلَمُه أنْت».

وهـذا يبـيِّنُ أنَّ أذواقَ النّاس في الشِّعْرِ وتمييزِ صحيحِهِ مِنْ مَنْحولِه وجَيِّدِهِ مِن رَدِيئِه تتفاوتُ بحسَبِ كثرةِ العِلْمِ به.

القَرِينَةُ الثّانية: مخالَفَةُ التّاريخ؛ ويُقْصَدُ بها أن يكون في هذا الشّعر أو فيما يحيط به ما يُخالِفُ التّاريخ، كأنْ يُنْسَبَ الشّعرُ إلى أناسٍ بيننا وبينهم زمنٌ طويلٌ يستحيلُ معه أنْ يبقى شعرُهم إلى زمنِ الرُّواة؛ ولذلك يَنْعَى ابنُ سلّامٍ على ابنِ إسحاقَ أنَّه أفسدَ الشّعرَ وهجَّنَهُ حين ضَمّنَ كتابَه (المغازِي والسِّيَر) كلَّ غُثاءٍ مِن الشّعر قَبْلَ أنْ يَعْرِضَه على العلماء، فوضع في كتابه أشعارًا منسوبةً إلى عادٍ وثمودَ، معَ أنّ اللهَ تَعالى قال: ﴿**فَقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الَّذينَ ظَلَمُوا**﴾ وقال: ﴿**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عادًا الأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى**﴾، ولَمْ يَسْأَلْ نفسَه: مَنِ الَّذي روى هذه الأشعارَ منذُ آلافِ السِّنين؛ ثُمّ بيَّن ابنُ سلّام أنّ العربَ الَّذين حمَلوا الشّعرَ لا يُثْبِتُونَ في نَسَبِهم ما فوقَ (عدنانَ)، ولا يُثبتونَ شيئًا مِنَ الشّعرِ لِمَنْ جاءَ بعدَهُ، وهم طبقةُ آباءِ القبائلِ، وهم بعدَ عادٍ وثمودَ بآلافِ السّنين، فكيفَ حُفِظَتْ أشعارُ عادٍ وثمودَ منذُ آلافِ السِّنين ولم تُحْفَظْ أشعارُ هؤلاء؟

القَرِينةُ الثّالثة: فَنُّ الشّعر؛ وذلك أنَّ للشّعر في كلِّ عصرٍ مَزايا وخصائصَ تختلِفُ عن مزايا الشّعرِ في غيرِه من العصور، ولهذا يقول ابنُ سلّام عن الشّعر المنسوبِ إلى عادٍ وثمودَ: «**ولَيْسَ بشِعْرٍ، إنَّما هُو كلامٌ مُؤَلَّفٌ مَعْقُودٌ بِقَوافٍ**»، ويصِفُه في مكانٍ آخَرَ بأنّه **ضَعِيفُ الأَسْرِ قليلُ الطّلاوَةِ**، ووصفَه في مَوْضِعٍ آخرَ بأنّه **غُثَاء**.

القَرِينةُ الرّابعة: مصدَرُ الرِّواية؛ ومصدر الشّعر في زمن ابن سلّامٍ هـمُ الأعـرابُ وقبائِـلُ الشُّعَراءِ والعلماءُ والرُّواة، ولذلك لا تُقبَلُ روايةُ الأشعار إن لم يكـن هـؤلاء مصـدرَها، ومـن هنـا كان كلامُه على انتشار الشّعر الـمنحول وتعليلـه بأنَّـه أَخـذَه أنـاسٌ مـن الكتـب، ونبّـه عـلى أنّـه **لا يُرْوَى عن رجلٍ يعتمِدُ على الصُّحُفِ** في روايتِه، وقال عنِ ابن إسحاقَ حين وجدَهُ يحتجُّ للأشعار الـمنحولةِ الّتي أوردَها بأنَّهُ لا عِلْمَ له بالشّعر، وإنّـما جـاءَهُ بـه النّـاسُ فرَواه: «**ولَمْ يَكُنْ ذلكَ لَـهُ عُذْرًا**»، ويقول أيضًا: «**ولَمْ يَرْوِ قَطُّ عربيٌّ منها بَيْتًا واحدًا ولا رَاوِيةٌ للشِّعر**».

القَرِينـةُ الخامِسـة: اللُّغـة؛ وذلـكَ لأنّ اللّغـةَ تختلِـف بـين زمـنٍ وزمـنٍ في ألفاظِهـا، وربّـما اختلفَتْ في بعضِ قواعدِها وأدواتِها، ولهـذا لا يجـوزُ أن نقبـلَ أشـعارًا لأُنـاسٍ قبـلَ آلافِ السِّـنينَ بلغةِ عصرٍ متأخِّر؛ ومِن هنا علَّقَ ابنُ سلّامٍ على ابنِ إسـحاقَ الَّـذي نسـبَ الشّـعرَ إلى عـادٍ وثمـودَ بأنْ نقَلَ عن أبي عمرِو بنِ العَلاء قولَه: «**ما لِسَانُ حِمْيَرَ وأَقاصي اليَمَنِ اليومَ بِلسـانِنَا ولا عَـرَبِيَّتُهم بِعَرَبِيَّتِنا**»، قال: « **فكيفَ بِما على عَهْدِ عادٍ وثَمُودَ؟**»، فهو يتعجّب مِن أنْ يُنْسَبَ إِلَـيْهِما شـعرٌ بِلُغَـةِ أولادِ نِزارٍ.

إِذًا فقـد كـانَ ابـنُ سـلّامٍ مُـدْرِكًا لهـذه القضـيَّة، فنَبَّـهَ علَيْهـا وعـلى سـببِ انتشـارِ الأشـعارِ الـمنحولة، ونبّهَ على عددٍ مِن القَرائنِ تجعلُنا نَحْكُمُ على الشّعرِ بأنَّهُ منحولٌ إذا كانـت فيـه أو كـان بعضُها، وهو ممّا يؤكّد أنّ ابنَ سلّامٍ وغيرَه مِن العلماء لم يتلَقَّوْا كلَّ ما وصلَ إليهم من الشّعر عـلى أنّه شعرٌ صحيح قَبْلَ أنْ يَعْرِضوه على أذواقهم وعِلْمِهم بالشّعرِ ومصـادِرِه والتّـاريخِ واللّغـةِ بـلا مناقشةٍ ولا تَمْحِيص.

على أنّ مِـمّا ينبغي التّنبيـهُ عليـهِ أنّ **كثيرًا مِـن هـذه الأشـعارِ لم تكـن ممّـا ألّفـه النّـاسُ بعـدَ الإسلام، بل كانت مُتَداوَلَةً هي وقِصَصُها قبل الإسلامِ، وقد صاغَها قُصّاصُ الجاهليّةِ وأعمَلُوا خيالَـهُم في صياغتها وصياغةِ حوادثها وشُخُوصِها وأشعارِها وأمثالِـها**، كشخصيّةِ لُقْـمانِ عـادٍ وابنـه وابنتـه، وتداوَلَـها الجـاهليُّونَ وظهـرَ أثَرُهـا في أشـعارِ فحولِـهم وغـيرِهم كـامرئِ القـيسِ والنّابغةِ وزُهَيْرٍ والأعشى وعَـدِيِّ بـنِ زيْـدٍ؛ فهـي أشـعارٌ وأمثـالٌ وحـوادثُ صِـيغَتْ في الجاهليّـةِ

ونحلَها قُصّاصُهم الأشخاصَ الّذينَ اخترعوهم؛ **ولذلكَ نعدُّها أشعارًا جاهليّةً وإنْ لم تصحّ نسبتُها إلى أولئكَ الأشخاص**؛ مَثَلُها في ذلكَ مَثَلُ ما نسَبُوهُ من الأشعارِ والأمثالِ قبلَ الإسلامِ إلى الحَيَواناتِ والجِنّ، وهي مِن صُنْعِ خَيالِهم، ولكنّها تبقى أشعارًا وأمثالًا جاهليّة؛ ولا رَيْبَ في أنّ مَسْتَوى مثلِ هذه الأشعارِ الّتي صاغَها قُصّاصُ الجاهليّةِ دُونَ مستوى شِعْرِ الفُحول.

٣- عواملُ نحلِ الشّعر عندَ ابن سلّام:

في أثناءِ حديث ابن سلّام عن ظاهرة النّحل إشاراتٌ إلى عواملَ وأسبابٍ شاركَتْ في ذلك، فهو يقول عنِ العرب إنَّهم بعد الإسلام أَلْهَتْهُمُ الفتوحُ عن روايةِ الشّعر، فلمّا عادوا إلى روايتِه وذِكْرِ أيّامهم ومآثرهم، استقلَّتْ بعضُ القبائلِ شعرَ شعرائِهم ووقائعِهم، في حينَ كانت بعضُ القبائلِ أشعارُها ووقائعُها قليلةٌ أَصْلًا فأَرادُوا أن يَلْحَقوا بمَنْ له شِعْرٌ ووقائع، فقالَ هؤلاءِ وهؤلاءِ أشعارًا على ألسنةِ شعرائِهم، ثُمّ كانَ الرُّواةُ بعد ذلك فزادُوا في الأشعار.

وذكَرَ أنّه: ليسَ يُشْكِلُ على أهلِ العلمِ زيادةُ الرُّواةِ ولا ما وضعَ المولَّدُون، وإنما يُشْكِلُ بعضَ الإشكالِ حينَ يقولُ الشّعرَ رجلٌ بدويٌّ مِن أبناءِ الشّعراء.

فابنُ سلّامٍ ينبِّه على فئتَيْنِ من النّاس شاركَتَا في وضعِ الشّعر لأسبابٍ مختلِفة هما القبائلُ والرُّواة، وفيما يأتي تفصيلُ ذلك:

أ- القبائل: وهي على صنفين، فهي إمّا قبائلُ ضاع كثيرٌ مِن شعرها فأرادتِ التّعويض، وإمّا قبائلُ أشعارُها قليلةٌ فأرادتِ اللَّحاقَ بالقبائل الّتي لها أشعار؛ وربّما كان التّنافسُ القَبَلِيُّ وراء زيادة بعض الشّعر، فإنَّ بعضَ قريشٍ نَسَبَ إلى أَبي سُفْيانَ بنِ الحارثِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِب شعرًا يَرُدّ فيه على حَسَّانَ بنِ ثابتٍ الأَنْصاريّ، فيَذْكُرُ ابنُ سلّامٍ أنَّ أهلَ العلمِ في المدينةِ أَخْبَرُوه أنَّ قُدامَةَ بنَ مُوسى الْجُمَحِيَّ نَحَلَها أَبا سفيانَ، وأنَّ قُرَيْشًا تَرْوِيهِ في أشعارِها، تُرِيدُ بذلك الرَّدَّ على الأَنْصارِ.

وممَّنْ شارك في ذلك أبناءُ الشّعراء، ومثالُه أنَّ بعضَ أبناءِ مُتَمِّمِ بنِ نُوَيْرَةَ قَدِمَ البَصرةَ، فاستقبلَهُ أبو عُبَيْدَةَ وعالِمٌ آخَرُ وأَعاناهُ وطلبَا إليْهِ أشعارَ مُتَمِّم، قال أبو عُبيدة: «فلمّا نَفِدَ شعرُ أَبِيهِ

جعلَ يَزِيدُ في الأشعارِ ويَصْنَعُهُ لَنا، وإذا كلامٌ دُونَ كلامٍ، وإذا هوَ يَحْتَذِي على كلامِه، فيذكرُ المواضعَ الّتي ذكرَها متمِّم، والوقائعَ الّتي شهِدَها، فلَمَّا توالَى ذلك علِمْنَا أَنَّهُ يَفْتَعِلُه».

ب- الرُّواة: وهؤلاء أيضًا يُقْسَمُون فِئَتَيْنِ، **فالأولى**: فيها رواةُ السِّيَرِ وأصحابُ القصصِ والسَّمَرِ، و**الثانية**: فيها بعضُ الرُّواةِ غيرِ الثِّقات.

فأمّا رواةُ السِّيَرِ وأصحابُ القصصِ والسَّمَرِ فإنَّ بعضَهم لم يكُنْ يُدَقِّقُ في الأشعارِ الّتي يَرْوِيها، لأنَّه يريدُ توثيقَ الخبرِ بالشّعر، أو أَلّا يُفَرِّطَ في شَيْءٍ بَلَغَهُ عَنِ الخَبَرِ الَّذي يتحدَّثُ عنه، أو تزيينَ الأخبارِ بالأشعار، ومنهم: محمّد بن إسحاقَ، وقد نَعَى عليه ابنُ سلّام كثيرًا، لأنّه أوردَ أشعارًا كثيرةً لا تَصِحُّ وهي واضحةُ الوضعِ لركاكَتِها وضعفِ معانيها وخصائصِها الفنيّة، وهي أشعارٌ غيرُ مُشْكِلَةٍ عندَ أَدْنَى تأمُّل، ووصفَها ابنُ سلّامٍ بأنّها لَيْسَتْ بِشِعْرٍ وإنّما هي «**كلامٌ مُؤَلَّفٌ مَعْقُودٌ بِقَوافٍ**»؛ ومن ذلك بعضُ الأشعارِ الّتي أَنْشَدَها لأبي سُفيانَ بنِ الحارث، فقال عنها ابنُ سلّام: «**ولَسْنَا نَعُدُّ ما يَرْوِي ابنُ إسحاقَ لَهُ ولا لِغَيْرِهِ شِعْرًا، ولَأَنْ لا يَكُونَ لَهُمْ شِعْرٌ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذاكَ لَهُمْ**».

وأمّا الرُّواةُ غيرُ الثِّقاتِ فإنّ ابنَ سلام وقفَ عند أشهرِ مَن يُتَّهَمُ منهم وهو حمّادٌ الرّاوية، فوصفَه بأنّه كان غيرَ موثوقٍ به، وكان يَنْحَلُ شعرَ الرَّجُلِ غَيْرَهُ، وينحَلُه غيرَ شعرِه، ويَزِيدُ في الأشعار؛ وقد سبق التّنبيهُ في الحديثِ عن أعلام الرُّواة في الكوفة على أنَّ اتّهامَ حمّادٍ مُبالَغٌ فيه.

وفي سِياقِ اتّهامِه ينقُلُ ابنُ سلّامٍ عن أَبِي عُبيدةَ عن يونسَ بنِ حَبيب قال: «قَدِمَ حَمّادٌ البَصْرَةَ على بِلالِ بنِ أَبِي بُرْدَةَ [بنِ أبي موسى الأَشْعَرِيّ] وهُوَ علَيْها، فقالَ: ما أَطْرَفْتَنِي شَيْئًا، فعادَ إليهِ فأنشدَهُ القَصِيدَةَ الّتي في شِعْرِ الحُطَيْئَةِ مَدِيحَ أَبِي مُوسَى؛ قالَ: وَيْحَك! يَمْدَحُ الحُطَيْئَةُ أَبا مُوسَى ولا أَعْلَمُ بِه، وأَنا أَرْوِي شعرَ الحُطَيْئَةِ! ولكنْ دَعْهَا تَذْهَبْ في النّاس».

فإن صحّ هذا الخبرُ وأمثالُه ممَّا يُرْوَى عن حمّاد وأشباهِه مِمَّنِ اتُّهِمُوا، فإنّه يدُلُّ على أنَّ بعضَ الرُّواة كانوا يَضَعُونَ شيئًا من الشّعرِ لينالُوا الحُظْوَةَ عند أصحاب الشّأنِ أو لأسبابٍ أُخرى، ومع ذلك تَبْقَى أمثالُ هذه الأخبارِ فيما وصلَ إلينا نادِرَة.

ذلك مُجْمَلُ كلام ابنِ سَلّامٍ على ظاهرةِ النّحل، ولا تخرج بقيّةُ الأخبارِ الّتي نبّه فيها العلماءُ على ظاهرة النَّحْلِ عن هذا الَّذي سار عليه، ولكنّه كانَ أكثرَهم حديثًا عنها، وكان في حديثه منطِقِيًّا، إذ لم يَقُلْ إنَّ ما وصل إلينا من الشّعر الْجاهِلِيّ منحولٌ كلُّه، ولم يَقُلْ إنَّ كُلَّهُ صحيحٌ لا شَكَّ فيه، بل وقفَ مَوْقِفَ العالِمِ المُتَثَبِّتِ.

موقف المتأخرين من قضيّة النّحل:

بقي الحديث عن هذه الظّاهرة لا يتجاوزُ ما تناولَه ابن سلّامٍ وغَيْرُه مِن العلماءِ إلى أن جاء العصر الحديث، وبدأ اهتمامُ **المُسْتَشْرِقِينَ** بتراثِ الأمّة العربيّة والإسلامِيّةِ لغاياتهم الخاصّة، ثُمّ تأثَّرَ بهم بعضُ العرب، وكان حديثُ المستشرِقينَ عن هذه الظاهرة على ضربَيْنِ: إذ كان بعضُهم نَزِيهًا مُنْصِفًا، وبعضُهم مُغْرِضًا مُسْرِفًا، حتّى إن المستشرقَ الإنكليزيَّ (ديفيد صموئيل مرغليوث) رفضَ كلَّ ما وصلَ إلينا من الشّعر الْجاهِلِيّ جُمْلَةً واحدة، فردَّ عليه عددٌ منهُمْ كالالمانيِّ (تشارلز ليال) في مقدّمتَيْهِ لـ(دِيوان عَبِيدِ بنِ الأَبرص) و(ديوان المفضليات).

وأمّا **العرب** فإنّ أوّل مَن تناول هذه القضيّة في العصر الحديث هو (مصطفى صادق الرّافعيّ) سنة ١٩١١م في كتابه (تاريخ آدابِ العرب)، فجمع أكثرَ ما رواهُ القدماء، ونظر فيه ورأى أن يقفَ عند ما وقفوا؛ ثمّ جاء الدّكتور (طه حسين) فألّف كتابه (في الشّعر الْجاهِلِيّ) سنة ١٩٦٢م، وأخذ فيه آراء مرغليوث وصاغها صياغةً جديدةً مستغلًّا ما قاله القدماء كابنِ سلّام وما جمعَه الرافعيّ مِن مُعاصِريهِ، فعمَّمَ الأحكامَ المُفْرَدَة، واتّخذ الخبرَ الواحدَ قاعدةً عامّةً، وحمَّل الأخبارَ ما لا تَحْتَمِل، وانتهى إلى رأيٍ قريبٍ مِن رأيِ مرغليوث، إذ جعل أكثرَ ما في أيدينا مِن الشّعر الْجاهِلِيّ ليسَ لأهلِ الْجاهِلِيّة.

فحرّكَ كتابُه هذا عددًا مِن العلماء، فردُّوا عليه، ومنهم: محمّد الخضر حُسَيْن في كتابه (نقض كتاب في الشّعر الْجاهِلِيّ)، والرافعيُّ في بعض فصولِ كتابه (تحتَ رايةِ القُرآن)، ومحمّد الخضريّ في كتابه (محاضرات في بيان الأخطاء العلميّة التاريخيّة الّتي اشتمل عليها كتاب في الشّعر الْجَاهليّ)، ومحمّد الغمراويّ في كتابه (النّقد التّحليلي لكتاب في الأدب الْجاهِلِيّ)،

ووضَعُوا القضيَّة في إطارِها الصّحيح الَّذي لا يختلف عمّا ذهب إليه ابنُ سلّام، وهو أنَّ الشّعر الَّذي نُسِبَ إلى مَن كانُوا قبلَ الإسلامِ على ثلاثة أضرب: ضرب صحيح لاشكّ فيه رواه العلماءُ الثّقات، وضرب موضوع منحول يقعُ مُعظَمُه في كتب القُصّاص على ألسِنَةِ الأنبياءِ والأممِ البائدةِ، وضرب مُختَلَف فيه، فهذا مَوْضِعُ أَخْذٍ ورَدٍّ ولا يجوزُ الحكمُ على صِحَّتِه أو نَحْلِه إلّا بدليلٍ قاطع.

خامساً: الاضطراب في نسبة الشّعر

مِنْ المُشكلات الّتي تعترضُ دارِسَ الأدبِ القديمِ عامّةً مشكلةُ **الاضطراب**، وهذه المشكلة تتعلّق بثلاثة جوانب، **فجانبٌ يتعلّقُ بالاضطرابِ في أسماء الشُّعراء وأنسابهم**، مِن تصحيفٍ وتحريفٍ وخَلْطٍ في الأنساب، **وجانبٌ يتعلّق بالاضطرابِ في روايةِ مَتْن الشِّعر**، مِن حيثُ اختلافُ الرِّوايةِ والتّصحيفُ والتّحريفُ والخَلَلُ في الوزن، **وجانبٌ يتعلّق بالاختلافِ في نسبةِ الشِّعر** إلى هذا الشّاعر أو ذاك.

فأمّا الجانبانِ الأوّلان فموضعُ معالجتهما يكونُ في تراجمِ الشُّعراء وفي تحقيق الشِّعر، وأمّا الجانب **الثّالثُ فهو الَّذي يَعْنِينا هنا**، لأنّه يتعلّق بتوثيق الشّعر؛ إذ لا بُدَّ لدارسِ الأدب مِن أن يميّز شعرَ الشّاعرِ مِن شعرِ غيرِه، لأنّ هذا التّمييز يُوقِفُه على ما يجوز له الاستشهاد به في دراسة أَغْراضِ الشّاعر وخصائصِ شعرِه وظَواهِرِهِ الفنّيّة وما لا يجوز الاستشهاد به.

ويرجِعُ وقوعُ الاضطرابِ في نسبة الشِّعرِ إلى أسبابٍ مختلفةٍ، فانتساب الشُّعراء إلى قبيلةٍ واحدةٍ، أو أُسْرةٍ واحدةٍ، وتشابُهُ أسماءِ الشُّعراء، وتشابُهُ قصائدهم، وتشابُهُ أغْراضِهم، كلُّ ذلك قد يكون داعيًا إلى نسبةِ شعرِ هذا الشّاعرِ إلى ذاك، ثُمَّ إنّ الوَهْمَ وقِلَّةَ التَّثَبُّتِ مِمّا يُوقِعُ في مثلِ ذلك؛ ولهذا يُقْسَمُ الشّعرُ المُضْطَرِبَ النّسبةِ خَمْسَ فِئاتٍ بِحَسَبِ سببِ الاضطراب:

١- الاضطرابُ بسَبَبِ وَحْدَةِ النَّسَب:

قد يقع الاضطراب في هذه الفئة بين الشّاعر وأبناء أسرته، أو بينه وبين سائر شعراءِ قبيلته، وهذانِ مِثالانِ يُبَيِّنانِ ذلك، أوّلهما قصيدةٌ مطلَعُها:

جَزاني جَزاهُ اللهُ شَرَّ جَزائِهِ ... جَزاءَ سِنِمّارٍ وما كانَ ذا ذَنْبِ

وهي في عَشَرَةِ أبيات، نُسِبَتْ في (تاريخ الطَّبَريّ) لِعَبْدِ العُزَّى بنِ امرِئِ القَيْسِ الكَلْبِيِّ، قالَها وقد أرادَ الحارثُ بنُ ماريَةَ الغَسّانيُّ قَتْلَهُ وغَزْوَ قَوْمِهِ في خَبَرٍ ساقَهُ الطَّبريّ، فأرسلَ عبدُ العُزّى هذه القصيدةَ مَعَ ابنَيْهِ شَرَاحِيلَ وعَبْدِ الحارِث؛ وجاءَ بَعْضُها منسُوبًا إلى عبدِ العُزَّى في

عدَدٍ مِنَ المَصادِرِ لَدَى كلٍّ مِن: ابنِ الكلبيّ والأصفهانيّ وأبي عُبَيْدٍ البَكريّ وابنِ الشَّجَرِيِّ وعبد القادِرِ البَغْدَادِيّ وابنِ خَلِّكَانَ، وقصُّوا خَبَرَه؛ في حينَ نَسَبَ الثَّعالِبِيُّ في كتابه (ثِمار القُلوب) خمسةَ أبياتٍ منها إلى (شُرَحْبِيلَ الكَلْبِيّ) من غَيْرِ قِصَّتِها، واضْطَرَبَ الزّمخشريُّ فنَسَبَ بعضَ الأبياتِ إلى عبدِ العُزّى في كتابِه (ربيع الأبرار)، وتابعَ الثّعالبيَّ فنَسَبَ الخمسةَ الأبياتِ نفسَها في كتابِه (المُسْتَقْصَى في الأمثال) إلى (شُرَحْبِيلَ الكلبِيّ).

فيُلْحَظُ أنّ أقدَمَ مَنْ نَسَبَها هو ابنُ الكلبيّ ثمّ الطّبريّ ثمّ الأصفهانيّ، فنَسَبُوا الشّعر أو بعضَهُ وقَصُّوا خَبَرَه، في حين كان الثّعالِبِيُّ – وهو مُتَأخِّرٌ في الزَّمَنِ– أوّلَ مَن نسبَ بعضَها إلى (شُرَحْبِيلَ الكلبيّ)؛ والظّاهِرُ أنّهُ حَرَّفَ اسمَ (شَرَاحِيلَ بنِ عبدِ العُزَّى) –وكانَ شَراحِيلُ شاعرًا– إلى (شُرَحْبِيلَ) ونسبَ الأبياتَ إليه، فتابَعَهُ الزّمخشريُّ في (المُسْتَقْصَى) ناقِلًا عنه.

والمِثالُ الثّاني هو هذانِ البَيْتَانِ:

مَنْ كانَ ذا عَضُدٍ يُدْرِكْ ظُلامَتَهُ إنَّ الذَّلِيْلَ الَّذي لَيْسَتْ لَهُ عَضُدُ

تَنْبُو يَداهُ إذا ما قَلَّ ناصِرُهُ ويَأْنَفُ الضَّيْمَ إنْ أَثْرَى لَهُ عَدَدُ

فقد نسبَها (بَشِيرُ يَمُوت) إلى الشّاعرِ الجاهِلِيِّ أُمَيَّةَ بنِ أَبي الصَّلْتِ الثَّقَفيِّ في (دِيوانِ أُمَيَّةَ) الَّذي جمعَهُ أوّلَ القرن العِشْرين؛ في حينَ نَسَبَها ابنُ قُتَيْبَةَ في (الشِّعر والشُّعراء) إلى (الأَجْرَدِ الثَّقَفِيّ) وقد وَفَدَ على الخَلِيفَةِ عبدِ المَلِكِ بنِ مَروان، ووافقَه البلاذريّ في (أنساب الأشراف) وبيّن أنّ اسمَهُ هو مُسْلِم بن عبد الله بن سُفيان، كما وافقه الزَّمَخْشَرِيُّ في (المُستَقْصى)؛ ونَسَبَهُما كلٌّ مِن: الجاحظ في (الحيوان والبيان والتبيين) وابن رَشيق في (العُمْدَة) وابنُ قُتيبة في (عُيون الأخبار) إلى (الثَّقَفيّ) بلا تَعْيِينِ اسمِه؛ وجاء في بعض المصادر نسبة البيت الأوَّل مع غيرِه إلى المُسَيَّبِ.

فيُلْحَظُ أنّ مِنَ القدماءِ مَنْ نسبُوهُمَا إلى (الثَّقَفِيّ)، وعَيَّنَ ابنُ قُتَيْبَةَ ذلك الثَّقَفيَّ بأنّه (الأَجْرَد) وأنّه أُمَوِيُّ العَصْرِ، ولكنَّ بَشِيرَ يَمُوت –وهو متأخِّرٌ جِدًّا– نسبَهُما إلى (أُمَيَّةَ)؛

والظّاهِرُ أنّه رأى البيتَيْنِ منسوبَيْنِ إلى (الثَّقَفيّ) عندَ بعضِ القدماء، ولم يقِفْ على تَعْيِينِ ابنِ قُتَيْبَةَ، فظنَّ أنّه أُمَيَّةُ، لأنّه أشهرُ شعراءِ ثقيف.

٢- الاضطراب بسبب تشابُهِ أسماء الشُّعراء :

هذا النّوعُ مِنَ الاضطرابِ مِن أوسَعِها، إذْ قلّما كانَ شاعرٌ مَشهورٌ يُشارِكُهُ غيرُه في اسمِه إلّا نُسِبَ إليه بعضُ شعرِهم؛ فمن ذلكَ هذانِ البيتانِ:

أَتانا ولَمْ يَعْدِلْهُ (سَحْبانُ وائِلٍ) بَيانًا وعِلْمًا بالَّذي هُوَ قائِلُ

فَما زالَ عَنْهُ اللَّقْمُ حتّى كَأَنَّهُ مِنَ العِيِّ لَمّا أَنْ تَكَلَّمَ (باقِلُ)

فقد نسبَهُما الجاحظُ وأَبو هِلالٍ العَسْكَرِيُّ إلى حُمَيْدِ بنِ ثَوْرٍ الهِلاليّ، في حينَ نسبَهُما ابن قُتَيْبَةَ وابنُ دُرَيْدٍ وابنُ عبدِ البَرِّ والبَكْرِيُّ والثَّعالبيُّ وغيرُهم كثيرٌ إلى حُمَيْدٍ الأَرْقَطِ التَّمِيمِيِّ؛ ونقَلَ ابنُ دُرَيْدٍ عن أَبِي عُبَيْدَةَ أنّ الأَرْقَطَ «كانَ هَجَّاءً لِلضِّيْفانِ، فَحَّاشًا علَيْهِم، فنَزَلَ به ضَيْفٌ ذاتَ لَيْلَةٍ، فقال لِامْرَأَتِهِ: نَزَلَ بِكِ البَلَاءُ! فَقُومِي فَأَعِدِّي لَنا شيئًا؛ فجَعَلَ الضّيفُ يأكلُ مُتنفِّجًا ويقول: ما فَعَلَ الحَجّاجُ بالنّاس؟! فلَمّا فَرَغَ قال حُمَيْدٌ: [وأَنْشَدَ أبياتًا منها هذانِ البَيْتانِ]»، ومِنَ العلماء السّابقِينَ مَنْ أنشد للأَرْقَطِ أشعارًا أُخرى في هجاء الأَضْياف، في حين لم يُعْرَفْ عن حُمَيْدِ بنِ ثَوْرٍ شَيْءٌ مِن البُخْلِ؛ وهذا يدلّ على أنّ الأبيات لحُمَيْدٍ الأَرْقَط، وأنّ تشابُهَ اسمِهِ واسمِ حُمَيْدِ بنِ ثَوْرٍ جَعَلَ الجاحظَ وأبا هلالٍ العسكريَّ ينسبانها إلى ابنِ ثورٍ، فإنّه أشْهَرُ مِن الأَرْقَط وأشْعَرُ.

وهذا مثالٌ ثانٍ من هذا الضّرب، وهو هذا البيتُ الَّذي نَسَبَهُ السّيوطيُّ في (المُزْهِر) إلى أُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيّ:

يَظَلُّ يَشُبُّ كِيرًا بعدَ كِيرٍ ويَنْفَخُ دائِبًا لَهَبَ الشُّواظِ

في حين نَسَبَهُ العُكْبَرِيُّ في (التّبيان في شرح الديوان) لأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ القُرَشِيّ، ونسبَهُ الجوهريُّ وابنُ منظورٍ مع بيتٍ آخَرَ في مُعجَمَيْهِما (الصّحاح، ولسان العرب) إلى أميّة بن خَلَف، فقالا: «وقالَ يَهْجُو حسّانَ بنَ ثابتٍ رضِيَ اللهُ عنه:

أَلَـــيْسَ أَبُـــوكَ فِيْنـــا كـــانَ قَيْنًـــا لَـدَى القَيْنـاتِ فِسْـلًا في الحِفـاظِ
يَمانِيًّـــا يَظَـــلُّ يَشُـــدُّ كِـــيْرًا ويَـنْفُخُ دائِبًـا لَـهَبَ الشُّـواظِ»

وبالنّظَرِ إلى أخبارِ حسّان يتبيَّنُ أنّه لم يكن بينَهُ وبين أُمَيَّةَ بنِ أَبي الصَّـلْتِ شَيْءٌ مِنَ الهجاء، على خِلَافِ ما كان بينَهُ وبينَ شُعراءِ قُرَيْش، ومنهم أُمَيَّةُ بـنُ خَلَـفٍ، وفي ديـوانِ حَسّـان عـددٌ مـن القصائد في هجاء ابنِ خَلَفٍ، ومنها قصيدةٌ مَطْلَعُها:

أَتـــانِي عَـــنْ أُمَـــيَّ نَفًـــا كَـــلامٍ ومـا هُـوَ بالـمَغِيْبِ بِـذِي حِفـاظِ
بَنَـــى لِلُّـــؤْمِ فاقْـــتَصَرَتْ يَـــداهُ عَـنِ الـمَجْدِ الرَّفِيْـعِ لَـدَى اللِّفـاظِ
سَأَنْـــشُرُ إِنْ بَقِيْـــتُ لَكـــم كَلامًـــا يُنَـشَّرُ في الـمَجامِعِ مِـنْ عُكـاظِ

وهذا يدلّ على أنّ البيتَيْنِ السّالِفَيْنِ لأُميّةَ بنِ خلَفٍ هجا بهما حسّانَ بـنَ ثابـتٍ، فـردَّ عليه حسّانُ بهذه القصيدة، فوَهَمَ السّيوطيُّ ونسبَهُما إلى أميّةَ بـنِ أَبي الصَّـلْتِ بِسَبَبِ تَشَابُهِ اسْـمَيْهِما لِشُهْرَةِ ابن أبي الصَّلْتِ في الشّعر أكثرَ مِن ابنِ خَلَف.

٣- الاضطرابُ بسبَبِ تشابُهِ القصائد:

هـذا النّـوع مِـنَ الاضـطرابِ مَـأْلُوفٌ أيضًـا، ويقَـعُ في الغالِـبِ في نسبةِ بعـضِ أبيـاتٍ مِـن قصيدةٍ لشاعرٍ ما إلى شاعرٍ لَهُ قصيدةٌ مشهورةٌ تُشـارِكُها في الـوزن والقافيـة، ويقَـعُ أحيانًـا عنـدما يُضَمِّنُ شاعِرٌ مُتأخِّرٌ بيتًا أو أبياتًا من قصيدةٍ لشاعرٍ سابِقٍ.

ومن هذا النّوع التّداخُلُ بينَ قصيدتَيْنِ إحداهما لِامْرِئِ القيس مَطْلَعُها:

خَلِـــيْلَيَّ مُـــرَّا بي عـــلى أُمِّ جُنْـــدُبِ لِنَقْـضِـيَ لُبانـاتُ الفُـؤادِ الـمُعَذَّبِ

والأخرى لعلقمةَ بن عَبَدة الفَحْلِ مَطْلَعُها:

ذَهَبْـتَ مِـنَ الهِجْـرانِ في كُـلِّ مَـذْهَبِ ولـم يَكُ حَقًّا كُـلُّ هذا التَّجَنُّبِ

فقد أنشد أبو عُبَيْدَةَ في (كتاب الخيل) بعضَ أبياتِ علقمةَ وقال: «وقد يُخْلَطُ قولُهُ هذا بشعرِ امرئِ القَيْسِ بنِ حُجْرٍ».

وثَـمَّةَ بيتـانِ لِعَمْـرِو بـنِ عَـدِيٍّ اللَّخْمـيّ ابـنِ أخـتِ جَذيمَـةَ الأَبْـرشِ قـالهما في خَـبَرِهِ الـمشهور حين ضاع، وهما:

صَـــدَدْتِ الكَـــأْسَ عَنّـــا أُمَّ عمـــرِو وكـــانَ الكَـــأْسُ مَجْراهـــا اليَمِيْنـــا

ومـــــا شَرُّ الثّلاثَـــــةِ أُمَّ عمـــــرٍو بِصـــاحِبِكِ الَّـــذي لا تَصْـــبَحِيْنا

فقد نُسِبَ البيتـانِ إلى عمـرِو بـنِ عَـدِيٍّ في كثيرٍ مـن المصـادر الّتي قَصَّـتْ خـبرَ ضـياعِه، ولكـنّهما وَرَدَا في مُعَلَّقـةِ عمـرِو بـنِ كُلْثُـومٍ الـمَشهورةِ (أَلَا هُبِّـي بِصَـحْنِكِ فَاصْـبَحِينا)؛ وفسَّرَ- البَكْرِيُّ وجودَهما في الـمُعَلَّقَةِ بأنَّ عَمْرَو بنَ كُلْثُومٍ ضَمَّنَهما، وإنّما هُـما لِعَمْرِو بنِ عَدِيّ.

٤- الاضطراب بسبَبِ تشابُهِ الأغراض:

يَقَعُ هذا النّوعُ عندَ طوائفَ مِنَ الشُّعراء تتَّفِقُ في أفكارِها ومَذاهِبِها أو في حَياتِها؛ فقد وقع مَثَلًا في أشعارِ الـحُنَفاءِ، وهم طائفةٌ مِن النّاسِ في الجاهليّة كانُوا يَرَوْنَ أنّهم على دِينِ إبراهيمَ عليه الصّلاةُ والسّلام، وكان منهم شُعراءُ كزَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ القُرَشِيّ وأَبِي قَيْسِ بنِ الأَسْلَتِ الأَوْسيّ وأُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفيّ، فكانت أشعارُهم تتَّسِمُ بالطّابَعِ الدّينيّ؛ وممّا وقع الاضطراب في نسبته مِن هذا أبياتٌ مَطْلَعُها:

إلى اللهِ أُهْـــدِي مِـــدْحَتي وثَنائِيـــا وقَـــوْلًا رَصِـــيْنًا لا يَنِـــي الـــدَّهْرَ باقِيـــا

فقد نسبَها محمّدُ بن إسحاقَ صاحبُ (الـمَغازِي والسِّيَر) إلى زَيْدِ بـنِ عَمْـرٍو، فنبَّهَ ابْـنُ هِشَامٍ الحِمْيَرِيُّ حينَ هذَّبَ كتابَ ابنِ إسحاقَ على أنّها لِأُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ لا لِزَيْدٍ.

ووقَعَ أيضًا في أشعارِ الصَّعاليكِ، لِتَشابُهِ حياتهم في الفَقْرِ والْـجُوعِ والصَّـبْرِ والشَّـجاعةِ والعَـدْوِ والإغارة؛ فمِمّا اضطربت نسبَتُه مِن أشعارِهم هذه الأبيات:

ولا تَقْـــبِرُونِي إنَّ قَـــبْرِي مُحَـــرَّمٌ عَلَـــيْكُمْ ولكِـــنْ: أَبْـــشِرِي أُمَّ عـــامِرِ

إذا احْتَمَلُـــوا رأْسِي وفي الـــرَّأْسِ أَكْثَـــرِي وغُـــوْدِرَ عِنْـــدَ الـــمُلْتَقَى ثَـــمَّ سـائِرِي

هُنالِـــكَ لا أَرْجُـــو حَيـــاةً تَـــسُرُّنِي سَـــجِيْسَ اللَّيـــالِي مُبْسَـــلًا بالْـــجَرائِرِ

فقد نُسِبَتْ هذه الأبياتُ إلى تَأَبَّطَ شَرًّا، وإلى الشَّنْفَرَى، والأغلبُ أنّها للشّنْفَرَى.

ويُلْحَظُ هذا الاضطرابُ في بعض أشعار الفُرسان، لشيوعِ رُوحِ الحَماسَةِ والفُتُوَّةِ ووصفِ الحربِ والسّلاحِ والخيلِ في أشعارِهم؛ ومثال ذلك هذه الأبيات:

دَعـــانِي دَعْـــوَةً والخَيْـــلُ تَـــرْدِي فـــما أَدْرِي أَبِاسْـــمِي أَمْ كَنَـــانِي
فكـــانَ إجابَتِـــي إِيّـــاهُ أَنِّي عَطَفْـــتُ علَيْـــهِ خَـــوّارَ العِنـــانِ
فـــما أَوْهَـــى مِـــراسُ الـــحَرْبِ رُكْنِـــي ولكـــنْ مـــا تَقـــادَمَ مِـــنْ زَمـــانِي

فقد رُوِيَتْ لِعَنْتَرَة، ولِعَمْرِو بنِ مَعْدِيكَرِبَ، ولِكَثِيِر بنِ الغريزةِ النَّهْشَليّ، وجميعُهم مِنَ الفُرسانِ الشُّعراء.

٥- الاضطرابُ بسبَبِ الوَهْم وقِلَّةِ التَّثَبُّتِ:

يَقَعُ هذا النّوعُ من الاضطراب كَثِيرًا في المصادرِ الّتي تحتاج إلى الشّاهدِ الشّعريّ في اللُّغةِ والنّحوِ والبَلاغةِ والتّفسيرِ والمعاني ونحوِ ذلك، لأَنّ هَمَّ أصحابِها يَنْصَرِفُ في العادة إلى مَوْضِعِ الشّاهدِ مِن البيت، فربّما نسَبَ هؤلاء الشّعرَ إلى غير صاحبِهِ لِقِلَّةِ تثبُّتِهم فعندئذٍ يَقَعُ الاضطراب؛ وكذلك رواةُ الشّعرِ ربّما وقعوا في ذلك؛ وقد يقعُ أيْضًا حينَ يتمثَّلُ شاعرٌ أو عالِمٌ أو غيرُهُما مِمَّنْ لَهُ مُشاركةٌ في الشِّعرِ بأبياتٍ لشاعرٍ آخر، فَيُظَنُّ أنّها مِن شعرِ المُتَمَثِّلِ.

ومِنْ أمثلتِه هذه الأبيات:

جَلَّـــحَ الـــدَّهْرُ فـــانْتَحَى لي وقِـــدْمًا كـــانَ يُنْحِـــي القُـــوَى عـــلى أَمْثـــالِي
يُـــدْرِكُ التِّمْسَـــحَ الـــمُوَلَّعَ في اللُّجْـــ ـــجَةِ والعُصْـــمَ في رُؤوسِ الْـــجِبالِ
وتَصَـــدَّى لِيَـــصْرَعَ البَطَـــلَ الأَرْ وَعَ بَـــيْنَ العَلْـــمَاءِ والـــسِّرْبالِ

فقد نقَلَ الأزهريُّ في (تهذيبِ اللُّغة) نِسْبَةَ الأبياتِ عن (شَمِرٍ) -وهو عالِمٌ لُغويٌّ جليلٌ- إلى زُهَيْرِ ابنِ جَنَابٍ الكَلْبِيّ، واستشهدَ بها على أنّ (العَلْمَاءَ) -بالمِيم- مِن أَسْماءِ

الـدُّروع، ونَقَـلَ الأَزْهَـرِيُّ عـن خالـدِ بـنِ كُلْثُـومٍ الكَلْبِـيِّ أنَّـه استَشْـهَدَ بالبيـت الثّالـث عـلى أنَّ (العَلْهَاء) –بالهاءِ– ثَوْبَانِ يُنْدَفُ فيهما وَبَرُ الإِبِلِ يَلْبَسُهُما الـمُقاتِلُ تحتَ الدِّرْعِ، ونسبَهُ إلى عَمْرِو بنِ قَمِيئَةَ؛ والصّحيحُ ما ذهبَ إليه خالدُ بنُ كُلْثُومٍ، لأنَّه أَحَدُ رواةِ الشِّعر والأخبار، ومِنْ عُلَـماءِ بَنِـي كَلْـبٍ، فمِـنَ الـمُسْتَبْعَدِ أن يُخْطِئَ في نسبةِ بيتٍ هـو لـزهَيْرِ بـنِ جَنَـابٍ وهـو أحـدُ شـعراءِ قومِـه وأشرافِهِم وقادَتِهِم، في حين أنَّ شَمِرًا لُغَويٌّ يُهِمُّه الاستشهادُ بالبيتِ على معنَى لَفْظٍ مِن الألفـاظ؛ ويُؤكّد ذلك أنّ الأبياتَ جاءت في قصيدةٍ لِعَمْرِو بنِ قَمِيئَةَ في ديوانِه مُتَمَكِّنَةً في مَوْضِعِها.

ومن ذلك هذان البَيْتانِ:

أيَّ يَـــوْمَيَّ مِـــنَ الـــمَوْتِ أَفِـــرْ يَـــوْمَ لا يُقْـــدَرُ أَمْ يَـــوْمَ قُـــدِرْ؟

يَـــوْمَ لا يُقْـــدَرُ لا أَرْهَبُـــهُ ومِـــنَ الـــمَقْدُورِ لا ينجـــو الـــحَذِرْ

فقد نُسِبا إلى عليِّ بنِ أَبِي طالِبٍ رضِيَ اللهُ عنه في كثيرٍ مِنَ الـمَصادِرِ، ونَصَّ بَعْضُها عـلى أنّـه كانَ يتَمَثَّلُ بِهِما، وكان عـليٌّ شـاعِرًا؛ وجـاءَ البيـتُ الأوّلُ مـنهما في صَـدْرِ خمسَـةِ أبيـاتٍ في (أنسـابِ الأشراف) ونسبَها لِلحارِثِ بنِ نَمِرٍ التَّنُوخِيّ.

ومن ذلك هذه الأبيات:

إِذا تَخَـــازَرْتُ ومـــا بِي مِـــنْ خَـــزَرْ ثُـــمَّ كَسَرْتُ الطَّـرْفَ مِـنْ غَـيْرِ عَـوَرْ

أَلْفَيْتَنِـــي أَلْـــوَى بَعِيـــدَ الـــمُسْتَمَرْ كالـــحَيَّةِ الصَّـــمّاءِ في أَصْـــلِ الشَّـــجَرْ

أَحْمِلُ ما حُمِّلْتُ مِنْ خَيرٍ وشَرْ

فقد قالَ الدَّمِيريُّ في (حياة الحيوان الكبرى): «قال عَمْرُو بنُ العاصِ رضيَ اللهُ عنه في صِفَّين: [وأنشد الأبيات]»، في حينَ نسَبَها الـجُواليقِيُّ إلى الأَغْلَبِ العِجْلِيِّ، ونسبَهَا غيرُه إلى العَجَّاج؛ وقالَ ابنُ بَرِّيٍّ فيما نقل عنه صاحِبُ (لسان العرب): «هذا الرَّجَزُ يُرْوَى لِعَمْرِو بنِ العاص، وهُوَ الـمَشْهُورُ، ويُقالُ إنَّهُ لِأَرْطَأَةَ بْنِ سُهَيَّةَ تَـمَثَّلَ بِهِ عَمْرٌو رضي الله عنه».

وليس يُهِمُّ هنا لِـمَنِ الأبيات، وإنّـما الشّـاهِدُ أنَّ الأبيـاتَ نُسِبَتْ إلى عَمْـرٍو، واشـتُهِرَتْ نِسْبَتُها إليه مع أنّه تمثَّلَ بها، وقدكانَ شاعِرًا، فظنَّ أُناسٌ أنّها لَه.

وبـذلك تنتهـي أنـواعُ الاضـطراب بِحَسَـبِ أسبابِها؛ ودارسُ الأدَبِ عنـدما يقـفُ عـلى شَيْءٍ من هـذا الاضـطرابِ يَجِـدُ أمامَـهُ أحيانًـا أدلَّـةً قاطِعَـةً عـلى الوجـهِ الصّـحيحِ في نسـبةِ الشِّـعر، وأحيانًا يجدُ أدلّةً تُرَجِّحُ النّسبةَ إلى هـذا الشّـاعرِ أو ذاك ولكـنْ لا يكـونُ الـمُرَجِّحُ قاطِعًـا، ويقِـفُ أحيانًا أُخْرى أمامَ شعرٍ تتوازَنُ فيه الأدلّةُ فلا يستطيعُ ترجيحَ نسبتِه ويَبْقَى مُتَنازَعًا بـينَ مَـنْ نُسِـبَ إليهم.

وثمّة مَلْحوظَةٌ مُهِمَّةٌ لا بُدَّ مِـنَ التَّنْبِيـهِ عليهـا، وهـي أنّ (الاضـطرابَ) في نسـبةِ الشّـعرِ شيءٌ، و(النّحْلَ) -بِـمَعْنَى الوَضْعِ- شَيْءٌ آخَرُ، فهذا الشّعرُ الَّذي في نسبتِهِ اضـطرابٌ أَغْلَبُـهُ شـعرٌ صحيحٌ ليس موضوعًا على الشُّعراء، بِخِلافِ الشِّعر الـمَنْحولِ، وقـد وقـعَ بعـضُ دارسِي الأدبِ الـمُعاصِرين في مَغَبَّةِ الـخَلْطِ بينَهُما، ولا سيَّما الدُّكتور طه حسين، إِذْ جَعَلَ مِنَ الاختلافِ في نِسْبَةِ الشّعر دَلِيلًا على أنّ هذا الشّعرَ موضوعٌ منحولٌ!

القِسْمُ الثّاني

ظواهِرُ فَنّيّة وأَغراضٌ

في الشّعْرِ الجاهِلِيّ

وقل رب زدني علما
Damascus University

المقطَّعات في الشّعر الجاهليّ

يقِفُ الدَّارسونَ عَلى جوانبَ عدّة عندَ دِراسة الظَّواهِرِ الشّكليّة المتعلّقة بالشّعر الجاهليّ، ومنها: **المناهج الّتي سَلَكَها الشُّعَراء في بناء أشعارهم؛** ومَنْ يتأمَّلْ ما وصلَ إلينا مِنَ الشّعر الجاهليّ يجدْ ثلاثةَ أشكالٍ مُتَمايزةٍ:

– منها ما جاءَ قصائدَ طويلةً في عشرات الأبيات، ذوات مقدّمات معَ الأغراض، ويُسَمّيه النقّادُ بـ(**القصيدة المركّبة**) أو (**المنهج التّقليديّ**).

– وما جاءَ قصائدَ طويلةً في عشراتِ الأبياتِ أيضًا، ولكنّها بلا مقدّمات، ويُسَمّى بِـ(**القصيدة البسيطة**) أو (**منهجِ القصيدة غيرِ التّقليديّ**).

– وما جاءَ قصيرًا، في أبياتٍ قليلة، ويُسَمَّى بمنهج (**المُقَطَّعات**)، وهو جَمْعُ مُقَطَّعة؛ وربّما قيل (**المَقْطُوعات**) أو (**المَقاطِيع**) جمع مقطوعة، أو (**القِطَع**) جمع قِطْعة.

وقد ذهب النقّاد مذاهب عدّةً في الحديث عن: نشأة الشِّعر وعلاقته بالمقطَّعات، وأوّلِ مَن طَوّلَ الشِّعْرَ وقصَّدَ القَصِيدَ وعلاقة ذلكَ بالمُقَطَّعات، والفرقِ بين المقطّعة والقصيدة، وأسبابِ مَيْلِ بعضِ الشّعراء إلى المقطَّعةِ دونَ القصيدة؛ وسيتناول الحديثُ فيما يأتي بعضَ هذه الجوانبِ، مَعَ مناقشةِ بعضِ الآراء، لاستجلاءِ حقيقة هذا المنهج من مناهج بناءِ الشّعر العربيّ في الجاهليّة، ثمّ يقف عند الأغراض الّتي تناولَها الشّعراء في مقطّعاتهم، وينتهي بتناوُلِ بعضِ الظّواهِرِ الفنّيّة العامّة فيها.

أوّلًا – نشأة الشّعر وعلاقتها بالمقطّعات:

ذهب دارسو تاريخ الشّعر إلى أنَّ نشأتَهُ كانت لأسبابٍ أوصلت الإنسانَ إلى هذا الفنّ، واختلفت مذاهبُهم في تحديد هذه الأسباب.

١ – فمنهم مَنْ قالَ: إنَّ **الإنسان الأوَّلَ** كانَ يسكُنُ الكهوفَ ولا يعرفُ زراعةً ولا رَعْيًا، فكانت حياتُه قائمةً على الصَّيْد وجَنْيِ الثّمار، فإذا ما عادَ الأبُ مِنْ رحلتِهِ خاليَ الوِفاضِ عَمَّهُمُ الغَمُّ والحُزْن، فعبّروا عن فرحِهم أو حزنِهم بطرائقَ مختلفةٍ مِنَ الأصواتِ والحركاتِ، وتطوّرت

إلى أن صارت رقصًا وغناءً بعباراتٍ متوازنةٍ، ثمّ صارَتْ العباراتُ موزونَةً على شكلِ مقطّعاتٍ، ثمَّ تطوّرت المقطّعات إلى أن صارت قصائدَ طويلة.

٢- ومنهم مَنْ قالَ: إنَّ **الإنسانَ الأوّلَ** كانَ يَسْمَعُ حفيفَ الشَّجَرِ وخريرَ الماءِ وصفيرَ الرِّيح وتغريد الطَّيْرِ ودَويّ الرَّعد، وهي أصواتٌ ذاتُ إيقاعاتٍ، فجعل يقلّدها ويُحاكيها بكلامِهِ، وتطوَّر ذلكَ التّقليدُ إلى كلامٍ متناسقٍ متوازنٍ، فصاغَ بيتًا مِنَ الشِّعر، ثمّ صاغَ آخَرَ، وهكذا حتّى استطاعَ صياغةَ مقطوعةٍ شعريَّة، فقصيدة.

٣- ومنهم مَنْ رأى أنَّ **الإنسانَ العربيَّ** كانَ إذا ما انطلَقَ وَحيدًا في الصَّحراءِ، وتَداعَتْ أفكارُه وجاشَت إليه نفسُهُ وخواطِرُه فَرَقًا مِنْ وَحْدَتِهِ ومِن الوحوشِ، جعلَ يحدّث نفسَه بصوتٍ مسموعٍ، تَسْلِيَةً لها وتَطْمينًا، وجعلَ يُرَدِّدُ ذلكَ الصَّوتَ ويكرِّرُه ويترنّم به وينسُجُ على مِنوالِهِ، حتّى تشكّلت لديه أبياتٌ قليلة مِنَ الشّعرِ، ويَرَوْنَ أثَرَ ذلكَ في قولِ هِنْدِ بْنَةِ بيّاضةَ بنِ رِياحِ بنِ طارقٍ الإياديّة:

وَعَـــى وعَـــى وعَـــى وعَـــى حَـــرَّ الْـــجَرادُ والْتَظـــى
وامـــتلأَتْ منـــهُ الرُّبـــى يـــا حَبَّـــذا يـــا حَبَّـــذا
الـمُـلْـحِفونَ بالضُّحَى

٤- ومنهم مَنْ رأى أنَّ **الإنسانَ العربيَّ** بَدَأَ باستحسانِ بعضِ العباراتِ المخالفةِ للكلام المألوف، ممّا كان يَجري على ألسنةِ بعضِ العربِ في مُنافَراتِهم ومُفاخَراتِهم وفي سَجْعِ الكُهَّانِ، وفي ذلك كلِّه عباراتٌ مُتوازِنةٌ مسجوعةٌ؛ كقول عامرِ بنِ الطُّفَيْلِ في مُنافَرَةِ عَلْقَمَةَ بنِ عُلاثَةَ: «**واللهِ! لَأَنَا أَرْكَبُ مِنكَ في الحُماة، وأَقْتَلُ منكَ لِلْكُماة، وخَيْرٌ منكَ لِلمَوْلَى والمَوْلاة**»، فقالَ عَلْقَمَةُ: «**واللهِ إنّي أَعَزُّ مِنْك؛ إنّي لَبَرٌّ وإنَّكَ لَفاجِر، وإنّي لَوَفِيٌّ وإنّكَ لَغادِر، فَفِيمَ تُفاخِرُني يا عامِر؟**»، فقال عامر: «**واللهِ إنّي لَأَنْزَلُ مِنْكَ لِلْقَفْرَة، وأَنْحَرُ مِنْكَ لِلْبَكْرَة، وأَطْعَمُ مِنْكَ لِلْهَبْرَة، وأَطْعَنُ مِنْكَ لِلثُّغْرَة**»، وقولِ كاهِنِ بني الحارثِ ينصحُهم أَلَّا يَغْزُوا بَني تَمِيمٍ: «**إِنَّكُمْ تَسيرونَ أَعْقَابا، وتَغْزُونَ**

أحبابا، سَعْدًا ورَبابا، وتَرِدُونَ مِياهًا جِبابا، فَتَلْقَوْنَ عليها ضِرابا، وتكونُ غَنِيمَتُكم تُرابا، فأطيعوا أَمري ولا تَغْزُوا تميمًا»؛ فحفظوا ذلكَ وأمثالَهُ، ثمّ تقدَّمَت بهم الحالُ إلى أَنْ قالوا المقطّعاتِ فالقصائد.

٥- ومنهم مَن رأى أنَّ **الشِّعرَ العربيَّ** ناشئٌ عَنْ فَنّ ترقيصِ الأطفال، إذ كان الرَّجُل أو المرأةُ منهم يحملُ الوَلَدَ ويُرَقِّصُه بأبياتٍ قليلة لِيُفْرِحَهُ ويُدَاعِبَه، كقولِ بعضِهم[1]:

حُزُقَّـــــــةٌ حُـــــــــزُقَّهْ

تَـــــــرَقَّ عَـــــــيْنَ بَقَّـــــــهْ

وقول فاطمةَ بْنَةِ أَسَدِ بنِ هاشِمٍ أُمِّ عَقيلِ بنِ أبي طالب:

إنَّ عَقـــــيلًا كَاسْـــــمِهِ عَقـــــيلُ

وَا بِـــــأَبِي الـــــمُلَفَّفُ الـــــمَحمولُ

ثمّ زادَتِ الأبياتُ، وصاغوا ذلكَ في غيرِ التّرقيص، فنشأتِ المقطّعاتُ فالقصائد.

٦- ومنهم مَنْ رَدَّ نشأةَ **الشِّعرِ العربيّ** إلى الحُداءِ، وهُوَ الغِناءُ للإبلِ كي تَجِدَّ في سَيْرِها، وإلى الغناءِ في الأعمالِ الجماعيّة كحفرِ بئرٍ أو بناءِ بَيْت، وكانتِ البدايةُ بكلماتٍ ردَّدوها فكانت بدايةُ الحُداء، ثمّ المقطّعات الّتي تطوَّرَ عنها الشّعر؛ ويذكرون أنَّ أوّلَ ما كانَ ذلك على عَهْدِ مُضَرَ بنِ نزارِ بنِ مَعَدِّ بنِ عدنان، إذ ضَرَبَ غلامًا لَهُ على يَدِهِ فَجَعَلَ يَصيح: (وَايَدَاه! وايَدَاه!)، فسمعَتِ الإبلُ صوتَهُ فاستعْذَبَتْهُ وجدَّت في سيرِها، فلَفَتَ ذلكَ انتباهَ مُضَرَ، فدَعا إلى أَنْ يُصاغَ مِثْلُ ذلكَ لِيُعِينَ الإبلَ على الإسراع؛ ويكادُ أصحابُ هذا الرأي يُجْمِعُونَ على أنَّ بحر (الرَّجَز) هو الَّذي تطوَّرت عنهُ بقيّةُ بحور الشِّعر.

---

[1] الحُزُقّة: من يُقارِبُ خَطْوَه لضَعْفِ بَدَنِه. وتَرَقَّ: اصْعَدْ. وعَيْن بَقَّة: كنايةٌ عن صِغَرِ العَيْنِ، وقيل: شُبِّهَ بعين البقَّةِ لصِغَرِ جُثَّتِه؛ وقيل (عين بقَّة) اسمُ قصرٍ أو حِصْن؛ أي: اصْعَدْ إلى أعْلاه؛ انظر: لسان العرب وتاج العروس (حزق).

والنّظرُ في هذه الآراء يدلُّ على أنّها ضُروبٌ مِنَ التَّخمينِ ورَجْمِ الظُّنونِ في أمرٍ قديمٍ جدًّا هُوَ في علمِ الغَيْب، ثُمَّ إنّ معظم هذه الآراء يحتوي مغالطاتٍ وأوهامًا لا تصحّ.

– فالحديث عن ترديدِ العربيِّ بعضَ الكلمات حين ينطلق في الصّحراءِ حتّى صارت شعرًا، واستشهادُهم بكلام هند بنت بيّاضة بن رياح بن طارق يَنْقُضُه أنَّ ابنةَ بيّاضةَ قالت ما قالته شعرًا موزونًا تحضُّ به قومَها على القتال، لا خوفًا من الصّحراء، وما تَكرارُها كلمةَ (وعى) سوى ضَرْبٍ مِنَ التّحريضِ المألوفِ في أشعار الحروب، وأنَّ لها أُختًا قالت شعرًا آخَرَ في تلك المعركة، هو[1]:

نحنُ بَناتُ طارِقْ ... نَمْشي على النَّمارِقْ
مَشْيَ القَطا النَّواتِقْ ... الدُّرُّ في المَخانِقْ
والمِسْكُ في المَفارِقْ ... إنْ تُقْبِلوا نُعانِقْ
ونَفْرِشِ النَّمارقْ ... أَو تُدْبِروا نُفارِقْ
فِراقَ غيرِ وامِقْ

وأنَّ لِهِنْد نَفْسِها شعرًا على البحر الطّويل تقول فيه:

دُعِينا لِأَضيافٍ وقَدْ نَزَلوا بِنا ... رُفَيْدَةُ والقَيْنُ بنُ جَسْرٍ وعامِرُ
وقَدْ نَزَلَتْ بَهْراءُ خَلْفَ بُيُوتِنا ... كما نَزَلَتْ تَبْغي قِرانا الأَساوِرُ

–والحديثُ عن تطوّر الشّعر عن سَجْعِ الكُهّانِ والمُنافَراتِ، يَنْقُضُهُ أنّ الكُهّانَ الَّذينَ يُستَشْهَدُ ببعض عباراتِهم كانت لهم أشعارٌ على أوزانٍ عدّة، ومعنى ذلكَ أنَّ الكهّان كانوا

[1] النّمارق: جمع النُّمْرُقة، وهي الوِسادة. والنّواتق: جمع النّاتق، وهي الّتي سَمِنَت، أو الّتي تهتزّ في مَشْيِها؛ قال النُّوَيْريّ في (نهاية الأرب): «وتُوصَفُ القطا بِحُسْنِ المَشْيِ لِتَقارُبِ خُطاها، والعرَبُ تُشبِّه مَشْيَ النّساءِ الخَفِرات بِمَشْيِها إذا أرادوا مَدْحَهُنّ». والوامِق: المُحِبّ.

يُجيدونَ السَّجْعَ في عباراتهم كما يُجيدونَ فنَّ الشِّعر، وهما فنّانِ مختلِفان، وربّما جمعوا بينهما في كلامٍ واحدٍ، كقَوْلِ الكاهِنِ قُسِّ بْنِ ساعِدةَ الإياديّ في بعض الرّوايات: «**أيُّها النّاس! اسمَعُوا وعُوا، مَنْ عاشَ مات، ومَنْ ماتَ فات، وكلُّ ما هُوَ آتٍ آت؛ لَيْلٌ داج، وسَماءٌ ذاتُ أَبْراج، بِحارٌ تَزْخَر، ونُجومٌ تَزْهَر، وضَوْءٌ وظَلام، وبِرٌّ وآثام، ومَطْعَمٌ ومَشْرَب، ومَلْبَسٌ ومَرْكَب؛ ما لِي أَرى النّاسَ يَذْهَبُونَ ولا يَرْجِعُون، أَرَضُوا بالمُقامِ فأَقامُوا، أَمْ تُرِكُوا فنَامُوا؟ وإِلَـٰهِ قُسِّ بنِ ساعِدَةَ! ما عَلى وَجْهِ الأَرْضِ دِينٌ أَفْضَلُ مِنْ دِينٍ قَدْ أَظَلَّكُمْ زَمانُه، وأَدْرَكَكُمْ أَوانُه، فَطُوبَى لِمَنْ أَدْرَكَهُ فاتَّبَعَه، ووَيْلٌ لِمَنْ خالَفَه**»، ثمّ أَنْشأَ يقولُ:

في الـــــذّاهبينَ الأَوَّلِيـــــنَ مِـــنَ القُـــرونِ لَنـــا بَصـــائِرْ	
لَـــــمّا رَأَيْـــــتُ مَـــــوارِدًا لِلْمَـــوْتِ لَـــيْسَ لـــها مَصـــادِرْ	
ورَأَيْـــــتُ قَـــــوْمِي نَحْوَهـــــا يَـــمْضي الأَصـــاغِرُ والأَكـــابِرْ	
أَيْقَنْـــــــتُ أَنِّي لا مَحـــــــا لَـــةَ حَيْـــثُ صـــارَ القَـــوْمُ صـــائِرْ	

وكذلكَ حالُ أصحابِ المنافرات، فعامرُ بنُ الطُّفَيلِ له أشعارٌ كثيرةٌ مجموعة في ديوانه.

وبقيّةُ الآراءِ تُنْقَضُ وتُرَدُّ مِثْلَ هذينِ الرَّأيَيْنِ، وهذا لا يَعْنِي إنكارَها، ولكن ما مِنْ رأيٍ منها يُسَلَّمُ بأنّه الرّأيُ السَّديدُ الوحيد.

ثانيًا – أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ الشِّعْرَ وقَصَّدَ القصيد، وعلاقةُ ذلكَ بالمقطّعات:

يُطالِعُ النّاظرَ في كتب العلماء القدماءِ كلامٌ عَلَى أَوّلِ مَنْ طَوَّلَ الشِّعْرَ وقَصَّدَ القَصِيد، إذ يجدُ مَنْ ينسِبُ ذلكَ إلى **مُهَلْهِلِ بنِ ربيعةَ التَّغلبيّ**، في عَهْدِ عبد المطَّلِب وأبيهِ هاشِمِ بنِ عبدِ مَنَاف، ومنهم مَنْ يَنْسِبُهُ إلى **الأَفْوَهِ الأَوْدِيِّ** مِنْ شعراءِ مَذْحِجَ اليمنيّين، أو إلى غيرِهِما مِنَ الشُّعراء؛ ويقولون: إنّ الشّعراءَ العربَ الأوائلَ لم يكن لهم قبلَ ذلكَ مِنَ الشِّعْرِ سِوَى الأبياتِ القليلةِ يقولُها الرَّجُلُ في حاجَتِه، ومعنى ذلكَ أَنَّ الشِّعْرَ كانَ مُقطَّعاتٍ لا تبلُغُ أن تكونَ قصائد.

واستجلاء هذا الأمر يستَدْعي الرُّجوعَ إلى الأشعارِ الّتي قالها الشّعراء الَّذين كانوا قبلَ مهلهلٍ والأفْوَهِ أو غيرِهما مِمَّن نُسِبَ إليْهِم تطويل الشّعر، أَو عاصَرُوهم؛ ففي المصادِرِ أشعارٌ قديمةٌ صحيحةُ النِّسبةِ، وهيَ أَشعارٌ مرتبطةٌ بحوادثَ مُهِمَّةٍ أو بأفرادٍ كانوا أعلامًا في قبائِلهم، أَو هِيَ أَشعارٌ متعلّقَةٌ بأَمثالٍ سَارَتْ على أَلسنةِ العربِ وحَفِظُوا مُنَاسَبَاتِها وأَسماءَ قائليها، والأمثالُ وقِصَصُها مَظِنَّةٌ أَنْ تُحْفَظَ وتدومَ مئاتِ السِّنين.

فمن ذلك الشِّعر القديم الصّحيح أبياتٌ قالَها جَذِيمةُ الأَبْرَش، وهو أَحَدُ ملوكِ العربِ بالعراق كانَ في القرنِ الثّالثِ الميلاديّ، وقد أَوْقَعَ بعضُ ملوكِ اليمنِ بكتيبةٍ مِنْ كتائبِهِ فأَبادَها، فرثاهم بقوله (مِن بحرِ المَدِيد):

رُبَّما أَوْفَيْتُ في جَبَلٍ ... تَرْفَعَنْ ثَوْبِي شَمالاتُ

في فُتُوٍّ أَنا رابِئُهُمْ ... هُمْ لِذي العَوْراتِ صِتّاتُ

لَيْتَ شِعْرِي ما أَطافَ بِهِمْ ... نَحْنُ أَذْلَجْنا وهُمْ باتوا

ثُمَّ أُبْنا غانِمينَ وكَمْ ... مِنْ أُناسٍ قَبْلَنا ماتوا

وفي زمَنِ جَذيمةَ ضاعَ ابنُ أُخْتِهِ (**عَمْرُو بنُ عَدِيٍّ اللَّخْمِيُّ**) – وهُوَ الَّذي وَلِيَ المُلْكَ بعدَ جَذِيمةَ وكان بنوه وأحفادُه ملوكَ الحيرةِ إلى أن جاءَ الإسلام – وكان صغيرًا حينَ ضاعَ، ثمَّ وَجَدَه رَجُلانِ مِن بني أَسَدٍ (مالِكٌ وعَقِيل) وقَدِما بِهِ إلى خالِهِ، فهيَّأَتْهُ أُمُّهُ وأَلْبَسَتْهُ طَوْقًا، فلمَّا دَخَلَ على خالِهِ قالَ: (شَبَّ عَمْرٌو عَنِ الطَّوْق) فذهب قولُهُ مَثَلًا، وجَعَلَ الرَّجُلَيْنِ نَدِيمَيْنِ لَهُ، وهُما (نَدِيما جَذِيمةَ) اللَّذانِ ضَرَبَتْ بهما العَرَبُ المَثَلَ في طولِ الاجتماع؛ وكانت مَعَهُما حينَ وَجَدا عَمْرًا جاريةٌ تُكْنَى أُمَّ عَمْرٍو، فكانت إذا أَرادَتْ أَن تَسْقِيَهما الخَمْرَ – وهُم في الطَّريقِ إلى جَذيمَةَ – تَصْرِفُ الكَأْسَ عَنْ عمرو، فقال (مِن بَحْرِ الوافر):

صَرَفْتِ الكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرِو وكانَ الكأْسُ مجراها اليَمِينَا

وَما شَرُّ الثَّلاثَةِ أُمَّ عمرٍو بِصاحِبِكِ الَّذي لا تَصْبَحينا

ثُمَّ أَدْخَلَ عَمْرُو بنُ كُلْثُومٍ التَّغلبيُّ هذين البيتَيْنِ في معلَّقَتِهِ المَشْهُورة.

وقبلَ دَهْرٍ مِنْ زَمَنِ جَذِيمةَ كانَ **حَزِيمةُ بنُ نَهْدٍ القُضَاعيّ** –ويُقال في اسمه (خُزَيْمة)، ونَهْدٌ أبو قَبيلةٍ مشهورة– وكانَ يَعْشَقُ فاطمةَ بْنَةَ يَذْكُرَ بنِ عَنَزَةَ بنِ أَسَدِ بنِ رَبيعةَ بنِ نزارِ بنِ مَعَدّ، وكانوا جميعًا مُقِيمينَ في تِهامَةَ، فقالَ حَزيمةُ فيها (مِن بحرِ الوافر)[1]:

إِذا الْجَوْزاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيّا ظَنَنْتُ بِآلِ فاطمةَ الظُّنونا

ظَنَنْتُ بها، وظَنُّ المَرْءِ حُوبٌ وَإِنْ أَوْفى وإِنْ سَكَنَ الحَجونا

وَحالَتْ دونَ ذلكَ مِنْ هُمومي هُمومٌ تُخْرِجُ الشَّجَنَ الدَّفينا

أَرى ابنَةَ يَذْكُرٍ ظَعَنَتْ فَحَلَّتْ جَنُوبَ الحَزْنِ يا شَحطًا مُبينا!

ثمَّ إنَّ حَزيمةَ ويذكُرَ خَرَجا يَطْلُبانِ القَرَظَ –وهو نباتٌ لِدَبْغِ الجلود– فكانَ حَزِيمةُ سَبَبَ مَوْتِ يَذْكُر، وغابَ أَثَرُهُ، فَلَمْ يَعْلَمُوا ما أَصابَهُ حتى قالَ حَزِيمةُ (مِن بحر المتقارِب)[2]:

فَتاةٌ كأَنَّ رُضابَ العَصيرِ بِفيهَا يُعَلُّ بِهِ الزَّنْجَبيلُ

قَتَلْتُ أباها عَلى حُبِّها فَتَبْخَلُ إِنْ بَخِلَتْ أَوْ تُنيلُ

فثارتِ الحربُ بينَ حَيَّيْهِما، فَقُهِرَتْ قُضاعةُ وأَجْلَتْ عَنْ تِهامَةَ، **وكان ذلكَ أوّلَ افتراقِ وَلَدِ مَعَدِّ بنِ عدنان**؛ وضُرِبَ المَثَلُ بِغيابِ يَذْكُرَ، فقالوا فيما لا يكونُ: (حَتّى يَؤُوبَ قَارِظُ عَنَزَةَ).

ومِنْ ذلكَ الشّعر القديمِ الصَّحيح أَبياتٌ **لِدُوَيْدِ بنِ زَيْدِ بنِ نَهْدٍ**، وكانَ عُمِّرَ طَويلًا، فقالَ حينَ حَضَرَتْهُ الوفاةُ (مِن بحر الرَجَز):

---

[1] الحُوب: الذَّنْب. والحَجُون: جَبَلٌ في مكّة المكرمة كانت فيه مقابِرُ أهلِها. والشَّجَنُ: الحُزْن. والدَّفينُ: المدفونُ داخلَ قلبِه. وظَعَنَتْ: سافَرَت ورحَلَتْ. والشَّحَطُ: البُعْدُ.

[2] أرادَ بِرُضابِ العصير: الخَمْرَ. وفُوها: فَمُها. ويُعَلُّ: يُسْقَى مرّةً بعدَ مرَّةً، يريد أنَّه يُمْزَجُ به.

اليـــومَ يُبْنَـــى لِدُوَيـــدٍ بَيْتُـــهُ يـــا رُبَّ عَبْـــلٍ حَسَـــنٍ ثَنَيْتُـــهُ
ومِعْصَـــمٍ مُوَشَّـــمٍ لَوَيْتُـــهُ ومَغَـــنَمٍ في غَـــارةٍ حَوَيْتُـــهُ
لَـــوْ كـــانَ لِلـــدَّهْرِ بِـــلًى أَبْلَيْتُـــهُ أَوْ كـــانَ قِـــرْنِي واحـــدًا كَفَيْتُـــهُ

ومِثْلُ هذا أنَّ **مُنَبِّهَ بنَ سَعْدِ بنِ قَيْسِ عَيْلانَ** – وهُوَ أَحَدُ آباءِ القبائل، ومِن بَنِيهِ بَنُو غَنِيٍّ وباهلَةُ– كانَ قَدْ عُمِّرَ زَمَنًا، فقالَ (مِن بحرِ الكامل):

قالَـــتْ عُمَـــيْرَةُ: مـــا لِرَأْسِـــكَ بَعْـــدَما نَفِـــدَ الشَّـــبابُ أَتـــى بِلَـــوْنٍ مُنْكَـــرِ؟
أَعُمَيْرَ! إنَّ أَبـــاكِ غَيَّرَ رَأْسَـــهُ مَـــرُّ اللَّيالي واختلافُ الأَعْـصُرِ

فَلُقِّبَ لِهَذا البيتِ بِـ(**أَعْصُر**).

ومِنْ قُدَماءِ الشُّعراءِ الَّذينَ حُفِظَتْ لَـهُمْ أَشعارٌ ليسَتْ بالقليلةِ: **زهير بنُ جَنابٍ الكلبيُّ** القُضَاعيُّ، ومِن شعرِه قصيدةٌ قالَها حينَ غَزا بكرًا وتَغْلِبَ وأَسَرَ مُهَلْهِلًا قبلَ أَن تتفرَّقَ القبيلتانِ، ومطلَعُها (مِن بحرِ الخفيف):

حَـيِّ دارًا تَغَيَّـرَتْ بالْجَنـابِ أَقْفَـرَتْ مِـنْ كَواعـبٍ أَتْرابِ

ويقولُ فيها:

أَيْـنَ أَيْـنَ الفِـرارُ مِـنْ حَـذَرِ الـمَوْ تِ وإِذْ تَتَّقـــــونَ بالأَســـــلابِ؟

وهي قصيدةٌ.

فهذه أمثلةٌ مِنَ الشِّعر القديمِ الصّحيح لِشُعَراءَ سبَقُوا مُهَلْهِلًا والأفوهَ أو عاصَرُوهُما، وهو أكثر مِن ذلك، ثمَّ جاءَ مَنْ تَلاهُمْ مِنَ الشّعراءِ، فَحُفِظَتْ لَـهُمْ أَشْعَارٌ، منها ما هو قصائدُ ذواتُ مقدّمات، وقصائدُ بلا مقدّمات، ومقطّعاتٌ، وهي أشعارٌ مُتَفاوِتَةٌ في كَثْرَتِها بحَسَبِ قيمةِ الشِّعر والشّاعر والحوادث المتعلّقة بِهِما.

وتظهرُ عند النّظر في هذه الأشعار وفي غيرها ممَّا وَصَل إلينا مِنَ الشّعر القديم الصَّحيح ثلاثَةُ أمور:

أَوّلُها: أَنَّ معظَمَها قليلَةُ الأبيات، ولكنْ ليسَ مِنَ الضَّرورة أَنْ تكونَ كلُّها مِنَ المقطَّعات، فقد تكونُ بقايا قصائدَ لم تَحفظِ العربُ منها سوى هذه الأبيات وسَقَطَ سائرها، ويُؤكِّدُ هذا أَنّ مِنْ بينِ هؤلاء الشُّعراءِ مَنْ لَهُ قصائدُ طويلةٌ، مثلُ زهير بن جَنَابٍ، إذ لَهُ قصيدةٌ تزيدُ على عِشرينَ بيتًا، ابتدأها بالغَزَلِ وذِكرِ طَيْفِ صاحبتِهِ سَلْمَى، فقالَ (مِن بحر الطّويل)[1]:

أَمِنْ آلِ سَلْمى ذا الخَيالُ المُؤَرِّقُ وقَدْ يَمِقُ الطَّيْفَ الطَّروبُ المُشَوَّقُ

وَأَنَّى اهْتَدَتْ سَلْمى وَ سائِلَ بَيْنَنا وما دونَها مِنْ نَفْنَفِ الأَرضِ يَخْفِقُ

وبَلَغَ مطلَعُ القصيدةِ هذا أَحَدَ عَشَرَ بيتًا، انتقل بعدَه إلى العِتابِ والفخرِ ووَصْفِ المعركة.

وثانيها: أَنَّ هذه الأشعارَ القديمة لم تأتِ على بحرٍ واحدٍ من بحور الشِّعر، فإنَّ منها ما هو مِنَ الطّويل أو المتقارِب أو الوافر أو البسيط أو الرَّجَز أو الكامل أو المديد أو الخفيف؛ وهذا يَعني أَنَّها ابنةُ مرحلةٍ متقدّمة مِن مراحلِ الشِّعر العربيّ، كانت فيها الأوزانُ قد نَضِجَتْ واستقرَّتْ وصِيغَتْ عليها أشعارٌ كثيرةٌ قبلَ هذهِ الأشعار.

وثالثُها: أنّ هذه الأشعار قِيلَتْ في أغراضٍ مختلفة، مِنْ رثاءٍ وحكمةٍ وغَزَلٍ وهجاءٍ وحماسةٍ وفَخْرٍ وعِتاب، وهي أغراضُ الشّعر المعروفةُ؛ بل إنَّ بعضَ ذلكَ الشِّعر لم يكن في غرضٍ واحدٍ، فقافِيَّةُ زُهَيْرِ بنِ جَنَابٍ فيها الغَزَلُ والوصفُ والعِتابُ والفَخْر، ومثلُها قصيدةٌ عينيّةٌ مشهورةٌ لِلَقِيطِ بنِ يَعْمُرَ الإياديِّ أَرسلَها إلى قَوْمِهِ يُحَذِّرُهم مِن جيشٍ للفُرْسِ يريد غَزْوَهُمْ، ومَطْلَعُها (من بحر البسيط):

يا دارَ عَمْرَةَ مِنْ مُحْتَلِّها الْجَرَعا هاجَتْ لِيَ الهمّ و الأحزانَ و الوَجَعا

وقد زادت على خمسين بيتًا، والشّاعِرُ مِمَّنْ كانَ في القَرْنِ الرّابعِ الميلاديّ.

---

[1] يَمِقُ: يحبُّ، وقَدْ وَمِقَهُ يَمِقُهُ إذا أَحَبَّهُ. والطَّيْف: خيالُ المحبوبة. والطَّروب: الَّذي يَهُزّه الطّرَب والشوقُ والوَجْد. والوسائل: الطُّرُق. والنَّفْنَف: الصّحراء الّتي لا ماءَ فيها ولا شجر. ويَخْفِق: يضطرب.

وما سَبَقَ يَعني أنَّ الـمُقَطَّعةَ والقصيدةَ كانَتَا تَسيرانِ جَنْبًا إلى جَنْبٍ، في هذا الزَّمَنِ الَّذي وصلت إلينا أَشعارٌ قليلةٌ منه، وأنَّ الشِّعر لم يكن في مراحِلِ طفولتِهِ الأُولى، بل هُوَ شعرٌ ناضجٌ في تقاليدِهِ ولُغَتِهِ وأوزانِه.

ولهذا لا يجوز التَّسليمُ للعلماءِ الَّذينَ جعلوا مُهَلْهِلًا أَو غيرَهُ أَوَّلَ مَنْ طَوَّلَ الشِّعرَ وقصَّدَ القَصِيدَ، ولكنَّ لَهُمْ عُذرًا فيما ذَهَبُوا إليه، وذلك لأَنَّهم وَجَدُوا ما وَصَل إليهم مَنَ الشِّعْرِ على هذه الحالِ مِنَ الـقِصَرِ، ووَجَدُوهُ شعرًا قليلًا، ووَجَدُوا لِلمُهَلْهِلِ أو غَيْرِهِ قصائدَ عدّةً طويلةً، فَظَنُّوا ذلكَ الظَّنَّ، ولم يتنبَّهُوا على ضَيَاعَ كثيرٍ مِنَ الشِّعرِ مَعَ تَقادُمِ الزَّمانِ واختلافِ الأحوال، إلّا ما كان من تنبُّهِ ابنِ الكَلْبيِّ بإحساسِ الـمؤَرِّخ في كتابِه (الأصنام)، فقد ذكَرَ أنَّ العَرَبَ لَمْ تحفَظْ مِن أشعارِها إلّا ما كانَ قريبَ عَهْدٍ مِنَ الإسلام؛ وهذا العهد الَّذي يُشيرُ إليه يَمْتَدّ إلى قَرِيبٍ مِنْ مئةٍ وخمسين سنةً أو مئتَيْنِ وخمسِين قبلَ الإسلام، وأَمّا ما قبلَ ذلكَ فلم يصلْ إلينا مِنْهُ إلّا القليلُ النّادِر.

وعندَ النّظَرِ إلى ما وصل إلينا من شعر الجاهليّةِ القريبةِ من الإسلام يتبيّنُ أنّ الشّاعرَ منهم يقول القصيدةَ ويقولُ الـمقطَّعةَ معًا، بحَسَبِ أحوالِهِ ودَواعي الشِّعر لَدَيه، وهي دواعٍ مختلفةٌ في أغراضٍ متعدّدة.

ثالثًا- متى يُعَدُّ الشِّعْرُ مُقَطَّعةً، ويُعَدُّ غيرَهُ قصيدةً؟

هذا سؤالٌ اشتغل به عددٌ من العلماء والنقّاد العرب القدماء، ورأى كلُّ واحدٍ منهم رأيًا؛ **فالأخفش** يرى أنَّ القصيدةَ ما كانت ثلاثةَ أبياتٍ فما فوق، وهذا يعني أنَّ الـمقطّعةَ ما كانت بيتًا أو بَيْتَيْنِ.

والفرَّاءُ يرى أنَّ القصيدةَ ما بلغ من الشِّعر عشرين بيتًا فما فوق، والـمقطّعة ما كان تسعة عشر بيتًا فما دون.

ويرى **ابنُ جِنِّي** أنّ القصيدةَ ما تجاوز خمسةَ عَشَرَ بيتًا، والـمقطَّعة ما كان خمسةَ عَشَرَ- بيتًا فما دون.

ومن العلماء مَنْ يرى أنَّ القصيدةَ ما بلغ عَشَرَةَ أبيات أو جاوَزَها ولو ببيتٍ واحد، وما دونَ ذلك مقطّعة.

ولكن **أكثرَ النُّقّاد** يَميلون إلى أنَّ القصيدةَ ما جاوز سبعةَ أبياتٍ، وما كان سبعةً فما دونَ فهو مقطَّعة، ولذلك يَرَوْنَ مِنَ العَيْبِ في القوافي أن يُكَرّر الشّاعر الكلمةَ بلفظِها ومعناها في قوافي أبياته قبَلَ سبعةِ أبياتٍ، وهو ما يُسَمِّيه علماءُ العَرُوضِ والقوافي بالإيطاء.

رابعًا – لِمَ يكتفي الشّاعرَ بالمُقَطَّعةِ وهو قادرٌ على القصيدة؟

هذا أيضًا سؤال دار بينَ الشّعراء والنُّقّاد منذ الْجاهليّة، فمِنه قولُ أبي عَمْرِو بنِ العلاء مُفسِّرًا ذلك حين سُئِلَ: «**هل كانتِ العَرَبُ تُطِيل؟ فقال: نعم، لِيُسْمَعَ منها؛ قيل: فهل كانت تُوجِز؟ فقال: نعم، لِيُحْفَظَ عنها**».

ومِن ذلكَ أنّ الخليلَ بنَ أحمدَ الفَراهِيدِيَّ قال: «**يُطَوَّلُ الكلامُ ويُكَثَّرُ لِيُفْهَم، ويُوجَزُ ويُخْتَصَرُ لِيُحْفَظَ**»، وعلّقَ ابنُ رشيقٍ على قولِ الخليلِ فقال: «**وتُستَحَبُّ الإطالةُ عندَ الإعذارِ والإنذار، والتَّرْهِيب والتَّرغيب، والإصلاح بين القبائل، كما فعل الحارثُ بنُ حِلِّزَةَ وزُهَيْر [بنُ أبي سُلْمى] ومَنْ شاكَلَهُما؛ وإلَّا فالقِطَعُ أَطْيَرُ في بعضِ المواضع، والطُّوَلُ لِلمواقفِ المشهورات**».

ومثلُهُ قولُ بعضِ العلماء: «**يَحتاج الشّاعر إلى القِطَعِ حاجَتَهُ إلى الطِّوال، بل هو عندَ المُحاضَراتِ والمُنازَعاتِ والتّمثُّلِ والمُلَحِ أَحوَجُ إليها منه إلى الطِّوال**».

فهذه الأقوالُ تُرْجِعُ السّبَبَ الرّئيسَ إلى **الموقف الَّذي يكون فيه الشّاعر**.

وثَمَّةَ أقوالٌ أُخرى تَدورُ حَوْلَ طُولِ القصائدِ وقِصَرِها، يُستَأْنَسُ بها لِمعرفةِ سببِ المَيْلِ إلى قولِ المقطّعات؛ ومن ذلك أنَّ النابغةَ الذُّبيانيَّ سُئِلَ: لماذا لا تُطيلُ القصائدَ كما أطالَ صاحِبُكَ ابنُ حُجْرٍ [امرؤ القيس]؟ فأجاب: « **مَنِ انْتَخَلَ انْتَقَرَ وانْتَخَبَ**»؛ وهذا يَعني النّابغةَ كانَ ينتخِبُ ما يُلْقِيهِ على النّاسِ انتخابًا يتحرَّى فيه الجَوْدة، ويَحْرِصُ على أن ينفِيَ من شعرِه ما لا يعجِبُه؛ فهو يُرجِعُ قِصَرَ قصائده بالقياس إلى قصائدِ امرئِ القَيْسِ بنِ حُجْرٍ إلى **التَّجويد والتَّثْقِيفِ وانتخابِ الأحسن**.

ومن ذلك أنَّ ابنةَ الـحُطَيْئَةِ سألته: «مَا بالُ قِصارِكَ أكثرُ مِنْ طِوالِك؟ فقال: **لأنّها في الأُذُنِ أَوْلَجُ، وبالأفواهِ أعْلَقُ**»؛ فهو يُراعِي في تقصير قصائده أمرَيْنِ اثنَيْنِ، أوّلُهما **الحرصُ على ألّا يَمَلَّ مَنْ يستمعُ إليه**، وثانيهما **الحرصُ على أن يُحْفَظَ ما يقولُه**، لأنّ القولَ إذا طال كان مَظِنَّةَ النّسيان.

ونحوُ هذا ما كان مِن أبي سفيانَ بنِ الحارث بنِ عبدِ المطَّلِب وقَوْلِه لعبدِ الله بنِ الزِّبَعْرَى: «**حَسْبُكَ مِنَ الشّعرِ غُرَّةٌ لائحة، وسِمَةٌ واضحة**»؛ وفي روايةٍ أنّه قِيلَ لعبدِ الله: «إنّك تُقَصِّرُ أشعارَك؛ فقال: **لأنَّ القِصارَ أَوْلَجُ في المَسامع، وأَجْوَلُ في المَحافِل**»؛ وقالَ تارةً أُخرى: «**يَكْفِيكَ مِن الشِّعرِ غُرَّةٌ لائحة، وسُبَّةٌ فاضحة**».

ونحوُهُ أيضًا جوابُ الفرزدقِ حينَ قيل له: ما صَيَّرَكَ إلى القصائِدِ القِصارِ بعدَ الطِّوال؟ فقال: «لأنّي **رأيتُها في الصُّدورِ أوقَع، وفي المَحافِلِ أَجْوَل**».

وقِيلَ لبعضِ الشّعراء: «لِمَ لا تُطِيلُ الشِّعر؟ فقال: **حَسْبُكَ مِنَ القِلادةِ ما أحاطَ بالعُنُق**».

فهؤلاءِ جميعًا يُرجِعُون الأمرَ إلى **الرَّغبةِ في شُيوعِ شعرِهم، وانتشاره بين النّاس**.

ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ القصيدةَ إذا طالت وكانت جيِّدةً أقلُّ شيوعًا، وفي المعلَّقاتِ وكثيرٍ مِنَ المراثي وبعضِ مُطَوَّلاتِ الفحولِ والصَّعاليكِ مثالٌ واضح على ذلك.

ولا بدّ قبلَ الحديث عن أغراضِ المقطَّعات مِن إعادةِ التّنبيه على أنَّ الشّعراءَ الفحولَ تحتوي أشعارُهم مِنَ المقطّعات مثلَ ما تحتوي مِن القصائدِ الطِّوال، لأنَّ **الشّاعِرَ المتميِّزَ لا يَستغني عن أحَدِ الشَّكْلَيْنِ** في حياتِهِ ومواقفها الّتي يعبِّرُ عنها بشعره؛ على أنَّهُ يُلاحَظُ أنّ **المقطَّعاتِ تكثُرُ في أشعارِ الفُرسانِ والصَّعاليكِ** المشهورين الَّذين لهم دواوينُ، في حين **تَكْثُرُ القصائدُ في أشعار الفحول** المشهورين، وليسَ ذلك بالغريب، فإنّ الفحولَ كانَ الشِّعرُ همَّهُم الَّذي يحرصون على تجويده وتطويله، في حين أنّ الفرسان والصّعاليك يكونُ الشّعرُ نَفَثاتٍ يُعبّرونَ بها في الغالب عن مواقفَ عابرةٍ في حياتهم القلِقَة، ويكونُ الشِّعرُ تَنْفِيسًا عن نُفوسِهِمْ،

أو تَرْشيحًا وتعميقًا لمواقفهم؛ على أنّنا **يجب ألّا نَغْفُلَ عن ضياع كثيرٍ من شعرِهِم**، فوصل إلينا بعض قصائدهم على شكل مقطّعات.

خامسًا – أغراضُ المُقَطَّعات في أشعار الجاهليّين:

يرى النّاظر فيما وصل إلينا من مقطّعات الْجاهليّين أنّها **تكادُ تتعرّض لمعظم أغراض الشّعر المعروفة**، من حماسةٍ وفخر، ورثاء وتَحَسُّرٍ وتفجّع، وهجاءٍ ووَعِيد، ومدحٍ واعتذار، وغَزَلٍ، ووَصفٍ، وحكمةٍ واعتبار؛ وقد مرَّت شواهدُ على **الحماسة** في شعر هند بنةِ بيّاضة الإياديّة، **والتّحسُّر والتّفجُّع** مع **الفخر** في شعر جَذِيمةَ الأبرش، **والغزل** في شعر حَزِيمةَ بن نَهْد.

ومِنَ **الحكمة** المرافقة للنّصيحة قولُ أَوْسِ بنِ حَجَرٍ التّميميّ في رسالةٍ شعريّة:

أيا راكبًا إمّا عَرَضْتَ فبَلِّغَنْ ... يَزيدَ بْنَ عبدِ الله ما أنا قائِلُ
بآيةِ أنّي لَمْ أَخُنْكَ وأنّهُ ... سِوى الحقِّ مهما يَنْطِقِ النّاسُ باطِلُ
فقَوْمُكَ لا تَجْهَلْ علَيْهِمْ ولا تَكُنْ ... لَهُمْ هَرِشًّا تَغْتابُهُمْ وتُقاتِلُ
وما يَنْهَضُ البازي بغَيْرِ جَناحِهِ ... ولا يَحْمِلُ الماشينَ إلّا الحَوامِلُ
ولا سابقٌ إلّا بِساقٍ سَلِيمَةٍ ... ولا باطشٌ ما لم تُعِنْهُ الأنامِلُ
إذا أنتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ والخَنا ... أَصَبْتَ حَلِيمًا أو أَصابَكَ جاهِلُ

وهذه مقطّعةٌ قالَها شاعرٌ حكيمٌ ذو عقلٍ رزينٍ ورَوِيَّةٍ في حياتِهِ وشعرِه، فجاءت مقطَّعةً مُحْكَمَةَ الصُّنْع، بعث بها إلى (يزيدَ) مُمَهِّدًا في بدايتها بأنّه ناصحٌ غيرُ غاشٍّ ولا يقول لَهُ غيرَ الحقّ، ثمّ نَصَحَه بأنْ يحرِصَ على قومِهِ بالبُعدِ عن إيذائهم أو جَرِّ الشَّرِّ إليهم، فإنّهم له كالجناحَيْنِ للطّائر، والأقدام للماشي، والسّاقِ السَّليمةِ للمُسابِق، واليدِ للضّارب، وختَمَها ببيتٍ من الحكمة يُذكّره فيها بأنّ الإقدام على الطَّيْشِ والنَّزَقِ يُؤَدّي بصاحبِه إلى أن يُؤذيَ حليمًا لا يستحقُّ الإيذاء، أو أَنْ يَرُدَّ عليه جاهلٌ بِطَيْشٍ كطَيْشِه ونَزَقٍ كنَزَقِه.

ومن المقطّعات الّتي احتوت على **هجاءٍ ووَعِيدٍ** قولُ زُهَيْرِ بن أبي سلمى المُزَنيِّ، وقد أغار الحارثُ بنُ ورقاءَ الصَّيْداويُّ على قومِهِ فأخذ إبلَهُ وراعيَهُ (يسارًا)، وبلَغَهُ أنَّ بعضَ قومِ الحارث طلبوا إليه أن يَقْتُلَ الرَّاعيَ فأبى، فقال زهيرٌ[1]:

أَبْلِغْ بَني نَوْفَلٍ عنّي، فقَدْ بلَغوا ... مِنّي الحَفيظَةَ لَمّا جاءَني الخَبَرُ

القائلينَ: يَسارًا، لا تُناظِرُهُ، ... غِشًّا لِسَيِّدِهِمْ في الأَمْرِ إذ أَمَروا

إنَّ ابْنَ وَرْقاءَ لا تُخْشَى غَوائِلُهُ ... لَكِنْ وَقائعُهُ في الحربِ تُنتَظَرُ

لولا ابنُ وَرْقاءَ والْمَجْدُ التَّليدُ لَهُ ... كانوا قليلًا، فما عَزُّوا وما كَثُروا

والْمَجْدُ في غَيْرِهِمْ لولا مَآثِرُهُ ... وصَبْرُهُ نَفْسَهُ والْحَرْبُ تَسْتَعِرُ

أَوْلى لَهُمْ ثُمَّ أَوْلى أَنْ تُصِيبَهُمُ ... مِنّي بَواقِرُ لا تُبْقي ولا تَذَرُ

وأَنْ تَعَلَّلَ رُكْبانُ المَطِيِّ بِهِمْ ... بِكُلِّ قافِيَةٍ شَنْعاءَ تُشْتَهَرُ

وزُهَيْرٌ راوِيَةُ أَوْسِ بنِ حَجَرٍ، ومِن ثَمّ نَلْحَظُ في الأبيات براعتَهُ في النَّيْلِ مِنْ بَنِي نَوْفَلٍ وتَخْلِيصِ الحارثِ بنِ ورقاءَ والثناءِ عليهِ معَ أنَّ القومَ قومُه؛ وهذا ليسَ ببعيدٍ مِن شاعِرٍ معروفٍ بتَحْكِيكِ شِعره وتنقيحه وتجويده، فلا شكَّ في أنّ ذلك سيتسَرّب إلى أشعارِه الّتي يقولها على عَجَلٍ، كهذه القطعة الّتي لم يكن الوقتُ يسمح له بتحكيكها وتنقيحها، فقد جاءَتْ مُحْكَمَةً إلّا في بعض عباراتها، كالبيت الثّاني، إذ قدّمَ (يسارًا) ونصبه بفعلٍ محذوفٍ، وجاء بصيغةِ النّفْيِ (لا تناظرُه) وهو يريد النَّهْيَ، ثمّ جاء بعبارة (إذ أمَروا) تَتْمِيمًا للوزن والقافية، وكذلك قوله في البيت الرّابع (وما كَثُروا) جاءَ تتميمًا للوزن والقافية.

ويَحْسُنُ أن يُخْتَمَ الحديث عن منهج المقطّعات بالإشارة إلى بعض الأمور المتعلّقة بها:

---

[1] الحفيظة: الغضَب. لا تناظِرُهُ: لا تؤَخّرْهُ؛ نفيٌ أراد بهِ النّهيَ. والغوائل: جمع الغائلة، وهي الدّاهية. والتّليد: القديم المُتَوارَث. وأَوْلى لهم: عبارةٌ من معانيها التّهديدُ. والبَواقر: جمع الباقِرة، من قولهم: بقر بطنَه إذا شقّه، يريد بها ما يفْسِدُ عليهم حياتَهم؛ ويُروى: (فَواقِر)، وهو جمع فاقِرَة، وهي الدّاهيةُ الّتي تكْسِرُ فَقارَ الظَّهر. وتَعَلَّل: أي تتَعلَّل، بمعنى تتسَلَّى. وشَنعاء: قبيحة.

وأوّلُ أمرٍ يَلْفِتُ الانتباه هو أنّ **هذه المقطّعات جاءت مُحْكَمَةً كاملةَ الصّياغةِ** في لغتها وتراكيبها وأوزانها وسائر مقوّمات الشّعرِ الْجاهليّ.

والأمر الثّاني هو أنّ **المقطّعةَ تكون متلاحمةَ الأجزاء مترابطةَ الأبيات**، وذلك لِوَحْدةِ الموقف المُحرِّض على القول، والهدفِ الَّذي يقصد إليه الشّاعر.

والأمر الثّالث أنّ **المقطّعة تُخَصَّص في العادة لغَرَضٍ واحدٍ**، وهذا يعني أنّها ابنةُ موقفٍ واحدٍ مِن مواقفِ الحياة الّتي يمرُّ بها الشّاعر، لا يسمح لَهُ بإطالةِ القول، فيأتي شعره قصيرًا، معبّرًا عن ذلك الموقفِ وَحدَه؛ ويؤكد ذلك أنّ كثيرًا من المقطّعات كانت رسائلَ شعريَّةً يبدؤُها الشّاعر بعبارةٍ مثلِ (أيا راكبًا إمّا عرضتَ فبلّغَنْ ...) أو (فأبلغْ إنْ عَرَضْتَ ...) أو (أبلغ بني فلان ...) أو نحو ذلك من العبارات الّتي تبدأ بها الرّسائل الشّعريّة.

والأمر الرّابع أنّ **القيمة الفنّيّة للمقطَّعات تتفاوت بين شاعر وآخَر**، فالشّعراء الفحول كأوسِ بنِ حَجَرٍ و زُهَيْرِ بنِ أبي سُلْمَى والنّابغةِ وامرئِ القَيْسِ تكون مقطّعاتُهم أجوَدَ من مقطَّعات مَنْ هُمْ دونَهُم من الشّعراءِ.

والأمر الخامس أنّ **مَثَلَ المقطّعة والقصيدة في الشّعر كَمَثَلِ الأُقصوصَة والقصّة في النّثر**؛ إذ تبتعِدُ الأُقْصُوصةُ عن التّفصيل في الوصف والحوار ونحو ذلك من وسائل البناء الفنّيِّ الّتي يَحْرِصُ عليها القاصُّ في الثّانية.

وبذلك يتبيَّنُ أنَّ (المقطّعات) منهجٌ أصيلٌ مِن مناهج الشُّعراءِ الْجاهليِّينَ، ويكاد يكون معظمُ ما وصل إلينا من قديمِ الشِّعرِ الْجاهليِّ مِنْ هذا المنهج، لا لأنَّ الشُّعراءَ الْجاهليِّين القدماءَ لم يَسْلُكوا منهجَ القصيدة، بل لِضياعِ معظمِ أشعارِهم معَ تَطاوُلِ الزَّمان، وإنّما بقي منها ما لَهُ ارتباطٌ بحوادثَ مُهِمَّةٍ في حياتهم أو بأمثالٍ سارت على ألسنةِ العرَبِ حفظوا ما يتعلّق بها مِن قصص وما رافقها من شعر؛ وأنّ الشّاعرَ لا غِنى له عن صياغة شعرِهِ وأغراضِه المختلفة على منهج المقطّعة كما يصوغه على منهج القصيدة، بأوزان الشّعر المعروفة وبقيّةِ أدواتِه الفنّيّة.

****

مصادر ومراجع للاستزادة:

-كتاب الصّناعتين: لأبي هلال العسكريّ.

- كتاب العمدة: ابن رشيق القيروانيّ.

- العصر الجاهليّ: د. شوقي ضيف.

- المقطّعات الشّعريّة في الجاهليّة وصدر الإسلام: مسعد بن عيد العطويّ.

- الموسوعة العربيّة / المجلّد التّاسع عشر.

المقدّمة الطّلَلِيّة في الشّعر الجاهليّ

تمهيد:

سبق في الحديث عن المقطّعات في الشعر الجاهليّ أنّ الدَّارسينَ يقفون عَلى جوانبَ عدّة عندَ دِراسة الظَّواهِرِ الشّكليّة المتعلّقة بالشّعر الجاهليّ، ومنها: **المناهج الّتي سَلَكَها الشُّعَراء في بناء أشعارهم؛** وأنّ مَنْ يتأمَّلْ ما وصلَ إلينا مِنَ الشّعر الجاهليّ يجدْ ثلاثةَ أشكالٍ مُتَمايزةٍ:

– فمنها ما جاءَ قصائدَ طويلةً في عشرات الأبيات، متعدّدةِ الأغراض، وهو المنهج الَّذي يُسَمّيه النقّادُ بـ(**المنهج التقليديّ**).

– ومنها ما جاءَ قصائدَ طويلةً في عشراتِ الأبياتِ أيضًا، ولكنّها ذاتُ غَرَضٍ واحد، ويُسَمّى بِـ(**منهج القصيدة غيرِ التقليديّ**).

– ومنها ما جاءَ قصيرًا، في أبياتٍ قليلة، ويُسَمَّى بمنهج (**المُقَطَّعات**)، وهو جَمْعُ مُقَطَّعة؛ وربّما قيل (المقطوعات) أو (المَقاطِيع) أو (القِطَع).

وقد اعتاد الشّعراء الجاهليّون إذا أَنشدوا قصائدَ طِوالًا أن يبدؤوا ذلك بمقدّمات، وهذه المقدّمات مهمّة جدًّا، وعبّر ابنُ رَشيق عن هذا بقوله: «**الشِّعْرُ قُفْلٌ، أَوَّلُهُ مفتاحُهُ، وينبغي للشّاعر أَنْ يُجَوِّدَ ابتداءَ شعره، فإنّه أوّلُ ما يَقْرَعُ السَّمْعَ منه، وبِهِ يُسْتَدَلُّ على ما عنده مِن أوّلِ وَهْلَةٍ**»، وذكَرَ اختلافَ مذاهِبِ الشّعراءِ في افتتاح قصائدهم، ثمّ قال: «**وكانوا قديمًا أهلَ خِيامٍ، ينتقلونَ مِن موضع إلى موضع آخر، فلذلكَ أوّلُ ما تبدأُ أشعارُهم بذكر الدّيار**، ...»، وتُعَدُّ المقدّمة الطّلليّة أكثر تلك المقدّمات والمفاتيحِ الّتي وَلَجَ بها الشّعراء الجاهليّون إلى أغراضِهم.

و(**الطَّلَلُ**) واحدُ الأطلالِ، وهي بقايا الدّيار الّتي تَظهرُ شاخصةً ماثِلَةً فوق الأرض، كالأوتاد والأثافيِّ والنُّؤْيِ، ويُطْلَقُ لفظُ (**الرَّسْمِ**) على بقايا الدّيار الّتي تَظهَرُ لاصِقةً بالأرضِ، كبَقايا الرّمادِ والدِّمَنِ وما تَناثَرَ مِنَ الفُرُشِ، وجَمْعُهُ الرُّسُوم؛ ويُرادُ **بالمقدّمة الطّلليّة** ما جاءَ في أشعارهم من وصفِ الأطلالِ والرُّسومِ مَعًا مِن آثارِ الدّيار، وأَثَرِ ذلك في نفس الشّاعر؛

والوقوفُ على الأطلالِ والرُّسومِ وقوفٌ على آثارِ الأحبابِ والأَهْلِ الَّذين كانوا فيها قَبَل أن تُفرِّقَهم الأيّام.

وفيما يأتي **أمثلةٌ مِن هذه المقدّمات** لقراءَتِها وفهمِها، ثُمّ يأتي الحديثُ عن **مَنْشَأِ شعرِ الوُقوفِ على آثار الدّيار**، ودوافعِه، وعلاقتِه بالغزل، **وأوّلِ مَنْ سنَّ هذه السُّنَّة من الشّعراء، وصِدْقِ مَنْ قلَّدوه في ذلك**، ثُمّ الحديث عن **المعاني العامّة والمَعَالم الّتي ذكرَها الشُّعراء**، مع التّنبيهِ على بعضِ طرائقهم في تناول هذه المعاني.

أوّلًا: أمثلةٌ من المُقَدّمات الطَّلَلِيَّةِ، وألفاظها الغريبة، ومعانيها:

المثالُ الأوّل: لامرئ القيس بن حُجْرٍ الكِنْديّ، من مُعَلَّقتِه؛ وهي قصيدةٌ تتَّسِمُ بالحُزْنِ والقلَقِ والحَرَكَةِ المُنتهيةِ إلى الاستقرارِ والرَّاحةِ في مشاهدها كلِّها:

١- **قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوى بَيْنَ الدَّخولِ وَحَوْمَلِ**

٢- **فَتُوضِحَ فالمِقْراةِ، لَمْ يَعْفُ رَسْمُها لِما نَسَجَتْهَا مِنْ جَنوبٍ وَشَمْأَلِ**

٣- **تَرى بَعَرَ الأَرْآمِ في عَرَصاتِها وقِيعانِها كأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ**

٤- **كأَنّي غَداةَ البَيْنِ يومَ تَحَمَّلوا لَدَى سَمُراتِ الحيِّ ناقِفُ حَنْظَلِ**

٥- **وُقوفًا بِها صَحْبي عليَّ مَطِيَّهُمْ يَقولونَ: لا تَهْلِكْ أَسًى وتَجَمَّلِ**

٦- **وإِنَّ شِفائي عَبْرَةٌ إِنْ سَفَحْتُها وهَلْ عندَ رَسْمٍ دارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ**

الألفاظ الغريبة:

١- قفا: يخاطب صاحبَيْن، أو هي (قِفَنْ)، فنطقَ بنون التوكيد الخفيفة ألِفًا في دَرْجِ الكلام كما يُنْطَق بها عند الوَقْفِ. وسِقْطُ اللِّوى: مُنْقَطَعُ الرّمل؛ واللّوى: حيثُ يلتوي الرَّمل ويرِقّ فيُخْرَجُ منه إلى الجَدَد (الأرض الصُّلبة). والدَّخول وحَوْمَل وتُوضِح والمِقْراة: أسماء مواضع.

٢- الرّسم: ما ليس له شخص من آثار الديار. ونسجتها: تعاقبت عليها.

٣- الأرآم: جمع رئم، وهو الظّبي الأبيض. والعَرَصات: جمع العَرَصة، وهي السّاحة. والقِيعان: جمع القاع، وهو الموضع الَّذي يستنقع فيه الماء.

٤- البَيْن: الفِراق. وتحمّلوا: ذهبوا وارتحلوا. والسَّمُرَات: جمع السَّمُرة، ضربٌ من الشّجر له شَوْك. والحنظل: نبات مرّ الثَّمر. ونقفَ الحنظل: استخرج حبَّهُ.

٥- (وقوفًا): جمعُ واقفٍ، وهو حالٌ من (صَحْبي). و (بها) أي بالدّيار. والمَطيّ: جمع المَطيّة، وهي البعير. والأسى: الحزن. وتجمَّل: تكلّف الجميلَ، أي الصّبر.

٦- ويُرْوَى: «عَبْرَةٌ مُهَراقَةٌ». والعَبرة: الدمعة. ومُهراقة: مُراقَةٌ. وسفَحَ الدّمع: أرسله. والمُعَوَّل: مصدرٌ ميميّ بمعنى التّعويل على الشّيء، وهو الاعتماد عليه وانتظار الجدوى منه؛ أو هو مصدر ميميّ بمعنى العَويل وهو البكاء.

المعاني وبعض الأساليب:

في البيت الأوّل: ١- الوقوف على الأطلال واستيقاف الأصحاب. ٢- البكاء. ٣- تذكّر الأحبّة. ٤- تحديد المكان.

لجأ إلى صيغة الأمر، وهو أحد أساليب الإنشاء.

في البيت الثّاني: ١- متابعة تحديد المكان. ٢- ذكر عَفاء الدّيار. ٣- ذكر ما أثّر فيها وعفّاها، وهو إمّا الرّياح وما تَسْفِيه مِنَ الرّمال، وإمّا قِدَمُ العَهْدِ بها.

لجأ إلى النّفي، ليُثبِت أنّ ما عفّى آثار الدّيار هو مرور الزّمن. وهنالك حذف لكلامٍ مقدَّر، وهو: إنّما عفّاها مرور الزّمان. ولجأ أيضًا إلى الاستعارة بقوله: (نسجتها).

في البيت الثّالث: ١- ذكر الحيوان وآثاره في الدّيار، وما يدلّ على استقراره وقِدَمِ عهد النّاس بها.

لجأ إلى التّشبيه.

في البيت الرّابع: ١- تَذَكُّر يوم الفِراق، ٢- وصف حالِهِ وحزنِهِ وبُكائِه غداةَ رحيلِ الأحبّة.

لجأ إلى التّشبيه.

في البيت الخامس: ١- وصف حالِ الشّاعِرِ غداةَ رَحيلِ الأَحبّة، وما كان عليه من حزن وألم شديد؛ أَو وَصْف حالِه الآن. ٢- وقوف الصّحب للتّخفيف من حزنه، وكأنَّهم يلومونَهُ.

لجأ إلى الأمر، وهو من أساليب الإنشاء.

في البيت السّادس: ١- محاولة التّفريج عن النّفس بالبكاء بعد الشّعور باليأس. ٢- الشّعور باليأس.

لجأ إلى التّوكيد بـ(إنّ) وزيادةِ الهاء في (مُهْرَاقة). ولجأ أيضًا إلى الاستفهام، وهو استفهام استنكاريّ يتضمَّنُ معنى النّفي.

المثالُ الثّاني: لزُهَيْرِ بنِ أبي سُلمى المُزَنيّ، من مُعلّقتِه؛ وهي قصيدةٌ تتَّسِمُ بالطُّمَأنينَةِ والارتياح والبحثِ عنهما وعن الْجَمالِ في مشاهدها كلِّها:

١- أَمِنْ أُمِّ أَوْفى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمانَةِ الدُّرّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

٢- ودارٌ لَها بالرَّقْمَتَيْنِ كأَنَّها ... مَراجِعُ وَشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ

٣- بِها العِينُ والأَرْآمُ يَمْشينَ خِلْفَةً ... وأَطْلاؤُها يَنْهَضْنَ مِنْ كلِّ مَجْثِمِ

٤- وَقَفْتُ بِها مِنْ بَعْدِ عِشرينَ حِجَّةً ... فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدّارَ بَعْدَ التَّوَهُّمِ

٥- أَثافيَّ سُفْعًا فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... ونُؤْيًا كجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ

٦- فَلَمّا عَرَفْتُ الدّارَ قُلْتُ لِرَبْعِها: ... أَلا عِمْ صَباحًا أَيُّها الرَّبْعُ واسْلَمِ

الألفاظ الغريبة:

١- أمُّ أوفى: زوجٌ كانت لزُهَيْرٍ، ثـمّ طلَّقها. والدِّمْنة: آثارُ النّاسِ وما سوّدوا بالرّمادِ وغَيْرِ ذلك. ولم تَكَلَّم: لم تتكلم، أراد أنّه سألَها فلم تُجِبْه. الحَومانة: ما غلُظَ من الأرض وصَلُبَ. الدُّرّاج والمتثلَّم والرّقمتان: أسماء مواضع، والرَّقمتان: إحداهما قرب البصرة والأخرى قرب المدينة، وقيلَ: هما موضِعانِ في ديارِ بني أسَد؛ أراد: بينهما.

٢- مَراجِعُ الوَشْم: جَمْعُ (مُرْجَع)؛ ويُروى: «مَراجِيعُ وَشْمٍ» وهو جمعُ (مَرْجُوع)؛ أراد الوشمَ الَّذي أُعيدَ نقشُه مرّةً بعدَ أخرى. والنَّواشر: عُروقُ ظاهرِ الذِّراع. والمِعْصَم: موضعُ السِّوار من يد الإنسان.

٣- العِين: جمعُ العَيْناء، وهي بقرةُ الوحش، لِسِعَةِ عيونها. ويمشينَ خِلْفَة: قَطيعًا خَلْفَ قطيع. والأطلاء: جمع الطَّلا، وهو صغيرُ البقر الوحشيّ أو الظّباء. المَجْثِم: مكان الجثوم.

٤- الحِجّة: السَّنة. و اللّأْي: الجُهْد.

٥- الأثافيّ: حجارةُ المَوْقِد، واحدتها أُثفيَّة. والسُّفْع: السُّود. ومُعَرَّسُ المِرْجَل: مَوْضِعُه، وأصلُ التَّعريس: نزول المسافر ليلًا، وموضعُ نزولِه هو المُعَرَّس. المِرْجَل: القِدْر. والنُّؤْي: حاجز من التّراب يُرفَع حول بيت الشّعَرِ لئلا يدخلَه الماء والهَوامّ؛ يحْفِيرُونَ حَفِيرًا ويرُدُّونَ تُرابَهُ حولَ البَيْت. لم يتثلّم: لم تنكسر حروفه. وجذم الحوض: بقيَّتُه، وحَرْفُه، وأَصْلُه.

٦- الرَّبع: موضع الدّار حيث نزلوا في الرَّبيع، ثـمّ سَمَّوْا كلَّ مَنْزِلٍ رَبْعًا. و(عِمْ صباحًا): دعاءٌ وتحيّة.

المعاني وبعض الأساليب:

في البيت الأوّل: ١- ذكر اسم صاحبة الدّيار (أمّ أوفى). ٢- ذكر إعجام الدّيار (لم تَكَلَّم). ٣- تحديد المكان.

لجأ إلى الاستفهام. واستعار للدّيار الـ(كلامَ)، وإن كانَ نفاه عنها.وهنالك شيء من الكلامِ محذوف (سأَلْتُها).

في البيت الثّاني: ١- متابعة تحديد المكان. ٢- ذكر آثار الدّيار وما بقي منها.

لجأ إلى التّشبيه.

في البيت الثّالث: ١- ذكر الحيوان وأطفاله واستقراره في الدّيار بعد طول عهد الأنيس بها. ٢- وصف الحيوان وصغاره ومتابعة حركاتها.

لجأ إلى الوصف، واستعمل الجملة الاسميّة في أوّل البيت لوصف ثبات الحيوان في الدّار، والجملة الفعليّة لوصف حركتها.

في البيت الرّابع: ١- تحديد الوقت الَّذي وقف فيه، والَّذي مضى على ترك الأنيس لها. ٢- معرفة الدّيار بعد جُهْد.

وقدَّمَ (لأيًا) على الفعل (عرَفْتُ) لأهَمِّيّته وتوكِيدِ جُهدِه.

في البيت الخامس: ١- ذكر آثار الدّيار الباقية (الأثافيّ والنّؤي).

لجأ إلى التّشبيه لبيان حالِ النّؤي، واستعار الـ(مُعَرَّس) للمِرْجَل.

في البيت السّادس: ١- مخاطبة الدّيار والدّعاء لها بالسّلامة والنّعيم.

لجأ إلى الأمر في دعائه؛ فإن كان أرادَ الدّيارَ، فهو دعاءُ المتحسِّرِ الآسِفِ على تغيّرها، وإن كان لأَهْلِ الدّيار المُفارِقينَ لها، فهو دليلٌ على الوفاءِ والشّوقِ؛ وشَخَّصَ الدّيارَ حين خاطبَها خِطابَ العُقَلاء.

المِثالُ الثّالث: لِلَبِيدِ بنِ رَبيعةَ العامريّ، من مُعلَّقتِه؛ وهي قصيدةٌ يَغْلِبُ عليها الافتنانُ والتّنويعُ والنّظَرُ إلى الوَفْرةِ والغِنى والحَرَكةِ في جميع مشاهِدِها؛ ويعمِّقُ ذلك الغنى في موسيقاها الخارجيّة من وزنٍ وقافيةٍ، وموسيقاها الدّاخليّة إذ تَغلِبُ السّلامةُ على تفعيلاتها:

١- عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فَمُقامُها ... بِمَنًى تأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها

٢- فَمَدافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُها ... خَلَقًا كَما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

٣- دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنيسِها ... حِجَجٌ خَلَوْنَ: حَلالُها وحَرامُها

٤- رُزِقَتْ مَرابيعَ النُّجومِ، وصابَها ... وَدْقُ الرَّواعِدِ: جَوْدُها فَرِهامُها

٥- مِنْ كُلِّ ساريةٍ وغادٍ مُدْجِنٍ ... وعَشِيَّةٍ مُتَجاوِبٍ إِرْزامُها

٦- فَعَلا فُروعُ الأَيْهُقانِ، وأَطْفَلَتْ ... بالْجَلْهَتَيْنِ ظِباؤُها ونَعَامُها

٧- والعِينُ ساكنةٌ على أَطْلائِها ... عُوذًا، تَأَجَّلُ بالفَضاءِ بِهامُها

٨- وَجَلا السُّيولُ عَنِ الطُّلولِ كأَنَّها ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أَقْلامُها

٩- أَوْ رَجْعُ واشِمَةٍ أُسِفَّ نَؤُورُها ... كِفَفًا، تَعَرَّضَ فَوْقَهُنَّ وِشَامُها

١٠- فَوَقَفْتُ أَسأَلُها، وكيفَ سُؤالُنا ... صُمًّا خَوالِدَ ما يَبِينُ كلامُها؟

١١- عَرِيَتْ، وكانَ بِهَا الجميعُ فأَبْكَروا ... مِنْهَا، وغُودِرَ نُؤْيُها وثُمامُها

الألفاظ الغريبة:

١- عَفَتْ: انمحت آثارها. والمُقَام: مكان الإقامة الطّويل. والمَحَلُّ: مكان الحلولِ مدّةً قصيرة. ومِنى: اسم مكان غير منَى الّتي هي من مشاعر الحجّ. وتأَبَّد: أَلِفَتْهُ الأوابد، وهي الوَحش. وغَوْلٌ ورِجام: اسما جبلَيْن.

٢- الرَّيَّان: اسم جبل. والمَدافع: الأماكن الّتي تندفع منها المياه، جمعُ مَدْفَع. وعُرِّيَ: جُرِّدَ. والخَلَقُ: البالي. والوُحِيّ: الكتابة. والسِّلام: الحجارة.

٣- الدِّمَن: جمع الدِّمنة، وهي ما اسودّ من آثار الدّيار. وتجرَّم: مَضَى وتقطّع؛ يُقال: (مضى عامٌ مجرَّم) أي:كامل. وأنيسُها: ساكنُها. وخَلَوْنَ: مضَيْن. والحِجَج: جمع الحِجّة، وهي السَّنة. وحلالها وحرامها: شهورُها الحلال وشهورها الحرام.

٤- مرابيعُ النُّجوم: الأنواءُ الرّبيعيّة، وهي المنازل الّتي تحلُّها الشَّمسُ في فصلِ الرّبيع، وهي جمْعُ مِرْباع؛ وأراد بها المطر الَّذي ينزل في الرّبيع. وصابَها وجَادَها: أصابها المطر. والوَدْق: ماء المطر الدّاني من الأرض. والجَوْد: المطر الكثير. والرَّواعد: السّحائب ذوات الرَّعد. والرّهام: المطر الخفيف.

٥- السّارية: السّحابة الّتي تَسري ليلًا. والغادي: السّحاب الَّذي يجيء صباحًا. والمُدجِن: المُسْوَدّ، لكثافته. وعشيّة: أراد سحابةً جاءَت عشاءً. والإرزام: صوت الرّعد.

٦- الأَيْهُقان: نبات شبيهٌ بالفُجْل، أو هو الجرجير البرّيّ. وأطفلت: تكاثرت وأنجبت أطفالًا. والجَلْهتان: جانبا الوادي.

٧- العِين: بقرُ الوحش واسعةُ العيون. وساكنة على أطلائها: يعني أنّها أكلت وشبعت وجلست ترتاح مع صغارها. والعُوذ: الحديثاتُ النِّتاج، وكلّ أنثى عائِذٌ إذا وضعَت، مدّةَ سبعةِ أيّامٍ. والفضاء: المكان الواسع. وتأجّلُ: تَتَأَجَّلُ، حذفَ إحدى التّاءَيْنِ تَخْفيفًا؛ والمعنى: تَمْشي آجالًا، جمع الإجْلِ، وهو الجماعة والقطيع. والبِهام: جمع البَهْمَة، أولاد الضَّأن إذا انفردَتْ، وأراد بها صغار الظّباء والبقر.

٨- زُبُر: جمع زَبور، وهو الكتاب. وتُجِدّ: تُجَدِّد.

٩- رجع واشمة: ما تُرجِعُه الواشمة وتُعيد نقشَه. وأُسِفَّ: ذُرَّ، والإسفاف: الذّرّ. والنَّؤُور: الذَّرور، أراد ما يُذَرُّ فوقَ موضِعِ غَرْزِ الإبَرِ الّتي يُوشَمُ بها. والكِفَفُ: الدّوائر، جمع الكِفّة. وتَعَرَّضَ: ظَهَرَ. والوِشام: جمع الوشم.

١٠- الصُّمّ: الّتي لا تسمع، أو أراد الحجارةَ الصّمّاء الباقية من آثار الدّيار (حجارة الموقد). وخوالد: باقية مقيمة.

١١- عَرِيَتْ: جُرِّدَت، أرادَ أنّها خلَت مِنْ أهلها. وأَبْكَروا: خرجوا بُكرةً. والجميع: يقصِدُ بذلك القبيلة. وغُودِرَ: تُرِكَ. والنُّؤْي: حاجزٌ من التّراب يُرفَع حول بيت الشَّعَرِ لئلا يدخلَه الماء. والثُّمام: ضربٌ من النّبات رِخْو.

المعاني وبعض الأساليب:

في البيت الأوّل: ١- ذكر الدّيار وعفائها. ٢- تحديد المكان. ٣- ذكر استقرار الحيوان فيها بعد ساكنيها.

في البيت الثّاني: ١- متابعة تحديد المكان. ٢- شدةّ عفاء الدّيار حتّى كأنّها جُرِّدَت من كلّ ما يدُلّ عليها، أو كأنَّها الثَّوْبُ البالي.

لجأ إلى الاستعارة والتّشبيه.

في البيت الثّالث: ١- ذكر بعض معالم الدّيار (الدِّمَن). ٢- ذكر السّنين الطّويلة الّتي مرّت عليها بعد خلوّها من أهلها.

في البيت الرّابع: ١- ذكر الأمطار المختلفة الّتي أثّرت في الدّيار.

واستعار الفعلَ (رُزِقَت) للدِّيار.

في البيت الخامس: ١- متابعة ذكر أنواع المطر الّتي أصابتها.

لجأ إلى الاستعارة (مُتَجاوب) لوصف صوتِ الرَّعد المُرافق للسّحاب.

في البيت السّادس: ١- ذكر النّبات (الأَيْهُقان) المنتشر بعد ما أصابها مِنَ المطر. ٢- ذكر استقرار الحيوان وأنواعه الّتي خَلَفَتِ الأنيسَ في الدّيار.

في البيت السّابع: ١- وصف حال الحيوان المستقرّ آمنًا في الدّيار، لطول عهد الأنيس بها.

لجأ إلى الجملة الاسميّة لوصف السّاكن من الحيوان، وإلى الجملة الفعليّة لوصف المتحرّك منها.

في البيت الثّامن: ١- ذكر السّيول الّتي مرَّت بالدّيار فجَلَتْ عنها الرّمالَ فأظهرَت أطلالَها الشّاخصة. ٢- ذكر ما ظهر من الآثار.

لجأ إلى التّشبيه التمثيليّ.

في البيت التّاسع: ١- متابعة لذكر آثار الدّيار الظّاهرة ووصف بعض أشكالها.

لجأ إلى التّشبيه التمثيليّ.

في البيت العاشر: ١- مخاطبة الدّيار وسؤالها وإعجامها. ٢- وصف الدّيار بأنّها صمّاء عجماء.

لجأ إلى الاستعارة، إذ شخَّصَ الدّيار فسألها ونسب إليها الكَلامَ والصّمم. ولجأ إلى الاستفهام الاستنكاريّ، وفيه دليل على اليأس، أو هو تعَجُّبٌ مِن نَفْسِه كَيْفَ يَسْأَلُ ما لا يسمَعُ ولا يتكلَّم.

في البيت الحادي عشر: ١- العودة إلى ذكر خلوّ الدّيار من أهلها. ٢- ذكر مَنْ كان مُقيمًا فيها (الجميع). ٣- ذِكر ارتحالهم عنها وتحديد وقته. ٤- ذكر ما بقي من الآثار دالًّا على أنّهم كانوا فيها (النُّؤي والثُّمام).

ثانيًا: مَنْشَأُ شعر الوقوف على الأطلال:

المُرَادُ بذلك هو الكشفُ عمَّا أَلْجأَ الشّعراءَ إلى الوقوف على الدّيار والحديث عنها في مطالع قصائدهم، إذ يقودُ البحث والتأمُّل إلى ثلاثة أسبابٍ رئيسيّة وراءَ ذلك:

أوّلها عاطفيّ، وهو: عاطفة الحبّ وتعلّق المحبّ بمحبوبته وما له علاقةٌ به؛ فإنّ الحبَّ من أعمق العواطف الإنسانية، لم تختلف مكانتها في نفس الإنسان السّويّ منذ أقدم العصور، ولهذا انتشر شِعْرُ الحُبِّ في جميع آداب العالَمِ على اختلاف اللّغاتِ والأجناس؛ والمحبوب في نظر المحبّ في المكانة العالية الّتي لا تدانيها مكانة، ولهذا تكون الأشياء الّتي تخصُّه ذاتَ

قيمة عاليةٍ في نفسِ المحبّ، ويكون ذكرُها في الحقيقة ذكرًا للمحبوبِ وتعلّقًا به وبما كانَ لهما مِنْ أيّامٍ وأحلامٍ؛ ولذلك يُعَدُّ ذكر ديار الأحبّة طَرَفًا مِنَ النّسيب.

والمكانُ هُوَ الظَّرْفُ الَّذي احتوى كلَّ ما كانَ بين المحبّ ومحبوبه، ولذلكَ نجد ديار الأحبّة أبرزَ ما يتعلق به الشّاعر المحبّ وأشدّها تأثيرًا في نفسِه، وكذلك حال الشّاعر الَّذي يمرّ بديار قومه بعد ارتحالهم عنها؛ **وهذا يعني أنَّ هنالكَ سببًا عاطفيًّا صادقًا وراءَ هذا الوقوف على آثار الدّيار.**

والسّببُ الثّاني بيئيٌّ، وهو: طبيعة حياة أهلِ البادية من العرب، فإنَّ البدوَ محتاجون إلى الارتحال والانتجاع دومًا، فإذا كانت أيّام الرّبيع انتشروا في بواديهم لكثرة الماءِ والكَلَأ، حتّى إذا كانت أيّام القيظ وشحّت المياه وقلّ الكلأ تجمَّعت أحياءٌ عدّة على ماءٍ واحدٍ، ويُسَمَّى هؤلاءِ بـ(الخَلِيط) وعندئذ تنشأ بينهم علاقات إنسانيّة مختلفة، منها ما يكون من علائق الحبّ، ثمّ تعود أيّام الرّبيع فيفترقون، وإلى جانب هذا ما يكون بين أبناءِ القبيلةِ الواحدة من علائقَ في حِلِّها وتَرْحالها؛ فإذا ما مرَّ الشّاعر منهم في سفره بتلكَ الدّيار ورأى خلوَّها مِنْ أهلِها، واستقرارَ الوحشِ فيها بعدَ الأنيسِ، تذكَّرَ ما مضى. وثارت في نفسه عواطفُ لعلَّ أقواها عاطفة الحبِّ، وعندئذ يحنّ إلى تلك الأيّام، ويأسى على خلاء الدّيار، وقد تتمكّن منه عاطفته ولا يجدُ ما يفرّج به عَنْ نفسِهِ سوى البكاء، أو الارتحال على ظهر مطِيّته ليتسلّى عن همومه، فيكون ذلك وسيلةً للانتقال إلى الحديث عنِ الرّحلة.

وهذا يعني أنَّ نمط الحياة البَدَويّة الدّاعية إلى التّنقّل والارتحال وترك الدّيار مرّةً بعدَ مرَّةٍ **سببٌ بيئيٌّ كانَ وراءِ الوقوفِ على آثار الدّيار؛** وهذا ما يُفَسِّرُ بقاءَ هذه السّنّة لدى شعراء الباديةِ إلى يوم النّاسِ هذا.

والسَّبَبُ الثّالث فَنِّيٌّ نَفْسيّ، وهو: أنَّ ذِكْرَ الأحبَّة محفِّزٌ قويّ يُعِينُ على فَتْحِ بابِ الشِّعْرِ، فَقَدْ سُئِلَ ذو الرُّمّةِ – وهو شاعِرٌ أمويّ –: «**كيف تعمل إذا انقفَلَ دونَكَ الشّعر؟ فقال: كيفَ يَنْقَفِلُ الشّعر دوني وعندي مفاتيحُه؟ قيل له: وعنه سألناكَ، مَا هو؟ قال: الخلوةُ بذكر الأحباب**»،

ولا ريبَ أنَّ ذكرَ آثار الدّيار ذكرٌ للأحبَّة الَّذين كانوا فيها، وقد أَشار إلى ذلكَ بعضُ الشّعراء العشّاق بقوله:

أَمُـرُّ عـلى الـدّيارِ ديـارِ لَـيْلى ... أُقَبِّـلُ ذا الْـجِدارَ وذا الْـجِدارا

ومـا حُـبُّ الـدّيارِ شَغَفْـنَ قَلبـي ... ولكـنْ حـبُّ مَـنْ سَـكَنَ الـدّيارا

وهذا يعني أنَّ ذكرَ الدِّيار ومَنْ كان فيها **سَبَبٌ فَنِّيٌّ نـفسيٌّ استعانَ بِـه الشّعراءُ لشَحْذِ القريحةِ ووُلوجِ بابِ الشّعر** والتنقُّل في رياضِ أغراضِهِ ومعانيه.

قد أشار ابنُ قُتَيْبةَ إلى هذه الأسبابِ فيما نقلَهُ عن بعضِ أَهْلِ الأَدَبِ إذ قال في كتابه (الشّعر والشُّعراء): «وسمِعْتُ **بعضَ أهلِ الأدبِ** يَذْكُرُ أنَّ مُقَصِّدَ القصيدِ **إنَّما ابتدأَ فيها بذكرِ الدِّيارِ والدِّمَنِ والآثار**، فبَكَى وشَكا، وخاطَبَ الرَّبْعَ، واستوقفَ الرَّفيقَ، **لِيَجْعَلَ ذلك سببًا لِذِكْرِ أهلِها الظّاعِنينَ عنها، إذْ كان نازِلَةُ العُمُدِ في الحُلولِ والظَّعْنِ على خِلافِ ما عليهِ نازِلَةُ المَدَرِ**، لانتقالِهم عن ماءٍ إلى ماءٍ، وانتجاعِهِمُ الكَلأَ، وتَتَبُّعِهِمْ مَساقِطَ الغَيْثِ حيثُ كان؛ **ثُمَّ وَصَلَ ذلكَ بالنَّسيبِ**، فشَكا شِدَّةَ الوَجْدِ وألَمَ الفِراقِ وفَرْطَ الصَّبابةِ والشَّوْق، **لِيُمِيلَ نَحْوَهُ القلوبَ**، ويَصْرِفَ إليهِ الوُجوهَ، ولِيَسْتَدْعِيَ بهِ إصغاءَ الأَسْماعِ إليه، **لأنَّ التَّشْبيبَ قَريبٌ مِنَ النُّفوس، لائِطٌ بالقلوب**، لِمَا قد جَعَلَ اللهُ في تَرْكيبِ العِبادِ مِنْ مَحَبَّةِ الغَزَلِ وإِلْفِ النِّساء، فلَيْسَ يكادُ أَحَدٌ يَخْلُو مِنْ أَنْ يكونَ مُتَعَلِّقًا منه بِسَبَبٍ، وضارِبًا فيهِ بِسَهْمٍ، حلالٍ أو حَرامٍ؛ **فإذا عَلِمَ أنَّهُ قدِ استَوْثَقَ مِنَ الإِصغاءِ إليه، والاستماعِ له، عَقَّبَ بإيجابِ الحُقوقِ، فرَحَلَ في شِعْرِه**، وشَكا النَّصَبَ والسَّهَرَ وسُرَى اللَّيْلِ وحَرَّ الهَجيرِ، وإِنضاءَ الرَّاحِلَةِ والبَعير؛ **فإذا عَلِمَ أنَّهُ قد أَوْجَبَ على صاحِبِهِ حقَّ الرَّجاء وذِمامَةَ التَّأْميلِ، وقَرَّرَ عندَهُ ما نالَهُ مِنَ المَكارِهِ في المَسيرِ، بَدَأَ في المَديح**، فبَعَثَهُ على المُكافأَة، وهَزَّهُ للسَّماحِ، وفَضَّلَهُ على الأَشْباهِ، وصَغَّرَ في قَدْرِهِ الجَزيلَ».

على أنَّ ذِكْرَ الدِّيارِ فَرْعٌ مِنْ بابِ الحنينِ إلى الأوطان، وهو في نفسِهِ مَقْصِدٌ نبيل مِنْ مقاصِدِ الشّعراء.

ثالثًا: الرَّائدُ الأوّلُ للوقوف على الأطلال، وصِدْقُ مَنْ تابَعَه:

تُطْرَحُ في أثناء الحديث عن المقدّمة الطّلليّة في الشّعر الجاهليّ مسألةُ البحثِ عمَّن سَنّ هذه السُّنَّةَ في الشِّعر، وصِدْقِ مَنْ قلّده من الشُّعراء؛ وفي سياق البحث عمّن سنّ هذه السُّنَّة يُحِيلُ معظم النّاس إلى قول امرئ القيسِ بنِ حُجْرٍ الكِنْديّ:

عُوجا عَلى الطَّلل المُحيلِ لعلَّنا نَبْكي الدِّيارَ كما بكى ابنُ حَذامِ

ويختلفونَ في رِوايته على: (ابن حَذَام) و(ابن خِدَامِ) و(ابن حُمَامِ)، ويذكرونَ أنَّ امرَأَ القيس يُبَيِّنُ أَنَّهُ مسبوقٌ إلى الوقوفِ على الأطلال، ويتخبَّطونَ في أمرِ هذا الرَّجُلِ الَّذي ذكره امرؤ القيس؛ والتّحقيقُ يدلُّ على أنَّ الصّواب في رواية البيت: (ابن حُمام) وأنَّه كانَ شاعرًا أَسَنَّ مِنِ امرِئ القيس ولكنَّه عاصَرَه، وكان يُرافِقُه في تنقُّلِه بين أحياء العرب وبواديها، وكانَ مِمَّنْ صَحِبَهُ في رحلتِهِ إلى بلادِ الرُّوم للاستعانةِ بِقيصَرَ لِرَدِّ مُلْكِهِ المفقود، واسمُه هو: امرُؤُ القَيْسِ بنُ حُمَامِ بنِ عُبَيْدَةَ الكلبيّ، وقد ضاعَ مُعْظَمُ شِعْرِه، ومِنْ أسبابِ ضَياعِهِ مُشاركَتُه لامرئِ القيس بنِ حُجْرٍ في الاسم، حتّى إنَّ أَعْرابَ كَلْبِ بْنِ وَبْرَةَ كانوا ينسبونَ إليه خمسةَ أبياتٍ مِنْ مُقدِّمةِ معلَّقة ابنِ حُجْرٍ (**قِفا نبكِ مِنْ ذكرى حبيبٍ ومنزلِ**).

ولكِنْ لا رَيْبَ في أنَّ الوقوفَ على الأطلالِ أقدَمُ مِنْ هذَيْنِ الشّاعرَين كثيرًا، ولا سبيلَ إلى الوقوفِ على تاريخِهِ وعلى اسمِ مَنْ بدأ بِهِ، لِضَياعِ الشِّعر القديمِ واندثارِهِ واستحالة الوقوفِ على أوّليّتِه الحقيقية، مثل كثيرٍ من أوائلِ الأمور.

وأمَّا **صِدْقُ الشّعراء الَّذين وقفوا على الأطلالِ وقلّدوا مَنْ سبقهم**، فإنَّ الَّذين تناولوا هذه المسألةَ اختلفوا في مواقِفِهم:

فمنهم مَنْ رأى أنَّه أمرٌ واقعيٌّ كان الشّاعر يراهُ فيصفه، **وكان وقوفهُ عليه في أوّلِ شعرِه تقليدًا فنيًّا لِمَنْ سبقَهُ، ولكنَّ الموضوعَ نفسَهُ أصيلٌ في ذاتِهِ.**

ومنهم مَنْ رأى فيه تقليدًا فنيًّا مَحْضًا سُبِقَ إليه هؤلاء الشّعراء، فأُعجِبُوا بِهِ وجعلوا **يذكرونَ الأطلالَ ذكرًا رمزيًّا يخدم غرضَهم الرّئيسيّ من القصيدة**، وإن لَمْ يقفوا عليها حقًّا وصدقًا.

والَّذينَ ذهبوا إلى الرّأي الثّاني وقعوا في تعميمٍ لا يصحُّ الإقرارُ بِهِ، وإذا سلّمنا جَدَلًا بهذا الرَّأيِ حين يكون الشاعِرُ حَضَريًّا لَمْ يعرِف حياةَ البادية، فإنَّ الإقرارَ بِهِ وقَبُولَهُ إنْ كان الشّاعِرُ بدويًّا أو عَرَفَ حياةَ الباديةِ مُجانبٌ للصَّواب؛ ثمّ إنَّ القَبولَ بهذا الحُكْمِ يَجُرُّ إلى التّسليمِ بأنَّ جميعَ أغراض الشّعر ما هيَ إلّا تقليدٌ غيرُ صادقٍ، سواءٌ أكان ذلكَ في الغزل أم الفخر أو الهجاء أو الرّثاء أو غيره؛ وعندئذٍ لا نجد شاعرًا صادقًا إلّا الشّاعرَ الأوّل الَّذي افْتَتَحَ كلَّ غرضٍ بمعانيهِ، وهي نتيجة لا يقبل بها عاقل.

ولا يجوزُ أن نَغْفُلَ عن أنّ النّاسَ –ومنهم الشّعراء– كانُوا لا يزالونَ يرتحلونَ من بلدٍ إلى آخَرَ على ظهورِ الإبِلِ إلى القرنِ الثّالثَ عَشَرَ الهجريّ العِشرينَ الـمِيلاديِّ حينَ اختُرِعَتِ السّيّاراتُ وغيرُها من وسائلِ النّقلِ الحديثة، وكانوا يمرُّونَ على مضارِبِ القبائِلِ، ويرتاحون فيها، وتنشَأُ بينَهم وبينَ أهلِها علاقاتٌ إنسانيّة، فإذا عادُوا إليها في سفرِهم ووجدُوها خاليَةً من أهلِها كانت حالُهم كحالِ الشّعراءِ الجاهليّين.

ثُمّ إنّ تتبُّعَ حياة العرب، ومعرفة طبيعة الشّعر والشّعراء، وتأثّر بعضِهم ببعضٍ في معانيهم وأساليبهم، تَدُلُّ على أنَّ الوقوفَ على الأطلال كانَ أمرًا مألوفًا في حياةِ العرب، وقد ذكرَه الشّاعِرُ الأوَّل في أوّل شعره فأُعجِب الآخرون بذلك وقلّدوه وهم صادقون، إذ كانوا يمرّون مثلَهُ على الدّيار فتثير في نفوسهم ما أثارَت في نفسِه، فيصفونها ويذكرونَ أشياءَ ذكَرَها مَنْ سبقهم، **ويأتونَ بألفاظٍ ومعانٍ وعباراتٍ مُشابِهةٍ ورَدَتْ عندَ مَنْ سبقهم؛ ولهذا التشابُهِ أسباب**، منها:

– أنَّ **الْجَميعَ** يَرَوْنَ مِنْ آثارِ الدّيارِ ما رآهُ مَنْ سبقهم، وأسماءُ الأشياء لا تختلف بين شاعر وآخر في البيئة الواحدة.

– وأنَّ الشّعراء **كان بعضُهم رُواةً لأشعارِ بعضٍ**، ومِنْ ثَمَّ تأثَّرت أساليبُ اللّاحق منهم وطرائقُه في التّعبير والتّصوير بأساليبِ السّابق وطرائقِه في الوقوف على الأطلال، كما تأثَّرت بها وأشبهتها في أغراض الشّعر الأُخرى.

وأحوالُ الشُّعراءِ في هذا كأحوالِهم مثلًا في الغَزَلِ، فالشّاعرُ الأوَّلُ أَحَبّ وخالجَهُ ما يُخالِجُ المُحِبَّ وجرَى بينه وبينَ حبيبته ما يجري بين المتحابّين، فعبّر عن ذلكَ شعرًا، ثمَّ أَحَبَّ الشّعراءُ بعدَهُ ومَرُّوا بما مَرَّ به، وكانت لهم تَجارِبُهم الشّعريّة، إلى جانِبِ تأثُّرِهِم بما قالَ، فجاءَت أشعارُهم شبيهَةً بشعرِه لتَشابُه تَجارِبِ الحُبّ والتّجارِب الشّعريّة؛ وخالَفتْهُ بأشياءَ تتعلّقُ بخصوصيّةِ كلّ تجربةٍ عاطفيّةٍ وشِعريّة.

ويَتْبَعُ ما سبق سؤالٌ وَجِيهٌ هو: **إذا كان الشّعراء يرَوْنَ الأشياءَ نفسَها، فيأتونَ بالألفاظ والأساليب وطرائق التّعبير والتّصوير متشابهةً، فما الَّذي يُميّزُ قصيدة مِنْ قصيدة؟**

والجوابُ هو أنَّ هؤلاءِ الشّعراء **يتفاوتونَ في أشياءَ كثيرةٍ منها:**

١. **اختلافهم في خصائصهم النّفسيّة وطبائعهم الّتي تُؤثّر في مواقفهم أمام الأطلال**، فمنهم الرّقيق والضّعيف المتهالك، والجافي والقويّ المتماسك.

٢. **ومنها اختلافُ البيئةِ الّتي يكون فيها الشّاعر** وتُلَوِّنُ معانيَه عنِ البيئة الّتي يعيش فيها شاعرٌ آخر، ومن ذلكَ اختلافُ الأمكنةِ وأصناف الحيوان والنّبات الّتي يذكرُها الشّعراء.

٣. **ومنها اختلافُهم في تناولُ المعاني** الّتي يذكرونَ بها معالِمَ الأطلالِ والرّسوم، بل إنَّ قصائدَ الشّاعرِ الواحدِ تتفاوت في ذلك.

٤. وهنالكَ أيضًا اختلافٌ بين شاعرٍ وآخر في **الأخذِ بالتّفصيلاتِ ودقائقِ الأمورِ** عندَ ذكرِ الأشياء.

٥. **وثَمَّةَ اختلافٌ آخَرُ في الوسائل الفنيّة والألفاظ**، وغير ذلك من ألوان الاختلاف والتنوّع.

وقد قال القاضي عبد العزيز الجُرجانيّ صاحبُ (الوَساطة) في مثل هذا التّمايز بين الشّعراء في المعاني المشتَرَكَةِ المُتداوَلة: «**وقد يتفاضَلُ مُتَنازِعُو هذه المعاني بحسَب مراتبهم مِن العِلم بصَنْعَةِ الشّعر؛ فتشترك الجماعةُ في الشَّيْءِ المُتَداوَل، وينفردُ أحدُهم بلَفْظَةٍ تُستعذَب، أو ترتيبٍ يُستَحْسَن، أو تأكيدٍ يُوضَعُ مَوْضِعَه، أو زيادةٍ اهتدى لها دونَ غيره؛ فيُريكَ المُشتَرَكَ المُبتَذَل في صُورَةِ المُبتَدَع المُخترَع**»، ثمّ ضرب أمثلةً من تشبيه الشّعراء آثارَ الدّيار بالكتابة.

فهذا كلُّه يجعل كلَّ مَطلَعٍ طَلَلِيٍّ مختلفًا عَنْ غيره، وإِنْ كانت المعاني العامّة الّتي يذكرونها تكاد تكون واحدة.

رابعًا: المعَاني العامّة في شعر الوقوف على الأطلال:

إنَّ التَّجْوالَ في المَطالِعِ الّتي وقف فيها الشّعراء الجاهليّون على الأطلال يبيّن أنّ فيها معالِمَ ومعانيَ تتكرَّرُ حَصَرَها العلماءُ، ومُجْمَلُ هذه المعالم والمعاني هو:

١ - **الوقوف** على الدّيار، أو **السّؤال** عنها.

٢- اسم **أهل الدّيار** أو ما ينوب عنه.

٣- **مكان الدّيار** وما يحيط بها من المواضع.

٤- **زمن الوقوف**.

٥- **الزّمن الّذي مضى على خلوّها** من أهلِها.

٦- ما أقامَ فيها مِن **الحيوانِ** بعدَ أهلِها.

٧- **إقواؤُها أو خلوّها وعَفاؤُها** بالأمطار والرّياح ... .

٨- **ما بقي مِنَ الآثار** من الأطلال والرّسوم، ووصف حالها.

٩- مخاطبتها **وتكليمها**، أو **سؤالها واستعجامها**.

١٠ - **التّسليم** عليها، أو **الدّعاء** لها بالسَّلام أو السُّقيا والخِصْب.

١١ - **ما تبعثه في نفس الشّاعر** من الحُزْن والجوى والذّكريات، والبكاء فيها.

١٢ - **أصحاب الشّاعر** واستعانته بهم، **وموقفهم** منه.

١٣ - **اليوم الّذي تركها فيه أهلها** وارتحلوا عنها، والانتقال إلى ارتحال الظَّعائنِ أو ارتحال الشّاعر أو الغَزَل أَو غير ذلك.

ولم يكن الشّاعر يأتي بذلك جميعًا في القصيدة الواحدة، ولا تأتي مرتّبةً ترتيبًا ثابتًا، بَلْ ينساقُ الشّاعر وراءَ ما تقتضيه عاطفته وصَنْعَتُه الفنيّة.

ولا يسمح المجالُ بالحديث عن جميع هذه المعاني، ولذلك سيقتصر على المعنيَيْنِ الثّامن والتّاسع ممّا سبق، للنّظر في طرائق الشّعراء في تناولها واختلاف بعضهم عَنْ بعض، بحيث إنَّ المَرْءَ يجدُ نفسَهُ أمامَ لوحاتٍ فَنِّيَّة لكلٍّ منها ما يميّزها.

- **مخاطبة الدّيار وسؤالُها:**

اعتاد الشّعراء **أن يكلّموا الدّيار ويسألوها عن أَصحابها**، وكأنَّ المَوْقِفَ يُسَيْطِرُ على الشّاعِرِ فيتخيّل للدّيار خصائص تُشْبِه خصائص الإنسانِ في القدرة على الكلام.

ويكون الْجَوابُ في العادةِ صمتَ الدّيار، وهو صمتٌ يُخْرِج الشّاعِرَ مِن استغراقِهِ في المَوْقِفِ ويُعِيدُه إلى الواقِعِ والحقيقة، فيصفُها بأنَّها صمّاءُ أو خرساء أو بَكماء أو عَجْماء؛ كقول النّابغة[1]:

وقَفْتُ فيها أُصَيْلانًا أُسائِلُها عَيَّتْ جَوابًا، وما بالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ

فوصَفَها بالعِيّ.

ومن ذلكَ قولُ لَبيدٍ:

---

[1] أُصَيْلانًا: تصغيرٌ لـ(أُصْلانٍ)، قيلَ: هوَ مُفْرَدٌ بمَعْنى الأَصِيلِ، على وزن (فُعْلان) كَرُمّان، وقيلَ: هو جَمْعٌ لـ(أَصِيل) الَّذي هو العَشِيَّةُ ما بين العَصْرِ والمَغْرِب. و(عيَّتْ) مِنَ العِيّ، وهو العجز عن الكَلام.

فَوَقَفْتُ أَسْأَلُها، وكيفَ سؤالُنا صُمًّا خَوَالِدَ ما يَبِينُ كَلامُها

فاتَّفق الشّاعِرانِ على صَمْتِ الدّيار وعَجْزِها عن الكلام، وهو الغالِبُ على وصفها؛ **غير أنَّ شاعرًا آخَرَ تَوَهَّمَ أَنَّها أَجابته**، وهو عَوْفُ بن عَطيّة التَّيْميّ، مِنْ تَيْمِ الرِّباب، فقال:

وقَفْتُ بِها أُصُلًا، ما تُبِينُ لِسائِلِهَا القَوْلَ إِلّا سِرارا

وهذا ناتجٌ عن استغراقِهِ في موقِفِه حتّى توهَّمَ أنّها تُجيبُه سرًّا.

- ذكر ما بقيَ من آثار الدّيار:

سَبَقَ أنَّ آثار الدّيار الّتي يذكرها الشّعراء تكون أطلالًا شاخصةً أو رسومًا لا شُخوصَ لها، وقد يذكر الشّاعِرُ لفظَ (الطّلَل) أو (الرَّسْم)، وأحيانًا كثيرةً يذكر الشّاعرُ لفظَ (الدّيار)، فيكون ذكره لأحد هذه الألفاظ كالإطار للّوحة الفنّيّة الّتي يذكُرها في أبياته، وقد لا يذكر شيئًا من ذلكَ، بل تتّجه عَيْنُه أوّلَ ما تتّجه إلى أَعيانِ الآثار مِن نؤيٍ وأوتادٍ وأثافيَّ ورمادٍ.

وقد **وصف الشُّعراء جُمْلَةَ الأطلالِ والرّسوم بأوصافٍ عدّة**، وكَثُرَ تشبيهُهم لها **بالكتابة**، كقول لَبيدٍ:

وجَلا السُّيولُ عَنِ الطُّلولِ كأنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أَقْلامُها

وقولِهِ:

فمَدافِعُ الرَّيّانِ عُرِّيَ رَسْمُها خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

فالتّشبيه الأوّل كانَ بالكتابةِ على الرَّقِّ أو الصَّحيفة، والثّاني كان تشبيهًا بالكتابة على الحَجَرِ، وهما تشبيهان بينهما اختلافٌ في الإيحاءِ بالصُّورة.

ومِن ذلكَ قول المُرَقِّش الأكبر البَكْريّ:

الدّارُ قَفْرٌ والرُّسومُ كما رَقَّشَ في ظَهْرِ الأَديمِ قَلَمْ

وقول حاتمٍ الطّائيّ:

أَتَعْـــرِفُ أَطْـــلالًا ونُؤْيًـــا مُهَـــدَّما كخَطِّـــكَ في رَقٍّ كِتابًـــا مُنَمْنَمـــا

وقول سَلامَةَ بنِ جَنْدَلٍ السَّعْدِيِّ التَّمِيميّ:

لِـــمَنْ طَلَـــلٌ مِثْـــلُ الكتـــابِ الـــمُنَمَّقِ خَـــلا عَهْـــدُهُ بَـــيْنَ الصُّـــلَيْبِ فَمُطْـــرِقِ

وهي أبياتٌ تحتوي تشبيهًا بالكتابةِ، ولكنّ لكلِّ تشبيهٍ قَيْدًا يجعلُه مختلفًا عن الآخَرِ، فتَرْقِيشُ الكتابة هو تَحْسِينُها وتَزْيِينُها، ونَمْنَمَةُ الخَطِّ هيَ جَعْلُه دقيقًا، وتَنْمِيقُ الكتابةِ هو العنايةُ بِهَا، وكلُّ قَيْدٍ يُوحِي بصورةٍ متميّزة من غيرها.

وهذا التّشبيهُ مأخوذٌ مِنَ البيئة العَرَبيّةِ، ممّا يكتبونَهُ أو يكتبُه أهل الكِتابِ منهم أو مِن غيرِهم؛ كقول أبي ذُؤَيبٍ الهُذَليّ[1]:

عَرَفْـــتُ الـــدِّيارَ كَـــرَقْمِ الـــدَّوا ةِ يَزْبُرُهـــا الكاتِـــبُ الحِمْـــيَرِيُّ

وكَقَولِ الشّمّاخِ بنِ ضِرارٍ الثَّعْلَبيِّ الذُّبيانيّ[2]:

أتعـــرفُ رَسْـــمًا دارِسًـــا قـــد تَغَـــيَّرا بِـــذَرْوةَ أَقْـــوى بَعْـــدَ لـــيلى وأَقْفَـــرا
كمـــا خَـــطَّ عِـــبْرانِيَّـــةً بيَمينِهِ بتَيْمـــاءَ حَبْرٌ ثُـــمَّ عَرَّضَ أَسْـــطُرا

وربَّما أخذَه بعضُهم ممّا يراه لدى بعضِ الأُممِ الأُخرى، كقَول الحارثِ بنِ حِلِّزَةَ اليَشْكُريّ البَكْريّ[3]:

لِـــمَنِ الـــدِّيارُ عَفَـــوْنَ بالـــحُبْسِ آياتُهـــا كَمَهـــارِقِ الفُـــرْسِ

---

[1] الرَّقْمُ: الكتابة. ويزبُرُها: يكتُبُها. والحِمْيَرِيّ: المنسوب إلى قبيلةِ حِمْيَر، وكانوا يكتُبُون بخطٍّ المُسْنَد.

[2] ذَرْوَةُ: اسم موضعٍ. وتَيْماء: اسمُ بَلَد. والحَبْرُ: العالِمُ بالدِّينِ مِنْ يَهُودَ. والتَّعْرِيضُ: ألّا يُبَيِّنَ الكاتبُ الحُرُوفَ ولا يَقُوِّم الخَطَّ، كما يُقال: (عَرّضَ بكذا) إذا لم يوضِّحْه.

[3] الحبْسُ (بِتَثْلِيثِ الحاء؛ أيْ: بكَسْرِها وضَمِّها وفَتْحِها): اسم موضع. وآياتُها: أَعْلامُها. والمَهارِق: جَمْعُ المُهْرَق، وهو الصُّحُف.

وقد يشبّه بعضُهم الدّيار بالثَّوبِ البالي الخَلَق، كما سبق في قَولِ لَبِيدٍ: «عُرّيَ **رسْمُهَا خَلَقًا**»، ومنه قولُ عَبِيدِ بنِ الأبرص الأسديّ[1]:

يا دارَ هندٍ عَفَاها كلُّ هطّالِ ... بالْجَوِّ مِثْلُ سَحيقِ اليُمْنةِ البالي

وهو تشبيه مأخوذٌ مِنَ البيئة العربية أيضًا.

و ممَّا كَثُرَ في أشعارهم تشبيهُ آثار الدّيار **بالوَشْمِ**، وقد مرَّت بعض الشّواهد عليه، ومنه أيضًا قولُ زُهَيْرٍ:

يَلُوحُ كأنَّهُ كَفًّا فَتاةٍ ... تُرَجِّعُ في معاصِمِها الوُشومُ

ومِنَ التّشبيهات النّادرة ما جاءَ في قول عَبيدِ بنِ الأَبْرَص الأسديّ:

دارُ حيٍّ أَصابَهُم سالِفُ الدَّهـ ... ـرِ فأَضْحَتْ دِيارُهُمْ كالخِلالِ

فشبَّهَ آثارَ الدّيار بالخِلالِ، وهو جَمْعُ الخِلّةِ، وهي جَفْنُ السَّيْف، وأرادَ بذلك الوَشْيَ الَّذي عليه.

ومثلُهُ قَوْلُ طَرَفةَ بنِ العَبْدِ البَكريّ[2]:

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدّارِ قَفْرًا مَنازِلُهْ ... كَجَفْنِ اليَماني زَخْرَفَ الوَشْيَ مَاثِلُهْ

وما جاءَ في قول النّابغة[3]:

كأنَّ مَجَرَّ الرَّامِساتِ ذُيولَها ... عليهِ حَصيرٌ نَمَّقَتْهُ الصَّوانِعُ

فطرفة شبّه الرَّسْمَ بغِمْدِ السّيف المُزَخرَفِ الموشَّى، والنّابغة شبَّهَ ما أَتَتْ بِهِ الرّياح مِنَ الرّمال وغطّت بِهِ الآثار بالحَصير المُنمَّقِ الصُّنْع.

---

[1] اليُمنَة: الثّوب اليمنيّ. والجوّ: اسم موضع. والسّحيق: الثّوب الخَلَق المهترئ.

[2] جَفْنُ السّيف: غِمْدُه. واليماني: السّيف المصنوع في اليمن. والوَشْيُ: الزِّينة. والماثِلُ: الصّانع.

[3] الرّامسات: الرّياح الّتي تَرْمُس الآثار، أي تدفنها. ويُروى: (قَضيمٌ نمّقته الصّوانع)، والقَضيم: الجِلْدُ الأبيضُ يُكتَبُ فيه، وقيل: الصُّحُف البيض، وقيل: الدّفاتر، الواحدة قَضيمةٌ.

وَمَا سَبَقَ مِنَ الأبياتِ نظر فيه الشُّعراءُ نظرةً عامَّةً إلى آثار الدّيار، ولكنَّ في ثنايا المقدّمات الطّلليّة ذِكْرًا لأَشياءَ بأعيانها مِن بقايا الدّيار كانت تَلْفِتُ أنظارَهم وهُمْ يتنقّلون فيها ويحاولونَ تَعَرُّفَها، وأكثرُها ذِكرًا في أشعارِهم ثلاثةٌ هي: **الأثافيُّ، والرَّماد، والنُّؤْي**؛ ويذكرون إلى جانبِ ذلكَ أشياءَ أُخرى كالوَتِدَ والأواريّ (مَحابِس الدّوابّ) والثُّمام (نباتٌ رِخْوٌ يُلْقى فوقَ الأَخْبِيَةِ لِيَقِيَها الحَرّ).

فأمّا **الأثافيُّ** فهي ثلاثةُ أحجارٍ تؤلَّفُ لتكون مَوْقِدًا، واحدَتُها أُثفيّةٌ؛ وقد اعتاد الشّعراءُ وصفَها بأنَّها خوالدُ، وبأنّها سُحْمٌ أَو سُفْعٌ أو طُلْس، وَتشبيهَها بثلاثِ حمائمَ جاثماتٍ، كقول زهير[1]:

أَرَبَّتْ بها الأَرواحُ كلَّ عشيَّةٍ فَلَمْ يَبْقَ إِلّا آلُ خَيْمٍ مُنَضَّدِ
وغيرُ ثلاثٍ كالحَمامِ خَوالدٍ وهابٍ مُحِيلٍ هامدٍ مُتَلَبِّدِ

ومنه قولُ حسَّانِ بنِ ثابتٍ الخَزْرَجِيّ[2]:

فلَمْ يبقَ إلّا مَوْقِدُ النّارِ حَوْلَهُ رَواكِدُ أمثالُ الحَمامِ وُقوعُ

ومثله قولُ بِشْر بن أبي خازمٍ الأسديّ[3]:

كأنَّ خوالدًا في الدّارِ سُفْعًا بِعَرْصَتِها حَماماتٌ وُقوعُ

---

[1] أَرَبَّتْ: أقامت. والأرواح: جمع الرّيح. والآلُ: جمعُ الآلةِ، وآلُ الخَيْمةِ: خَشَباتُها. ومَنَضَّد: موضوع بعضُها فوقَ بعض. والهابي: الرّماد الَّذي عليه هَبْوَةٌ، وهو الغُبار. والمُحِيل: المتغيّر.

[2] رواكد: ساكنةٌ، صفةٌ لحجارةِ الموقد. ووُقوعٌ: جَوَاثم، من قولهم: وقَعَ الطّائرُ إذا حَطَّ.

[3] السُّفْع: جمع سَفعاء، منَ السُّفْعَةِ وهي السَّواد المُشْرَبُ وُرْقَةً (السَّواد الَّذي يخالِطُه شيءٌ من البياض). وعَرْصةُ الدَّار: ساحتها.

وقد نظر الشّعراء في تشبيه الأثافيّ بالحَمَام إلى اللّوْنِ المُشتَرَكِ، وهو السُّفْعَةُ، أي السَّواد الَّذي يشوبُهُ شيءٌ مِنَ الزُّرْقَةِ؛ وَنظروا أيضًا إلى شكل الأثافيّ، فهي متقاربةٌ كتقارُبِ الحَمَام، إذ مِنْ عادتِهِ أن يكونَ في جماعات.

ومن تشبيهاتهم النّادرة للأثافيِّ أن يُشَبِّهوها بالأَظآرِ، وهنّ المُرْضِعاتُ، وكأنَّهنَّ يُرْضِعْنَ الرَّماد؛ كقَوْلِ بِشْرِ بنِ أَبي خازِمٍ الأسديّ:

رَمادٌ بَيْنَ أَظآرٍ ثلاثٍ كما وُشِمَ الرَّواهِشُ بالنَّؤُورِ

وأمَّا **الرَّماد** فهو بقايا ما يُوقَدُ مِنَ الحَطَبِ وغيرِه فيكون شيءٌ مِنْهُ أسودَ، ويكون شيءٌ منه أَوْرَقَ قريبًا مِنَ الزُّرْقَةِ، فإذا ما غادَرَ أهلُ الدّيارِ تَرَكوا شيئًا منه في الموقِدِ، فإذا ما أصابَهُ المَطَرُ تلبَّدَ، ثمَّ سَفَتْ عليه الرّيحُ التّرابَ؛ ومِنْ عادَة الشّعراء أن يُشبّهوه بِكُحْلِ العينِ، كقول النّابغة[1]:

رمادٌ ككُحلِ العَيْنِ، لَأْيًا أُبِينُهُ ونُؤْيٌ كَجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خاشِعُ

وقولِ الأسودِ بنِ يَعْفُر النَّهْشَليّ التّميميّ، يصفُ الرَّماد:

كالكُحْلِ أَسْوَدُ، لأيًا ما يُكَلِّمُنا مِمّا عَفَاهُ سَحابُ الصَّيِّفِ الرُّجُسُ

ويظهر أنَّ الشاعرَيْنِ يَقْصِدَانِ ما صارَ فَحْمًا مِنَ الحطبِ ولم يحترق احتراقًا تامًّا، فإنَّه يكونُ لونُه أسوَدَ.

ونجد آخَرِينَ يشبِّهونَ الرَّمادَ بالطّائِرِ الأَوْرَقِ، كقول الحُطَيْئَة[2]:

نُؤْيٌ وأَطْلَسُ كالحَمامَةِ ماثِلٌ ومُرَفَّعٌ شُرُفاتُهُ مَحْجورُ

---

[1] جذم الحوض: أَصْلُه. ولأيًا: أي بَعدَ جُهْدٍ. وأَثْلَم: مثلوم. وخاشِع: خاضِع، يعني انهدامَهُ.

[2] الأطلس: الأسودُ الَّذي يَشوبُهُ بياض، وأرادَ بِهِ الرّماد. والماثِل: اللاطِئُ بالأرض. والشُّرُفات: جمعُ الشُّرْفة، وهي ما ارتفع من البناء. وجاء في شرح ديوان الحطيئة أنّه أراد بالشّطر الثّاني المَسْجِدَ (؟)، وأظنّه مُحَرَّفًا عن (المَحْبَس) أي مَحْبُس الخَيْل ونَحْوِها، وأرادَ بناءً أُحيطَ بالحجارة.

واكتفى المُخبَّلُ السَّعديُّ التَّميميّ من ذكرِ الرَّماد بأنَّه هامِدٌ، وأنَّ الأثافيَّ حَمَتْهُ مِن أَنْ تَذْرُوَهُ الرّياح، فقال[1]:

إلّا رَمـــادًا هامِـــدًا، دَفَعَـــتْ عنـــهُ الرِّيـــاحَ خَوالِـــدٌ سُـــحْمُ

وأمَّا **النُّؤي** فهو حاجزٌ من ترابٍ يُرفَعُ حولَ البَيْتِ لئلّا يدخلَهُ الماء وغيرُه، وقد شاعَ بين الشّعراء تشبيهُهُ بالحَوْض، فبعضُهم يجعلُهُ مُهَدَّمًا، وبعضُهم يراه غيرَ مُهَدَّم؛ فمن ذلكَ قول زهير: «... **ونُؤيًا كجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ**»، وقول النّابغة: «... **ونؤيٌ كجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خاشِعُ**»، وقوله أيضًا: «... **والنُّؤْيُ كالحَوْضِ بالمَظْلُومَةِ الْجَلَدِ**[2]»، وهو تشبيه مأخوذ من البيئةِ العربيّة، فإنَّ حاجتَهم كانت تدعوهم إلى بناء الأحواضِ وتَطْيِينِها ليسقوا دوابَّهم، وكذلك ما يكونُ من بناءِ الأحواضِ في المناطق الّتي يزرعونَ فيها؛ وممَّا ذُكِرت فيه أحواضُ القُرى قول بِشْرِ بن أبي خازمٍ[3]:

مَنازِلُ مِن حَيٍّ عَفَتْ بَعْدَ مَلْعَبٍ ونُؤْيٌ كجِذْمِ الْجِرْبَةِ المُتَهَدِّمِ

ونَدَرَ تشبيه النُّؤْي بغير الحوض، مثل تشبيهِه بالسِّوار.

فإذا عدنا فنظرنا نَظْرَةً مُجْمَلَةً إلى **الأشياء الّتي شبّهَ بها الشّعراء الدّيارَ وآثارَها تبيَّنَ أنّها ذاتُ دلالاتٍ تحرّك ضُروبًا من الشّعور**؛ فإنَّ **السّواد والوُرْقةَ** لها ظِلالٌ نفسيّةٌ لا تَخفى حينَ يُذْكَرَان، مِنَ الحُزْنِ أو الهدوءِ والسّكينة، **والحَمَامُ** يُذَكِّرُ بالنُّواحِ والبكاء، **والحوضُ وتهدُّمُه** يذكّرانِ بما يكون مِن الخراب وفَقْدِ الماءِ، **والرِّيحُ** تذكّر بما تحمله أحيانًا مِن الغُبار والرّمالِ وما يكون من الضِّيق والكآبة؛ وكلُّ ذلك يوحي بالشُّعور الَّذي يغلِبُ على الشّاعر وهو يقفُ في ديار الأحبّة أو الأهل بعدَ أن غادروها وشعَرَ بفَقْدِهم، ووَجَدَ نفسَهُ فيها وحيدًا أو كالوحيد، فجعلَهُ ذلك

---

[1] سُحْم: سُودٌ مُشْرَبَةٌ حُمْرَةً.

[2] المظلومة: الأرض الّتي ظُلِمَتْ بأن جُرِفَ منها التّراب. والجَلَد: الشّديدة الصّلبة.

[3] والجِرْبَةُ: المَزْرَعَةُ. وبعدَ مَلْعَبٍ: أي بعد أن كانت مَلْعَبًا.

يستحضر الماضيَ، ويُجْيبِهِ بتذكُّرِ مَنْ كان في تلك الدّيار، وهو يحنّ إلى تلك الأيّام وأهلها؛ ولعلَّ أشدَّ المواقف إيلامًا تذكُّرُ لَحْظَةِ الفِراقِ والارتحالِ، ولهذا كثيرًا ما ينتقل الشّعراء مِنَ الوقوفِ على آثارِ الدّيار إلى تتبُّعِ الظَّعائنِ ورحلتهنّ.

ولذلك يكون الحديثُ عن **رحلة الظَّعائنِ** مُرْتَبِطًا نَفْسِيًّا وواقعيًّا أَشَدَّ الارتباطِ بالحديثِ عن الدّيارِ، وكذلك الحالُ حينَ ينتقلُ الشّاعرُ من الحديث عن الدّيارِ إلى **ارتحالِهِ هُوَ** على ظَهْرِ بعيرِهِ (ناقةً كان أو جَمَلًا)، فإنّه حينَ يَشْتَدُّ به الحُزْنُ وتُحاصِرُهُ الهُمومُ من كلِّ جانبٍ يحاولُ أن يتخلّصَ منها ويُفَرِّجَ عن نَفْسِه، فيَرْتَحِلُ على بَعيرِه، فيكون حديثُه عن رحلَتِه مرتبِطًا نفسيًّا وواقعيًّا أَشَدَّ الارتباطِ بحديثِه عن الدّيار وما حرّكَتْه في نَفْسِه.

****

مصادر ومراجع للاستزادة:

- **العُمْدة**: لابن رشيق القَيْرَوانيّ
- **شعر الوقوف على الأطلال من الجاهليّة إلى نهاية القرن الثّالث، دراسة وتحليل**: د.عزة حسن.
- **مقدّمة القصيدة العربيّة في العصر الجاهليّ**: د. حسين عطوان.
- **تطوّر الغزل بين الجاهليّة والإسلام**: د. شكري فيصل.
- **مختارات من الأدب الجاهليّ**: د. عبد الحفيظ السّطليّ، جامعة دمشق.
- **كتب تاريخ الأدب في العصر الجاهليّ** (لكلٍّ مِن: د. ضيف، د. طُليمات، د. الجبوريّ).

المُقَدّمات الغَزَليّة في الشِّعر الجاهليّ

تمهيد:

تبيّن في الحديث عن المقدّمات الطّلليّة في الشّعر الجاهليّ أنّه وقوفٌ على آثار الدّيار الّتي جمعت الشّاعِرَ وأهْلَه ومَنْ أحبَّ، وأنَّه كان ينتقل بعد ذلك في كثير من الأحيان إلى رحلة الظَّعائنِ وارتحالِه وراءَهُنَّ، أو ارتحالِهِ على ناقتِهِ القويّةِ ليتَسَلَّى عن هَمِّهِ وحزنِهِ؛ وكان أحيانًا ينتقلُ إلى ذِكْرِ المرأةِ الّتي أحبَّها ليصِفَ محاسِنَها، وما تَرَكَتْهُ في قَلْبِهِ، وهو ما اصطلح النُّقّاد على تسميتِه بـ(المقدّمة الغزَليّة)، وقد يبدأُ الشّاعِرُ بِذِكْرِ طَيْفِ مَحْبُوبَتِهِ الَّذي زارَهُ ليلًا وَهُوَ في مكانٍ بعيدٍ عن ديارها، ليعبّر بذلكَ عَنْ شَوْقِه الَّذي استدعى ذلكَ الطَّيفَ، وثَمَّةَ أنواعٌ أُخْرَى مَنَ المقدّمات الّتي يَغْلِبُ أن تكون المرأةُ طَرَفًا رئيسًا فيها.

وكانت المرأةُ في الجاهليّة على ضَرْبَيْنِ: حرائر وإماء؛ **فأمَّا الحرائر** فهنَّ ربَّاتُ البيوتِ، أو الفتيات الحَرَائرُ، وتَغْلِبُ عليهنَّ العِفَّةُ والحرصُ على بيوتهنَّ، ولا يَخلو أَمْرُهُنَّ مِنَ الهَوَى واللَّهْوِ والسُّقوطِ أحيانًا؛ ولم يكنَّ على مستوى واحدٍ في المعيشة، فمنهنَّ الغنيّة المخدومة، وغيرُ المخدومة، والفقيرة، وكانت لهنَّ حقوقٌ هيَ الحقوقُ المعروفةُ بالفِطَرِ السَّليمة، غير أنّه كانت تصيبهنّ ضُروبٌ عدّةٌ مِنَ المظَالِمِ الّتي جلَبَتْهَا حياةُ الجاهليةِ وتفكير الجاهليّين، إذ تعرّضَتِ الفتاةُ أحيانًا للوَأْدِ، وهُوَ دَفْنُها حيّةً ولا ذنْبَ لها سوى أنّها أنثى، وهو ما أشار إليه اللهُ تَعالى بقولِهِ: ﴿ **وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ** ﴾، بَلْ كانَ الغالِبَ عليهم أنّ ينزعجوا أشدَّ الانزعاجِ إذا كانَ المولودُ أُنثى، وقد صَوَّر الله تَعالى ذلك بقوله: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾، وكانت في الغالِبِ تُحْرَمُ مِنَ الميراثِ، بل قد تُورَثُ كما يُورَثُ المال، فتكونُ من نصيبِ الوَلَدِ الأكبرِ إنْ لم تكن أُمَّهُ، وقد يتزوَّجُها بعدَ أبيهِ، وهو ما استنكرَه الله تَعالى أشدَّ الاستنكارِ، فَوَصَفَهُ بقولِهُ: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا**﴾، إلى غيرِ ذلِكَ مَنْ أنواعِ المَظَالِمِ الجاهليّة.

و أمّا الإماء فهنَّ مِنَ النّساءِ الوافداتِ على الجزيرة العربيّة مِن الأممِ المُحيطةِ بهم، وهي أُمَمٌ كانت سوقُ النِّخاسة رائجةً فيها، وكُنَّ يَعْمَلْنَ في الحاناتِ وأشباهِها ولا سِيَّما إذا كُنَّ مِنَ الرَّقيقِ الأبيض، فيُقَدِّمْنَ الخمورَ وما يتعلَّقُ بِها مِن رقصٍ وغِناء وفُجور، كما كُنَّ يَعْمَلْنَ في البِغَاءِ، ويُكْرَهْنَ على ذلكَ وتُنْصَبُ لَهُنَّ راياتٌ في مواضعَ خاصةٍ تدلُّ عليهنَّ، فإذا وَلَدَت إِحْدَاهُنَّ من عَبْدٍ وقَعَتِ العُبُوديّةُ على المولودِ كأَبَوَيْهِ، وإذا وَلَدَتْ مَنْ سَيِّدٍ فالغالِبُ أَنْ يُسْتَعْبَدَ كأُمِّه.

ولَمْ يكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرُ ذلكَ كُلِّهِ في أَشْعارِهِم، وَقَدْ رُصِدَ ذلكَ في مجموعةٍ مِنَ الدّراساتِ التّاريخيّة والاجتماعيّة والأدبيّةِ المتعلّقة بالعصر الجاهليّ وشعرِه.

وكان يَقَعُ بين الفِتيان والفتياتِ من علاقاتِ الحبِّ ما يقعُ بين البشر في كلِّ مجتمع، فكان الإعجابُ بالمحاسن واللّقاءُ والصّبابَةُ وحُرْقَةُ الحُبِّ، وكان الوِدادُ والخِلافُ والإعراضُ والفِراقُ واللَّوْعَةُ والشَّوْقُ، وغير ذلكَ مما يكون في علاقة الحُبّ وأحوالِه المختلفة.

وفيما يأتي بعضُ النُّصوصِ الّتي جَعَلَها الشُّعراءُ في مقدّماتِ قصائدهم، وهي نصوصٌ لا تمثِّلُ أَنواعَ الغَزَلِ في الشّعر الجاهليّ، بل تعطي جانبًا من صورة الغزل في مقدماتِهم.

أوّلًا: أمثلةٌ من المقدّمات الغزليّة، وألفاظها الغريبة، ومعانيها:

المثال الأوّل: لطَرَفَةَ بنِ العبدِ البَكْرِيّ من مُعَلَّقَتِه، وهو خمسةُ أبياتٍ سبقها بيتان ذكر فيهما الأطلالَ على عَجَلٍ، وثلاثةُ أبياتٍ ذكر فيها الظّعائن؛ ثمّ قال:

١-وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنٌ مُظَاهِرُ سِمْطَيْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ

٢-خَذُولٌ تُراعِي رَبْرَبًا بِخَمِيلَةٍ تَنَاوَلُ أَطْرافَ البَرِيرِ وتَرْتَدي

٣-وتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوَّرًا تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لَهُ نَدِ

٤-سَقَتْهُ إِيَاةُ الشَّمْسِ إِلّا لِثَاتِهِ أُسِفَّ – ولَمْ تَكْدِم عليهِ – بِإِثْمِدِ

٥-وَوَجْهٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ رِداءَها عليهِ، نَقِيُّ اللَّونِ لَمْ يَتَخَدَّدِ

الألفاظ الغريبة والأسلوب والصُّوَر:

١- الأَحْوَى: الظَّبْيُ الَّذي على ظَهْرِهِ خُطَّتانِ مِن سوادٍ وبياضٍ. والمَرْد: ثَمَرُ شجرِ الأَراكِ النّاضج. والشّادِنُ: الَّذي قَوِيَ وكادَ يستغني عن أُمِّه. وظَاهَرَ بَيْنَ الشّيئينِ: لبِسَ أحدَهما فوقَ الآخَر، فَهُوَ مُظَاهِرٌ. والسِّمْط: الخَيْطُ مِنَ اللُّؤلؤ.

وفي البيت استعارة (أحوى) للمحبوبة، وهي استعارةٌ مُرَشَّحة. وفيه كنايةٌ عن الغِنى بقوله: (مظاهِرُ سِمْطَيْ لؤلؤٍ وزَبَرْجَد). وفيه حذفٌ وإنابةٌ للصّفة مَنابَ الموصوف، بقوله: (أحوى)، أَي: ظَبْيٌ أحوى.

٢- خَذُول: خَذَلَتْ صَواحِبَها وأَقَامَتْ على وَلَدِها تَرْعَاهُ. وتُرَاعِي رَبْرَبًا: تراقبُه وتنظُر إليه؛ والرَّبْرَبُ: القطيعُ. والخَميلةُ: الرَّمْلَةُ المُنْبِتَة، ذاتُ الشَّجَر. والبَرِير: ثَمَرُ شَجَرِ الأَراكِ غيرُ النّاضج. وترتَدِي: أي تتهدَّلُ عليها الأغصانُ فتكونُ كالرِّداءِ لها.

وفيه استعارة مُرَشَّحة بقَوله: (خَذولٌ تُراعي رَبْرَبًا ...) إلى آخر البيت. وقولُه: (تَرْتَدي) استعارة. وقَولُه: (خَذول) صفة نابَتْ مَنابَ الموصوف، أي: ظبيةٌ خَذول.

٣- الألمى: الثَّغْرُ الأَسْمَرُ اللِّثَاتِ. والمُنَوِّر: الَّذي ظَهَرَ نَوْرُهُ، وهو زَهَرُه؛ أرادَ أُقْحُوانًا مُنَوِّرًا. وتَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْل: تَوَسَّطَهُ؛ والحُرُّ من كلِّ شيءٍ أحسَنُهُ وأَجْوَدُه. والدِّعْصُ: كَثِيبٌ من الرَّمل ليسَ بالكثيف. والنَدِيّ والنَّدِي، مُشَدَّدًا وغَيْرَ مُشَدَّد: الَّذي في أسفله ماء.

و(أَلْمى) صفة نابَت عن موصوف، يريد: ثَغر ألمى. وكذلك قوله: (كأنّ مُنوِّرًا)، وفيه مع ذلك حَذْفٌ آخَر؛ يريد: كأنّ فيهِ أُقْحُوانًا مُنَوِّرًا. وفيه تشبيه الأسنان بالأُقْحُوان.

٤- إِياةُ الشّمس: ضَوْءُها وشُعاعُها؛ و(سَقَتْهُ إياةُ الشَّمْس) أي: بيَّضَتْهُ وحَسَّنَتْه. واللِّثَاتُ: جَمْعُ اللِّثَة. وأُسِفَّ بإِثْمِدٍ: ذُرَّ على لِثَاتِهِ الإثمِدُ، والإثمِدُ: حَجَرُ الكُحْل. ولم تَكْدِمْ عليه: لم تَعَضَّ عليهِ شيئًا صُلبًا.

وفيه استعارة بقولِه: (سقَتْهُ إياةُ الشَّمْس). وفيه اعتراضُ جُمْلَةِ (ولم تَكْدِمْ عليه) بين الفِعْلِ (أُسِفَّ) الجارِّ والمجرور (بإثمِد)، وهو اعتراضٌ غيرُ حَسَنٍ هُنا، ومعَ ذلك حَذْفٌ للمفعولِ به، يريد: ولم تَكْدِمْ عليه شيئًا صُلْبًا.

٥- كَنَى بـ(رِداءِ الشَّمس) عن صَفائها ونقائِها وحُسنِها. ولم يتخدَّد: لم يتغَضَّنْ.

وفيه حَذفٌ، يريد: ولها وَجْهٌ. وفي (رداء الشَّمْس) استعارةُ الرِّداء للشَّمْس. و(لم يتخدّد) كناية عن الشَّباب.

المثال الثَّاني: للأَعْشَى ميمونِ بنِ قيسٍ البَكْريّ، وهو مَطْلَعُ مُعَلَّقتِه، عِنْدَ مَنْ عَدّها مِنَ المعلَّقات:

١-وَدِّعْ هُرَيْرَةَ، إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وَهَلْ تُطيقُ وَداعاً أَيُّها الرَّجُلُ

٢-غَرّاءُ، فَرْعاءُ، مَصقولٌ عَوارِضُها ... تَمْشي الهُوَيْنى كَما يَمْشي الوَجِي الوَحِلُ

٣-كأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارَتِها ... مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيْثٌ ولَا عَجَلُ

٤-تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواسًا إذا انْصَرَفَتْ ... كَمَا اسْتَعانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

٥-لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجِيرانُ طَلْعَتَها ... وَلا تَراها لِسِرِّ الْجارِ تَخْتَتِلُ

٦-يَكادُ يَصْرَعُها لَوْلا تَشَدُّدُها ... إِذا تَقُومُ إلى جاراتِها الكَسَلُ

٧-إِذا تُعالِجُ قِرْناً ساعَةً فَتَرَتْ ... وَاهْتَزَّ مِنْهَا ذَنُوبُ المَتْنِ والكَفَلُ

٨-صِفْرُ الوِشاحِ، ومِلْءُ الدِّرعِ، بَهْكَنَةٌ ... إِذا تَأَتَّى يكادُ الخَصْرُ يَنْخَزِلُ

٩-صَدَّتْ هُرَيرةُ عَنّا ما تُكَلِّمُنا ... جَهْلًا بِأُمِّ خُلَيْدٍ، حَبْلَ مَنْ تَصِلُ؟

١٠-أَأَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْشى أَضَرَّ بِهِ ... رَيْبُ المَنُونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ؟

١١-نِعْمَ الضَّجيعُ غَداةَ الدَّجْنِ يَصْرَعُها ... لِلَذَّةِ المَرْءِ لا جافٍ ولا تَفِلُ

١٢-هِرْكَوْلَـةٌ فُنُـقٌ دُرْمٌ مَـرافِقُهـا ... كـأَنَّ أَخْمَصَهـا بالشَّـوْكِ مُنْتَعِـلُ

١٣-إذا تَقُومُ يَضُوعُ المِسْـكُ أَصْـوِرَةً ... والزَّنْبَـقُ الـوَرْدُ مِـن أَرْدانِها شَـمِلُ

١٤-ما رَوضَةٌ مِـنْ رياضِ الـحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خَضْراءُ جـادَ عليهـا مُسْـبِلٌ هَطِـلُ

١٥-يُضاحِكُ الشَّمْسَ مِنْها كَوْكَبٌ شَرِقٌ ... مُـؤَزَّرٌ بِعَـمِيـمِ النَّـبْتِ مُكْتَهِـلُ

١٦-يومًا بأَطْيَبَ منـها نَـشْـرَ رائحـةٍ ... ولا بأحسَـنَ منها إذْ دَنـا الأُصُـلُ

١٧-عُلِّقْتُها عَرَضـًا، وعُلِّقَـتْ رَجُـلًا ... غَيْرِي، وعُلِّـقَ أُخْرى غَيْرَها الرَّجُـلُ

١٨-وعُلِّقَتْهُ فَتـاةٌ مـا يُحـاوِلُـها، ... مِـنْ أَهلِهـا مَيِّـتٌ يَهْـذي بِهـا وَهِـلُ

١٩-وعُلِّقَتْني أُخَيْـرى مـا تُـلائِمُـني ... فاجْتَمَـعَ الحُـبُّ حُبًّـا كُلُّـهُ تَبِـلُ

٢٠-فَكُلُّنـا مُغْـرَمٌ يَهْـذي بصاحِبِـهِ ... نـاءٍ ودانٍ ومَحْبُـولٌ ومُحْتَبِـلُ

٢١-قالَتْ هُرَيرةُ لـمّـا جِئْـتُ زائرَهـا: ... وَيْلـي عليـكَ، ووَيْلـي منكَ يا رَجُـلُ

الألفاظ الغريبة والأسلوب والصُّوَر:

١-هريرة: اسم امرأةٍ، لم تكُنْ حُرَّةً، بل هي جاريةٌ من جواري بِشْرِ بنِ عَمْرِو بنِ مَرْثِدٍ، وهنّ (هُرَيْرَةُ وقُتَيْلَةُ وجُبَيْرة) قَدِمَ بِهِنّ إلى اليَمامةِ، وكُنَّ قَيْناتٍ. وأرادَ بقوله: (أيُّها الرَّجل) نَفْسَهُ.

وفي البيت أَمْرٌ واستفهام ونداء، وهي من أساليب الإنشاء. وفيه خبرٌ مؤكَّد. وفي قولِه: (أيُّها الرَّجُلُ) تَجريدٌ.

٢-غَرَّاءُ: بيضاء. وفَرْعاء: ذات شَعَرٍ طويل. والعَوارض: ما يَظهر مِنَ الأسنانِ عندَ التّبَسُّم. والهُوَيْنَى: المَهَلُ، والمشيُ على الهِينَةِ. والوَجِي: الحافِي، والبعيرُ الَّذي حَفِيَ خُفُّه. والوَحِلُ: الَّذي يمشي في مكانٍ مُوحِلٍ.

وفيه تَشْبيهٌ، وسَجْعٌ (غرّاءُ، فَرْعاءُ).

٣-الرَّيثُ: البُطْء.

وفيه تَشْبيه تمثيليّ.

٤-الوَسْوَاسُ: الصَّوتُ الخفيّ. والعِشْرِقُ: نباتٌ لَهُ حَمْلٌ يصيرُ في غِلافٍ، فإذا نضِجَ وحرَّكَتْهُ الرِّيحُ أصْدَرَ صوتًا. والزَّجِلُ: مِنَ الزَّجَلِ، وهو تَرَدُّد الصَّوْت.

وفيه تشبيه تمثيليّ، واستعارة لفظِ (استعان) للعِشْرِق.

٥-تختَتِلُ: أي تَسْتَرِقُ السَّمْعَ.

وفيه استعارة لفظ (تَخْتَتِل)، كما يُخْتَلُ الصَّيْد.

٦-يُلْحَظُ في البيت أنّ الفعل (يكادُ) جاء في بدايتِه، وأنّ اسمَهُ (الكسَلُ) جاء في نهايته، وهذا مناسبٌ للمعنى الَّذي يريدُه من تَثاقُلِها. وفيه استعارة الفعل (يصرَعُها) للكَسَل.

٧-القِرْنُ: المُماثِلُ، يَعني صاحبًا يُشارِكُهَا في المُعَالَجَة. والذَّنوب: الدَّلْوُ الضَّخمة، وأراد بها أردافَها. والمَتْنُ: الظَّهْر. والكَفَل: العَجُز.

وفي قوله: (ذَنُوبُ المَتْنِ) استعارة.

٨-الوِشَاح: سَيْرٌ عريضٌ يُرَصَّع بالجواهِرِ ونَحْوِها تَشُدُّه المرأة بين عاتِقِها وكَشْحِها (خَصْرِها). والدّرع: القميص. وبَهْكَنَة: ضخمةُ الخَلْقِ ليست ضيئلة. وتأَتَّى: أي تأتي برفقٍ. وينخَزِلُ: يَنْقَطِعُ.

وفيه كناية عن الخُمْصِ في قوله: (صِفْرُ الوِشاح)، وعن الامتلاءِ في قولِه (مِلْءُ الدِّرْع)، ومُقابَلةٌ بين (صفر الوشاح) و(ملء الدِّرْع). والشَّطرُ الثّاني كنايةٌ عن دقَّةِ الخَصْر وثِقَلِ الأرداف.

٩-جاء هذا البيت والَّذي بَعْدَه في بعض الرّوايات في آخرِ هذه الأبيات قبلَ البيت الأخير (قالَتْ هُرَيْرةُ ...). صدَّت عنه: انصرفَت، أي هجَرَتْه.

وفيه توبيخٌ في قَوْلِه: (جَهْلًا)، وتَصْغير (أُمّ خُلَيْدٍ). وقولُه: (حَبْلَ مَنْ تَصِلُ) استفهامٌ استنكاريٌّ مؤَكِّدٌ للتَّوْبيخ؛ وفي هذا القَوْل استعارة الـ(حبل) للحُبّ والوِداد.

١٠- رَيْبُ المَنُونِ: أرادَ نوائبَ الدَّهرِ الّتي تقضِي على الإنسان. ومُفْنِد: مُفْسِدٌ، يعني لِلْجِسْمِ. وخَبِلٌ: مفسدٌ للعقل.

وفيه استفهامٌ استنكاريّ.

١١- يُرْوى: (... يَصْرَعُها لِلَّذَّةِ المَرْءُ...)، وحينئذٍ يكون (لا جافٍ ولا تَفِلُ) من صِفَةِ (الضَّجيع) يَعنِي (هُرَيْرَةَ)، وهي أجودُ مِن روايةِ: (لِلَذَّةِ المَرْءِ)؛ لأنَّ هذه الرّواية تجعلُ (لا جافِ ...) فاعلًا للفعلِ (يَصْرَعُها)، وتَصْرِفُ المَعنى عن هُرَيْرةَ إلى (المَرْءِ). والدَّجْن: السَّحاب الأسوَد. والجافي: الغليظ في طَبْعِه. والتَّفِلُ: مُنْتِنُ الرَّائحة.

وفي البيت أسلوبُ التّعجُّبِ، ومِنَ البلاغيِّين مَن يَعُدُّه من الإنشاء.

١٢- هِرْكَوْلَة: ضخمة الوَرِكَيْن. والفُنُقُ: المُنَعَّمة، والفَتِيَّة. ودُرْمٌ مَرَافِقُهَا: مُمْتَلِئَةُ المَرافِق. والأخمص: ما ارتفَعَ مِن باطِنِ القَدَم.

وفيه تشبيهٌ تَمْثيليّ.

١٣- يَضُوع: ينتشِرُ. والأَصْورة: جمع الصُّوار، وهو وِعاءُ إحراقِ المسك. والزَّنبَق: زهرٌ طيِّب الرائحة، يَغْلِبُ عليه اللَّونُ الخَمْريّ. والأَردان: جَمْعُ الرَّدَنِ، وهُوَ الخَزُّ (الحرير)، وأراد ثيابَها. وشَمِلٌ: منتشِرٌ، شامِلٌ.

١٤- الحَزْن: مِنْ أَفْضَلِ بلادِ العربِ وأَخصَبِها. ومُسْبِل: سحابٌ أسبَلَ كثيرًا.

وفيه صفةٌ نابَتْ مَنابَ الموصُوف في قولِه:(مُسبِلٌ) أي: سَحابٌ مُسبِلٌ. وفي هذا البيت والبيتَيْنِ الآتِيَيْنِ استدارةٌ، وهو أن تتوالى أبياتٌ عدّةٌ يَنْقُلُ كلُّ بيتٍ جُزءًا مِن المعنى، ولا يتمّ المعنى إلّا في البَيتِ الأخير، وهو أسلوبٌ مُثِيرٌ مُشَوِّقٌ يُبْقي السامِعَ مَشْدُودًا إلى الكلام.

١٥- الكَوْكَبُ: بَرِيقُ الماء. وشَرِقٌ: زاهٍ. ومُؤَزَّرٌ بعَميمِ النَّبْت: أحاطَ بِه النَّبْتُ العَمِيمُ الطَّويلُ فكانَ لَهُ حُلَّةً كالإزار. ومُكْتَهِلٌ: تامُّ النَّباتِ قد بَلَغَ غايتَه.

وفيه استعارة (يُضاحِكُ) -وهو فعلٌ يدُلُّ على المُشارَكةِ- للشّمسِ والكَوكبِ. وفي قولِه: (كوكَبٌ شَرِقٌ) إيهامٌ بأنَّهُ أحَدُ كواكبِ السَّماء، وإنّما أرادَ بَرِيقَ الماء. وفي قولِه: (مؤزَّرٌ بعَميم النّبت) استعارة، جعل النّباتَ المُحِيطَ بالماءِ كالإزارِ المُحيط بجسمِ الإنسان.

١٦- النَّشْر: انتشار الرّائحة الطّيّبة. والأُصُل: جمع الأَصيل، وهو العشيّة ما بين العَصْر والمغرِب، وفيه صُفْرَةٌ وحُمْرَةٌ حَسَنَتانِ في العين.

١٧- عُلّقْتُها: تَعَلَّقْتُ بها من غير قَصْدٍ منِّي.

وفي هذا البيت والبيتَيْنِ الآتِيَيْنِ تَكرارٌ للفِعْل (عُلِّقَ) مع اختلافِ نائِبِ الفاعِل. وفيه تَصْدِيرٌ بمَجيءِ لفظِ الرَّجُلِ في صدرِ البَيْتِ وفي قافِيتِه.

١٨- وَهِلٌ: ذاهِبُ العقل.

١٩- التَّبِلُ: ذاهبُ العقلِ، والمُصابُ بِذَحْلٍ (ثأر).

وفيه تَصْغيرٌ (أُخَيْرى)، وهو تصغيرُ تحقيرٍ واستخفاف.

٢٠- ناءٍ: بعيد. ودانٍ: قريب. ومَحْبُول: واقِعٌ في الحِبَالَة، وهي شبكةُ الصيَّاد. والمُحْتَبِل: الصّائد.

وفيه طِباقٌ بين (ناءٍ) و(دانٍ)، وبين (محبول) و(مُحْتَبِل). وفي (محبول) و(مُحْتَبِل) استعارة.

٢١- في البيت دُعاءانِ (وَيْلِي علَيْكَ) و(وَيْلِي مِنْكَ)، وفيه نداء (يا رَجُلُ)، والدّعاء والنّداء من أساليب الإنشاء.

المثال الثّالث: للشَّنْفَرَى الأَزْديّ، وهو أحدُ الشّعراءِ الصّعاليك:

١-أَرى أُمَّ عَمْرٍو أَزْمَعَتْ فاستَقَلَّتِ وَما وَدَّعَتْ جيرانَها إِذْ تَوَلَّتِ

٢-وقَــدْ سَــبَقَتْنا أُمُّ عَمْــرٍو بِأَمْرِهــا ... وَكانَــتْ بأَعْنــاقِ الــمَطِيِّ أَظَلَّــتِ

٣-بَعَيْنَــيَّ مــا أَمْسَــتْ فباتَــتْ فأَصْــبَحَتْ ... فَقَضَّــتْ أُمــورًا فاســتقلَّتْ فَوَلَّــتِ

٤-فَواكَبِــدا عَــلَى أُمَيْمَــةَ بَعْــدَما ... طَمِعْــتُ، فَهَبْهــا نِعْمَــةَ العَــيْشِ زَلَّــتِ

٥-فيــا جــارتي وأَنْــتِ غَــيْرُ مُلِيمَــةٍ ... إذا ذُكِــرَتْ ولا بِــذاتِ تَقَلَّــتِ

٦-لَقَــدْ أَعْجَبَتْنــي؛ لا سَــقْوطًا قِناعُهــا ... إذا مــا مَشَــتْ، ولا بِــذاتِ تَلَفُّــتِ

٧-تَبِيــتُ بُعَيْــدَ النَّــوْمِ تُهْــدِي غَبُوقَهــا ... لِــجارتِها إذا الــهَدِيَّةُ قَلَّــتِ

٨-تُحِــلُّ بَمَنْجــاةٍ مَــنَ اللَّــوْمِ بَيْتَهــا ... إذا مــا بُيُــوتٌ بالــمَذَمَّةِ حُلَّــتِ

٩-كــأَنَّ لَــها في الأَرْضِ نِسْــيًا تَقُصُّــهُ ... عَــلى أُمِّهــا، وَإِنْ تُحَــدِّثْكَ تَبْلَــتِ

١٠-أُمَيْمَــةُ لا يُخْــزي نَثَاهــا حَليلَهــا ... إذا ذُكِــرَ النِّسْــوانُ عَفَّــتْ وَجَلَّــتِ

١١-إذا هُــوَ أَمْســى آبَ قُــرَّةَ عَيْنِــهِ ... مَــآبَ السَّــعيدِ، لَــمْ يَقُــلْ: أَيــنَ ظَلَّــتِ؟

١٢-فَــدَقَّتْ وَجَلَّــتْ واسْــبَكَرَّتْ وأُكْمِلَــتْ ... فَلَــو جُــنَّ إنســانٌ مِــنَ الــحُسْنِ جُنَّــتِ

١٣-فَبِتْنــا كــأَنَّ البَيْــتَ حُجِّــرَ فَوْقَنــا ... بِرَيْحانَــةٍ رِيحَــتْ عِشــاءً وَطُلَّــتِ

١٤-بِرَيْحانَــةٍ مِــنْ بَطْــنِ حَلْيَــةَ نَــوَّرَتْ ... لَــها أَرَجٌ، مــا حَوْلَــها غَــيْرُ مُسْــنِتِ

الألفاظ الغريبة والأسلوب والصُّوَر:

١- أزمَعَتْ: عَزَمَتْ على أمرِها. واستقلّت: رحلَتْ. والجيران: أرادَ نَفْسَهُ وأهلَهُ.

٢- سبقَتْنَا بأمرِها: لَمْ تُعْلِمْنَا بَرحِيلها. والمطيّ: الإبِل. وأَظَلَّت: اقتَرَبَتْ.

٣- قولُه: (بِعَيْنَيَّ) أي بِحَيْثُ أَراها.

وفيه تَوالي العَطْفِ بالفاء، وهو يدُلُّ على التَّعاقُب.

٤- هَبْهَا: عُدَّها. وزَلَّتْ: أي ذَهَبَتْ.

وفيه نداء الاستغاثة الدّالُّ على التَّحَسُّر. وفيه أَمْرٌ (فهَبْها نِعْمَةَ العَيْشِ زَلّت) يدُلُّ عل غَلَبَةِ اليأس. واستعار الفعل (زلَّت) للنّعمة.

٥- المُلِيمَة: الّتي تأتي بما تُلامُ عَلَيْه. و(لا بِذاتِ تَقَلَّتِ): أي لَيْسَت مِمَّنْ يُقالُ لَها: إنَّها تَقَلَّتْ، مِنَ القَلَى، وهو شِدّةُ البُغْضِ.

وفيه النَّفيُ بـ(غَيْر) وبـ(لا)؛ يريدُ تنزيهَها.

٦- قال الأصمعيّ فيما نُقِل عنه في (ديوان الشّنفَرَى): «وصَفَها بالخَرادَةِ والحَياءِ، لأنّ المُرِيبَةَ تتلَفَّتُ وتُسْقِطُ القِناعَ».

وفيه أيضًا النَّفْيُ الَّذي أراد به تنزيهَها.

٧- الغَبُوق: ما يُشْرَبُ عِشاءً، يعني هنا لَبَنُ الإبِلِ أو الغَنَم.

وفيه تَصْغيرٌ (بُعَيْدَ)، وأرادَ به أنّها لَبِقَةٌ؛ إذ تُؤَخِّرُ هديَّتَها إلى وَقْتٍ تنام فيه العيونُ فلا يَشْعُرُ بها النّائمون، ولا يكون النَّومُ قد غَلَبَ على مَنْ تَطْرُقُ بابَها من جاراتِها فتزعجها.

٨- ويُروى:

(يَحُلُّ بِمَنْجاةٍ مَنَ اللَّوْمِ بَيْتُها إذا ما بُيُوتٌ بالمَذَمَّةِ حَلَّتِ)

وفيه استعارةٌ وتجسيدٌ لِلَّوْمِ، إذ جعلَهُ موضِعًا يُحَلُّ بِه. وفي روايةِ (يَحُلُّ ... بيتُها) استعارةٌ وتشخيصٌ للبَيْتِ، إذ جعلَه كالإنسان الَّذي يَحُلُّ في المواضِع.

٩- النِّسْيُ: الشَّيْءُ الضّائع. وتَقُصُّه: تَقْتَصُّ أَثَرَهُ وتبحثُ عنه. وعلى أَمِّها: عَلَى قَصْدِها، لا تَلْتَفِتُ يَمينًا أو يسارًا. وتَبْلَت: تُوجِزُ في كلامِها ولا تُطِيْلُه.

فيه تَشْبيه تَمْثِيليّ.

١٠- الحَليل: الزَّوج. والنَّثَا: الذِّكْرُ عندَ النّاس.

وفيه استعارة وتشخيصٌ للنَّثا، إذ جعَلَهُ لا يُخْزي حلِيلَها، كما يُخْزي المَرْءُ المَرْءَ.

١١- آبَ: رَجَع. وقُرَّة العَيْن: ما تَقَرُّ بِهِ وتُسَرُّ بِهِ. وقال الأصمعيّ: «هذه الأبيات أَحْسَنُ ما قيلَ في خَفَرِ النّساء».

وفيه حذفٌ للجارِّ في قولِه: (آبَ قُرَّةَ عَيْنِه)، يريد: آبَ إلى قُرّة عَيْنِه.

١٢- دقَّ الشَّيْءُ: صَغُرَ. وجَلَّ الشَّيْءُ: عَظُمَ. واسْبَكَرَّت: استقامَ قَوامُها، وطالَ شَعَرُها واستَرْسَلَ وكَثُر. وقال الأصمعيّ: «لم تُوصَفِ المَرْأةُ بأَوْجَزَ ولا أَحْسَنَ مِنْه».

وفيه الطِّباقُ بين (دقّت) و(جلَّتْ)، يريدُ: دقَّ مِنها ما يَحْسُنُ أن يَدِقّ، وجَلَّ منه ما يَحْسُنُ أن يَجِلّ. وفيه الجِناسُ بين (جلَّت) و(جُنَّت). وقولُه: (جُنَّ) وتكراره (جُنَّت) في القافية، فيه تَصديرٌ.

١٣- حُجِّرَ فوقَنَا: مأخوذٌ مِنَ التّحجيرِ، وهو الإحاطةُ بالحجارة، وإنّما أرادَ معنى الإحاطةِ. والرَّيحانةُ: كلُّ نَبْتٍ طَيِّب الرّائحة. ورِيحَتْ: هَبَّتْ عليها الريح. وطُلَّتْ: أصابَها الطَّلّ، وهو المطرُ الخفيف.

وفيه استعارة التّحجيرِ للرَّيحانة. وفيه الجناس بين (بِتْنا) و(البَيْت)، وبين(ريحانة) و(ريحَتْ).

١٤- حَلْيَةُ: اسمُ وادٍ. ونَوَّرَتْ: أَزْهَرَتْ. والأَرَجُ: الرائحةُ الطَّيِّبةُ وتَوَهُّجُها. وغيرُ مُسْنِت: غيرُ مُنْتِنِ الرّائحة.

ثانيًا: وَقْفَةٌ عندَ المُصْطَلَحِ:

تتردَّد في كتب الأدب واللّغة والنّقد ثلاثةُ ألفاظٍ للدّلالةِ على ما يكون بين الرّجُل والمرأةِ عندَ الحديث عن الشّعر، وهي: الغَزَلُ، والنَّسيب، والتشبيبُ، وهي ألفاظٌ متمايزةُ المعاني عند أهل اللُّغة؛ فـ(**الغَزَل**) معناه ما يَدورُ بين الفِتْيانِ والفَتَياتِ من حديثٍ ونحوِه ممّا يدلّ على الإعجاب، و(**النّسيب**) معناه الشِّعْرُ الرَّقيقُ الَّذي يُقالُ في النِّساء، و(**التشبيبُ**) معناه ترقيقُ الشّاعِرِ شِعْرَهُ بذِكْرِ النّساءِ في أوّلِ شعرِه، أو بذِكْرِ أيّام الشباب.

ويُلاحَظُ أنّ (الغَزَلِ) أَوْسَعُها دلالةً فَهُوَ يدلُّ عَلَى كلِّ قَوْلٍ سواءٌ أكانَ شعرًا أم غيرَه، كما يَدُلُّ على غير القولِ مِنَ إشارةٍ وتلويحٍ ونحو ذلك؛ وأنَّ (النَّسيب) خاصٌّ بالشِّعْرِ، ولا فَرْقَ بين أن يكونَ ذلكَ في أوَّلِ القصيدة أو في مكانٍ آخرَ منها أو أن يَكون القصيدةَ أو المقطّعةَ كلَّها،

وهُوَ أَوسَعُ في الدَّلالةِ من (التَّشبيب)؛ فإنَّ (التَّشبيب) خاصٌّ بالشِّعْرِ الَّذي يذكر فيه الرَّجُلُ المرأةَ أو أَيَّامَ شبابِه حين كانت النساء تُعجب به، ويبدأُ بِهِ قصيدتَهُ لِيُرَقِّقَهُ بذلكَ، وأشار أصحابُ اللّغة إلى الصّلة بين هذا المعنى ومعنى تَشْبِيبِ النّار، وهو البَدْءُ بإيقادِها، إذ يلجأُ المُوقِدُ إلى قَبَسٍ يُشَبِّبُ به نارَهُ، فكذلكَ يفعلُ الشّاعر حينَ يبدأُ بشيءٍ من الحديث عن المرأةِ والحبّ، وهُوَ مِن أَحَرِّ العواطف.

ولا بأس باستعمال (الغَزَل) أو (النَّسِيب) مكانَ (التّشبيب)، فإنَّ مَعْنَاهُ داخلٌ فيهما، لأنَّهما أعمُّ دَلالَةً منه.

ولهذا يكون (**التَّشبيب**) أَوْلى المصطلحاتِ دلالةً على ما يبدأ بهِ الشُّعراءُ من ذكر النِّساءِ في قصائدهم الطِّوال ذواتِ الأغراض المتعدّدة؛ وهو ما اصطلَح عليه المعاصرونَ بـ (**المقدّمة الغزليّة**).

ثالثًا: سبب تقديم الشّعراء الغزَلَ على غيره في قصائدهم:

كان الشّعراءُ الْجاهليّون أصحابَ فِطْرةٍ فنّيّة سليمة، صادقينَ مع أنفسهم، حريصين على استمالةِ النّاسِ للاستماعِ إليهم، ولذلكَ فطِنُوا إلى أثر ذكر النّساءِ في قلوبِ النّاس، فَبَدَؤوا قصائدَهم بذلك، فكانَ الوقوفُ على أطلالِ الأحبَّةِ، والارتحالُ وراءَ الظَّعائن ووَصفُهن، ووصفُ جمالِ النّساءِ اللّواتي تعلَّقوا بهنّ أو تعلَّقْنَ بهم؛ لأنّ مَيْلَ الرَّجُل إلى المرأة فطرةٌ عامّة بين البَشَر، حتّى إنّ أبا السّائبِ المخزوميَّ الفَقِيهَ سُئِلَ: أَتَرى أحدًا يرغَبُ عنِ الغَزَلِ؟ فقال: «أَمَّا مَنْ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلَا»، لأنّ الرَّغبةَ عَنْ ذلكَ في الحقيقة رغبةٌ عَنْ فِطْرةِ اللهِ الّتي فَطَرَ النَّاسَ عليها، وهِي فطرةٌ وراءَ المودَّةِ والحبِّ وتأسيسِ الأُسرةِ على أساسٍ مِنَ السَّكينة والمودّةِ والرّحمة إذا بقِيَتْ نفسُ الإنسانِ على صَفاءِ فطرتِها ونَقاءِ سَرِيرَتِها.

وعلَّل ابنُ قتيبةُ النّاقِدُ ابتداءَ الشّعراءِ بذكر المرأةِ بأنّ: «التَّشبيبَ قريبٌ مِنَ النّفوس، لائطٌ بالقلوب، لِمَا قد جعلَهُ اللهُ في **تركيبِ العِبَاد** من محبَّةِ الغَزَلِ وإِلْفِ النِّساء، فلا يكاد **أحدٌ** يخلو مِن أن يكونَ متعلّقًا منهُ بسببٍ، وضارِبًا فيهِ بسَهْمٍ **حلالٍ أو حَرَام**».

وتُلْمَحُ في كلامِ ابن قتيبة إشارةٌ خَفِيَّةٌ إلى تَأَثُّرِ علاقةِ الحبّ بالبيئةِ والعصر والعقيدةِ والأخلاقِ والتّربية، ولهذا تختلف المجتمعاتُ والأفرادُ في النَّظر إلى المرأةِ، ويظهر أثرُ ذلكَ في آدابِهم، ومنها الشِّعر.

رابعًا: مضمون المَطالع الغزليّة في الشّعر الْجاهليّ:

يدخُلُ تحتَ هذا الحديثِ الإجابَةُ عن سؤالَيْنِ هما:

ما **المعاني العامّة** الّتي تناوَلها الشّعراءُ الْجاهليّونَ في مَطالعهم الغزليّة؟

وهَلْ تناوَلَها الشُّعراءُ تناوُلًا واحدًا، أو أنَّ **بينهم اختلافًا يميّز أحدَهم مِنَ الآخَر**؟

عندَ الرُّجوعِ إلى المطالعِ الثَّلاثةِ السّابقة وغيرِها مِن المطالع الغزليّة يتبيّنُ أنَّها تتضمَّنُ معانيَ متعدِّدةً، تقدّم نَظْرَةَ أولئك الشُّعراء إلى جمالِ المرأةِ وحُسْنِها وتصويرَهم لها تصويرًا فنِّيًّا، وهُوَ تصويرٌ ينضَوي تحتَ تعلُّقهم العامِّ بالْجَمالِ، سواءٌ أكانَ ذلكَ الجمالُ في المرأةِ أم في الطّبيعةِ المحيطةِ بهم، فكانَ وَصفهُم للرِّمالِ والْجِبالِ والبوادي والصَّحارى والرِّياح والغيوم والحيوانِ والنّباتِ، وكانَ وَصفهُم لجمالِ المرأةِ، وهو جمالٌ استأثرَ بحظٍّ وافرٍ من شعرِهم.

وفي ذكر شعراءِ الْجاهليّة المرأةَ حديثٌ عن: دلالِ المحبوبةِ وصَدِّها وهَجْرِها وفِراقِها و مَطْلِها بوَعْدِها، وعن ارتحالِها مع أهلها، وعمَّا يخلّفُهُ ذلك مِن تعلُّقٍ شديدٍ وشَوْقٍ متَّقِدٍ وحَسْرَةٍ آسِرَةٍ وأَلَمٍ يَسْتَدِرُّ الدَّمْعَ الغَزير؛ ويتضمَّن حديثُهم أيضًا: تذكُّر الأيّام الماضيةِ بما فيها مِنْ لِقاءٍ وبَوْحٍ وتبادُلٍ للإعجابِ والحبّ والشَّوْق، ولكنّ أهمَّ ما يتضمَّنُه هُوَ وَصْفُ محاسِنِ محبوباتِهم، وهُوَ وصفٌ استأثَرَتِ المحاسِنُ الْجَسَديّةُ بمعظَمِهِ، وكانتِ المحاسِنُ المعنويّةُ فيهِ أقلَّ حظًّا في الغالِب.

ولعلّ مَرْجِعَ استئثار المحاسن الجسديّةِ بمعظم ذِكْرِ المرأةِ هو أنَّ جمالَ الخِلْقَةِ يقترنُ بِحُسْنِ الخُلُقِ والسَّجايا في أذهانِ النّاسِ عامّةً، وأنَّ أوَّلَ ما يجعلُ الرجُلَ يميل إلى المرأةِ هو ما تقع عليه عينُهُ أو تسمعُهُ أُذُنه، وأنَّ السَّجايا والطِّباعَ أمورٌ خافِيَةٌ لا تُدْرَكُ إلّا بعدَ المُعَاملةِ والعِشْرةِ، ويدلُّ عليها العَمَلُ، ولهذا يَقترن حديثُ الشُّعراءِ عنهَا بالحديث عَنْ أفعالِ النِّساء.

وفي وصفِ الشُّعراءِ جمالَ المرأةِ **في شكلها وخَلْقِها** يظهَرُ تشبيهُها كلِّها في **نظرةٍ مُجْمَلَةٍ** بالشَّمس أو البَدْرِ أو الدُّرَّةِ أو الظَّبيِ أَو الظَّبْيَةِ أو الدُّمية أو السَّحابةِ أو غير ذلك؛ فإذا ما راحَ أحدُهم **يُدَقِّقُ النَّظَرَ** ذَكَرَ قَوامَها وَوَجْهَها وعينَيْها وخدَّها وثَغْرَها وأسنانَها وتَبَسُّمَها وشَعرَها وخَصرها وبطنَها وشَيْئًا مِن حَرَكاتِها وما إلى ذلك؛ وهذه كلُّها مظاهرُ حسّيّةٌ تُرى **بالعَيْن**، ويَذكُرُ أحيانًا أشياءَ تُحِسُّ بها **الأُذُن**، مثلَ حديثِها وصَوْتِ حُلِيِّها، وأَشياءَ يُحِسُّ بها **الأنف**، ولا سِيَّما رائحة الفم والْجَسَدِ والعِطْر، وأقلُّ من ذلكَ ما يُحَسُّ **بالذَّوقِ** أو **اللَّمس**.

وفي حديثهم عن الجانبِ **المعنويّ النفسيّ- الخُلُقيّ** يظهر الحديثُ عنِ الحياءِ والدَّلالِ والإباءِ والوَقارِ والتَّكبُّرِ والمَطْلِ بالوَعدِ، وهو حديثٌ يأتي في الغالبِ في لَفَتاتٍ عاجلةٍ ضمنَ قصائدهم، غيرَ أنَّ الشَّنْفَرَى الأَزْديَّ تميَّزَ في تائيّتِهِ بهذا الأمرِ، فقد خَصَّص معظمَ ذكرِ المرأةِ لِما فيها من حُسْنِ الخُلُق، وأَشْبَهَهُ في ذلك عنترةُ العَبْسيُّ- في بعضِ شعرِه؛ فأميمَةُ (أُمُّ عَمْرٍو) عندَ الشَّنْفَرَى: امرأةٌ حَصَانٌ حَيِيَّةٌ حريصة على نفسها مِنْ شَرَهِ العيون، لا يَسقُطُ قِناعُها، ولا تتلفّتُ وهي تسير، لِعِفَّتِها وطُهْرِها ونقاءِ أخلاقها، وهي كريمةٌ تحرصُ على إهداءِ جاراتِها وقتَ الشِّدّةِ، وتفعَلُ ذلكَ حين ينامُ النّاسُ حِفاظًا على كرامةِ مَنْ تُهدي إليها مِن جاراتِها، وتحفَظُ بيتَها وسمعَتَهُ، فلا يعرفُ اللَّوْمُ إليه سبيلًا، وهي حسنةُ الذِّكْرِ عندَ النّاسِ، ولذلكَ كانت قرّةَ عَيْنٍ لزوجِها، يجد لديها الطُّمَأْنِينَةَ والسَّكِينَةَ، ويثقُ بها، فلا يسألُ عنها أينَ ذهبَتْ؛ لأنّها لا تَرْتادُ موضِعًا يُثيرُ الرِّيبَةَ، ولأنّها لا تُقَصِّرُ في حقّ بَيْتِها وبَنِيها وزوجها بإضاعةِ وقتها هنا وهناك، وهو لا يَسْمَعُ عنها ما يَسُوءُه؛ ولذلك كلِّهِ كانَتْ حِجْرًا لِبَيْتِها ومَنْ حوى، ولكنّهُ ليسَ من الحجارةِ بل هو مِظَلَّةٌ مِنَ الرَّيحانِ الَّذي فاح أَرِيجُه.

ويُلْحَظُ الاختلافُ بين الشُّعراءِ في مطالعهم الغزليَّة حين ينصرفون إلى الجانبِ الماديِّ الحسيّ، فلكلّ واحدٍ منهم بيئتُهُ، وكلُّ واحد منهم جذبَهُ شيءٌ أو أشياءُ في محبوبتِهِ، وليس مُتَوَقَّعًا أن يذكُرَ الشَّاعِرُ كلَّ شيءٍ منها، ثُمَّ إنَّ لكلِّ واحد منهم حياتَهُ الخاصّةَ ونَظْرَتَهُ الخاصّةَ إلى الْجَمالِ والأخلاقِ والحياة؛ ولذلك لا يتحدَّث معظمُهم حديثًا عميقًا في صَرَاحتِهِ من ذكر المغامراتِ

والتَّبَذُّلِ، بل يَكْتَفُون بالوقوفِ عند المحاسن الّتي شدّت أنظارَهم وأسماعَهُمْ، وكان للأُمنيّاتِ أحيانًا حظُّها من قصائدهم، ليقولوا مِن وراءِ ذلكَ إنَّهم لم يفعلوا ما صرَّحَ به غَيْرُهم؛ ولكنَّ بعضَهم انصرف إلى شيءٍ مِنَ العبثِ والقَصْفِ والتَّعَهُّرِ والانحرافِ الخُلُقيّ، كالَّذي في كثيرٍ مِن شعر الأَعْشى وبعضِ شعرِ امرئ القَيْسِ وطَرَفَةَ بنِ العبد؛ فالنَّظَرُ إلى أبياتِ الأعشى يُبيِّن إفراطَهُ في ذكر الجوانب الحِسِّيَّة، ويُبيّن أَثَرَ مُشكلتِهِ في بَصَرِه أيضًا، ولذلك برزَتِ الصُّوَرُ السَّمعيَّةُ والشَّمّيّةُ بروزًا واضحًا، وتحدّث في غير المُعَلَّقةِ عن مغامراتِه ومُراوَدَتِه النِّساءَ، في حين أنَّ امرَأَ القيس كان في أوّلِ حياتِهِ فتًى لاهيًا ابنَ ملِكٍ، ولذلكَ راحَ في معلَّقتِهِ يذكر مغامراتِهِ مع نساءٍ عدّة، وإن لَمْ تَخْلُ مِن ذكرِ الدُّموعِ والشَّكْوى مِن دلالِ المحبوبة؛ وبذلك يظهر أنّ الشُّعراء لم يكونوا يكرّرون نمطًا واحدًا من الغَزَلِ، ولا معانيَ ثابتةً، بل كان لكلّ واحد منهم زاويتُهُ الّتي جلس فيها ليصوّرَ محبوبتَه.

خامسًا: سماتٌ عامّةٌ في المَطالع الغزليّة:

هنالكَ سماتٌ عامّةٌ تظهر في المطالع الغزليّة نُجْمَلُ فيما يأتي:

١- **وضوح المعاني**، إذ لم يلجأ الشُّعراء إلى المُوارَبةِ أو الرَّمز، فلا يجدُ المَرْءُ حاجِزًا بينَهُ وبين فهمِها سِوَى **غرابةِ بعضِ الألفاظ**، وهِيَ غرابَةٌ يَجِدُها أبناءُ العصورِ المتأخِّرة ولم يكن يجدُها مَن كانوا في العصر الجاهليّ.

٢- **الصِّدْقُ وأنَّهُ مقصود لذاتِهِ**، لأنَّه ناتجٌ عن قوةِ عاطفةِ الحبّ في النفوس؛ وإذا كانَ قد أتى في أوائل قصائدِهم، فليس لأنَّهُ تقليدٌ فَنِّيٌّ محض، بل لهذا السَّبَبِ ولِفِطْنَةِ الشّعراء إلى أنّ ذلكَ يكفُلُ لهم أن يشدَّ أسماعَ النّاسِ إليهم، ولكنَّهُ على كلِّ حالٍ ناتجٌ عن عاطفة صادقة، سواءٌ أكان الشّاعرُ في مَيْعةِ الصِّبا يتقلّبُ في حُبِّه على جَمْرِ الصُّدودِ أو يتنعَّمُ في رَوْضاتِ الوِصال، أم كان في أَرْذَلِ العُمُرِ يَسْتَحْضِرُ ماضِيَهُ في مَيْعَةِ الصِّبا.

٣- وممّا يرتبط بالملحوظة السّابقةِ أنَّ **هذه المطالعَ في كثيرٍ مِن الأحيان ترتبطُ بغَرَضِ القصيدةِ الرَّئيسيِّ بوحدةٍ شعوريّةٍ**، يستطيع المتأمِّلُ تلمُّسَهَا في موقفِ الشّاعر من محبوبته أو في

موقِفِها منه، كالَّذي في مقدِّمةِ الأعشى مِن ألمِ الفِراق، وعتابٍ شديدٍ على صدِّ هُريرةَ عنه، واضطرابٍ في العلاقة بين كلِّ محِبٍّ ومحبوبه، وهي مُقابِلَةٌ لِما يَظْهَرُ في غرضه الرَّئيسيِّ مِن معاتبَةِ يزيدَ بنِ مُسْهِرٍ الشَّيْبانيِّ البَكْريّ[1]:

أَبْلِغْ يزيدَ بَني شَيْبانَ مَأْلُكَةً ... أَبا ثُبَيْتٍ أَما تَنْفَكُّ تَأْتَكِلُ

أَلَسْتَ مُنْتَهِيًا عن نَحْتِ أَثْلَتِنا ... ولَسْتَ ضائِرَها ما أَطَّتِ الإِبِلُ

وهو عتاب يحمل في طيّاتِهِ إشارةً إلى اضطراب بطون بَني بكرٍ، ومنهم بنو شَيْبانَ رَهْطُ يزيد، و بنو قيسِ بنِ ثعلبةَ رهطُ الأعشى.

وكذلك الحالُ في قصيدة الشَّنْفَرَى، فإنَّ الودادَ والإعجاب الصّادق واضحانِ في غزلها وُضوحَهما في حديثه عن (تأبَّطَ شرًّا) الَّذي جعلَهُ أُمًّا فيما بعد[2]:

وأُمِّ عِيالٍ قد شَهِدْتُ تَقُوتُهُمْ ... إذا آدَمَتْهُمْ أَقْتَرَتْ وأَقَلَّتِ

وما إنْ بِها ضَنٌّ بِما في وِعائِهِمْ ... ولكنَّها مِنْ خِيفَةِ الْجُوعِ أَبْقَتِ

وفي قصيدةٍ للمُثَقِّبِ العَبْدِيّ:

أَفاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكِ مَتِّعيني ... ومَنْعُكِ ما سَأَلْتُ كَأَنْ تَبيني

فَلا تَعِدي مَواعِدَ كاذِباتٍ ... تَمُرُّ بِها رياحُ الصَّيْفِ دُوني

فَإِنّي لَوْ تُخالِفُني شِمالي ... خِلافَكِ ما وَصَلْتُ بِها يَميني

ثم قال في آخر حديثه عن الظعائن[3]:

---

[1] المألُكة: الرّسالة. و(أبا ثُبَيْت) مُنادى، وكُنيَةُ يزيد بن مُسْهِر (أبو ثابت) فصغَّرها! وتأتكِلُ: يأكلُ بعضُك بعضًا من تغيُّظِك وحقدك وغضبك. والأثْل: ضربٌ من الشّجر، واحدتُه أَثْلَة؛ أراد بها أصلَهم ومجْدَهم. وأَطَّتِ الإبل: حنَّت مِن الشَّوقِ وأنَّت من التّعب.

[2] أمّ عيال: أراد بها (تأبّطَ شرًّا). وآدَمتهم: قدَّمت إليهم الإدامَ. وأقتَرَت: أي قلَّلَتْ ممّا تُعطيهم. والضّنُّ: البُخل.

[3] الهاجرة: حين تشتدّ حرارة الشّمس. القَرُون: النَّفس. ومُصحِبَتي: تابعتي ومنقادة لي.

فقلْـــتُ لِبَعْضِـــهِنَّ، وشُـــدَّ رَحْـــلي لِـــهاجِرَةٍ نَصَـــبْتُ لَـــها جَبينـــي
لعلَّـــكِ إنْ صَرَمْـــتِ الحَبْـــلَ مِنّـــي كَـــذاكِ أَكُـــونُ مُصْـــحِبَتي قَـــرُوني

وفي حديثه عن الناقة[1]:

إذا قَلِقَـــتْ شَـــدَدْتُ لَـــها سِـــنافًا أَمـــامَ الـــزَّوْرِ مِـــنْ قَلَـــقِ الوَضـــينِ
إذا مَـــا قُمْـــتُ أَرْحَلُهـــا بِلَيْـــلٍ تَـــأَوَّهُ آهَـــةَ الرَّجُـــلِ الحَـــزينِ
تقـــول إذا دَرَأْتُ لَـــها وَضِـــيني أَهـــذا دِينُـــهُ أَبَـــدًا ودِينـــي
أَكُـــلَّ الـــدَّهْرِ حِـــلٌّ وارْتِحـــالٌ أَمـــا يُبْقـــي عـــلَيَّ ولا يَقينـــي

ثم خاطبَ عمرو بن هند الملكَ في آخر القصيدة بقوله[2]:

فإمّـــا أن تكـــونَ أخـــي بحـــقٍّ فـــأعرِفَ منـــكَ غَثّـــي مِـــن سَـــميني
و إلّا فـــاطَّرِحْني و اتَّخِـــذْني عَـــدُوًّا أَتَّقيـــكَ وتَتَّقينـــي

ولكن هذا الارتباط النّفسيّ- الشّعوريّ بين المقدّمات والأغراض الرّئيسيّة لا يُسوِّغُ تسويغًا مقبولًا ما يذهب إليه مَنْ يرَوْنَ المقدّماتِ رموزًا لا أكثر، وأنّها لا تُحْمَلُ على ظاهِرِها، ولا تعبِّرُ عن علاقةٍ حقيقيّة بين الرَّجل والمرأة.

٤- **ظهور أثر البيئة العربيّة فيها**، وهي سِمَةٌ عامّةٌ في سائر أَغْراضِ شعرهم؛ لأنّ وسيلتهم الأُولى في التّصوير هي التّشبيه، والتّشبيه يعمد صاحبُه فيه إلى حَواسِّه، فإذا شبَّهوا شعر المرأةِ جعلوه مثل اللّيل أو الحبال أو عثاكيلِ النّخل، وإذا شبّهوا جِيدَها وجدوه مثلَ جِيدِ الظَّبْيِ أو الظّبية وهما يتناولانِ ثَمَرَ الأراك، وإذا شبَّهوا رِيقَها وجدوه كالماءِ البارد العذب المستنقعِ بين الصُّخور أو تحتَها. وقلّما ظهر أثر الأشياء

---

[1] السِّناف: حَبْلٌ دقيقٌ يُشَدُّ على البعير لئلاّ يتأخّر الرَّحْل. والزَّوْر: الصَّدْر. والوَضِين: حِزام الرَّحْل. وتأوَّهُ: تتأوَّهُ. ودَرَأْتُ وضيني: مَدَدْتُه وشَدَدْتُ به الرَّحل. والدّين: الدَّأبُ والعادة.

[2] الغثّ: الهزيل؛ يريد: فأعرفَ نُصْحَكَ مِن غِشِّك. واطَّرِحْني: انبُذْني.

غـيرِ الطّبيعيّـة في تصـويرهم، كتشـبيه وجـهِ الـمرأة بالصَّـحيفةِ وتشـبيه صـدرِها بالـمرآة وتشبيهها كلِّها بالدّمية أو التِّمثال.

نَظَراتٌ في أبياتِ طَرَفَةَ والأَعْشَى والشَّنْفَرَى (اللاّلاي)

تعليقٌ على أبياتِ طَرَفَةَ بنِ العَبْد

ذكَرَ طَرَفَةُ في مقدّمة معلّقَتِه ثلاثَ نساءٍ لا امرأةً واحدة: (خَوْلَةَ) صاحبة الأطلال، وامرأةً تَغَزَّلَ بِها استعارَ لها لفظَيْ (أَحْوى) و(خَذُول)، و(المالكيّة) الظَّعِينةَ صاحبةَ الخُدُوج الّتي ذكرها بعد الأبيات الخمسة.

وثمّةَ أمورٌ تَلْفِتُ النَّظَرَ في أبيات الغَزَلِ **أوّلُها أنّ عَدَدَها قصير**؛ فهو **أوّلًا** قصيرٌ بالقِياسِ إلى طول معلقتِه الّتي هذه الأبياتُ منها، إذ تبلغ في ديوانه مئةً وثلاثةَ أبيات، لم يستأثر الغزَلُ منها بِسِوى خمسةِ أبياتٍ سبقَتْهَا خمسةُ أبياتٍ أُخرى لأطلالِ (خَوْلَةَ) وللظّعائنِ اللّواتي فيهنّ (المالكية)؛ وهو قصيرٌ **ثانيًا** بالقياسِ إلى أبياتِ النّاقةِ الّتي وصفَها بعدَ أبياتِ الغَزَلِ، والّتي يُمْضِي عليها هَمَّهُ مُرْتَحِلًا:

وإِنّي لَأُمْضِي الهَمَّ عندَ احْتِضارِهِ بِعَوْجاءَ مِرْقالٍ تَروحُ وتَغْتَدي

إذِ استأثَرَتِ النّاقةُ بتسعةٍ وعِشْرينَ بيتًا؛ وهو قصيرٌ **ثالثًا** إذا قِيسَ بأبياتِ الأَعْشَى والشَّنْفَرَى؛ وهو قصيرٌ **رابعًا** إذا قِيسَ بما استأثرت به أبياتُ الغَزَلِ مِنْ قصيدتِهِ الرَّائيَّةِ التّاليةِ في ديوانه:

أَصَحَوْتَ اليَوْمَ أَمْ شاقَتْكَ (هِرْ) ومِنَ الحُبِّ جُنونٌ مُسْتَعِرْ

إذْ كانَ الغَزَلُ منها سبعةً وعشرينَ بيتًا مرتبطةً ارتباطًا شديدًا بأبياتِ الفَخْرِ الّتي جاءت بعدَها.

والغزَلُ في الرّائيّةِ يَدُلُّ على أنَّ المُتَغَزَّلَ بها (هِرّ) ليست ممَّنْ يُحْتَرَمُ مِنَ النِّساء؛ وكأنَّ طَرَفَةَ لم يكُنْ يُبالِي بإطالةِ حديثِه الَّذي في بعضِ جوانبِه شيءٌ من الشَّهْوَةِ كما فعلَ الأَعْشَى.

ولعلَّهُ إنَّما قصّرَ أبياتَ الغزَلِ في معلَّقَتِه لأنَّ المرأةَ الّتي يتغزّلُ بها واستعار لها لَفْظَيْ (أَحْوَى) و(خَذُول) كانت امرأةً قد أحبَّها حقًّا، وكانت امرأةً ذاتَ عِفَّةٍ لا يريدُ الإفصاحَ عنها،

ولذلكَ لَمْ يَذْكُرْها بِاسْمِها، بل لجأَ إلى الاستعارةِ ولم يُطِلْ في وَصْفِها؛ وقد يكون السَّبَبُ أنَّ مقدّمةَ الطَّلَلِ والظّعائنِ والغَزَلِ كانت تقليدًا يريدُ منها أنْ يُرْضِيَ مَنْ يَسْتَمِعُ إليه، إذ كان العُرْفُ السّائدُ لديْهِمْ أَنْ يضَعَ الشّاعرُ لقصيدتِهِ الطّويلةِ مُقدّماتٍ، ولذلكَ لم يظْهَرْ لطَرَفَةَ حُضُورٌ إلّا في البيت الثّاني من المقدّمة الطّلليّة:

وقوفًا بها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقولون: لا تَهْلِكْ أَسًى وتَجَلَّدِ

فثَمَّةَ ضميرٌ بارزٌ في قوله: (عليَّ)، وضَميرانِ مُسْتَتِرانِ في قولِه: (لا تهلِكْ) و(تَجَلَّد)، هذا إنْ لم يكُنْ قد أخذَ البيتَ مِن بيتِ امرئِ القَيْس:

وقوفًا بها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُون: لا تَهْلِكْ أَسًى وتَجَمَّلِ

والأمر الثّاني الَّذي يَلْفِتُ الانتباهَ أنّه اتّجه في غَزَلِه إلى الصّفاتِ الخارجيّةِ الخَلْقِيّة، فوصف صاحبتَه وَصْفًا عامًّا حين جعلَها أحوى شادِنًا وخَذُولًا، فشبَّهَها في جُمْلَتِها بهذَيْنِ المَخْلُوقَيْنِ اللَّطِيفَيْنِ (الظَّبْي الأحوى الشّادِن،والظَّبْيَة الخَذُول)، ووَصَفَ أعضاءً قليلةً مِن جَسَدِها وَصْفًا خاصًّا، فذكَرَ ثغرَها وابتسامَتَها وأسنانَها ووجهَها وبَشَرَتَه، والتفَتَ التِفاتةً خَفِيَّةً إلى وَضْعِها الاجتماعيِّ، فهيَ امرأةٌ غنيّة، وكَنَى عن ذلك بأنّها قد ضاعَفَتْ سِمْطَيْنِ مِن لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَد، وأنّها تعيشُ في رَغَدٍ وخِصْب، ودلَّ على ذلك ترشيحُهُ الاستعارةَ الثّانيةَ (خَذول) بقوله: (تَناوَلُ أطرافَ البَرِيرِ وتَرْتَدِي)، فكانت هذه المرأةُ غنيّةً مُرَفَّهةً كما كانتْ الخَذولُ في خِصْبٍ ودَعَةٍ يَجْعَلانِها تَتَّقي ما تَتَناوَلُه.

ولا يَظهرُ أثرٌ لشيءٍ مِن الصّفاتِ الخُلُقيّةِ الدّاخليّةِ إلّا مِنْ وَراءَ وراءَ، في قولِه: (خذولٌ تُراعي رَبْرَبًا بِخَميلةٍ)، إذ إنّ هذهِ العبارةَ تتضمّن الخوفَ والعَطْفَ والحَنانَ على وَلِيدِها.

ولكنّ طرفةَ أَرادَ لصاحبتِه هذه أن تكون قد بلغَتِ الكمالَ في هذه الأوصافِ الّتي وقف عندها، فجعل ما يتناولُه الـ(أَحْوى) شيئًا مُنْتَقًى في البيت الأول: (يَنْفُضُ المَرْدَ)، وأفردَها في البَيْتِ الثاني عَنْ غَيْرِها حين استعارَ لها لَفْظَ (الخَذُول) الّتي تُراعِي الرَّبْرَبَ وهُو القَطيعُ الَّذي

تنتَمِي إلَيْه، وجعلَ ما تتناولُهُ شيئًا مُنْتَقًى أيضًا: (تَناوَلُ أطرافَ البَرِيرِ) وهو الغَضُّ الطَّريُّ من ثَمَرِ الأَراك، كما جعلَ الكَثِيبَ الَّذي نَبَتَ عليه الأُقْحوانُ الَّذي شبَّهَ به أسنانَها في البيتِ الثّالثِ كَثِيبًا من (حُرِّ الرَّمْل) وهو خَيْرُهُ وأَجْوَدُه، وجعلَ أسنانَها غايةً في النَّصاعةِ قد سقَتْها الشّمْسُ، ونَفَى عنها أن تكونَ قد كَدَمَتْ عليها شيئًا قاسيًا، وجعَلَ وجهَها غايةً في الصّفاءِ والنّقاءِ والإشراقِ كأنّه الشّمسُ، نَقِيّ اللَّونِ، غير مُخَدَّدٍ ولا مُتَغَضِّنٍ.

الأمرُ الثّالثُ هو أنّ في الأبيات غِنًى فَنِّيًّا يَدُلُّ على شاعرٍ مُتْقِنٍ لِصَنْعَتِه، إذ كثُرَتِ **الصُّوَرُ البَيانِيَّةُ مِن استِعارَةٍ وتَشْبيهٍ وكِنايَة** في هذه الأبيات الخمسة، والشّعْرُ تصويرٌ بالكلام؛ فقد جاءتِ **الاستعارة** في البيت الأوّل (أحوى) والثّاني (خذول) والثّالث (تخلّل حُرَّ الرّمْلِ دِعْصٌ) والرّابع (سقَتْهُ إياةُ الشَّمس) والخامس (حلَّت [الشَّمْسُ] رِداءَها)؛ وكان في الأبيات **تشبيهٌ**، في البيتَيْنِ الثّالِثِ (كأنَّ مُنَوَّرًا) والخامسِ (كأنَّ الشَّمْسَ حلَّتْ رِداءَها ...)؛ وكانت **الكنايةُ** أيضًا في البيت الأول (مُضاعِفُ سِمْطَيْ لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَد) كنايةً عن الغِنى، والثّاني (تُراعِي رَبْرَبًا بِخَميلةٍ) كنايةً عنِ العَطْفِ والخَوْفِ، و(تَناوَلُ أطرافَ البَرِيرِ) كنايةً عنِ الدَّعَةِ والخِصْبِ والسَّعَة، والرّابعِ (لَمْ تَكْدِمْ عليه) كنايةً عن سَلامةِ الأسنانِ، أو عَنْ أَنَّها لَيْسَتْ شَرِهَةً.

وقد غَلَبَ على هذه الصُّوَرِ أنَّ **مَصْدَرَها بدَوِيٌّ**، ولذلك كان ذِكْرُ (الأَحْوَى) و(المَرْد) و(البَرِير) و(الخَذُول) و(الرَّبْرَب) و(الأُقْحُوان المُنَوِّر) و(الرَّمل) و(الدِّعْص) و(الشَّمس)، وإنّما جاءت صورةٌ واحدةٌ مِن البيئة الحَضَريّةِ حين جعل صاحبتَهُ تُظاهِرُ سِمْطَيْ لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَد، غيرَ أنَّ هذه الصورةَ ليست حضريَّةً مَحْضَة، لأنَّها ممَّا لا غِنَى للمرأةِ عنه لا في حَضَرٍ ولا في بَدْوٍ.

على أنّهُ يَنْبَغِي التّنبيهُ على أنَّ هذه الأبياتَ لم تكُنْ في غِناها الفَنِّيِّ والمعنويِّ كأبياتِ الأَعْشى ولا كأبياتِ الشَّنْفَرَى.

التعليقُ على أبياتِ الأعْشى

أظهرَتْ أبياتُ طَرَفَةَ بنِ العَبْدِ الغَزَليَّةُ الخمسةُ أنّه أَرادَ أنْ يَذْكُرَ امرأةً أحبَّها ولم يشأْ أنْ يكشِفَ عن حقيقتِها، فلجأَ إلى الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ بقولِه: (وفي الحيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ المَرْدَ شادِنٌ) وقولِه (خَذُولٌ تُراعِي رَبْرَبًا بِخَميلَةٍ)، وكان ترشيحُهُ لِهاتَيْنِ الاستعارتَيْنِ إمعانًا في صرفِ الأنظارِ عن تلكَ المرأةِ إلى شيءٍ جميلٍ آخَر، واكتفى بالإشارةِ إلى الثَّغْرِ والابتسامةِ والوجْهِ والْجِلْدِ.

أمّا الأَعْشى فإنَّ الحالَ عندَهُ مختلفةٌ أَشَدَّ الاختلاف، ولهذا **سيقفُ الكلامُ أولًا عند غايةِ الأَعْشى مِنْ غَزَلِه هذا**؛ إذ يبدو وكأنّه يريدُ أن يَهْتِكَ كُلَّ الأَسْتارِ عن (هُرَيْرَةَ) الّتي يتغزّلُ بها ولا يَرَى لها حُرْمَةً ولا احْتِرامًا، وقدِ استعانَ لذلكَ بأمورٍ كثيرةٍ، **أولُها**: تصريحُه باسمِها في مَطْلَعِ قصيدتِه: (وَدِّعْ هُرَيْرَةَ)، وعَوْدَتُه إلى ذلك ثلاثَ مَرَّاتٍ أُخرى بذكرِ اسمِها أو كُنيتِها، فقال: (صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنَّا) وقولِه: (جَهْلًا بِأُمِّ خُلَيْدٍ) وقولِه: (قالَتْ هُرَيْرَةُ ...).

وثانيها: تَوالي الأَوْصافِ والأَخْبارِ المُتعلِّقةِ **بجَسَدِها** في أبياتِه هذهِ: (غَرّاء، فَرْعاء، مَصْقُولٌ عَوارِضُها، صِفْرُ الوِشاحِ، مِلْءُ الدِّرْعِ، بَهْكَنَةٌ: أيْ ضخمةُ الخَلْقِ لَيْسَتْ ضئيلَةً، يَكادُ الخَصْرُ يَنْخَزِلُ، هِرْكَوْلَةٌ: أيْ ضخمةُ الوَرِكَيْن، فُنُقٌ: أيْ فتيَّة، دُرْمٌ مَرافِقُها، كأنَّ أَخْمَصَها بالشَّوْكِ مُنْتَعِلُ)؛ فَبَيَّنَ بذلكَ بياضَ لونِها، وطولَ شَعَرِها، وبَرِيقَ أسنانِها، ودِقَّةَ خَصْرِها، وضمورَ بطنِها، وامتلاءَ جسدِها، وضِخَمَ خَلْقِها، ووَرِكَيْها، وأنَّها فَتِيَّة، وصَوَّرَ أَخْمَصَ قدَمِها.

ولم يكتَفِ بتَوالي الأوصافِ والأخبارِ، بل تَتَبَّعَ حركتَها وما يُلازِمُها داخلَ بيتِها وخارِجَه، بل على سريرِها ومَضْجَعِها، في قوله: (تَمْشِي الهُوَيْنَى) وقولِه: (كأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارتِها...) البيت، وقولِه: (تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواسًا إذا انْصَرَفَتْ)، وقولِه: (يكادُ يَصْرَعُها ...) البَيْت، وقولِه: (إذا تُعالِجُ قِرْنًا...) البَيْت، وقولِه: (إذا تَأَتَّى يكادُ الخَصْرُ يَنْخَزِلُ)، وقولِه: (نِعْمَ الضَّجِيعُ ... لا جافٍ ولا تَفِلُ)، وقولِه: (إذا تقومُ يَضُوعُ المِسْكُ أَصْورَةً ...)، وقولِه: (ما رَوْضَةٌ ...) إلى قولِه: (يومًا بأَطْيَبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ...) البَيْت.

وثالثُها: كَشْفُهُ حقيقةَ العلاقةِ بينَهُ وبينَها، ونُفورَها منه، وذلك في قولِه: (صدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنَّا...) البيت، وقولِه: (عُلِّقْتُها عَرَضًا وعُلِّقَتْ رَجُلًا غَيْرِي ...)، وقولِه: (قالَتْ هُرَيْرَةُ لَمّا جِئْتُ زائرَها: وَيْلِي عَلَيْكَ ووَيْلِي مِنْكَ)؛ ومِحْوَرُ هذه العلاقةِ هو قولُه: (صدَّتْ هُرَيْرَةُ عنّا) وقولُه: (وعُلِّقَتْ رجلًا غَيْرِي)؛ ولذلك ينبغي ألّا يَخْدَعَنا سؤالُه الاستنكاريُّ الَّذي يُوحِي بالأَسى على وَداعِها في مَطْلَعِ القصيدةِ: (وهل تُطِيقُ وَداعًا أيُّها الرَّجُلُ؟)، فإنَّ ظاهِرَهُ الحزنُ والأَسى وإنكارُ قدرتِه على الوَداع، وحقيقتَهُ أنَّهُ ناقِمٌ عليها لانصرافِها عنه وصُدودِها؛ وقد كانت هذه النِّقْمَةُ وراءَ عِباراتِ الاحتقارِ والتَّوْبيخِ في قولِه: (صدَّتْ هُرَيْرَةُ عنّا، ما تُكَلِّمُنا، جَهْلًا بأُمِّ خُلَيْدٍ، حَبْلَ مَنْ تَصِلُ؟)، و(هُرَيْرَةُ) -وإنْ كان اسمًا لتلك الجاريةِ مِنْ جَواري بِشْرِ بنِ عَمْرِو بنِ مَرْثَدٍ البَكْريّ- لهُ دلالةٌ أُخْرَى في مثلِ هذا السِّياق، فهو تصغيرٌ لـ(هِرَّة)، والهِرَّةُ -وإنْ كانَ ظاهِرُها النُّعومةَ- قد تَخْدِشُ وتَخْمِش، كما خدَشَتْ (هُرَيْرةُ) كِبرياءَ الأعشى بِصَدِّها عنه، هذا إلى جانب ما في التَّصغيرِ منَ الاحتقار؛ وكذلكَ تصغيرُه كُنْيَتَها (أُمّ خُلَيْدٍ)، وتعليلُه صدودَها بقولِه: (جَهْلًا بأمِّ خُلَيْدٍ)، واستنكارُه ذلك بالسُّؤالِ: (حَبْلَ مَنْ تَصِلُ؟)، وفي هذا السُّؤالِ احتقارٌ واستصغارٌ ليسَ لهُرَيْرةَ وحدَها، بل لكُلِّ (مَنْ) تُفَكِّرُ في وَصْلِهِ غَيْرِ الأَعْشى أيْضًا؛ وهذا الاحتقارُ والاستصغارُ ينقلُنا إلى غَرَضِ القصيدةِ الرَّئيسيّ، وهُو تهديدُ (أَبِي ثابِتٍ يزيدَ بنِ مُسْهِرٍ الشَّيْبانيِّ البَكْريّ)، إذْ لجأَ الأعشى في مُخاطَبَتِه إلى الأسلوبِ نفسِه في التَّصْغيرِ والسُّؤالِ الاستنكاريِّ، في قولِه:

أَبْلِغْ يَزيدَ بَنِي شَيْبانَ مَأْلُكَةً: أَبا ثُبَيْتٍ أَمَا تَنْفَكُّ تَأْتَكِلُ؟

وقولِه:

أَلَسْتَ مُنْتَهِيًا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنا ولَسْتَ ضائِرَها ما أَطَّتِ الإِبِلُ؟

ويقف الكلام ثانيًا عند الوسائلِ الفنيَّةِ الّتي لجأ إليها الأعشى للوصول إلى غايتِه، أو الوسائلِ الفَنيّةِ الّتي استدعَتْها غايتُهُ هذه؛ إذِ **اتّسَمَتْ أبياتُه بالتَّنَوُّعِ والغِنى الفنيَّيْنِ؛ ومِن ذلك**

تَنَوُّعُ تركيبِ عباراتِه بينَ الخَبَرِ والإنشاء، فأمَّا **الخَبَرُ** فقد غلَبَ على تصويرِهِ لِـهُرَيْرَةَ: في البيت الثّاني (غَرّاءُ فَرْعاءُ ...) البيت، والبيت الثّالث: (كأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارتِها...) البيت، والبيت الرّابع: (تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواسًا ...) البَيْت، والبيت السّادس: (يَكادُ يَصْرَعُها...) البيت، والبيت السّابع: (إذا تُعالِجُ قِرْنًا...) البيت، والبيت الثّامن: (صِفْرُ الوِشاحِ ...) البيت، وصَدْر البيت التّاسع: (صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنَّا، ما تُكَلِّمُنا)، والبيت الثّاني عَشَرَ: (هِرْكَوْلَةٌ فُنُقٌ...) البيت، والبيت الثّالثَ عَشَرَ: (إذا تقومُ ...) البَيْت، وفي وَصْفِ أحوالِ العاشِقِينَ في البَيْتَيْنِ الثّامِنَ عَشَرَ والتّاسِعَ عَشَرَ: (عُلِّقْتُها عَرَضًا...) البَيْتَيْنِ؛ وجاءَ الخَبَرُ مُؤكَّدًا في إعلانِ الرَّحِيل: (إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ)؛ وجاءَ مَنْفِيًّا في قَوْلِه: (لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ) و(ليسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجِيرانُ طَلْعَتَها) و(لا تَراها لِسِرِّ الْجَارِ تَخْتَتِلُ) و(ما تُكَلِّمُنا) و(لا جافٍ) و(لا تَفِلُ) و(ما رَوْضَةٌ ... يَوْمًا بأَطْيَبَ منها ... ولا بأَحْسَنَ منها) و(ما يُحاوِلُها) و(ما تُلائِمُني)،.

وأمّا **الإنشاء** فقد تعدّدت صورُه، فهنالك **الاستفهامُ** في قَوْلِه:(وهل تُطِيقُ وَداعًا) و(حَبْلَ مَنْ تَصِلُ؟) و(أَأَنْ رأَتْ رَجُلًا ...؟)، و**الدُّعاءُ** في قَوْلِه: (وَيْلِي عَلَيْكَ) و(وَيْلِي مِنْكَ)، و**الأمرُ** في قَوْلِه: (وَدِّعْ هُرَيْرَةَ)، و**النِّداءُ** في قولِهِ: (أيُّها الرَّجُلُ) و(يا رَجُلُ)؛ وقد خَرجَ بعضُ هذه الأساليب الإنشائيّةِ إلى معانٍ غيرِ ما وُضِعَ لهُ أَصْلًا، فقولُه مثلًا: (وهل تُطيقُ وَداعًا) خرجَ إلى معنى النَّفي، و(حبْلَ مَنْ تَصِلُ؟) خرج إلى معنى التّوبيخ والازدراء.

ومِن ذلكَ كثرةُ الطِّباقِ والمُقابَلَةِ بالْجَمْعِ بينَ الشَّيْءِ وضِدِّه، في قولِه: (غرّاء) الدَّالِّ مِن جِهَةِ اللَّوْنِ على البَياضِ، و(فَرْعاء) الدَّالِّ مِن جهةِ اللَّوْنِ على السَّواد، وقولِه: (لا رَيْثٌ) و(لا عَجَلُ)، وقولِه: (تُعالِجُ) و(فَتَرَتْ)، وقولِه: (صِفْرُ الوِشاحِ) و(مِلْءُ الدِّرْعِ)، وقولِه:(صَدَّتْ) و(تَصِلُ)، وقولِه: (عُلِّقْتُها عَرَضًا) و(عُلِّقَتْ رَجُلًا غَيْري)، وقولِه: (عُلِّقَتْ رَجُلًا غَيْري) و(عُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَها الرَّجُلُ)، وقولِه: (عُلِّقَتْهُ فَتاةٌ) و(ما يُحاوِلُها)، وقولِه: (عُلِّقَتْهُ فَتاةٌ) و(مِنْ أَهْلِها مَيِّتٌ يَهْذِي بها...)، وقولِه: (ناءٍ) و(دانٍ)، وقولِه: (مَحْبُولٌ) و(مُحْتَبِلُ)، وقولِه: (وَيْلِي عَلَيْكَ) و(وَيْلِي مِنْكَ)؛ ومُعْظَمُ ذلك تَضادٌّ دالٌّ على النُّفورِ والاختلافِ الَّذي يُوحي بجوٍّ

القصيدةِ النَّفْسِيّ، وجَوِّ غَرَضِها الرَّئيسيّ، وهُوَ تهديدُ يَزيدَ بنِ مُسْهِرٍ الشَّيْبانِيّ لِلْخِلافِ بينَ رَهْطِه ورَهْطِ الأَعْشى معَ أنَّ كِلا الرَّهْطَيْنِ مِنْ بَكْرِ بنِ وائِلٍ، كما أنَّ الأَعشى وصاحبتَه واقعانِ في الحُبِّ، وكذلك كلُّ اثنَيْنِ ممّن ذكرَ وقوعَهُما في الحُبّ، ولكنَّهُ حُبٌّ «كلُّهُ تَبِلُ» لإعْراضِ كلِّ محبوبٍ عن مُحِبِّه.

وممّا يتعلّقُ بتركيبِ العباراتِ ذلكَ الفَصْلُ الطَّويلُ في البَيْتِ السّادِسِ بين الفعلِ (يَكادُ) واسْمِهِ (الكَسَلُ)، إذ جاءَ الفعلُ في أوّل البَيْتِ وجاء اسمُهُ في آخِرِه، وفصَلَ بينَهُما بجُمْلَةِ الخَبَرَ (يَصْرَعُها)، وبِجُمْلَةِ الشَّرْطِ محذوفةِ الْجَوابِ (لولا تَشَدُّدُها)، وبالظَّرْفِ والجُمْلَةِ المُضافَةِ إلَيْه (إذا تقومُ إلى جاراتِها)؛ وهذا الفَصْلُ الطَّوِيْلُ مناسبٌ لِتَصْويرِ تّثاقُلِ هذه المرأةِ وهي تقومُ لزيارةِ جاراتِها.

ومِن ذلكَ ما سلفَتِ الإشارةُ إليه مِنَ اللُّجوءِ إلى التَّصغيرِ الَّذي يُرادُ به التّحقير، فاسمُ صاحبتِه هو (هُرَيْرَة)، وكناها بـ(أُمِّ خُلَيْدٍ)، ووصف المرأةِ الّتي عُلِّقَتْهُ بأنَّها (أُخَيْرَى) تصغيرُ (أُخْرى)، وأنابَ هذه الصِّفةَ عنِ الموصوف، وكأنَّهُ يَسْتَكْثِرُ عليها أن تُوصَفَ بأنَّها (فَتاةٌ) أوِ (امْرَأَة)؛ وذلكَ كلُّه مُتَّسِقٌ مع تَكْنِيَتِه يزيدَ بنَ مُسْهِرٍ الشَّيْبانيَّ بـ(أبي ثُبَيْتٍ) بتصغيرِ كُنْيَتِه الّتي هي (أبو ثابِتٍ).

ومِن ذلكَ **كثرةُ الصِّفاتِ المُشَبَّهةِ**، وهي: غرّاء، فَرْعاء، الوَجِي، الوَحِلُ، زَجِلٌ، أَعْشى، خَبِلٌ، صِفْر، مِلْء، الضَّجِيع، تَفِل، دُرْمٌ (جَمْعُ أَدْرَمَ)، شَمِلٌ، خَضْراء، هَطِلٌ، شَرِقٌ، عَمِيم، مَيِّتٌ، وَهِلٌ (ذاهبُ العَقْل)، تَبِلٌ؛ وهذه الصِّفاتُ المُشَبَّهةُ أعمقُ في الوصفِ منِ اسمِ الفاعلِ أوِ اسمِ المفعول، ولذلكَ قَلَّتْ هاتانِ الصِّيغتانِ في الأبيات؛ وظهرت صيغةُ التَّفْضيلِ مرَّتَيْنِ في قولِه: (بأَطْيَبَ) و(بأَحْسَنَ).

ومِن ذلكَ **تنوُّعُ الصُّوَرِ البيانيّة، ما بينَ تشبيهٍ واستعارةٍ وكناية؛ فالتَّشبيهُ** في قولِه: (تَمْشِي الهُوَيْنَى كما يَمْشِي الوَجِي الوَحِلُ) وقولِه: (كأنَّ مِشْيَتَها ... مَرُّ السَّحابةِ ...) وقولِه: (ليسَتْ كمَنْ يَكْرَهُ الْجِيرانُ طَلْعَتَها)، وقولِه: (كأَنَّ أَخْمَصَها بالشَّوْكِ مُنْتَعِلُ)، وقولِه: (تَسْمَعُ للحَلْيِ

وَسْواسًا ... كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ)، وأسلوبِ الاستدارةِ في قولِه: (ما روضةٌ ... يومًا بأَطْيَبَ منها ...)؛ و**الاستعارةُ** في قولِه: (كَما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ)، وقولِه: (لِسِرِّ الْجارِ تَخْتَتِلُ)، و قولِه: (يكادُ يَصرَعُها ... الكَسَلُ)، وقولِه: (حَبْلَ مَنْ تَصِلُ؟)، وقولِه: (يُضاحِكُ الشَّمْسَ مِنْها كَوْكَبٌ)، وقولِه: (مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ)؛ و**الكنايةُ** في قولِه: (صِفْرُ الوِشاحِ)، و(مِلْءُ الدِّرْعِ)، إلى جانبِ الكِناياتِ عنِ الصِّفاتِ الّتي تُفْهَمُ مِن مِثْلِ قولِه: (إذا تَأَتَّى يَكادُ الخَصْرُ يَنْخَزِلُ) كنايةً عن دِقَّةِ خَصْرِها، وقولِه: (كأنَّ أخمَصَها بالشَّوْكِ مُنْتَعِلُ) كنايةً عن نُبُوِّهِ عنِ الأرض، وقولِه: (إذا تقومُ يَضُوعُ المِسْكُ أَصْورَةً) كنايةً عَنْ تَعَطُّرِها.

ومِن ذلكَ **تنوُّعُ الحواسِّ الّتي تَقِفُ وراءَ الأوصافِ والأخبارِ والصُّوَر**، فمنها **البَصَرِيُّ**، وذلك في: (غرّاء، فَرْعاء، مَصقولٌ عَوارِضُها، تَمْشِي الهُوَيْنَي، كأنَّ مِشْيَتَهَا ...)، إلى آخر ما هنالك؛ و**السَّمْعِيُّ** في: (تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواسًا ...)، و**اللَّمْسِيُّ** في: (إذا تُعالِجُ قِرْنًا ...) و(نِعْمَ الضَّجِيعُ)؛ و**الشَّمِّيُّ** في: (ولا تَفِلُ) و(يَضُوعُ المِسْكُ أَصْورَةً) و(الزَّنْبَقُ الوَرْدُ مِن أَرْدَانِها شَمِلُ) و(... بأَطْيَبَ مِنْها نَشْرَ رائحةٍ).

وقد غابَتْ حاسَّةُ الذَّوْقِ عنِ الأبيات، إمّا لأنَّها مُضَمَّنَةٌ فيما استعانَ فيه بحاسَّةِ اللَّمْس، وإمَّا لحالِ الصُّدود الَّذي أَبْدَتْهُ هُرَيْرة له؛ على أنَّ ما استعانَ فيه بحاسَّةِ اللَّمْسِ بَدَا الأعْشى بعيدًا عنه، فهو يجعلُ ذلكَ مَرَّةً للقِرْن:(إذا تُعالِجُ قِرْنًا)، ومَرَّةً لِلْمَرْءِ (يَصْرَعُها للذَّةِ المرء).

ومِن ذلكَ **التفاتُهُ إلى اللَّوْنِ والحَرَكةِ**، وهما عُنْصُرانِ مُهِمّانِ مِن عناصرِ التّصْوير، **فالحركةُ** لا تَنْفَكُّ عن عباراتِه الّتي استعمل فيها الشَّرْطَ والظَّرْفَ (إذا)، كقولِه: (إذا انْصَرَفَتْ) و(إذا تقومُ إلى جارتِها) و(إذا تُعالِج) و(إذا تَأَتَّى) و(إذا تقومُ يَضُوعُ المِسْكُ)، إلى جانبِ عباراتِه الأُخرى الدَّالَّةِ على مُراقَبَةِ حركتِها، كقولِه: (تَمْشِي الهُوَيْنَى) و(يَكادُ يَصْرَعُها ... الكَسَلُ) و(صَدَّتْ هُرَيْرَةُ)؛ **واللَّوْنُ** واضحٌ في (غَرَّاء) و(فَرْعاء) و(مَصقولٌ عَوارِضُها) و(الزَّنْبَقُ الوَرْدُ) و(مُعْشِيَةٌ، خَضْراءُ) و(كَوْكَبٌ شَرِقٌ) و(عَمِيم النَّبْتِ) و(دَنا الأُصُلُ).

ويُضافُ إلى ذلكَ أنَّ القصيدةَ جاءَتْ على البَحْرِ البَسيطِ المُؤَلَّف مِن تَكرارِ (مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلُنْ) أربعَ مَرَّات، وهو بَحْرٌ شائعٌ في الشِّعْرِ العربيِّ القديم، يَصْلُحُ أَن يُوصَفَ باللُّيونَةِ والشِّدَّة، بِحَسَبِ ما يتناولُه الشّاعر؛ وذلكَ أنّ فيه التّفعيلةَ (مُسْتَفْعِلُنْ) الّتي تَقْبَلُ عددًا مِن الزِّحافات، إذ يجوزُ أن يُصيبَها الخَبْنُ بحَذْفِ السِّين، والطَّيُّ بحَذْفِ الفاء، والخَبْلُ بحَذْفِهما، وفيه التّفعيلة (فاعِلُنْ) الّتي كثيرًا ما يُصِيبُها الخَبْنُ بِحَذْفِ أَلِفِها، مِمّا يُوحي بالخِفّةِ أو القِصَرِ أو الضِّيقِ النَّفْسيّ أو الحركة؛ وهوَ بعدَ البحرِ الطّويلِ أكثرُ بحورِ الشِّعْرِ عَدَدَ أَحْرُف، وهذا يَفْسَحُ المجالَ أمام الشّاعر لبَسْطِ الكلام؛ ولمّا كان مؤلَّفًا مِن (مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلُنْ) مُكَرَّرَةً أربعَ مرّاتٍ كان فيه مِن الانسجامِ الموسيقيِّ ما يُعينُ الشّاعرَ على تقسيمِ كلامِه تقسيمًا متساويًا عذبًا يقفُ عندَ آخِرِ كلِّ مَقْطَعٍ، كما في قوله:

... ... تَمْشِي الهُوَيْنَى كَمَا / يَمْشِي الوَجِي الوَحِلُ

كَأَنَّ مِشْيَتَها / مِنْ بَيْتِ جارَتِها ... مَرُّ السَّحابَةِ لا / رَيْثٌ ولا عَجَلُ

يَكادُ يَصْرَعُها / لَوْلا تَشَدُّدُها ... إِذا تَقومُ إِلى / جاراتِها الكَسَلُ

هِرْكَوْلَةٌ فُنُقٌ / دُرْمٌ مَرافِقُها ... كَأَنَّ أَخْمَصَها / بِالشَّوْكِ مُنْتَعِلُ

أَأَنْ رأَتْ رَجُلًا / أَعْشى أَضَرَّ بِهِ ... ...

عُلِّقْتُها عَرَضًا / وعُلِّقَتْ رَجُلًا ... ...

وجاء بعضُ هذا التّقسيمِ الموسيقيِّ المُعْتَدِلِ مناسبًا لوصفِ مِشْيَتِها المُعْتَدِلَةِ المتوسّطةِ بَيْنَ الرَّيْثِ والعَجَل.

وإذا صَحَّ أَنْ يُفَسَّرَ **بعضُ الزِّحافاتِ** تفسيرًا يَدُلُّ على أَنَّها خَدَمَتِ المعنى الَّذي يريدُه الشّاعرُ فإنَّ في أبياتِ الأَعشى مَوْضِعَيْنِ وردَ فيهما زِحافٌ يَلْفِتُ الانتباهَ، وذلك في قولِه:

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواسًا إذا انْصَرَفَتْ ... كما اسْتعانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

وقولِه:

وعُلِّقَتْني أُخَيْرَى ما تُلائِمُني ... فاجْتَمَعَ الْحُبُّ حُبًّا كلُّهُ تَبِلُ

إذ جاءَتِ التّفعيلةُ الأُولى مِن الشّطرِ الأوّلِ مِن أوّلِها، والتّفعيلةُ الأُولى مِن الشّطرِ الثّاني مِن ثانيهِما على وَزْنِ (مُسْتَعِلُنْ = / 0/ / / 0) مَطْوِيَّيْنِ بحَذْفِ الرّابعِ السّاكنِ مِنْهُما، وهُوَ قليلٌ في البحْرِ البَسِيطِ، وإن كانَ جائزًا، على خِلافِ الخَبْنِ الَّذي هو حَذْفُ الثّاني السّاكنِ مِن (مُسْتَفْعِلُنْ) لتصيرَ (مُتَفْعِلُنْ = / / 0/ / 0)؛ وكأنَّ هاتَيْنِ التّفعيلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ جاءَتَا مَطْوِيَّتَيْنِ على وزنِ (مُسْتَعِلُنْ = / 0/ / / 0) جاءَتا كذلكَ مُخالِفَتَيْنِ للمألوفِ لِتُناسِبا اختلاجَ حركةِ هذه المرأةِ البَغِيِّ وتعمُّدَها ذلكَ لِيُسْمَعَ وَسْواسُ حَلْيِها، واختلالَ العلاقةِ واضْطِرابَها بينَ أُولئِكَ المُحِبِّينَ والمَحْبُوبينَ الَّذين ذكَرَهُمْ في أَواخِرِ أَبياتِه.

وإذا كانت (فاعِلُنْ) كثيرًا ما يُصيبُها الخَبْنُ في البسيطِ فتصيرُ (فَعِلُنْ = / / / 0)- وهو زِحافٌ واجبٌ في العَرُوضِ، وواجبٌ في الضَّرْبِ إذا كان (فَعِلُنْ)- فقد جاء في غير العَروضِ والضَّرْبِ مَجِيئًا يَصْلُحُ تفسيرُهُ تفسيرًا يَخْدِمُ المعنى الَّذي طَرَقَه الأعشى، وذلك في قولِه:

- وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وهَلْ تُطِيْقُ وَدَاعًا أيُّها الرَّجُلُ

- يكادُ يَصْرَعُها لولا تَشَدُّدُها ... ...

- كأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارَتِها ... ...

- ... ... كما استعانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

فـ(رَةَ إنْ = / / / 0 = فَعِلُنْ) خَبْنُها مناسبٌ لحال الوَداعِ وسُرْعةِ ارتحالِ الرَّكْب، و(قُ وَدَا = / / / 0 = فَعِلُنْ) مناسبٌ لحال الضِّيقِ النَّفْسيّ وقتَ الوَداع، و(رَعُهَا= / / / 0 = فَعِلُنْ) مناسبٌ لسُرْعَةِ الصَّرْع، و(يَتَهَا = / / / 0 = فَعِلُنْ) مناسبٌ لِقُربِ المكان من بيتِ جارتِها، و(نَ بِرِيْ = / / / 0 = فَعِلُنْ) مناسبٌ لحال الرّيح القويّة السريعة الّتي تحرِّكُ العِشْرِق؛ في حين أنَّ (فاعِلُنْ) لم يُصِبْها الخَبْنُ فبقِيَتْ سالمةً في مواضع تخدِمُ سلامتُها المعنى الَّذي طرقه الأعْشى، وذلك في قَوْلِه:

- غَرّاءُ فَرْعاءُ مَصْقولٌ عَوارِضُها تَمْشِي الهُوَيْنى كما يَمْشِي الوَجِي الوَجِلُ

- ... ... ولا تَراها لِسِرِّ الْجارِ تَخْتَتِلُ

- ... ... إذا تأتّى يَكادُ الخَصْرُ يَنْخَزِلُ

فـ(عَاءُ مَصْـ = / 0 / / 0 = فاعِلُنْ) سلامَتُها من الخَبْنِ مناسبةٌ لِطُولِ شَعَرِها، و(نَى كَمَا = / 0 / / 0 = فاعِلُنْ) سلامتُها مناسبةٌ للهُوَيْنى وهي مشيةٌ فيها راحةٌ وبُطْءٌ، و(هَا لِسِرْ = / 0 / / 0 = فاعِلُنْ) مناسبةٌ للبُطْءِ والتَّخَفِّي في اختِتال السِّرّ، و(تَى يَكَا = / 0 / / 0 = فاعِلُنْ) مناسبةٌ للمَجِيءِ بِرِفْقٍ وتَثاقُلٍ.

ومِمّا يَلْفِتُ النَّظَرَ في هذه الأبياتِ **اختلافُ جَرْسِ الألفاظِ بَيْنَ أَوّلِها الَّذي يتحدّث فيه عن صاحبتِه ويَصِفُها، وآخرِها حين يتحدَّثُ عن العلاقةِ المُضطرِبةِ بينَه وبينَها، وبينَ مجموعةِ المُحِبِّينَ والمحبوبِين**؛ إذ تبرز في أوّلِها حروفُ الـهَمْسِ (ف، ح، ث، ه، ش، خ، ص، س، ك، ت) واللِّين (ا، و، ي) السّاكنة، والغُنّة (ن، التّنوين، م) والرَّخاوة (ه، ح، غ، خ، ش، ص، ض، ز، س، ظ، ث، ذ، ف) والصَّفِير (س، ص، ز) والذَّلاقَة (ر، ل، ن، ف، ب، م)، **ولا سيّما السّينِ والشّينِ والصّاد والحاء والفاء والهاء والتّاء والنّون والميم**، وأَبرزُ ما جاءَ ذلك في قولِه:

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواسًا إذا انْصَرَفَتْ كما استَعانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

إذ جاءَ فيه أربعةَ عَشَرَ حَرفًا من حروف الهَمْس والصَّفِير، وستّةُ أَحرُفِ غُنّة، وأربَعَةُ أَحْرُفِ لِينٍ، فهي أربعةٌ وعشرونَ حَرْفًا من ثلاثةٍ وأربعينَ حرفًا منطوقًا به في البَيْت، وهذا مناسبٌ لِما أرادَه من تصْويرِ صَوْتِ حَلْيِها إذا مَشَتْ؛ وكثْرَةُ هذه الحروفِ بارزةٌ أيضًا في وصفِ الرَّوْضَةِ المُعْشِبَةِ الخَضْراء.

في حين تبرز في آخِرِها الحروفُ المجهورةُ (أ، ا، ع، غ، ق، ج، ض، ل، ن، ر، ط، د، ز، ظ، ذ، ب، م، و) وحروفُ القَلْقَلَة (ق، ط، ب، ج، د) والشِّدّة (أ، ق، ك، ج، ط، ت، د، ب)، **ولا سيّما القافِ والعينِ والْجِيم والرّاء**، وهذا يناسبُ حال الاضطراب العاطفيِّ والقلَقِ النّفسيّ.

بين أولئِكَ الـمُحِبِّين والـمحبوبين غيرِ الـمُتآلِفين؛ وبذلكَ **كانَ جَرْسُ الحُرُوفِ مُعِينًا على التّصْوير**.

إنّ ما سبقَ يجعلُ أبياتَ الأعشى هذه أشبهَ ما تكونُ بقِطعةٍ فُسَيْفساءَ لُغويّةٍ، تميّزَت بغِناها في جَرْسِ حروفِها وفي ألفاظها وتراكيبها وأساليبها وصُوَرِها وموسيقاها؛ وهو أمرٌ لَفَتَ أنظارَ النُّقّاد منذُ القديم في شعره، حتّى إنَّ مِن أسبابِ تقديمِ مَنْ قَدَّمَ الأَعشى بينَ شعراءِ الطَّبَقَةِ الأُولى -وهو أَبُو عَمْرِو بنُ العَلاء- أَنَّهُ كانَ «أكثرَهُمْ عَرُوضًا وأَذْهَبَهُمْ في فُنونِ الشِّعْر».

تعليقٌ على أبياتِ الشَّنْفَرَى

تبيّنَ ممّا سبق في الكلامِ على أبياتِ الأعشى أنّه أراد أَنْ يَهْتِكَ الأستارَ عن (هُرَيْرَةَ)، وأنّهُ لَمْ يَرْعَ في ذلكَ حُرْمَةً لها، إذ لم تكن هي نفسُها ذاتَ حُرْمَة، ولا رَأَى لَها احْتِرامًا، في حينِ أنّ الوقوفَ على أبياتِ الشَّنْفَرَى يَدُلُّ على امرأةٍ أُخْرَى ذاتِ حُرْمَةٍ استحقَّتْ منهُ كلَّ الاحترامِ على رَغْمِ مُفارقتِها إيّاه؛ ذلكَ أنَّ (أُمَّ عَمْرٍو = أُمَيْمَةَ) عندَ الشَّنْفَرى: امرأةٌ حَصانٌ ذاتُ حَياءٍ، حَريصَةٌ على نفسِها مِنْ شَرَهِ العُيون، لا يَسْقُطُ قِناعُها، ولا تَتَلَفَّتُ في سَيْرِها، لِعِفَّتِها وطُهْرِها ونَقاءِ أَخلاقِها؛ وهي كَرِيمَةٌ تُؤْثِرُ جاراتِها بِهَدِيَّتِها وقتَ الشِّدَّةِ والقِلَّة، وتُراعِي كَرامَتَهُنَّ أنْ تُخْدَشَ، فتنتظِرُ إلى الوقتِ الَّذي تَنامُ فيهِ أعيُنُ النّاسِ لِتُقدِّمَ هَدِيَّتَها، فَتُسِرُّ بها إسرارًا، ولا تُجاهِرُ بذلكَ نهارًا، ولا تتأَخَّرُ بِها إلى مُنتصَفِ اللَّيْلِ حتّى لا تَرُوعَهُنّ، بل يكونُ ذلك «بُعَيْدَ النَّوْمِ»؛ وهي تَحْفَظُ بَيْتَها وسُمْعَتَه، فلا يَعْرِفُ اللَّوْمُ إِلَيْهِ سبيلًا، بَلْ تُحِلُّهُ «بِمَنْجاةٍ مِنَ اللَّوْمِ»، ولذلك كانَ ذِكْرُها حَسنًا عندَ النّاس، وكانَتْ بذلكَ لِزَوْجِها «قُرَّةَ عَيْنِه»، يَجِدُ لدَيْها الطُّمَأْنِينَةَ والسَّكِينَةَ وَيَثِقُ بها، فلا يَسْأَلُ عنها أَيْنَ ذَهَبْتْ أَو قَضَتْ نَهارَها، لأنّها لا تَرْتادُ مكانًا يُثِيرُ الرِّيبَةَ، بل تَرْعَى بَيْتَها وبَنِيهَا ولا تُضيعُ نَهارَها هُنا وهنالِك، فلا يَسْمَعُ عَنْها ما يَسُوءُه؛ ولأَجْلِ هذا كلِّهِ كانت كالحِجْرِ لِبَيْتِها ومَنْ حَوَى، غيرَ أنّ هذا الحِجْرَ ليسَ مِن الحِجارة، بل هُو مِظَلَّةٌ مِن الرَّيْحانِ الَّذي أَصابَهُ الطَّلُّ ففَاحَ أَرِيجُه.

وتلكَ هي جُمْلَةُ الـمعاني الّتي حَوَتْها أبياتُ الشَّنْفَرَى، وهيَ معانٍ تـدُلُّ عـلى امـرأةٍ رَفيعـةِ الـمَقامِ في نَفْسِها، وفي نَفْسِ زَوْجِها وأَهْلِ بَيْتِها، وفي أَنْفُسِ الـمُجْتَمَعِ مِنْ حَوْلِها.

وإذا كانتْ أبياتُ الأَعشى قد كشَفَتْ عن شاعِرٍ داعِرٍ فاجِرٍ شَقِيّ، فإنّ أبيـاتَ الشَّـنْفَرَى كشَفَتْ عن شاعرٍ عَفيفٍ شريفٍ نَقِيّ؛ وليستِ الغايةُ من هـذا الكـلامِ مُحاكَمَـةَ الشَّـاعِرِ الْـجاهِلِيِّ مُحاكَمَةً أَخلاقيَّةً، والحُكْمَ على شِعْرِهِ حُكْمًا أَخْلاقيًّا، فنقولَ إنَّ أبياتَ الأَعْشى سيِّئَةٌ لأنَّها لا توافـقُ مَبادِئَنا الأَخلاقيّة، وإنَّ أبياتَ الشَّنْفَرَى جيِّدَةٌ لِـمُوافقَتِها هذه الـمبادئَ، ولكنْ يَنْبَغِي أَلّا نُغْفِـلَ في الوقتِ نفسِه أنَّ الشَّاعِرَ لَه مُهِمَّاتٌ في الحياةِ يُؤَدِّيها بِشِعْرِه، مِنْهَا ما يتعلَّـقُ بـالأَخْلاق؛ وأمَّـا جَـوْدَةُ الشِّعْرِ من حيثُ هـو صَـنْعَةٌ فَنِّيَّـةٌ فَمَرَدُّهـا إلى مَعـايِيرِ فَـنِّ الشِّـعر، وقـد أجـادَ كِـلا الشّـاعرَيْنِ أَيَّـما إجادة، وظهر ذلك بَيِّنًا في الكلام السّابقِ على أبياتِ الأَعْشَى، كـما يظهـر ذلـك بـالنَّظَرِ إلى الأمـورِ الّتي استعانَ بها الشَّنْفَرَى لتقديمِ صورةِ (أُمِّ عَمْرٍو) وعَلاقتِه بها هذا التَّقْديمَ الْـجَميل.

وأَوَّلُ أمرٍ يَلْفِتُ الانتباهَ أنّ الشَّنْفَرَى بدأَ الأبياتَ بِذِكْرِ صاحبتِه ذِكْرًا واضحًا، فقال: «أَرَى (أُمَّ عَمْرٍو) أَزْمَعَتْ فاسْتَقَلَّتِ»، مثلَما فعلَ الأَعْشَى حينَ بدأَ أبياتَه بقولِه: «وَدِّعْ (هُرَيْرَةَ) إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ»، غيرَ أنَّ هذا التَّشابُهَ الشَّكْلِيَّ لا يَعْنِي التَّشابُهَ في الـمضمون، فالأعشى ذكرَها باسمِها (هُرَيْرَة)، والشَّنْفَرَى ذكرَها بِكُنْيَتِها (أمّ عَمْرٍو)، والكُنْيَةُ عندَ العَرَبِ تكريمٌ واحترامٌ ورَفْعٌ مِن الشَّأْنِ في الغالِب، وهذا يُذَكِّرُ بأنَّ زُهَيْرًا عندَما بدأ معلَّقَتَهُ فَعَلَ ما فعلَهُ الشَّنْفَرى، فقال: «أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ» فكَنّاها ولم يُسَمِّها؛ ولكنْ ينبغي أنْ نَتَنَبَّهَ على أنَّ هذا ليس حُكْمًا عامًّا يَصِحُّ أنْ يُقالَ في كُلِّ مَنْ ذَكَرَ امرأةً باسمِها أو كنّاها بكُنْيَتِها.

والأَمْرُ الثّاني هو حُضورُ الشَّنْفَرى الواضِحُ في الأبيات، وقد تَجَلَّى ذلكَ في أشكالٍ عِـدَّة، منهـا **الضَّـمائرُ العائـدةُ إليـه**، في قولِـه: (أَرَى) و(بِعَيْنَـيَّ) و(فَوَاكَبِـدِي = فَوَاكَبِـدَا) و(طَمِعْـتُ) و(أَعْجَبَتْنِي)، وفي قولِه مخاطبًا نفسَه: (فَهَبْهَـا)، ومنهـا **ضـميرُ الْـجَماعةِ** الّتي هُـوَ واحـدٌ منهـا في قولِه: (سَبَقْتُنَا)، وقولِه: (فَبِتْنَا)، وقولِه: (حَوْلَنا)، ومنها **حديثُه عن حَلِيلِهـا الَّـذي هُـو الشَّـنْفَرَى نَفْسُه** في قولِه: (لا يُخْزِي نَثاها حَلِيلَها)، وقولِـه: (إذا هُـوَ أَمْسَـى آبَ قُـرَّةَ عَيْنِـه ...) البيت، **وهـو**

حاضرٌ أيضًا حضورًا يُغَشِّيهِ سِتَارٌ لَفْظِيٌّ مِن الْـجُمَلِ الشَّرْطِيَّةِ الّتي فيها (إذا) و(إِنْ) والْـجُمَلِ الّتي فيها الظَّرْفُ (إذا)، فهذهِ الْـجُمَلُ دالَّةٌ على أنَّ عَيْنَ الشَّاعِرِ تَنْظُرُ إلى هذه الـمرأةِ وتَنْقُلُ إلينا أفعالَها؛ وقد ظَهَرَ مثلُ هذا واضحًا في أبياتِ الأعشى، فها هُنا أيضًا تَشابُهٌ شَكْلِيٌّ، وَراءَهُ اختلافٌ بَيِّنٌ في الـمضمون؛ وذلكَ أنَّ تَتَبُّعَ الأفعالِ الّتي تَرْصُدُها عَيْنُ كلٍّ منهما يَدُلُّ على فرقٍ كبيرٍ بينَهما، إذ كانت عَيْنُ الأَعْشَى عَيْنَ ساخِطٍ حانِقٍ فاجِرٍ، وكانت عَيْنُ الشَّنْفَرَى عَيْنَ راضٍ آسِفٍ طاهِرٍ؛ وبالعَوْدَةِ إلى أبياتِ الأعشى يظهَرُ حُضورُه فيها بالضّمائرِ العائدةِ إليهِ نادرًا بالقياسِ إلى عددِ أبياتِه، فقد ظهرَ في البَيْتِ الأوَّلِ حين خاطبَ نفسَه بقولِه:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَداعًا أَيُّها الرَّجُلُ؟

واختفى بعدَ هذا إلى أنْ جاءَ البَيْتانِ التّاسِعُ والعاشِر، لِيَظْهَرَ فيهما ظهورَ الـمُسْتَكْبِرِ الـمُسْتَنْكِرِ الـمُسْتَصْغِرِ لِصاحِبَتِه، فقال:

صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنَّا، ما تُكَلِّمُنا جَهْلًا بِأُمِّ خُلَيْدٍ، حَبْلَ مَنْ تَصِلُ؟

أَأَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ الـمَنُونِ ودَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ؟!

والضّميرُ (نا) عند الأعشى هو ضميرُ التّعظيمِ والتّفخيم، وإنّما يَعْني نَفْسَهُ وَحْدَها، على خلاف (نا) في أبيات الشنْفَرى الّتي عنى بها الْـجَماعَةَ نفسَهُ وسائرَ أفْرادِ أُسْرَتِه.

ثُمَّ إنَّ هذَيْنِ البيتَيْنِ (التّاسِعَ والعاشِرَ) في الرِّوايةِ الأَجْوَدِ يتأخَّرانِ إلى ما بعدَ البَيْتِ العِشْرِينَ، قَبْلَ قولِه:

قالَتْ هُرَيْرَةُ لَمّا جِئْتُ زائِرَه وَيْلِي عَلَيْكَ ووَيْلِي مِنْكَ يا رَجُلُ

وإذا كانت الرِّوايةُ الْـجَيِّدةُ للأبياتِ في ترتيبِها كذلكَ فإنَّ الأعشى قدِ اختفَى بعدَ البَيْتِ الأوَّلِ لِيَظْهَرَ في البَيْتِ السَّابعَ عَشَرَ حينَ قال: (عُلِّقْتُها عَرَضًا وعُلِّقَتْ رَجُلًا غَيْرِي ...) وما بعده من الأبيات، وهو ظهورٌ لا يَدُلُّ على وِفاقٍ، بل على خِلافٍ شديدٍ، وكأنَّ ذلكَ التَّنافُرَ النَّفْسِيَّ بينَهُ وبينَ صاحبَتِهِ هو الَّذي أَدَّى إلى هذا الظُّهورِ البارِدِ الـمُضْطَرِب، في حينَ كانَ الانجذابُ النَّفْسِيُّ

عند الشَّنْفَرَى سببًا لحضورِهِ في معظمِ أبياتِه، وهو حضورٌ دالٌّ على دِفْءِ العاطفةِ الّتي يَحْمِلُها لِأُمِّ عَمْرو.

والأمرُ الثّالثُ هوَ استعماله لِصيغةِ التَّصغير، كما استعملَها الأعشى، ولكنّهُ استعمالٌ مختلِفٌ أيضًا أشدَّ الاختلافِ لاختلافِ غايةِ كلٍّ منهما، فقد جاءَ هذا التّصغيرُ في قولِه: (فَواكَبِدَا عَلى **أُمَيْمَةَ**) وقولِه: (تَبيتُ **بُعَيْدَ** النَّوْمِ تُهْدِي غَبُوقَها) وقولِه: (**أُمَيْمَةُ** لا يُخْزِي نَثاها حَلِيلَها)، فاسمُ المرأةِ عند الشَّنْفَرَى هو (أُمَيْمَةُ)، وهو تصغيرٌ لِلَفْظِ (الأُمّ) معَ إلحاقِ تاءِ التَّأْنِيثِ بِه، بما تحملُه كلمةُ الأُمِّ مِن معاني الاحترامِ والإجلالِ والتّقدير، وهذا التّصغيرُ تَعْرِفُ حتّى العامّةُ قِيمَتَهُ حين تقولُ عنِ الأُمِّ (مِيمَة) في مَساقِ التَّحَبُّبِ والتَّعَطُّف؛ ثُمَّ إنَّ استعمالَ الشَّنْفَرى اسمَ (أُمَيْمَةَ) المُصَغَّر من لفظِ (أمّ) مُتّفِقٌ معَ ما يَذْكُرُهُ في قصيدتِهِ بَعْدُ عَنْ (تَأَبَّطَ شَرًّا) وجماعةِ الصَّعاليكِ الَّذين معَهُ ومنهم الشَّنْفَرَى، إذ جعلَهُ أُمًّا في قولِه:

وأُمِّ عِيالٍ قَدْ شَهِدْتُ تَقُوتُهُمْ إذا آدَمَتْهُمْ أَوْتَحَتْ وَأَقَلَّتِ

وما إنْ بِها ضَنٌّ بِما في وِعائِها ولكنَّها مِن خِيفَةِ الْجوعِ أَبْقَتِ

ووراءَ هذا الاتِّفاقِ بينَ (أُمَيْمَةَ) و(أُمِّ عِيالٍ) كلامٌ كَثيرٌ قد يُقال.

وتصغيرُ التَّحَبُّبِ هذا عند الشّنفرى على خِلافِ تَصغيرِ التّحقيرِ الَّذي يُلْحَظُ عندَ الأعشى في (هُرَيْرَة) و(أُمّ خُلَيْدٍ) و(أُخَيْرَى)، وقد سبقَ الكلامُ على هذا فيما سلَف.

وكذلكَ التّصغيرُ في قولِ الشَّنْفَرَى: (تَبيتُ **بُعَيْدَ** النَّوْمِ تُهْدِي غَبُوقَها لِجَارَتِها)، فهو تصغيرُ تَقْريبٍ لـ(بَعْد) يَدُلُّ على لُطْفِ المَعْشَرِ والأَدَبِ الْجَمِّ في مُعاملةِ الْجَارة، إذ تُريدُ أنْ تُهْدِيَهُا على غَفْلَةٍ مِن أَعْيُنِ النّاسِ حِفاظًا على كَرامَتِها، ولذلكَ تنتظرُ إلى أنْ يكونَ النَّاسُ في أوَّلِ نَوْمِهم، ولا تتأخَّرُ في طَرْقِ بَيْتِ جارَتِها حتّى لا يَرُوعَها طُروقُها في مُنْتَصَفِ اللَّيْل.

ولجوءُ الشَّنفَرى إلى استعمالِ التَّصغيرِ في (أُمَيْمَة) و(بُعَيْد) يدلُّ على **بَراعتِه في انتقاءِ الألفاظِ** الّتي يعبِّرُ بها عن المعاني الّتي يريدها، وهي **من الأمورِ المُهِمَّةِ الّتي يُراعِيها الشّاعرُ**

الـمُبْدِعُ حين يَنْتَقِي مِن اللُّغَةِ ومِنَ الحياةِ الحقيقيَّةِ الواقعيَّةِ ما يَخْدِمُ غايتَه، كاسْمِ (أُمَيْمَةَ) ونَحْوِهِ من أسماءِ أعلامِ البَشَرِ والبُلْدانِ والأشياء، وهو **أَمْرٌ رابعٌ يَلْفِتُ الانتباهَ في أبياتِ الشَّنْفَرَى**، فإلى جانب استعمالِه اسمَ (أُميمة) يَسْتَعْمِلُ لفظَ (حَلِيلِها) في قولِه: (أُمَيْمَةُ لا يُخْزِي نَثاها حَليلَها)، ولا رَيْبَ في أَنَّ (حَلِيلَها) هنا مُخالِفٌ أَتَمَّ الـمُخالَفَةِ لِلَفْظِ (القِرْنِ) في قولِ الأَعْشَى: (إذا تُعالِجُ قِرْنًا ساعةً فَتَرَتْ)، ولِلَفْظِ (الضَّجِيعِ) و(الـمَرْءِ) في قولِ الأعشى:

نِعْـمَ الضَّـجيعُ غَـداةَ الـدَّجْنِ يَـصْرَعُها ... لِلـذَّةِ الـمَرْءِ لا جـافٍ ولا تَفِـلُ

وهو أيضًا مُخْتَلِفٌ عن لفظِ (زَوْجِها) أو (بَعْلِها) لو استقام للشّاعرِ أن يَضَعَهُ مَوْضِعَ (حَلِيلِها)؛ لأنَّ اشتقاقَ (الحَلِيلِ) وعلاقتَهُ بلَفْظِ (الحَلالِ) دليلٌ على ذلك الاختلافِ البَيِّن.

ومِن بَراعةِ الشَّنْفَرَى في انتقاءِ الألفاظِ والعِباراتِ في مَثَلٍ آخَرَ ما جاءَ في قولِه: (تُهْدِي غَبُوقَها لِجَارَتِها)، إذ أَضافَ الغَبُوقَ إلى ضَمِيرِها، وفي هذهِ الإضافةِ دَلالةٌ على أَنَّها تُؤْثِرُ جارَتَها بما هو غَبُوقٌ لَها خاصٌّ بها وهي في حاجةٍ إليه، ليَصِيرَ لِجَارَتِها؛ وهذا الحديث عن علاقةِ (أُمَيْمَة) بجارَتِها يَسْتَدْعي صورةَ (هُرَيْرَةَ) الّتي قدَّمها الأَعشى في علاقتِها بجاراتِها في قولِه:

يكـادُ يَـصْرَعُها لـولا تَشَـدُّدُها ... إذا تَقُـومُ إلى جاراتِهـا الكَسَـلُ

فأُمَيْمَةُ حين تذهبُ إلى بَيْتِ جارَتِها لا تَذْهَبُ إلّا ومَعَها هَدِيَّتُها، وهُرَيْرَةُ لا تقومُ إلى جاراتِها إلّا مُتَثاقِلَةً كَسْلَى، وكذلك الحالُ في قولِه: (إذا تأَتَّى يكادُ الخَصْرُ ينخَزِلُ) فهي لا (تَأْتِي) بَلْ (تَأَتَّى) أي تتأَتَّى، بمعنى أنَّها تتكَلَّفُ ذلك تكلُّفًا.

ومِن بَراعَةِ الشَّنْفَرَى في اختيارِ الألفاظِ ما جاءَ في قَوْلِه: (بِرَيْحانةٍ مِنْ بَطْنِ حَلْيَةَ نَوَّرَتْ)، فـ(حَلْيَةُ) اسمُ وادٍ، وقد اختارَهُ من بَيْنِ أَوْدِيَةٍ كثيرةٍ في بلادِ العَرَبِ لإيحاءِ الأَصْلِ الَّذي اشتُقَّ منه بالحَلاوَة، وهو اختيارٌ يخدِمُ حَديثَهُ عن هذهِ الرَّيْحانَةِ الّتي شَبّه بها صاحِبَتَه.

والأمرُ الخامِسُ الَّذي يُوقَفُ عندَه في أبياتِ الشَّنْفَرَى **هو بُروزُ أُسلوبِ النَّفْيِ في عددٍ مِن أبياتِها في حديثِهِ عن أَخلاقِها**، وذلك في قولِه: (لا سَقُوطًا قِناعُها) وقولِه: (لا بِذاتِ تَلَفُّتٍ)

وقولِه: (لا يُخْزِي نَثاها حَليلَها) وقولِه: (لَمْ يَقُلْ: أَيْنَ ظَلَّتِ؟) وقولِه: (ما حَوْلَها غَيْرُ مُسْنِتِ)؛ وهي عباراتٌ كلُّها يُقْصَدُ بها التّنْزِيهُ عن كلِّ سُوءٍ مِن الصِّفاتِ الّتي تَلْحَقُ بالمرأة، سلَّطَ فيها أدواتِ النَّفْيِ (لا، لم، غير) ليَسْلُبَ منها كلَّ قبيحٍ شائِنٍ مُنَفِّر، وهذا التَّنْزيهُ يَعَمِّقُ الإعجابَ والحُبَّ الصَّادِقَ لِهذهِ المرأةِ، وهو شبيهٌ بالتّنزيهِ المَبْنيِّ على كَثْرَةِ النَّفيِ في بعضِ رثاءِ الخنساءِ وفي مَرْثِيَةِ أَعْشى باهلَةَ لأَخيه.

وفي أبياتِ الشَّنْفَرَى **أمرٌ سادسٌ** يَلْفِتُ الانتباه، **وهو إيجازُهُ وتكثيفُه الشّديدُ** في حديثِه عن محاسنِها الْجَسَدِيّة، **وإطنابُه** في الحديث عن مكارم أخلاقِها، على النّقيضِ مِن الأعشى، إذ أطنبَ وأطالَ ولم يَكَدْ يَشْبَعُ مِن تتبُّعِ أعضاءِ جَسَدِ هُرَيْرَةَ وحَرَكاتِها معَ رَصْدِ الألوانِ والعُطور، ولم يَكَدْ يذكرُ شيئًا مِن أخلاقِها سِوى ما جاء في قولِه:

لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجِيرانُ طَلْعَتَها ... وَلا تَراهـا لِسِرِّ الْجَارِ تَخْتَتِلُ

أمّا الشَّنْفَرَى فحينَ أرادَ وصفَ جَمالِ أُمِّ عَمْرٍو اكتفى بقولِه:

فَدَقَّتْ، وجَلَّتْ، واسْبَكَرَّتْ، وأُكْمِلَتْ ... فلَوْ جُنَّ إنسانٌ مِنَ الحُسْنِ جُنَّتِ

فَجَمَعَ في قَوْلِهِ: (فدَقَّتْ) كُلَّ ما يَحْسُنُ أن يكونَ دقيقًا صَغِيرًا من جسَدِها كالثَّغْرِ والخَصْرِ والأَنْف، وفي قَوْلِه: (وَجَلَّتْ) كلَّ ما يَحْسُنُ أنْ يكونَ جَليلًا عَظيمًا كالصَّدْرِ والسّاقِ والرِّدْف، وعَطَفَ على ذلكَ بقولِه: (واسبَكَرَّتْ) في نَظْرَةٍ مُجْمَلَةٍ إلى قَوامِها واستقامَتِه، وأتْبَعَه بأن عَطَفَ الفعلَ (أُكْمِلَتْ) على ما سَبَقَ ليُبيِّنَ أنَّ كلَّ شيءٍ فيها على أكملِ ما يكونُ مِنَ الحُسْن؛ وأَسْنَدَ الأَفعالَ (دَقَّتْ) و(جَلَّتْ) و(اسبَكَرَّتْ) إلى الضَّميرِ المُستَتِرِ (هي)، ولم يَنْسِبْهُ إلى شيءٍ مِن أعضائها إمعانًا في العِفَّة؛ وهذا التّكثيفُ أثارَ إعجابَ النَّاسِ منذُ القِدَم، حتّى قالَ الأَصمعيُّ عن هذا البيت: «لَمْ تُوصَفِ المرأةُ بأَوْجَزَ ولا أَحْسَنَ مِنْه»، وتأثَّرَ به شاعرٌ إسلاميٌّ مِنَ الفُقَهاءِ المَعْدودِينَ، هو عُرْوةُ بنُ أُذَيْنَةَ اللَّيْثِيُّ فقالَ من أبياتٍ بَديعةٍ تكادُ تَقْطُرُ رِقَّةً ولَطافَةً:

بَيْضاءُ باكَرَها النَّعِيمُ فَصاغَها ... بِلَباقَـةٍ فأَدَقَّهـا وأَجَلَّهـا

ويُلْحَظُ هذا الإيجازُ والتّكثيفُ في بيتٍ سابقٍ جاء به للحديثِ عنِ اليَومِ الَّذي سَبَقَ الفِراق، وذلكَ قولُه:

بِعَيْنَيَّ ما أَمْسَتْ، فباتَتْ، فأَصْبَحَتْ فَقَضَّتْ أُمورًا، فاسْتَقَلَّتْ، فَوَلَّتِ

فجمَعَ فيه ستَّةَ أفعالٍ سبقَتْ ذلكَ الفِراق، لِينتقِلَ بعدَ هذا البَيْتِ لِيُطْنِبَ في التّعبيرِ بثمانيَةِ أبياتٍ كامِلَةٍ عن ألَمِه الشّديدِ وندَمِه على فِقْدانِها، وعن أَخْلاقِها مُسْتَحْضِرًا ذلكَ الماضيَ الْجَميلَ الَّذي تَنَعَّمَ به معها، والَّذي زال، فكانَت كما قالَ: (نِعْمَةَ العَيْشِ زَلَّتِ).

ومِمّا يُعَدُّ مِنَ هذا الإيجازِ والتّكْثيفِ ما جاءَ في قَوْلِه: (إذا هُوَ أَمْسى آبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ)، فقد حذَفَ حَرْفَ الْجَرِّ (إلى) الَّذي يتعدّى به الفعلُ (آبَ)، وعدّاهُ بِنَفْسِه إلى المفعولِ بِهِ المَنْصُوبِ بِنَزْعِ الخافِضِ (قُرَّةَ)، وهذا الحَذْفُ يَخْدِمُ المعنى الَّذي يُريدُهُ مِنْ سَعادَةِ (حَليلِها = هُوَ) وشِدَّةِ شَوْقِهِ إلى العَوْدَةِ إليْها وسُرْعَتِهِ في العَوْدَةِ، فقصَّرَ عبارَتَهُ تَقْصيرًا تَسْمَحُ بِهِ اللُّغَةُ أحيانًا فحَذَفَ الجارَّ ووَصَلَ الفعلَ بِمَفْعُولِه، كما أنَّ حليلَها يختارُ أَقْصَرَ الطُّرُقِ للوصولِ إلى (قُرَّةِ عَيْنِه).

والأمرُ السّابعُ والأخيرُ الَّذي يُشارُ إليه على عَجَلٍ هو **أنَّ غايَةَ الشَّنْفَرَى في تقديمِ صورةٍ جَليلةٍ لـ(أُمِّ عَمْرٍو) ظهرَتْ على مُستوى القَصيدةِ الموسيقيّ، في وزنِها وقافِيَتِها وتَرْكيبِ ألفاظِها؛** فأمّا **الوزنُ** فقد جاءَ على البَحْرِ (الطَّويلِ)، وهو بينَ بحورِ الشِّعْرِ بمنزلةِ المَلِكِ مِن النّاسِ في جَلالَتِهِ ووَقارِه، و(البَسيطُ) بمنزلةِ الوزيرِ مِنْه، كما قالَ شيْخُ المَعَرَّةِ أبو العَلاءِ في (رسالة الصَّاهِلِ والشَّاحِج): «مَثَلُهُما مَثَلُ ابْنَيْ (سَبَأِ بْنِ يَشْجُبَ)، وهُما (حِمْيَرٌ) و(كَهْلانُ): جَعَلَ أَبُوهما سَبَأٌ المُلْكَ لِـ(حِمْيَر)، وسلَّمَ إليهِ السَّيْفَ، وجعلَ الوِزارةَ لِـ(كَهْلانَ) وسلَّمَ إليهِ التُّرْسَ، وكِلاهُما مِن بَيْتِ المَمْلَكَةِ، إلّا أنَّ (الطَّويلَ) أَوْلَى بالمُلْكِ مِن (البَسيط) ...».

وأمّا **القافِيَةُ** فَيُلْحَظُ أنَّها قافيَةٌ مُجَرَّدَةٌ رَوِيُّها هوَ التّاء، غيرَ أنَّ الشَّنْفَرَى التزَمَ في مُعْظَمِ أبياتِها ما لا يَلْزَمُه، وهو حرفُ اللّامِ، بلِ الْتَزَمَ في مُعْظَمِها اللّامَ المُشَدَّدَةَ، أَيِ التزَمَ حرفَيْنِ

اثنَيْنِ، وهذا الالتزامُ مِمّا يُوَفِّرُ للقافيةِ غِنًى مُوسيقيًّا إضافيًّا، وقد عَلَّقَ شَيْخُ الـمَعَرَّةِ على التزامِ (كُثَيِّرِ عَزَّةَ) هذهِ اللّامَ الـمُشَدَّدَةَ في تائيَّتِه:

خَلـــيلَيَّ هـــذا رَبْـــعُ عَـــزَّةَ فـــاعْقِلَا قِفُوصَـــيْكُما ثُـــمَّ انْـــزِلا حَيْـــثُ حَلَّـــتِ

بقولِه: «وذلكَ لِغَزارَةِ البَحْرِ في الشَّاعِرِ ولِعِظَمِ القَدْرِ».

وأمّا **تَرْكيبُ الألفاظِ**، فيُلْحَظُ أنَّ الأفعالَ الـمُضَعَّفَةَ الحروفِ كثيرةٌ لا في القافيَةِ وَحْدَها بل في أَثناءِ الأبياتِ أيضًا، وهي: (استقلَّت، ودَّعَت، تَوَلَّت، أَظَلَّت، قَضَّت، استقَلَّت، وَلَّت، زلَّت، تَقَلَّت، قَلَّت، تحلُّ، حلَّت، تَقُصُّه، تُحَدِّثك، عَفَّت، جَلَّت، ظَلَّت، دقَّت، جَلَّت، اسْبَكَرَّت، جُنَّ، جُنَّت، حُجِّر، طُلَّت، نَوَّرَت)، إلى جانبِ الأسماءِ الـمُضَعَّفَةِ الحروفِ تضعيفًا أصليًّا أو لِسَبَبٍ ما، وهي: (أُمّ، الـمَطِيّ، بعَيْنَيَّ، الهَدِيَّة، الـمَذَمَّة، كأنّ، أَمّها، قُرَّة)، وجميعُها اثنانِ وثلاثونَ لفظًا، بِغَضِّ النَّظَرِ عن الأسماءِ الّتي جاء التّضعيفُ في أوَّلِها لدخولِ لام التّعريفِ عليها، وكثرةُ هذهِ الألفاظِ الـمُضَعَّفةِ الحروفِ تُوحِي أيضًا بالفَخامَةِ والْجَلالَة.

وخاتمةُ القَوْلِ هي أنَّ القصيدةَ فيها مِنَ الأمورِ الفَنِّيَّةِ الـمُتعلِّقةِ بالألفاظِ والتّراكيبِ والأسلوبِ والموسيقى ما لا يَتَّسِعُ الـمجالُ لِذِكْرِهِ كلِّه؛ وقد تطرَّقَ الحديثُ إلى بعضِ ذلك، وما تركَهُ أكثرُ ممّا تَستَحِقُّ الأبياتُ أن يُقالَ فيها، غيرَ أنّ الاسترسالَ في مِثْلِ هذا النَّهْجِ مِن تحليلِ نُصوصٍ بأَعْيانِها -وإنْ كانَ فيهِ ما يُمْتِع- يُضَيِّعُ الغايةَ الـمقصودةَ مِن دراسةِ تاريخِ الأَدَب، وهي الوقوفُ على الظَّواهِرِ العامَّةِ في كلِّ عصرٍ مِن العصورِ الأدبيّة، مع الاستعانةِ بالشّواهِدِ الدّالّةِ عليها.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المدْحُ في الشّعر الْجاهليّ

تمهيد (أصلُ المديح، واشتقاقُه، وعلاقتُه بأغراض الشّعر):

معلومٌ أنَّ أفعالَ النّاسِ في الحياةِ فيها الحَسَنُ وفيها السَّيّئ، وأنَّ مواقفَ النّاس مِن أفعالِ الآخَرِين وما يَرَوْنَهُ منهم تنحصر بين قولهم: (أحسنتَ) و(أسأت)، وقولهم: (جميلٌ) و(قبيح)؛ والشّاعِرُ صاحِبُ فَنٍّ يعبّر عن موقفِهِ بأدواتِ فنِّه، فإذا كانَ الرَّسّام يعرضُ موقفَهُ بألوانِهِ وخطوطه، ويُدْهِشُنَا بذلك، والنّحّاتُ يعرضُ موقفَهُ بإبراز تقاسيم ما ينحتُ ومقاييسِه وأبعادِه ومقاربة ذلك للمِثالِ، ويُدهِشُنَا بذلك، فإنَّ الشّاعِرَ يُدْهِشُنَا وهو يعرضُ موقفَهُ بألفاظِهِ ومعانيه وصُوَرِه، فيُبْرِزُ موقِفَهُ من الآخَرِينَ على غير ما يُبرِزُ سائرُ النّاسِ مواقفَهم بقولهم: أحسنتَ أو أسأت، وجميلٌ أو قبيح، وبِحَسَبِ موقفِهَ يكونُ فنّهُ – أو تكون قصيدته – مَدْحًا أو هجاءً.

والمَدْح مَصْدَرٌ من قولك: (مَدحْتُه مَدْحًا)، إذا أحسنتَ الثّناء عليه، وهُوَ نقيضُ الذّمِّ، فالمَصْدَرُ: المدْح؛ والاسم: المِدْحَةُ والأُمْدُوحَةُ والمَدِيح، والجمعُ مِدَحٌ وأَماديح ومدائح.

وظاهرٌ مِن اشتقاق المديح ومعناه أنّه ضربٌ مِنَ الشِّعر يَفْتَنُّ فيه الشّاعرُ بالثّناءِ على الممدوح بالإشادةِ بأفعالِهِ وفضائله وتَعدادِ مناقبِه، وذكرِ محاسِنِهِ في خُلُقِهِ وخَلْقِهِ، ونَفْيِ النّقائِصِ عَنه.

وما سَبَقَ يَدُلُّ على الصِّلَةِ بَين (**المَدِيح**) وغَرَضَيْنِ آخَرَيْنِ مِن أغراضِ الشِّعْرِ هما (**الرِّثاءُ**) و(**الهجاء**)، فأمّا الرِّثاءُ فإنّ مِنْ أبرز المعاني الّتي تداولَها الشّعراء فيه ذكرَ مناقبِ المرثيّ ومحاسنِه، والصِّلةُ واضحةٌ بين هذَيْنِ الغَرَضَيْنِ من هذه الْجِهة، ولهذا قال قُدامَةُ بنُ جَعْفَرٍ في كتابِه (نقد الشِّعر) ونَقَلَهُ ابنُ رَشيقٍ في كتابه (العُمْدَة): «**وليس بين الرِّثاء والمدح فرقٌ، إلَّا أن يَخْلِطَ الرِّثاءَ شيءٌ يَدُلُّ على أنَّ المقصودَ بِهِ ميتٌ، مِثْلُ (كان) أو (عَدِمْنَا منهُ كَيْتَ**

وكَيْتَ) وما يُشاكِلُ هذا، ليُعْلَمَ أنّه ميت»؛ وأمّا الهِجاءُ فإنَّ غايَتَهُ ذَمُّ الـمهْجُوِّ بِنَفْيِ الـمحاسِنِ والفَضائِلِ عَنْه، وإثْباتِ النّقائِصِ والـمَثالِبِ لَه، فَهُوَ نَقِيضُ الـمدِيح.

وربطَ ابنُ رَشيق غَرَضَ الـمديح بِغَرَضٍ آخَرَ هو **(الفخر)** للسّبب نَفْسِه، فقال: **«والافتخارُ هُوَ الـمدحُ بعينِهِ، إلّا أنّ الشّاعرَ يخصُّ بِهِ نفسَهُ وقومَهُ، فكُلُّ ما حَسُنَ في الـمدحِ حَسُنَ في الافتخار، وكلُّ ما قَبُحَ فيه قَبُحَ في الافتخار»**.

وتكلّم قبلَ ذلكَ كلامًا طويلًا على (الـمدح) ومعانيه، ونقل كثيرًا منه عن كتابِ (نَقْد الشِّعْر) لِقُدَامَةَ بنِ جَعْفَر، سيَبْدأُ بِهِ الحديثُ عن هذا الغَرَض، مَعَ اختصَارِ فُضولِهِ وما لا علاقةَ قويّةً له بمدائح الْجاهليّة، ثُمَّ تأتي بعضُ مدائِحِ الْجاهليّين للاطّلاع على دوافعها ومعَانِيها وما فيها من ظواهر.

أوّلًا: معاني الـمدح وفروعُها:

بدأ ابنُ رَشِيقٍ بإرشاد الشّعراء إلى السّبيل الّتي ينبغي أن يسلكوها في مديح النّاس على اختلافِ طبقاتهم، من حكّامٍ ووزراءَ وقادةٍ وقضاة، وذكَرَ في أثناء ذلك **معانيَ الـمديح الّتي يتناولها الشّعراء**، ومهّد لذلك بقوله:

«وممَّا قُدِّم بِهِ زهيرٌ قولُه[1]:

لَو كانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِن كَرَمٍ ... قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَو مَجْدِهِمْ قَعَدوا

قَوْمٌ (سِنانٌ) أَبوهُمْ حينَ تَنْسُبُهُمْ ... طابوا وطابَ مِنَ الأَبْناءِ ما وَلَدوا

إِنْسٌ إذا أَمِنوا، جِنٌّ إذَا فَزِعوا ... مُرَزَّؤونَ، بَهاليلٌ إذا جُهِدوا

مُحَسَّدونَ على ما كانَ مِنْ نِعَمٍ ... لا يَنْزِعُ اللهُ مِنْهُمْ ما لَهُ حُسِدوا

---

[1] سِنانٌ: أبو هَرِمِ بنِ سِنانٍ، وكان من سادة غَطَفانَ وقادَتِها، وقد مدحه زُهَيْرٌ كما مدَحَ ابنَهُ هَرِمًا. وفَزِعُوا: هَبُّوا للإغاثَة. ومُرَزَّؤُون: أي كُرَماءُ أَسْخِياءُ يُصابُونَ كَثِيرًا في أَمْوالِهِم. وبهاليلُ: أَجْوادٌ كُرَماءُ. وجُهِدُوا: أي أصابَهُمُ الْجَهْدُ ومَشَقَّةُ قِلَّةِ الـمال.

وقدّمَهُ قدامةُ بن جعفرٍ الكاتب، فقال في كتابه (نقد الشّعر): ولـمّا كانت فضائلُ النّاسِ... -على ما عليهِ أهلُ الألبابِ من الاتّفاقِ في ذلك- إنّما هي: **العَقْل، والعِفّة، والعَدْلُ**[1]، **والشّجاعة**؛ كانّ القاصدُ للمدح بهذِه الأربعة مُصيبًا، وبما سواه مخطئًا؛ فقال زهيرٌ[2]:

أَخـــي ثِقَـــةٍ، لا تُتْلِـــفُ الخمـــرُ مالَـــهُ ولكنَّـــهُ قـــد يُهلـــكُ الـــمالَ نائلُـــهْ

لأنّه قد وصفه **بالعفّة** لقلّةِ إمعانِهِ في اللّذّات، وأنه لا يُنْفِدُ فيها مالَه، وبالسَّخَاءِ لإهلاكِهِ مالَهُ في النَّوال، وانحرافَهِ إلى ذلكَ عنِ اللذّات، وذلكَ هُوَ **العَدْلُ**.

ثمّ قال[3]:

تـــــراهُ إذا مـــــا جئتَـــــهُ مُـــــتَهَلِّلًا كأنَّـــكَ تُعْطيـــهِ الَّـــذي أنـــتَ ســـائِلُهْ

أرادَ أنَّ فَرَحَهُ بما يُعطي أكثرُ مِن فرحِه بما يأخُذ، فزادَ في وَصفِ السّخاءِ منه بأنْ جعلَهُ يَهَشُّ، ولا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ ولا تَكَرُّهٌ لِفِعْلِه.

ثمَّ قال:

فَمَـــنْ مثـــلُ حِصْـــنٍ في الحـــروبِ ومثلُـــهُ لإنكـــارِ ضـــيْمٍ، أو لأمـــرٍ يُحاوِلُـــهْ؟

فأتى في هذا البيت بالوصفِ من جهةِ **الشّجاعةِ والعَقْلِ**.

فاستوفى ضروبَ المدح الأربعةَ الّتي هي فضائلُ الإنسانِ على الحقيقةِ، وزادَ ما هوَ وإن كانَ داخلًا في الأربعةِ، فكثيرٌ مِنَ النّاس مَنْ لا يعرفُ وَجْهَ دخولِهِ فيها: حيثُ قال: (أخي ثقةٍ)= فوصفَهُ بالوفاءِ، والوفاءُ داخلٌ في هذه الفضائل الّتي قدّمْنَا».

---

[1] العَدْلُ: الاستقامة؛ انظر تاج العروس (عدل).

[2] في مدح حِصْنِ بنِ حُذَيْفَةَ الفَزاريِّ؛ كان عمرُو بنُ هِنْدٍ طمِعَ فيهم، فأعدَّ له جيشًا من أسَدٍ وغَطَفانَ، فصدَّ عنهُ ابنُ هنْدٍ وكَرِهَ قتالَه. وأخو ثِقَةٍ: يُوثَقُ بما عِندَهُ مِن خَيْر.

[3] متهلِّلًا: مُسْتَبْشِرًا طَلْقَ الوَجْهِ.

وهذه المعاني الأربعةُ يَرْجِعُ اثْنانِ منها إلى ذاتِ الإنْسانِ في عَقْلِه ونَفْسِه، واثْنانِ إلى عَلاقَتِهِ بالنّاسِ والخَلْقِ مِنْ حَوْلِهِ أَعْداءً وأصدِقاء؛ **فالعَقْلُ** خاصٌّ بِسَلامَةِ التَّفْكِيرِ ورَزانَتِه وسعَةِ العِلْمِ والقُدْرَةِ على التّعْبِيرِ عن ذلك، **والعِفَّةُ** خاصَّةٌ بِسَلامَةِ النَّفْسِ وتَزْكِيَتِها وكَبْحِها عَنْ شَهَواتِها، **والعَدْلُ** خاصٌّ بالاستِقامَةِ في مُعامَلَةِ الأَهْلِ والأَصْحابِ ومَنْ يَلُوذُ بالإنسان، **والشَّجاعَةُ** خاصَّةٌ بالْجُرْأَةِ في مواجَهَةِ العَدُوِّ والمَصاعِب.

والشّعراءُ في أماديحهم يدورونَ حولَ هذه المعاني الأربعةِ مِن الفضائل الّتي ذكرها ابنُ رشيقٍ نقلًا عن قُدَامةَ بنِ جعفر، ويتفنّنون في هذه المعاني ويفرّعونَها بالأوصاف المتعلّقة بها، فلا يَفْطَنُ النّاسُ إلى ذلك، ولذلكَ ذهبَ يفرّع هذه المعاني بحَسَبِ تفنُّنِ الشّعراء، فقال:

«وقد يتفنَّنُ الشّعراء، فيعدُّون أنواعَ الفضائلِ الأربعِ وأقسامَها، وكلٌّ داخلٌ في جُمْلَتِها؛ مثلُ أَنْ يَذْكُروا **ثَقابَةَ المعْرِفَةِ**[1] و**الحياءَ** و**البَيانَ** و**السِّياسةَ** و**الصَّدْعَ بالحُجَّةِ** و**العِلْمَ** و**الحِلْمَ عن سَفاهَةِ الْجَهَلَةِ**، وغيرَ ذلك ممَّا يَجْرِي هذا المجرى، **وهي مِن أقسامِ العَقْل**؛ وكَذِكْرِهم **القناعةَ** و**قلّةَ الشَّرَهِ** و**طهارةَ الإزار**، وغيرَ ذلك، **وهي مِن أقسامِ العِفَّة**؛ وكَذِكْرِهم **الحِمايةَ** و**الأَخْذَ بالثَّأْرِ** و**الدِّفاعَ عَنِ الْجَارِ** و**النِّكايَةَ بالعَدُوِّ** و**قَتْلَ الأَقْرَانِ** و**المَهابَةَ** و**السَّيْرَ في المهامِهِ والقِفارِ الموحِشَةِ**، وما شاكَلَ هذا، **وهي مِنْ أَقْسامِ الشَّجاعة**؛ وكَذِكْرِهم **السَّماحَةَ** و**التَّغابِيَ** و**الانظلامَ** و**التبرّعَ بالنّائِلِ** و**إِجابَةَ السّائلِ** و**قِرَى الأَضْياف**، وما جانَسَ هذه الأشياءَ، **وهي مِن أقسامِ العَدْل**».

ثمَّ وقفَ عندَ ضَرْبٍ آخَرَ مِن تفنُّنِ الشُّعراءِ وتَوْليدِهم المعانيَ مِنْ تركيبِ بعضِها معَ بعضٍ، فقال: «وأمّا تركيبُ بعضِها معَ بعضٍ فيَحْدُثُ منه ستّةُ أقسامٍ:

- يحدُثُ مِن تركيب **العقلِ معَ الشّجاعة**: الصَّبْرُ على الملِمّاتِ ونوازِلِ الخُطوب، والوفاءُ بالإيعاد.

---

[1] وضوحها والحِذْق فيها ونَفاذها.

- وعن تركيب **العقل مَعَ السّخاء**[1]: البِرُّ، وإنجازُ الوَعْد، وما أشبهَ ذلك.

- وعن تركيب **العقل مَعَ العفَّة**: التَّنَزُّهُ، والرَّغْبَةُ عنِ المسألةِ، والاقتصارُ على أَدْنَى مَعِيشة.

- وعن تركيبِ **الشَّجاعةِ مع السَّخاء**: الإتلافُ والإخلافُ، وما جانسَ ذلك.

- وعن تركيبِ **الشَّجاعةِ مع العِفّة**: إنكارُ الفَواحِش، والغَيْرَةُ على الحُرَمِ.

- وعن تركيبِ **السَّخاءِ مع العِفّة**: الإسعافُ بالقُوتِ، والإيثارُ على النّفس، وما شاكَلَ ذلك».

وهذا الَّذي ذكره ابنُ رَشيقٍ نقْلًا عن قُدامَةَ مِنَ الفضائل الأربعِ وتفنُّن الشُّعراءِ في ذِكرِ كلِّ فضيلةٍ وتوليدِهم المعانيَ والأوصافَ منها هي الّتي يتداولُها الشُّعَراءُ في أماديحِهم على اختلافِ العصور، ومنهم الجاهليُّون، وهمُ السّابقون إليها المجَلُّونَ لَهَا بلغتهم العاليةِ وفَنِّهم الأَصيل.

ثانِيًا: التّكَسُّبُ بالشّعر، و الأَنَفَةُ مِن ذلك :

وقف ابنُ رشيقٍ بعدَ حديثه عن المعاني عندَ مجموعة من الأشعار الّتي استحسَنَها أهلُ العلم بالشّعر، ووقفَ عندَ آرائِهم في أَمْدَحِ النّاس، وفي أمدحِ بيتٍ؛ وهما أمرانِ متعلِّقانِ باختلافِ الأذواق والعلم واختلاف العصور.

ووقفَ في موضعٍ آخَرَ مِن كتابه عندَ **التّكَسُّب بالشِّعر**، ذلك أنّ الشّعراءَ في عصرِه أَكْثَرُوا مِن التَّكَسُّب حتّى لم يَعُدْ كثيرٌ مِن شعرِ المديح يَهُزُّ ممدوحًا أو يعودُ على صاحبِه بخير، ولذلك كَثُرَتْ شَكْوَى الشُّعراء في ذلك العصرِ مِن قِلَّةِ مَنْ يَجُود؛ قال ابنُ رَشيقٍ:

«وكانتِ العرب لا تتكسّبُ بالشّعر، **وإنّما يَصْنَعُ أحدُهم ما يصنَعُه فُكاهَةً**[2] **أو مُكافأةً عَنْ يَدٍ لا يَستطيعُ أداءَ حقِّها إلّا بالشُّكر إعظامًا لها**؛ كما قالَ امرُؤُ القيس بنُ حُجْرٍ يَمْدَحُ بني تَيْمٍ رَهْطِ المعَلَّى:

---

[1] السّخاءُ مِنَ العَدْلِ.

[2] الفُكاهَةُ: الإعجاب، والفُكاهَةُ أيضًا: طِيبُ النَّفْسِ.

أَقَـرَّ حَشـا امـرِئِ القَـيْسِ بـنِ حُجْـرٍ بَنـــو تَـــيْمٍ مَصـــابِيحُ الظَّـــلامِ

لأنَّ الـمعلّى أحسنَ إليهِ وأجارَهُ حين طلبَهُ الـمنذِرُ بنُ ماءِ السَّماء... فقِيلَ لِبَنِي تَيْمٍ (مصابيحُ الظَّلام) مِن ذلك اليوم، لبيتِ امرئ القيس.

وقالَ أيضًا لِسَعْدِ بنِ الضَّبابِ [الإياديِّ][1]:

ســـأَجْزِيكَ الَّـــذي دافَعْـــتَ عنّـــي ومـــا يَجْزِيـــكَ عَنّـــي غَـــيْرُ شُـــكْري

فأخبَرَهُ أنَّ شُكْرَهُ هو الغايةُ في مُجازاته... .

حتّى نشأ النّابغةُ، فمدحَ الـملوكَ، وقَبِل الصِّلةَ على الشِّعر وخَضَعَ للنُّعمانِ بنِ الـمنذر؛ وكان قادرًا على الامتناع منه بمَنْ حولَهُ مِن عشيرتِهِ أو سار إليه مِن مُلوكِ غسّانَ، **فسَقَطَتْ مَنْزِلَتُه**، وتكسّبَ مالًا جَسيمًا حتّى كانَ أَكْلُهُ و شَرابُهُ في صِحافِ الذّهَبِ والفِضَّةِ وأَوانيهِما مِن عَطايا الـملوك.

وتكسَّبَ زهيرُ بنُ أَبي سُلْمَى بالشِّعر يَسِيرًا مع هَرِمِ بنِ سِنانٍ.

فلـمّا جاء الأعشى جعل الشّعرَ مَتْجَرًا يَتَّجِرُ به نحو البُلدان، وقَصَدَ به حتّى مَلِكَ العَجَم...، وأكثرُ العلماء يقولون إنَّه أوّلُ مَن سَأَلَ بِشِعْرِه؛ و قد عَلِمْنَا أنّ النابغةَ أسَنُّ منه وأَقْدَمُ شِعرًا،... .

ثمّ إنّ الحُطَيْئَةَ كَثَّرَ مِن السُّؤالِ بالشِّعر، وانحطاطِ الهِمَّةِ فيه، والإلْحَافِ، حتّى مُقِتَ وذَلَّ أهلُه[2]؛ و هَلُمَّ جرًّا إلى أن حُرِمَ السّائلُ ... .

وأمّا أكثرُ مَنْ تَقَدَّمَ فالغالبُ على طِباعِهم **الأَنَفَةُ من السّؤال بالشّعر**، وقلّةُ التَّعَرُّضِ به لِما في أيدي النّاس، إلّا فيما لا يُزْري بِقَدْرٍ ولا مُرُوءَةٍ ... .

---

[1] كان الـمنذرُ بنُ ماءِ السَّماءِ غَزا كِنْدَةَ فأسرَ اثْنَيْ عَشَرَ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِهم وقَتَلَهُمْ، وكان امرُؤُ القَيْسِ منهم، فأجارَهُ سَعْدٌ هذا.

[2] أي مُقِتَ الشّعرُ وذَلّ أهلُه.

وقالوا: كانَ الشّاعرُ في مُبْتَدَأِ الأمرِ أَرْفَعَ مَنْزِلةً مِنَ الخطيب، لِحاجتِهم إلى الشّعر في تخليدِ مآثرِهم، وشَدِّ العارِضَةِ[1]، وحمايةِ العَشِيرةِ، وتَهَيُّبِهم عند شاعِرِ غيرِهم من القبائل فلا يُقدِمُ عليهم خَوْفًا من شاعرهم على نفسِه وقبيلتِه؛ **فلمّا تَكَسَّبوا به وجعلُوهُ طُعْمَةً، وتَوَلَّوْا بِه الأعراضَ وتناوَلُوها، صارَتِ الخَطابةُ فوقَه...»**.

ثالِثًا: مثالان من مدائح الجاهليّين:

المثال الأول: قال النّابغةُ يمدحُ عَمْرَو بنَ الحارثِ الأصغرِ الغَسّانيّ، وقد وَقَعَ في الأَسْرِ عند الغسّانيِّين عددٌ من بَنِي ذُبيانَ فقالَ هذه القصيدة يمدحُ عَمْرًا لِيُطْلِقَهُم، وقيل: إنّه قالَها لَـمّا أَلْجَأَهُ عَمْرٌو بَعدَما غَضِبَ النُّعمانُ بنُ المنْذِرِ عَلَيْه:

١-كِلِينِي لِهَمٍّ -يا أُمَيْمَةَ!- ناصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقاسِيهِ بَطِيْءِ الكَواكِبِ

٢-وصَدْرٍ أَراحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... تَضاعَفَ فيهِ الحُزْنُ مِنْ كُلِّ جانِبِ

٣-تَقاعَسَ حتّى قُلْتُ: لَيْسَ بِمُنْقَضٍ ... وَلَيْسَ الَّذي يَرْعَى النُّجومَ بِآيِبِ

٤-عَلَيَّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ، بَعْدَ نِعْمَةٍ ... لِوالِدِهِ، لَيْسَتْ بِذاتِ عَقارِبِ

٥-حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ ذي مَثْنَوِيَّةٍ ... ولا عِلْمَ إلّا حُسْنُ ظَنٍّ بِغائِبِ

٦-لَئِنْ كانَ لِلْقَبْرَيْنِ: قَبْرٍ بِـ(جِلِّقٍ) ... وقَبْرٍ بِـ(صَيْداءَ) الّتي عِنْدَ (حارِبِ)

٧-ولِلْحارِثِ الْجَفْنِيِّ سَيِّدِ قَوْمِهِ ... لَيَلْتَمِسَنْ بالْجَمْعِ أَرْضَ المُحارِبِ

٨-لَهُمْ شِيمَةٌ لَمْ يُعْطِها اللهُ غَيْرَهُمْ ... مِنَ النّاسِ، والأَحْلامُ غَيْرُ عَوازِبِ

٩-مَخافَتُهُمْ ذاتُ الإلَهِ، ودِينُهُمْ ... قَويمٌ، فَما يَرْجونَ غَيْرَ العَواقِبِ

١٠-وَثِقْتُ لَهُ بالنَّصْرِ إذْ قِيلَ قد غَزا ... بِغَسّانَ غَسّانِ الملوكِ الأَشايِبِ

١١-بَنِي عَمِّهِ دِنْيا وعَمْرِو بنِ عامِرٍ ... أُولئِكَ قَوْمٌ بَأْسُهُمْ غَيْرُ كاذِبِ

١٢-إذا ما غَزَوْا بالْجَيْشِ أَبْصَرْتَ فَوْقَهُمْ ... عَصائِبَ طَيْرٍ تَهْتَدي بعَصائِبِ

١٣-جَوانِحَ، قد أَيْقَنَّ أنّ قَبيلَهُ ... إذا ما الْتَقى الْجَمْعانِ أوّلُ غالِبِ

---

[1] أي: القدرة على الكلام وتنقيحه.

١٤-يُصانِعْنَهُمْ حَتّى يُغِرْنَ مُغارَهُمْ مِنَ الضّارِياتِ بالدّماءِ الدَّوارِبِ

١٥-لَهُنَّ علَيهِمْ عادةٌ قَدْ عَرَفْنَها إذا عُرِّضَ الخَطِّيُّ فَوْقَ الكَواثِبِ

١٦-تَراهُنَّ خَلْفَ القَوْمِ زُورًا عُيُونُها جُلُوسَ الشُّيوخِ في مُسوكِ أَرانِبِ

١٧-عَلى عارِفاتٍ للطِّعانِ، عَوابِسٍ بِهِنَّ كُلومٌ بَيْنَ دامٍ وجالِبِ

١٨-إذا اسْتُنْزِلُوا عَنهُنَّ لِلطَّعْنِ أَرْقَلوا إلى الموْتِ إرْقالَ الجِمالِ المصَاعِبِ

١٩-ولا عَيْبَ فيهِمْ غيرَ أَنّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائِبِ

٢٠-تُخَيِّرْنَ مِنْ أَزْمانِ يَوْمٍ حَليمَةٍ إلى اليَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كُلَّ التَّجارِبِ

٢١-تَجُذُّ السَّلُوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ ويُوقِدْنَ بالصُّفّاحِ نارَ الحُباحِبِ

٢٢-بِضَرْبٍ يُزِيلُ الهامَ عن سَكِناتِهِ وطَعْنٍ كإيزاغِ المَخَاضِ الضَّوارِبِ

٢٣-فَهُمْ يَتَساقَوْنَ المنِيَّةَ بَيْنَهُمْ بأَيْدِيهِمُ بِيضٌ رِقاقُ المضَارِبِ

٢٤-يَطِيرُ فُضَاضًا بَيْنَهُمْ كُلُّ قَوْنَسٍ ويَتْبَعُها مِنهُمْ فَراشُ الحَواجِبِ

٢٥-رِقاقُ النِّعالِ، طَيِّبٌ حُجُزاتُهُمْ يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحانِ يَوْمَ السَّباسِبِ

٢٦-تُحَيِّيهِمُ بِيضُ الوَلائِدِ بَيْنَهُمْ وَأَكْسِيَةُ الإضْريجِ فَوْقَ المَشاجِبِ

٢٧-يَصُونُونَ أَجْسادًا طَوِيلًا نَعِيمُها بِخالِصَةِ الأَرْدَانِ خُضْرِ المَناكِبِ

٢٨-وَلا يَحْسِبونَ الخَيْرَ لا شَرَّ بَعْدَهُ وَلا يَحْسِبونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لازِبِ

٢٩-حَبَوْتُ بِها غَسّانَ إذْ كُنْتُ لاحِقًا بِقَوْمي وَإذْ أَعْيَتْ عَلَيَّ مَذاهِبِي

غَرِيبُ الأَلفاظِ والمَعاني:

١- كِلِيني: دَعِيني. و(يا أُمَيْمَةَ) جاءت الرِّوايَةُ بفتح آخِرِه، وحَقُّه الضَّمّ، وللنُّحاةِ أقوالٌ في تخريجِ ذلك؛ وهي ابنَتُه (أُمامَة)، فصَغَّر الاسم للتَّوَجُّعِ. وناصب: ذو نَصَب، وهو شِدَّةُ التَّعَب. و(بَطِيْء الكَواكِب) كِنايَةٌ عَنْ طُولِ اللَّيْلِ.

٢- أراحَ الشّيْءَ: رَدَّه مَساءً. والعازب: البَعِيد.

٣- يُرْوَى: «تَطاوَلَ». وآيِب: راجِع. و(الَّذي يَرْعَى النّجوم) كِنايَةٌ عَنِ الصُّبْح.

٤- ليسَتْ بِذاتِ عَقارب: أي لا مكروهَ فيها.

٥- يُرْوى: «بِصاحِبٍ». وغير ذي مثنويّة: لا أستَثْني.

٦- لَئِنْ كانَ للقَبْرَيْن: أي ابنَ صاحِبَيْهِما. وجلِّق: قيل هي دمشق، وقيل موضع عندها. وصَيْداء: موضع في حَوْرانَ غيرُ الّتي على ساحِلِ الشّام. وحارِب: موضع في حَوْران.

٧- يُرْوَى: «لَيَلْتَمِسَنْ بالجيشِ دارَ ...».

٨- الشِّيمة: الخُلُق. وغير عوازِب: حاضرة غير بعيدة.

٩- مَخافَتُهُم: ما يَخافُونَه. ويُرْوَى: «مَحَلَّتُهم ذاتُ الإِلَه» مكان حلولهم؛ وذاتُ الإله: يعني بيتَ المقْدِس وأرضَ الشَّام؛ ويُرْوَى: «مَجَلَّتُهُمْ» بالجِيم، يَعْنِي كِتابهم المقدَّس كِتاب الله. وما يرجُون: ما يخافون.

١٠- يُرْوَى: «... قد غَزَتْ كَتائِبُ مِنْ غَسّانَ غَيْرُ أَشائِبِ». والأشايِب: جَمْعُ الأَشْيَب؛ يَعْنِي أَنَّهُمْ قد جَرَّبُوا الأُمورَ، ولَيْسُوا أَغرارًا. والأَشائِب: الأَخْلاط.

١١- دِنْيا: الأدنَوْنَ. وبنو عَمرو بن عامر: منهم غسّان؛ وعَمْرُو بنُ عامِرٍ هو الَّذي خَرَجَ بِمَنْ خَرَجَ مَعَهُ مِنَ الأَزْدِ قَبْلَ انْهِيارِ سَدّ مأْرِب.

١٢- يُرْوَى: « حَلَّقَ فَوْقَهُمْ». والعصائِب: الجَماعات.

١٣- جوانح: مائلات؛ استعدادًا للوقوعِ على القتلى.

١٤- يُرْوَى: «يُصاحِبْنَهُمْ». ويُصانِعْنَهُم: يَفْعَلْنَ كما يَفْعَلُون؛ أي تُغِيرُ كما يُغِيرُون. والضّاريات: المتعوِّدات، مِنْ ضَرِيَ بالشَّيْءِ إذا اعتادَ عَلَيْه.

١٥- الخطِّيُّ: أي الرِّماح، منسُوبَة إلى (الخَطِّ)، وهُوَ مِيناءٌ على الخَلِيجِ العَرَبِيّ يُعْرَفُ اليَوْمَ باسْمِ (القَطِيف). والكواثِب: جَمْعُ الكَاثِبَةِ، وهي مكان اجتماع كتفَيِ الفرسِ خلفَ العُنُقِ، وَهُوَ مَوْضِعُ الرُّمْحِ.

١٦- يُرْوَى: «خُزْرًا عيونُها ... في ثِيابِ المرانِبِ» أي تنظر بِمَآخيرِ عيونها. وزُورًا عُيُونُها: جَمْعُ الأَزْوَرِ، وهو الَّذي يَنْظُرُ نظْرَةَ العَدُوّ. والمُسُوك: الجُلُود. والمرانب: ثياب سُود، وقيل: من جلود الأرانب.

١٧- عارِفات لِلطِّعان: صابِرات لِلطِّعانِ بِالرِّماح. والكلوم: الجروح. والدَّامِي: الَّذي لا يَزالُ يَدْمَى. والجالِب: اليابس الَّذي قارَبَ الشِّفاءَ.

١٨- أرقَلوا: أسرعوا؛ والإِرقالُ: نَوْعٌ مِنَ العَدْوِ السَّرِيع. والمَصاعِب: جَمْعُ المصْعَب، وهُوَ الفَحْلُ الَّذي لَمْ يَمْسَسْهُ حَبْلٌ ولَمْ يُرْكَب.

١٩- الفلول: الثُّلوم. والقِراع: المجالَدَة.

٢٠- يُرْوَى: «تُوَرِّثْنَ». ويوم حليمة: وقعة كانت بين غسّان وملوك الحيرة، وقيل: بينهم وبين الضَّجاعِمَةِ السَّلِيحِيِّين الَّذين كانوا ملوك الشّام قبلَ غسَّان.

٢١- يُرْوَى: «تَقُدُّ ... وتُوقِدُ ...». والسَّلُوقيّ: أراد الدّروع المنسوبة إلى سَلُوق، وهو موضع. والصُّفَّاح: الحجارة العِراضُ الصُّلْبَة. والحُباحِب: دُوَيْبَّة تُضيء باللّيل.

٢٢- السَّكِنات: جَمْعُ السَّكِنَةِ، وهي الفِقْرَةُ الّتِي يَسْتَقِرُّ فيها الرَّأْسُ؛ أراد بها الأعناق. وإيزاغ المخاض: نَفْحُ النُّوق ببَوْلِها مُقَطَّعًا إذا أرادَها الفَحْلُ؛ والمَخاض: الإِبِلُ الحَوامِلُ. والضّوارب: الّتي تضرب الفحل بأرجُلِها.

٢٣- المضارِب: جَمْعُ مَضْرِبِ السَّيْف، وهو حَدُّه.

٢٤- الفُضاض: القِطَع المتَفرِّقة. والقَوْنَس: أعلى النّاصية، ورَأْسُ البَيْضَةِ (الخُوذَة). والفَراش: عظامٌ رِقاقٌ وراء الخياشيم.

٢٥- طيِّبٌ حُجُزاتُهم: كناية عن عفّة فروجِهم. والسّباسب: عِيدٌ من أعياد النَّصارى.

٢٦- الوَلائِد: الإماءُ البِيضُ. والإضريج: الخَزُّ الأحمر. والمَشاجِب: جَمْعُ المِشْجَب، وهُو خَشَبَاتٌ تُعَلَّقُ عليها الملابِس.

٢٧- خالصة الأردان: أي ثياب ذات أكمامٍ بلون أبيضَ ناصِع. يقول: يَلْبَسون ثيابًا بيضًا خضراءَ المناكب.

٢٩- بها: يعني القصيدة. وأعيَت عليَّ مَذاهبي: أي ضاقت عليَّ طُرُقي، وذلك لأنّه كان هاربًا من النُّعمان بن المنذر ملك الحيرة، أو ما كانَ مِن أَسْرِ قَومِه لَدى الغَسّانِيّين.

المثال الثّاني: قال الأعشى يمدحُ هَوْذَةَ بنَ عليٍّ الحَنَفِيَّ، بعدما وصفَ ناقَتَهُ الّتي ارتحل بها إليه:

١-إلى هَوْذَةَ الوَهّابِ أَهْدَيْتُ مِدْحَتي ... أُرَجّي نَوالًا فاضِلًا مِنْ عَطائِكا

٢-تَجانَفُ عَنْ جُلِّ (اليَمامَةِ) ناقَتي ... وما قَصَدَتْ مِنْ أَهْلِها لِسَوائِكا

٣-أَلَمَّتْ بِأَقْوامٍ فَعافَتْ حِياضَهُمْ ... قَلُوصي وكانَ الشُّرْبُ مِنْها بِمائِكا

٤-فَلَمّا أَتَتْ آطامَ (جَوٍّ) وَأَهْلَهُ ... أُنِيخَتْ وأَلْقَتْ رَحْلَها بِفِنائِكا

٥-وَلَمْ يَسْعَ في الأَقْوامِ سَعْيَكَ واحِدٌ ... وَلَيْسَ إِناءٌ لِلنَّدى كَإِنائِكا

٦-سَمِعْتُ بسَمْعِ الباعِ وَالْجودِ وَالنَّدى ... فأَذْلَيْتُ دَلْوي فاسْتَقَتْ بِرِشائِكا

٧-فَتًى يَحْمِلُ الأَعْباءَ لَوْ كانَ غَيْرُهُ ... مِنَ النّاسِ لَمْ يَنْهَضْ بِها مُتَماسِكا

٨-وَأَنْتَ الَّذي عَوَّدْتَني أَنْ تَرِيشَني ... وَأَنْتَ الَّذي آوَيْتَني في ظِلالِكا

٩-فَإِنَّكَ فِيما بَيْنَنا: بِيَ مُوزَعٌ ... بِخَيْرٍ، وإِنّي مُولَعٌ بِثَنائِكا

١٠-وَجَدْتَ (عَلِيًّا) بانِيًا فَوَرِثْتَهُ ... و(طَلْقًا) و(شَيْبانَ) الْجَوادَ و(مالِكا)

١١-بُحورٌ تَقُوتُ النّاسَ في كُلِّ لَزْبَةٍ ... أَبوكَ وَأَعْمامٌ هُمُ هَؤُلائِكا

١٢-وَما ذاكَ إِلّا أَنَّ كَفَّيْكَ بِالنَّدى ... تَجودانِ بِالإِعْطاءِ قَبْلَ سُؤالِكا

١٣-يَقولونَ: في الإِكْفاءِ أَكْبِرْ هَمَّهِ ... أَلا رُبَّ مِنْهُمْ مَنْ يَعيشُ بِمالِكا

١٤-وَجَدْتَ انْهِدامَ ثُلْمَةٍ فَبَنَيْتَها ... فأَنْعَمْتَ إِذْ أَلْحَقْتَها بِبِنائِكا

١٥-وَرَبَّيْتَ أَيْتامًا وَأَلْحَقْتَ صِبْيَةً ... وأَدْرَكْتَ جَهْدَ السَّعْيِ قَبْلَ عَنائِكا

١٦-وَلَمْ يَسْعَ في العَلْياءِ سَعْيَكَ ماجِدٌ ... ولا ذُو إِنًى في الحَيِّ مِثْلَ قَرائِكا

١٧- وَفي كُلِّ عامٍ أَنْتَ جَاشِمُ غَزْوَةٍ ... تَشُدُّ لِأَقْصاها عَزيمَ عَزائِكا

١٨- مُـوَرِّثَةٍ مَالًا وَفـي الحَمْدِ رِفْعَةً لِما ضاعَ فيها مِنْ قُروءِ نِسائِكـا

١٩- تُخَـبِّرُهُنَّ الطَّـيْرُ عَنْـكَ بِأَوْبَـةٍ وَعَـيْنٌ أَقَـرَّتْ نَوْمَهـا بِلِقائِكـا

غَرِيبُ الأَلفاظِ والمَعاني:

١- الوَهّاب: كَثِيرُ الهِباتِ. والنَّوال: العَطاء.

٢- تَجانَفُ: تَتَنَحَّى، وأَصْلُها (تَتَجانَفُ) فحذَفَ إِحْدَى التّاءَيْنِ تَخْفيفًا؛ ونَسَبَ الفِعْلَ إلى ناقتِه، وإنّما هُو فِعْلُه. وجُلّ اليَمامَة: مُعْظَمها، أَي مُعْظَم أَهْلِها. و(سَواء) بِفَتْحِ السِّين، بِمَعْنَى (سِوَى) بِكَسْرِها.

٣- أَلَمَّتْ بأَقوامٍ: مَرَّتْ بِهِم سَرِيعَةً. وعافَتْ حِياضَهُمْ: أَنِفَتْ أَنْ تَشْرَبَ مِنْها، لأَنَّها لَيْسَت صَفْوًا. والقَلُوص: الفَتِيَّةُ مِنَ الإِبِل.

٤- الآطامُ: الأَبنِيَةُ العالِيَةُ، والحُصُون. و(جَوّ) قاعِدَةُ اليَمامَةِ. وأُنِيخَتْ: أُبْرِكَتْ. والفِناءُ: السّاحَة.

٥- النَّدى: الكَرَم.

٦- سَمْع الباع: طَوِيل الباع، كِنايَة عن السَّماحةِ والْجُود؛ والباع: مَسافة ما بين الكَفَّيْن إذا مُدَّتِ اليَدان. والرِّشاء: الحَبْلُ الَّذي تُعَلَّق به الدَّلْوُ.

٧- قَوْلُه: (لو كانَ غَيْرُهُ مِن النّاسِ لم ينهَضْ بها مُتَماسِكا) كِنايَةٌ عَن ثِقَل الأَعْباء.

٨- راشَهُ: أَعطاهُ، وأحسَنَ إِلَيْه.

٩- في الدّيوان: «فِيَّ مُوزَعٌ» تَحْرِيف، والصَّوابُ (بِيَ)؛ لأَنَّه يُقالُ: أُوزِعَ بِهِ، فَهُوَ مُوزَعٌ بِه: مُغْرًى بِهِ، أَيْ بِعَطائِه.

١٠- عَلِيّ: والدُ هَوْذَة. وطَلْق وشَيْبان ومالِكٌ: أَعْمامُه.

١١- تَقُوتُ: تُطْعِم. واللَّزْبَةُ: السَّنَةُ الشَّديدةُ الطَّوِيلَةُ على النّاس.

١٢- النَّدى: العَطاء.

١٣- يُروَى: «في الأَكْفاءِ»، والأعشى يَرُدُّ على بعض خصوم الممدوح الَّذين يَقُولون: (هذا الرَّجُلُ يَكْتَفِي بِما لَدَيْهِ) بحَسَبِ رِواية (في الإكفاء)، أو يَقُولُونَ: (إِنَّهُ يَظْلِمُ أَكْفاءَهُ المُماثِلِينَ لَهُ مِنَ النّاسِ) بِحَسَبِ رِوايَة (في الأَكْفاء).

١٤- الثُّلْمَة: الكَسْرُ في البِناءِ ونَحْوِه؛ يقول: وجَدْتَ أَمْرًا ناقِصًا فأَتْمَمْتَهُ؛ أَو أراد بالثُّلْمةِ حاجَةَ الأَعْشى وفاقَتَه.

١٥- العَناء: التَّعَب.

١٦- الإِنَى: العَطاء والمَجْد والشَّرَف. و(القَراءُ) بفتح القافِ بِمَعْنى (القِرَى) بِكَسْرِها، وهو إكرامُه وإِحْسَانُهُ إِلَيْه.

١٧- جاشِمُ غَزْوَةٍ: تتجَشَّمُها؛ أي تَقْصِدُها وتَحْمِلُ مَشاقَّها. والعَزاءُ: الصَّبْرُ. وأراد بقَولِه: (عَزِيم عَزائِكا) ثَبات صَبْرِه وجِدَّهُ في توجُّهِه إلى الغَزْو.

١٨- القُروءُ: جَمْعُ القُرْءِ، مِن ألفاظِ الأَضْداد، وهو هنا بِمَعْنَى الطُّهْرِ؛ وفي الشَّطْرِ الثّاني كِنايَةٌ عنِ الْجِماعِ.

١٩- الأَوْبَةُ: الرَّجْعةُ؛ يقول: حِينَ يَرَى نِساؤُهُ الطَّيْرَ مِن بَعِيدٍ تَطِيرُ جَماعاتٍ يَعْلَمْنَ أَنَّها مُرافِقَةٌ لِجَيْشِهِ العائِدِ ظافِرًا.

رابِعًا: دوافع المديح:

إنَّ ما سبق مِن كلامِ ابنِ رشيقٍ يتضمَّنُ إشارةً إلى **ثلاثَةِ دَوافِعَ** تَدْعُو الشُّعراءَ إلى المديح، وقد رَأى **الدَّافِعَيْنِ الأَوَّلَيْنِ** الأسبقَ زَمَنًا هما **إعجابُ الشّاعِرِ** بالمَمْدُوح **ومُكافَأَتُهُ ومُجازاتُهُ** على يَدٍ ومعروفٍ قدَّمه إليه ولا يستطيع أداءَ حقِّها إلّا بالشُّكرِ؛ ورأى **الدّافِعَ الثّالِثَ** المتأخِّرَ زَمَنًا هو **التكسّبُ** بِمَدْحِ الملوكِ وأشباهِهم رَغْبَةً في العطاءِ، حتّى جعلَ الأعشى مِن المدْحِ تِجارَةً يطوّفُ بها في البلاد.

وقد أنشَدَ شِعْرًا لامرِئِ القَيْسِ -وهو المَلِكُ- يمدَحُ فيه المعَلَّى بنَ ثَعْلَبَةَ مِن بَنِي تَيْمٍ الطَّائِيِّينَ حين أَلْجَؤُوه إليهم وحَمَوْهُ مِنَ المنذرِ بنِ ماءِ السَّماءِ شُكرًا منه لهم، حتّى قال:

أَقَـرَّ حَشـا امْـرِئِ القَـيْسِ بـنِ حُجْـرٍ بَنـو تَـيْمٍ مَصـابِيحُ الظَّـلامِ
كَـأَنّي إِذْ نَزَلْـتُ عَـلى الـمعَلّى نَزَلْـتُ عَـلى البَـواذِخِ مِـنْ شِـمامِ
فـما مَلِـكُ العِـراقِ عـلى الـمعَلّى بِمُقْتَـدِرٍ ولا مَلِـكُ الشَّـآمِ

فكأنَّ امرأَ القيسِ كانَ في ظُلْمَةِ ليلٍ رابضٍ على صَدْرِهِ، كذلكَ اللَّيْلِ الَّذي وصفَهُ في مُعَلَّقَتِه، حتّى كشفَتْ تلكَ الظُّلْمَةَ والغُمَّةَ وُجُوهُ بَنِي تَيْمٍ ففَرَّجَتْ عنه، وكانَ في اضطرابٍ وخوفٍ شديدَيْنِ يَجِيشانِ في صَدْرِهِ مثلَ جَيَشَانِ فَرَسِهِ الَّذي وصفَهُ في مُعَلَّقَتِه، حتّى سَكَّنَ مِنْ جَأْشِهِ حُلُولُهُ في أَكْنافِ هؤلاءِ القوم، فأَحَسَّ بأَنَّهُ صارَ في مكانٍ باذِخٍ مَنِيعٍ عَزيزٍ لا يَقْدِرُ عليهِ مُلوكُ الأَرْضِ جَمِيعًا.

ومِنْ ذلك أيضًا مَدْحُه جارِيَةَ بْنَ مُرٍّ بنِ حَنْبَلٍ وقومِه بَنِي ثُعَلَ الطَّائِيِّينَ، وقد أَكْرَموهُ وأَجارُوه:

أَبَـتْ (أَجَـأٌ) أَنْ تُسْـلِمَ اليَـوْمَ جارَهـا فَمَـنْ شـاءَ فَلْيَـنْهَضْ لَهـا مِـنْ مُقاتِـلِ
تَبِيـتُ لَبُـونِي بالقُرَيَّـةِ أُمَّنًـا وأَسْرَحُهَـا غِبًّـا بأَكْنـافِ (حائـلِ)
بَنـو ثُعَـلٍ جِيرانُهـا وحُماتُهـا وتُمْنَـعُ مِـنْ رُمـاةِ سَـعْدٍ ونائِـلِ

فهو يَذْكُرُ لهم مَعْرُوفَهُم في جوارِهم له، حتّى كانَ فيهم آمِنًا على نفسِهِ ومالِهِ وإبلِه الّتي صارَتْ تَبِيتُ آمِنَةً وتَرْعَى آمِنَةً، لا تَخْشَى عُدوانَ أَحَدٍ عليها، كما لا يَخْشَى صاحِبُها وُصولَ أَحَدٍ مِمَّنْ يطلُبُه إليهِ؛ وما ذاكَ إلّا أنَّها وصاحبَها في جِوارِ بَنِي ثُعَلَ وحِمايَتِهم.

وقد يَمْدَحُ الشّاعِرُ إعجابًا وشُكْرًا على مَعْرُوفٍ لم يكن معروفًا نالَهُ هو، وإنّما هُوَ معروفٌ عامٌّ، كالَّذي كانَ مِنْ مَديحِ زهيرِ بنِ أَبي سُلْمى لِهَرِمِ بنِ سِنانٍ والحارِثِ بنِ عَوْفٍ المُرِّيَّيْنِ، إذ سعى هذانِ الرَّجُلانِ في الإصلاحِ بينَ عَبْسٍ وذُبْيانَ في حربٍ داحِسٍ والغَبْراءِ، وتَكَفَّلا بِحَمْلِ عِبْءِ الدِّيَاتِ وهيَ ثلاثةُ آلافِ بَعِيرٍ يَدْفَعانِها مِنْ مالِهِما الخاصِّ مُنَجَّمَةً على ثلاثِ سَنَواتٍ، حَقْنًا للدِّماءِ وإصلاحًا بينَ القَبِيلَتَيْنِ وقد كادَتِ الحربُ تُفْنِيهِما لِكَثْرَةِ القَتْلى، فقالَ زهيرٌ يمدَحُهما إعجابًا وتقديرًا:

فأَقْسَمْتُ بالبَيْتِ الَّذي طافَ حَوْلَهُ رِجالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وجُرْهُمِ
يَمِينًا لَنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجِدْتُما على كُلِّ حالٍ مِنْ سَحيلٍ ومُبْرَمِ
تَدارَكْتُما عَبْسًا وذُبْيانَ بَعْدَما تَفانَوْا و دَقّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ
فأَصْبَحْتُما مِنْها عَلى خَيْرِ مَوْطِنٍ بَعِيدَيْنِ فيها مِنْ عُقوقٍ ومَأْثَمِ
عَظيمَيْنِ في عُلْيا مَعَدٍّ وغيرِها ومَنْ يَسْتَبِحْ كَنْزًا مِنَ المجْدِ يَعْظُمِ
تُعَفّى الكُلومُ بِالمِئِينَ فأَصْبَحَتْ يُنَجِّمُها مَنْ لَيْسَ فيها بِمُجْرِمِ
يُنَجِّمُها قَوْمٌ لِقَوْمٍ غَرامَةً ولَمْ يُهَرِيقوا بَيْنَهُمْ مِلْءَ مِحْجَمِ

فهو يَرى أنَّ ما فَعَلاهُ مِن إصلاحِ ذاتِ البَيْنِ يُعَدُّ كَنْزًا مِنَ المجدِ والشَّرَفِ بارِزًا لِلنّاسِ ولَكِنْ قَلَّ مَنْ يَسْتَبِيحُهُ ويَحْصُلُ عليه كما فَعَلَ هذانِ الرَّجُلان، بما بَذَلا مِن مالِهِما، مَعَ أنَّهما لَمْ يُلَوِّثا أَيْدِيَهُما ولا سلاحَهُما بشَيْءٍ مِن تلكَ الدِّماءِ الّتي جَرَتْ.

وأَمّا المدحُ للتَّكَسُّبِ فأبرزُ ما ظهَرَ عندَ النّابغةِ والأعشى، وإن كانَ غيرُهما قد تكسّب، على أنَّ النّابغةَ قد يُلْتَمَسُ لَهُ عُذْرٌ في أنَّه كانَ كالسَّفِيرِ لِقَوْمِهِ لدى الملوكِ، فهو حريصٌ على مَصْلَحَتِهم، غيرَ أنّ ما لا عُذْرَ لَهُ فيه هُوَ إِذْلالُهُ نفسَهُ وإراقَتُه ماءَ وَجْهِه أمامَ النُّعمانِ بنِ المنذِرِ حتّى جعلَ مِن نفسِه عَبْدًا أَوْ بَعِيرًا أَجْرَبَ يَتَحاماهُ النّاس، وذلك في اعتذاريّاتِهِ الّتي خَلَطَ فيها الاعتذارَ بالمديح، ويُؤكِّدُ تَكَسُّبَهُ إِلْحاحُهُ في اعتذاريّاتِهِ على ذِكْرِ جُودِ النُّعمانَ عليه ومبالَغَتُهُ في وصفِ ذلك الجُود؛ ولكنَّ استِنْكارَ تَكَسُّبِهِ لا يقلِّل مِنْ قيمةِ شعرِه الفنّيّةِ وتحليقِهِ في التّصويرِ الفَنِّيِّ وإبداعِهِ في معانيهِ وكَشْفِهِ عن مكنونِ نفسِه؛ كقولِهِ[1]:

أَتاني -أَبَيْتَ اللَّعْنَ!- أَنَّكَ لُمْتَني وتلْكَ الَّتي أَهْتَمُّ مِنْها وأَنْصَبُ
فَبِتُّ كَأَنَّ العائِداتِ فَرَشْنَني هَرَاسًا بِهِ يُعْلى فِراشي ويُقْشَبُ

ثُمَّ قال بعدَ اعتذارِه[2]:

---

[1] الهَراسُ: شَجَرٌ كَثِيرُ الشَّوْك. ويُقْشَبُ: يُجَدَّدُ.

[2] السُّورَة: المنْزِلَةُ. والعُتْبَى: الرِّضا؛ ويُعْتِبُ: يُعْطِي الرِّضا.

وإِنَّـــكَ شَـــمْسٌ والمُلـــوكُ كَواكِـــبٌ إِذا طَلَعَـــتْ لَمْ يَبْـــدُ مِـــنْهُنَّ كَوْكَـــبُ
فَـــلا تَتْرُكَنّـــي بالوَعيـــدِ كـــأَنَّني إِلى النّـــاسِ مَطْـــلِيٌّ بِـــهِ القـــارُ أَجْـــرَبُ
أَلَـــمْ تَـــرَ أَنَّ اللهَ أَعْطـــاكَ سُـــورَةً تَـــرى كُـــلَّ مَلْـــكٍ دُونَهـــا يَتَذَبْـــذَبُ
ولَسْـــتَ بِمُسْـــتَبْقٍ أَخًـــا لا تَلُمُّـــهُ عَـــلى شَـــعَثٍ، أَيُّ الرِّجـــالِ الـــمهَذَّبُ؟
فـــإِنْ أَكُ مَظْلومًـــا فعَبْـــدًا ظَلَمْتَـــهُ وإِنْ تَـــكُ ذا عُتْبـــى فَمِثْلُـــكَ يُعْتِـــبُ

فليسَ خافيًا ما في هذه الأبياتِ وغيرها من اعتذاريّاته مِن قدرةٍ فائقةٍ على التّحليقِ في الخيالِ واصطيادِ الصُّوَرِ الطَّريفةِ والمعاني البَديعة.

وإذا كان النّابغةُ قد فَعلَ ذلك بسببِ غَضَبِ النّعمان عليه، فاجتمعَ في نفسِهِ الخوفُ وحُبُّ المالِ والحنينُ إلى العطاءِ فكَثُرَ في شعرهِ الاعتذار، فإنَّ الأعشى لم يُعانِ الخَوْفَ، بل عانَى عاهَةً في بَصَرِهِ رافقَتْهَا شَهْوَةٌ عارِمَةٌ لِلْخَمْرِ والنِّساءِ، وهُما لا يُنالانِ إِلّا بِكَثْرَةِ المالِ، فكانَ اكْتِسابُهُ لَهُ بالشّعرِ، ولهذا كَثُرَتْ في شعرِه ظاهِرَةُ الارتحالِ لأجْلِ المديحِ وكَسْبِ المال؛ وأَفْصَحَ عن ذلك بقولِه:

وطَوَّفـــتُ لِلشِّـــعْرِ آفاقَـــهُ عُـــمانَ وحِمْـــصَ وأُورِيشَـــلِمْ
أَتَيْـــتُ النِّجـــاشِيَّ في أَرْضِـــهِ وأَرْضَ النَّبـــيطِ وأَرْضَ العَجَـــمْ

فَهُوَ سَفِيرُ نفسِهِ وشَهَواتِهَا الّتي يُصَوِّرُها في شعره، ولهذا كانَ يُلِحُّ في مدائحِهِ على كَرَمِ الممدوحِ وعطائِهِ الَّذي لا يُحَدّ، في ضَرْبٍ مِنَ الاسْتِجْداءِ، ولكنَّ ذلك أيضًا لا يُقَلِّلُ مِن قيمةِ شعرِه الفَنِّيَّةِ وبراعَتِهِ، ولَيْسَ نَقْدُ الشِّعْرِ مُحاكَمَةً أَخْلاقيّةً نُدِينُ فيها ما لا يُعْجِبُنا مِن أخلاقِ الشُّعراءِ ومُعْتَقَدِهم، فنَنْفِي الفَنَّ عنه وإِنْ كانَ راقيًا جَمِيلًا، أو نُثْنِي فيها على ما يَرُوقُنَا مِن أخلاقِ الشُّعراءِ ومُعْتَقَدِهم، فنجعل شِعْرَهُمْ مُتَمَيِّزًا وإن كان باردًا هَزِيلًا؛ ولكنّنا في الوقْتِ نَفْسِه نُؤْمِنُ بأَنَّ الشِّعْرَ فنٌّ جَمِيلٌ لَهُ رِسالَةٌ يَنْبَغِي أَلَّا يُرَذِّلَها الشُّعَراءُ.

خامِسًا: قيمة شعر المديح فنّيًّا واجتماعيًّا:

لا شكَّ في أنّ مِنْ رِسالةِ الشِّعر ما نبّه عليهِ الأَوَّلُون، فقد قالَ المظَفَّرُ بنُ الفَضْلِ العَلَوِيُّ في كتابه (نَضْرَة الإِغْرِيض): «قالَ عُمَرُ بنُ الخطّابِ رضي اللهُ عنه: تحفّظوا الأَشْعارَ وطالِعوا الأخبار، فإنّ الشِّعرَ يدعو إلى مَكارِمِ الأَخْلاقِ ويُعَلِّمُ مَحاسِنَ الأعمالِ، ويَبْعَثُ على جَميلِ الأفعالِ، ويَفْتُقُ الفِطْنَةَ، ويَشْحَذُ القَريحَةَ، ويَحْدُو على ابْتِناءِ المناقِبِ وادِّخارِ المكارمِ، ويَنْهَى عنِ الأخلاقِ الدَّنِيئَةِ، ويَزْجُرُ عَنْ مُواقَعَةِ الرِّيَبِ، ويَحُضُّ على مَعالِي الرُّتَبِ؛ وقالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنه: عَلِّمُوا أَوْلادَكُمُ الشِّعْرَ، فإنّهُ يُعَلِّمُهُمْ مَكارِمَ الأخلاقِ؛ وأَوْصَى الرَّشِيدُ الكِسائِيَّ بالأَمِينِ والمأْمُونِ، فكانَ مِنْ جُمْلَةِ وَصِيَّتِه: وَرِّهِما مِنَ الشِّعْرِ، فإنّهُ أَوْفَى أَدَبٍ، يَحُضُّ عَلى مَعالِي الرُّتَبِ».

ومن هنا كان في شعرِ المديحِ تقديمٌ للمِثالِ الحَيِّ للفضيلةِ في الممدوحين، تَحْرِيضًا على تقليدِهم في جليلِ الأعمالِ الّتي يُسْبِغُها عليهم الشُّعراء، وتَحْفِيزًا لِلْهِمَمِ لبلوغِ ذلك المثالِ الَّذي يُصَوِّرُه الشُّعراءُ للرَّجُلِ الكامِلِ الفاضِلِ في عُرْفِ عصرِهم، وهي المهمّةُ الاجتماعيَّةُ الّتي حملَها الشِّعْرُ الرَّفِيعُ على عاتقِهِ على مرّ العصور؛ فإن مكارمَ الأخلاقِ والفضائل الّتي يُعَدِّدُها الشُّعراءُ مُحَبَّبَةٌ إلى نفوسِ النّاس الأَسْوِياء، بِغَضِّ النّظَرِ عنِ الدّافع الَّذي يَحْدُو بالشَّاعِرِ إلى المديحِ، سواءٌ أكان الإعجابَ أو الحبَّ أو الشُّكْرَ أو الطَّمَع.

وإذا وَجَدْنا في شعر المديح وغيره من أَغْراضِ الشِّعرِ مُبالَغَةً فذلكَ لأنَّ الشَّاعِرَ إنّما يقولُ شعرًا، وسبيلُ الشِّعر هيَ سبيلُ كلِّ فَنٍّ في إعمالِ الخيالِ لإبرازِ الجوانبِ المشْرِقَةِ مِنَ اللَّوْحَةِ الّتي يَرْسُمُها، سَواءٌ أكان ذلك بالكلِمَةِ أو الموسيقا أو اللَّوْن، لا يَعْنُونَ بذلك (الكَذِبَ) بالمعنى الأخلاقيّ، بل بمعنى مُخالَفَةِ الواقعِ والمبالغةِ فيه؛ وعندئذٍ نقدّرُ إعجابَنَا بقولِ زهير، ودهشتَنَا من تصويرِه حينَ يجعَلُ صاحبَهُ أشجَعَ مِنَ الأسد:

ولَأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أُسامَةَ إِذْ دُعِيَتْ نَزالِ ولُجَّ في الذُّعْرِ

ونحو هذا ما سبَقَ في مديحِ النّابغةِ واعتذارِه وتصويرِه لمكانةِ النُّعمانِ بين الملوكِ ولشدّةِ كرمِه، وغيرُ ذلك من المبالغاتِ كقولِه في وصف كَرَمِ النُّعمان[1]:

فما الفُراتُ إذا هَبَّ الرِّياحُ لَهُ ... تَرْمي أَواذِيُّهُ العِبْرَينِ بالزَّبَدِ

يُمِدُّهُ كُلُّ وَادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ ... فيهِ رُكامٌ مِنَ اليَنْبُوتِ والخَضَدِ

يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ الملّاحُ مُعْتَصِمًا ... بالخَيْزُرانَةِ بَعْدَ الأَيْنِ والنَّجَدِ

يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نافِلَةٍ ... ولا يَحولُ عَطاءُ اليَوْمِ دُونَ غَدِ

على أنَّ الميل نحوَ الواقعيّةِ الفَنِّيّةِ كان الغالِبَ على شعرِهم، وإنما تأتي أمثالُ هذه المبالغاتِ لتكونَ كالومَضَاتِ الّتي تُنِيْرُ جَوَّ القصيدةِ ولا تُعْشِي الأَبْصارَ بِكَثْرَتِها؛ ولعلَّ في قول زهيرٍ وهو يمدحُ قومَ هَرِمِ بنِ سنانٍ والحارثِ بنِ عَوْفٍ المُرِّيَّيْنِ مثالًا على ذلك[2]:

إذا فَزِعوا طاروا إلى مُسْتَغِيثِهِمْ ... طِوالَ الرِّماحِ لا ضِعافٌ ولا عُزْلُ

بِخَيْلٍ عَلَيْها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ ... جَدِيرونَ يَوْمًا أَنْ يَنالوا فَيَسْتَعْلوا

وإنْ يُقْتَلوا فَيُشْتَفَى بِدِمائِهِمْ ... وكانوا قَدِيمًا مِنْ مَنايا هُمُ القَتْلُ

عَلَيْها أُسودٌ ضارِياتٌ، لَبُوسُهُمْ ... سَوابِغُ بِيضٌ لا تُخَرِّقُها النَّبْلُ

إذا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوانٌ مُضِرَّةٌ ... ضَروسٌ تُهِرُّ النّاسَ أَنْيابُها عُصْلُ

قُضاعِيَّةٌ أَوْ أُخْتُها مُضَرِيّةٌ ... يُحَرَّقُ في حافاتِها الحَطَبُ الْجَزْلُ

هُمُ خَيْرُ حَيٍّ مِنْ مَعَدٍّ عَلِمْتُهُمْ ... لَهُمْ نائِلٌ في قَوْمِهِمْ ولَهُمْ فَضْلُ

---

[1] الأَواذِيُّ: الأَمواج. ومُتْرَع: مَمْلُوء. ولَجِب: لَهُ صَوتٌ شَدِيد. واليَنْبُوتُ: شَجَرٌ. والخَضَدُ: المحَطَّمُ مِنَ الشَّجَر. والأَيْنُ: التَّعَبُ. والنَّجَدُ: الكَرْبُ. والسَّيْبُ: العَطاءُ. والنّافِلَةُ: الزِّيادَةُ.

[2] تُهِرُّ النّاسَ: تُخِيفُهُم. والحَجْرَةُ: السَّنَةُ الشَّدِيدَةُ البَرْد. وقَطِينًا بِها: ساكِنِينَ بها. ويُسْتَخْبَلُوا: يُسْأَلُوا شَيْئًا بِعَيْنِه. وإنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا: إنْ يُقامِرُوا يَخْتَارُوا سِمانَ الإِبِل. والحامِلُ: حامِلُ الدِّياتِ. والحَطِّيّ: الرِّماحُ المنْسُوبَةُ إلى (الخَطِّ) على الخَلِيجِ العَرَبِيّ، وتُعْرَفُ اليَوْمَ بِاسْمِ (القَطِيف). والوَشِيجُ: شجَرُ الرِّماح يَنْبُتُ مُشْتَبِكًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ.

إذا السَّـــنَةُ الشَّـــهْباءُ بالنّـــاس أَجْحَفَـــتْ ... ونـــالَ كِـــرامَ الـــمالِ في الحَجْـــرَةِ الأَكْـــلُ

رَأَيْـــتَ ذَوي الحاجَـــاتِ حَـــوْلَ بُيُـــوتِهِمْ ... قَطِينًـــا بِهـــا، حَتّـــى إذا نَبَـــتَ البَقْـــلُ

هُنالِـــكَ إنْ يُسْـــتَخْبَلوا الـــمالَ يُخْبِلـــوا ... وَإنْ يُسْـــأَلوا يُعْطـــوا، وإنْ يَـــيْسِروا يُغْلـــوا

وفِـــيهِمْ مَقامـــاتٌ حِسَـــانٌ وُجُـــوهُهُمْ ... وأَنْدِيَـــةٌ يَنْتابُهـــا القَـــوْلُ والفِعْـــلُ

عَـــلى مُكْثِـــرِيهِمْ رِزْقُ مَـــنْ يَعْـــتَرِيهِمُ ... وعِنْـــدَ الـــمُقِلِّينَ السَّـــماحَةُ والبَـــذْلُ

وَإنْ جِئْـــتَهُمْ أَلْفَيْـــتَ حَـــوْلَ بُيُـــوتِهِمْ ... مَجـــالِسَ قَـــدْ يُشْـــفَى بِأَحْلامِهـــا الْـــجَهْلُ

وَإنْ قـــامَ فـــيهِمْ حامِـــلٌ قـــالَ قاعِـــدٌ ... رَشَـــدْتَ، فَـــلا غُـــرْمٌ عَلَيْـــكَ ولا خَـــذْلُ

ومـــا يَـــكُ مِـــنْ خَـــيْرٍ أَتَـــوْهُ فـــإنَّما ... تَوارَثَـــهُ آبـــاءُ آبـــائِهِمْ قَبْـــلُ

وهـــلْ يُنْبِـــتُ الـــخَطِّيَّ إلّا وَشـــيجُهُ ... وتُغْـــرَسُ إلّا في مَنابِتِهـــا النَّخْـــلُ؟

وهي أبيات -كما يَظْهَرُ- اجتمعَتْ فيها مَعانٍ كثيرةٌ مِنْ مَعاني المديحِ الّتي ذكَرَها ابن رشيقٍ، فقد ذَكَرَ الشّجاعةَ والنَّجْدَةَ والْجُرْأَةَ؛ وذكَرَ السَّخاءَ والمُرُوءَةَ والكَرَمَ، وهي من العَدْل؛ وذكَرَ الأَحْلامَ وتَجاوُزَ الجَهْلِ وحُسْنَ القَوْلَ والفِعْلِ وهو مِنِ العَقْلِ؛ وذكَرَ احتِمالَ الدِّيَاتِ والتَّعاضُدَ على فِعْلِ الخَيْرِ في ذلك والمُؤَازَرَةَ عَلَيْهِ وتَلْبِيَةَ مَنْ يَقْصِدُهُمْ، وهِيَ مِنَ العِفَّةِ[1].

ولا شكّ في أنّها مَعانٍ راقِيَةٌ حينَ تنتَشِرُ في المجتمع، وما إلْحاحُ الشّاعرِ على إبرازِها وتَصْوِيرِها تَصْوِيرًا جَميلًا إلّا دَعْوَةٌ إلى امتثالِها والاقتداءِ بها.

---

[1] في البَيْتَيْنِ الأَوَّل والثّاني: الشَّجاعَةُ والنَّجْدَةُ والاستعداد للحرب وسُرْعَةُ النَّجدةِ والغَلَبَة. وفي الثّالث حَتّى السّادس: شَرَفُهُم وجُرْأَتُهم وإقدامُهُم وهَيْبَتُهم وشِدَّتُهم في أنفُسِهم وعُدَّتِهم. وفي السّابع حَتَى العاشِر: كَرَمُهُم الفَيّاض في أنفُسِهم وغَيْرِهم، في الشّدّة والخِصْب. وفي الحادِي عشر حتّى السّادِسَ عَشَر: جَمالُ وجُوهِهِم وأقوالِهم وأفعالِهم، وعُمُومُ سَماحَتِهم وفَضْلِهم بين فقرائِهم وأغنيائِهم، وأحْلامهم الّتي يَشْفون بها جَهْلَ الجاهِل، وتَعاونهم وتآزُرهم وتعاضُدهم وتآلُفهم، وفضْلُ آبائِهم وقِدَم أحسابِهم ومَجْدِهِم وحِفْظهم له.

سادسًا: ظَواهِرُ فَنِّيَّةٌ في شِعْرِ المدِيحِ:

إِنَّ أوّلَ ما يَلْفِتُ النَّظَرَ في شعرِ المديحِ أنّه **يَأْتِي على الأغلَبِ في قَصائدَ مُكْتَمِلَةٍ فنّيًّا**، فيها المقدّماتُ الفنّيّةُ مِن وقوفٍ على الأَطلالِ وغَزَلٍ ورِحْلَةِ الظّعائن ورِحْلَةِ الشّاعرِ إلى الممدوح، وهيَ المثالُ الأَكْمَلُ للقصيدةِ الْجَاهليّة؛ وكأنّما كانَ الكَمالُ الَّذي يَبْغِيهِ الشّاعرُ في وصفِ الممدوحِ يَجْعَلُهُ لا يُقَدِّمُ قصيدتَهُ إلّا على نحوٍ مِنَ الكَمالِ عَرَفُوهِ للشِّعْرِ بِمُقَدِّماتِهِ ورِحْلَتِهِ.

وعندَ النُّقّادِ القُدَماءِ تَفسيرٌ نَفْسِيٌّ- اجتماعيٌّ فَنّيٌّ لِلْبَدْءِ بهذه المقدّمات، ذلك التَّفسيرُ الَّذي أَوْرَدَهُ ابنُ قُتَيْبَةَ في مُقدّمةِ كتابِه (الشِّعر والشُّعراء) نَقْلًا عَنْ بعضِ أهلِ الأدَبِ، وهوَ أنَّ ابتداءَ الشّاعرِ بذِكْرِ الدِّيارِ وما يتعلَّقُ بذلكَ لِيَجْعَلَهُ سَبَبًا لِذِكْرِ أَهْلِها الظّاعِنينَ عنها وإظهارِ الوَجْدِ وأَلَمِ الفِراقِ والشَّوْقِ، لِيُمِيلَ نحوَهُ القلوبَ ويَسْتَدْعِي إِصغاءَ الأسماعِ إليه، لِقُرْبِ التَّشْبيبِ مِنَ النُّفوس، ثُمَّ يَرْتَحِلُ في شعرِهِ ويَشْكُو النَّصَبَ والسَّهَرَ وحَرَّ الهَجِيرِ، ويَذْكُرُ إِنْضَاءَ الرّاحِلَةِ، فإذا عَلِمَ أَنَّه قد أَوْجَبَ عَلى مَمْدُوحِهِ حَقَّ الرَّجاءِ وذِمامَ التَّأْمِيلِ بدأَ بالمديح، فَبَعَثَهُ على المكافأَةِ، وهَزَّهُ للسَّماح؛ وهذا التّفسيرُ أَصْدَقُ ما يكون على مقدّماتِ قصيدةِ المديح، ولا سِيَّما عندَ الأَعشى وأضرابِه.

ومِنَ الظّواهرِ الفنّيّةِ في قصائدِ المديح الجاهليّة أنّ **مُعظَمَها منظومٌ على البحورِ الْجَليلةِ**، كالطّويل والبسيطِ والكامل، وحينما يَقترِنُ المديحُ بشَيْءٍ مِن الارتياحِ والنَّشْوَةِ يكونُ للبحرِ الوافرِ نَصِيبٌ من ذلك؛ على أنَّ هذه البحورَ كَثُرَ النَّظْمُ عليها في معظمِ أَغراضِ الشِّعرِ الجاهليّ.

وممّا يُلْحَظُ أنَّ هذا الشّعر بمعانيه وصُوَرِه وألفاظِه **ابنُ بيئتِهِ العربيّة**، وهي ظاهرةٌ عامّةٌ في الشّعرِ الجاهليّ، وليسَ بخارجٍ على هذا ما فيه مِن تصويرٍ لبعضِ المظاهِرِ الحَضَرِيَّةِ في قُصورِ الملوك وأشباهِهِم في الحيرةِ والشَّامِ ونَجْرانَ وغيرها في شعرِ النّابغةِ وحَسّانَ والأَعْشَى، فإنَّ في

العرب الحَضَرَ والبَدْوَ، ولكلِّ بيئةٍ مَعِيشَتُها وأَدواتُها؛ على أنَّ الغالِبَ أنْ يَنْصَرِفَ الشُّعراءُ إلى المعاني الأخلاقيّة والعقليّة والجسديّة الّتي تُصوِّرُ الرَّجُلَ الكامِلَ الرُّجولة.

ومن ذلك مَيْلُ الشُّعراءِ إلى **الصِّدْقِ الفنّيِّ** وما يَقْتَضِيه مِن تصويرٍ ومُبالَغة، وانحرافُهم عَنِ الشَّطَطِ في الخَيالِ المُفْضِي إلى فَسادِ المعاني بالمبالَغاتِ المُفْرِطَةِ، وأدّى ذلك إلى ظاهرةٍ عامّةٍ في الشّعرِ الجاهليّ هي وضوحُ المعاني، ولكنّه ليس وُضوحًا يُفقِدُ الشّعرَ بَهْجَتَهُ وبَرِيقَهُ وجمالَه، بل وضوحًا يَسْمَحُ للنّاقدِ بالنّظر إليه مِن وجوهٍ مختلفةٍ في ألفاظِه وتراكيبه وصُوَرِه ومعانيه؛ وتَعْلُو هذا الشِّعْرَ غِشاوَةٌ رقيقةٌ مِن غَرابةِ بعضِ الألفاظِ عنّا نحن أبناءَ العصورِ المتأخِّرة، ولكنّها كتلك الغِشاوةِ الّتي تَعْلُو الآثارَ العظيمةَ مِن غُبارِ السِّنينَ الَّذي يَزيدُها جَمالًا ويَدُلُّ على عِتْقِها، ويَزيدُ مِن هَيْبَتِها، ويَدعو الخبيرَ إلى الكشفِ عمّا تُكِنُّه مِن مُقَوِّماتِ بقائِها وخُلودِها على مَرِّ العصور.

ومن الظّواهرِ المعنويّة أنَّ شعرَ المديح **انصرفَ معظمُه إلى القِيَمِ الاجتماعيّة** الّتي كانت تستهوي المجتمعَ وتَهُزُّ شعورَ النّاسِ ولا سيّما الشّعراءِ حينما تَبْرُزُ في إنسانٍ ما، فهُمْ يُعَبِّرُون عنها بأشعارٍ خالدةٍ لا تَبْلَى؛ ومِنْ ثَمّ قالَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ رضيَ اللهُ عنه لبعضِ وَلَدِ زُهَيْرٍ: «ما فَعَلَتِ الحُلَلُ الّتي كَساها هَرِمٌ أَباكَ؟ قال: أَبْلَاها الدَّهْرُ؛ فقال عُمَرُ: لكنَّ الحُلَلَ الّتي كَساها أَبُوكَ هَرِمًا لَمْ يُبْلِها الدَّهْر!».

وآخِرُ ما يُلْحَظُ أَنَّ شعرَ المديحِ **ليس بالكثيرِ عندَ الجاهليّينَ** إذا ما قِيسَ بأَغْراضِ الشِّعر الأُخرى، إذا نَظَرْنا إليه نَظْرَةً عامّةً، وإنّما كَثُرَ في أشعارِ بعضِ الشّعراءِ في أَواخِرِ العصر الجاهليّ، كزُهَيْرٍ والأعشى والنّابغةِ وحَسّان، لأسبابٍ اجتماعيّة واقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ مختلفة.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الرّثاء في الشّعر الجاهليّ

تمهيد في المصطلَح:

إنّ النّظرَ في لغة العَرَبِ يدلُّ على أنّهم استعملوا أربعة ألفاظ رئيسيّة للدّلالة على موقف الحيّ من الميت، وهي: الرّثاء، والنّدْب، والتّأبين، والتّعزِّي أو العَزَاء، سواءٌ أكانَ ذلكَ شعرًا أم نثرًا؛ فقد جاءَ في كتب اللّغة:

أ - **رثى فلانٌ فلانًا، يرثيه، رَثْيًا ورِثاءً ومَرْثاةً ومَرْثِيَةً، ورثّاهُ:** إذا بكاه بعدَ مَوْتِه، وإذا مَدَحَهُ بعدَ موتِهِ وبكاه أيضًا، وإذا رَقَّ لَهُ، لأنَّ الميت تخشع له القلوب وتَرِقّ له النّفوس؛ ويُقال أيضًا: **رثأْتُهُ**.

ب - **وندَبَه، نَدْبًا:** إذا بكى عليه وعدَّدَ مَحاسِنَه، وهُوَ مِنَ النَّدْبِ للْجِرَاحِ، لأنَّه احتراقٌ ولَذْعٌ مِنَ الحُزْنِ.

ج - **وأَبَّنَهُ، تأبينًا:** إذا ذكَرَهُ بعدَ موتِهِ بخير، وإذا مَدَحَهُ بعدَ موتِهِ وبكاه؛ وأصلُ التّأبينِ في اللّغة اقتفاءُ الأثَر ومُراقَبَةُ الشَّيْءِ، وقِيل لمادحِ الميتِ (مُؤبِّنٌ) لاتِّباعِهِ آثارَ فَعَالِهِ وصنائِعِه؛ ويُقال أيضًا: **أَبَّلَهُ تأبيلًا**.

د - **وتعزَّى عنه:** إذا تَصبَّرَ وتَسَلَّى عنه بعد مُصيبتِهِ به، وقد عزَّيتُهُ عنه: إذا سلّيتَهُ ودعوتَهُ إلى الصَّبْر؛ والعَزَاءُ: هو الصَّبْرُ والسُّلْوانُ عَنِ الميت؛ وقريبٌ مِنَ التَّعَزِّي (**التَّأَسِّي**)، من قولِهِم: تأسَّى فلانٌ.

والنّظر في هذه الألفاظ وما تدلّ عليه يُبيّن أنَّ (الرّثاء) هو اللَّفظ الْجامِعُ لها، فإنّ البُكاءَ على الميتِ هو أوّلُ مظاهِرَ مَوْقِفِ الحيّ منه، ويَتْبَعُهُ تعديدُ محاسنِهِ وذِكْرُهُ بالخَيْر، ثُمَّ إظهارُ الصَّبْرِ والسُّلوان؛ ومِنْ ثَمّ يُطلَقُ (الرِّثاء) على جميع أَضْرُبِ الشِّعْرِ الَّذي يُقال في الميت، ويُخَصَّص البكاء عليه مَعَ تعديد محاسنِه بتسميةِ (النَّدْب)، ويُخَصَّصُ ذِكْرُ الميت بالخير إِنْ لَمْ يُرافقْهُ البكاء باسم (التّأبين)، ويُخَصَّصُ التَّصَبُّرُ والتَّسَلِّي والتَّأَسِّي بالآخرينَ باسم (التّعزِّي) أو العَزَاء.

أوَّلًا: صِلَةُ الرِّثاء بأغراض الشِّعر الأُخرى:

ما سَبَقَ مِنْ الألفاظ ومعانيها يدلُّ على **صلةٍ وَثيقةٍ بين الرِّثاءِ والمدْح**، مِنْ جِهَةِ تَعْدادِ المحاسِنِ وتتبُّعِ آثارِ الفَعَالِ والصّنائِعِ؛ ولهذا يقولُ قُدامَةُ بنُ جعفر في كتابه (نَقْد الشّعر): «**ليس بين المَرْثِيَةِ والمِدْحَةِ فَصْلٌ إلّا أَنْ يُذْكَرَ في اللّفظ ما يَدُلُّ على أَنَّهُ هالكٌ، مثلُ (كانَ)، و(تَوَلَّى) و(قَضى نَحْبَهُ) وما أَشْبَهَ ذلكَ؛ وهذا ليسَ يَزِيدُ في المعنى ولا يَنْقُصُ منه، لأنَّ تأبينَ الميتِ إنَّما هُوَ بمِثْلِ ما كانَ يُمدَحُ بِهِ في حياتِهِ؛ وقد يُفْعَلُ في التّأبين شَيْءٌ ينفصِلُ بِهِ لفظُهُ عن لفظِ المدح بغيرِ (كان) وما جرى مَجْراها، وهو أن يكونَ الحيُّ وُصِفَ مَثَلًا بالجودِ، فلا يُقال (كانَ جوادًا) ولكن بأنْ يُقالَ: (ذهبَ الْجُود) أو (فَمَنْ لِلْجُودِ بَعْدَه) ومثل: (تَوَلَّى الْجُودُ) وما أَشْبَهَ هذه الأشياء**»؛ وهذه الصّلة الّتي يشير إليها النّقّاد إنّما هي في المعاني المذكورة، لا مِنْ جِهَةِ الدّوافِعِ والشُّعُورِ، فلا ريبَ في أنَّ الإعجاب بالممدوح أو الطَّمَع بما عنده أو الرَّغبَةِ في خَيْرِه غيرُ الوفاءِ للميتِ والحزنِ والْجَزَعِ والتّأسُّف عليه.

ولا تقتصرُ صِلَةُ الرِّثاءِ بأغراضِ الشِّعر على المدح، فإنَّ **صلتَهُ بالوَصفِ** واضحةٌ في تعديدِ المحاسِنِ ووَصْفِ الميتِ في حياتِهِ ومَوْتِهِ وفي أحوالِهِ الأُخْرى، وكذلك **صِلَتُه بالحماسة والفخر والهجاء والحكمة**، فإنَّ كثيرًا مِن المَرَاثي قِيلَتْ على أَثَرِ الحروب والوقائع بين القبائل، فكانتِ الحماسةُ تُخالِطُ الرِّثاءَ بمعانٍ تدعو إلى الأَخْذِ بالثَّأر وتُعَيِّرُ القاعدين عن طلَبِهِ أو الرَّاغبين في المالِ والدِّيَةِ عَنِ الثأر والقَوَد، وما يكون مِن تهديدِ الأعداءِ والسَّخَطِ عليهم وهجائِهِم، وتتخلَّلُ ذلكَ معانٍ كثيرةٌ مِنَ الحكمة والتَّأَسِّي والاعتبارِ بِمَنْ مَضى- أو هلَكَ مِنَ الإنسِ وغيرِهم؛ ولهذا يقولُ ابنُ رَشيق في كتابه (العمدة): «**ومِنْ عادةِ القُدَماءِ أَنْ يَضْرِبُوا الأمثالَ في المراثي بالملوكِ الأَعِزَّةِ والأُمَمِ السّالفةِ، والوُعُولِ المُمْتَنِعَةِ في قُلَلِ الْجِبال، والأُسودِ الخادِرَةِ في الغياض، وبِحُمُرِ الوَحْشِ المُتَصَرِّفةِ بينَ القِفار، والنُّسورِ والعِقْبانِ والحيّاتِ، لِبَأْسِها وطُولِ أعمارِها**»؛ بَلْ إنّ عددًا مِن المَرَاثي ابتدأَها الشُّعراءُ بضُروبٍ مِنَ الحكمة كالَّذي في مراثي لَبِيدِ بنِ رَبيعةَ لأخيهِ ولِمَن مَضَى مِن آبائِهِ وأبناءِ قبيلتِهِ وللنُّعمانِ بنِ المُنْذِر مَلِكِ الحِيرة، وهذا راجِعٌ

إلى طبائعِ الشُّعراءِ ومواقفِهم مِنَ الحياةِ، فإنَّ النّاظِرَ في شعرِ لَبيدٍ وحياتِهِ يجدُ أنَّه كان رجلًا مُتَأَلِّهًا في الْجاهليّةِ مُتَأَمِّلًا في الحياةِ ووُجوهِها.

ثانيًا: دوافع الرّثاء:

أيًّا كانت الصِّلَة بين الرِّثاءِ وغَيْرِه مِن أغراض الشّعر في المعاني فإنَّ الدَّافِعَ إلَيْهِ غَيْرُ الدَّافِعِ إلى ما سِواه، ولا يقتصر الرّثاء على دافعٍ واحدٍ، وإنْ كان الأصلُ فيه هو الحزن على الميت الَّذي قطَعَ الموتُ صِلَتَهُ بالحيّ، فإنّ مِنَ الشّعراء **مَنْ يرثي قريبًا أو صاحبًا حميمًا**، فيكونُ الجَزَعُ والحزنُ والتفجُّعُ أكبَرَ دوافعِهِ، ومنهم **مَنْ يرثي فارسًا مِن الفُرْسانِ** فيكونُ الغَضَبُ والشُّعورُ بفَقْدِ جانبٍ مِنَ القوَّةِ وبالنَّيْلِ مِنْ عِزَّةِ القبيلةِ وامتناعها دافعًا آخَر، ومنهم **مَنْ يرثي سيِّدًا أو شريفًا** ذا فضلٍ فيكونُ الإعجابُ أو الإكبارُ أو الوفاءُ وراءَ رثائِهِ، ومنهم **مَنْ يرثي نفسَهُ** فيكونُ الشُّعور بالضّعفِ أمامَ الموتِ والانكسارُ له والتَّعَلُّقُ بالحياة وبالأهل والولد دافعَهُ إليه؛ فإذا كانَ الموتُ أمرًا جامعًا مَقْضِيًّا على كلِّ نفسٍ فإنَّ دوافِعَ رثائها لا يجمعُها جامعٌ واحدٌ، فلكلِّ قصيدةٍ مِنَ المراثي دافعُها أو دوافعُها الخاصّةُ المتعلِّقة بالمرثيّ وصلةِ الرّاثي به، وطريقةِ مَوْتِهِ، وبالرَّاثي نفسِهِ ونَظْرَتِهِ إلى الحياة والموت، ومَوْقِفِهِ منها ومِنَ المرثيّ ومِن أهلِه؛ فليسَ رثاءُ الأخِ كرثاءِ الصّديق، ولا رثاءُ الأبِ كرثاءِ الزَّوْجِ، ولا رثاءُ القتيل كرثاءِ مَنْ مات حَتْفَ أنفِهِ، ولا رثاء الصّحيح كرثاءِ المريض، ولا رثاء المُسِنِّ كرثاء الشّابّ، ولا رثاء الرَّجُلِ كرثاءِ المرأة، ولا رثاءُ الشّاعِرِ الفارسِ كرثاء الشّاعِرِ غيرِ الفارس، ولا رثاء المُتَأَلِّه كرثاء غير المتألِّه؛ وهكذا يكونُ الاختلافُ كبيرًا لا يجمعُهُ دافع واحد ولا شعورٌ واحد، وإن كانَ الموتُ واحدًا.

ثالثًا: مشهوراتُ المَراثي وأصحابُها:

المَراثي كثيرةٌ؛ إذ لا يَكادُ شاعرٌ فَقَدَ حميمًا أو قريبًا إلّا ولَهُ فيه شعرٌ، سواءٌ أَوَصلَ إلينا ذلكَ أَمْ لم يصل؛ ولكنَّ ما وصلَ إلينا مِن شعر الرِّثاء الْجاهليِّ ليسَ بالقليل، ولهذا خصّص عددٌ

من العلماء كُتُبًا كاملَةً للمَراثي، كالمدائنيّ في كتابه (المَراثي) والمُبَرِّد في كتابه (التّعازي والمَرَاثي) ومحمّد بن العبّاس اليزيديّ في كتابه (المراثي)، وجَعَلَ النُّقَّادُ وأصحابُ الاختياراتِ الشِّعريّةِ مِنَ الرِّثاء بابًا قائمًا بنفسِهِ، وحينَ صَنَّفَ محمّدُ بنُ سَلَّامٍ الْجُمَحِيُّ كتابَهُ (طبقات فُحول الشُّعراء) جعلَ الجاهليّينَ عَشْرَ طبقاتٍ، ولكنَّهُ أَفْرَدَ أصحابَ المَرَاثي بطبَقةٍ خاصَّةٍ غيرِ هذه الطّبقاتِ العَشْرِ، لأنَّه وَجَدَ عَدَدًا مِنَ الشُّعراءِ تَمَيَّزوا في الرِّثاء عَلَى قلّةِ مَنْ تَميّزوا فيه، وفي أشعار هؤلاء صِدْقُ الحسرةِ واللَّوْعَةِ والبُعْدُ عن التَّكَلُّف مَعَ جَوْدَةِ الشِّعْرِ وتعَلُّقِهِ بحقيقةٍ كُبرى مِن حقائقِ الوجودِ قلَّ المُبَرِّزونَ فيها مِنَ الشّعراءِ، فلعلَّهُ لذلك أفرَدهم في طبقةٍ، وإنْ كانَ في الشّعراء الآخَرينَ مِمَّنْ لَمْ يجعَلْهُم في هذه الطَّبَقةِ مَنْ تميّز في الرِّثاء، كأَوْسِ بنِ حَجَرٍ ولَبِيدِ بنِ رَبيعةَ والمُهَلْهِل.

وشعراءُ طبَقَةِ أصحاب المَراثي عندَ ابنِ سلّام هم أربعةُ شُعراء:

- مُتَمِّمُ بنُ نُوَيْرةَ اليَرْبُوعيّ التّميميّ، رثى أخاه مالكًا.
- والخنساءُ بنتُ عَمْرِو بنِ الحارثِ بنِ الشَّريدِ السُّلَميَّة، رثَتْ أَخَوَيْها صَخْرًا ومُعاوية.
- وأعشى باهِلَةَ: عامرُ بنُ الحارثِ بنِ رِياحٍ، رثى المُنْتَشِرَ بنَ وَهْبٍ الباهليَّ.
- وكَعْبُ بنُ سَعْدٍ الغَنَويّ، رثى أَخاه أبا المِغْوار.

ثُمَّ ذَكَرَ شيئًا مِن أخبارهم، وأَنْشَدَ بعضًا مِنْ قصائدهم المشهورة، فقال عن متمِّم: «وبكى متمِّمٌ مالكًا فأكثرَ وأجادَ، والمقدَّمَةُ مِنْهُنَّ [يعني من قصائده] قولُه:

لَعَمْرِي، وما دَهْرِي بِتَأْبِينِ هالِكٍ ... ولا جَزَعٍ مِمَّا أَصابَ وأَوْجَعَا»

وقال عن الخنساء: «وبكَتِ الخنساءُ أَخَوَيْها صَخْرًا ومُعاويةَ، ... فقالت في صخرٍ كلِمَتَها الّتي تقولُ فيها:

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... [كأَنَّهُ عَلَمٌ في رأْسِهِ نارُ]

وقالت في مُعاويةَ:

أَلا مـــا لِعَيْنِـــكِ أَمْ مـــا لَـــهَا لَقَـــدْ أَخْضَـــلَ الـــدَّمْعُ سِرْبالَـــها

وقالت في صَخْرٍ الكلِمةَ الأُخرى:

أَمِـنْ حَـدَثِ الأيّـامِ عَيْنُـكِ تَهْمُـلُ وَتَبْكـي عَـلى صَـخْرٍ، وفي الـدَّهرِ مَـذْهَلُ»

وقال عن أَعْشى باهلةَ: «رثى الـمُنْتَشِرَ بنَ وَهْبٍ الباهليَّ قَتِيلَ بَنِي الحارث، فقال في كلِمَتِه:

لا يَـأْمَنُ النّـاسُ مُمْسـاهُ ومُصْـبَحَهُ مِـنْ كُـلِّ أَوْبٍ، وإنْ لَـمْ يَغْـزُ يُنْتَظَـرُ»

وأنشَدَ منها أبياتًا.

وقال عن كعبِ بنِ سعدٍ الغَنَوِيِّ: «رثى أخاهُ أَبا الـمِغْوارِ بكَلِمَةٍ قال فيها:

فَخَبَّرْتُمـاني أَنَّـما المَـوْتُ بِـالقُرى فَكَيْـفَ وَهَـذي رَوْضَـةٌ وكَثيـبُ»

وأنشدَ منها أبياتًا.

وحينَ تحدَّثَ عن لَبِيدِ بنِ ربيعةَ -وقد وضعَهُ في الطّبَقةِ الثّالثةِ من شعراءِ الْـجاهليّة- نَبَّهَ على تميُّزِه في رثاءِ قَوْمِه وأَخيهِ أَرْبَدَ، وممّا قاله فيه: «**وكان في الجاهليّةِ خَيْرَ شاعرٍ لِقَوْمِهِ، يمدحُهم ويَرْثيهم ويُعَدِّد أيّامَهُم ووقائعَهم وفُرسانَهم**».

وعدّد المبرِّدُ المراثيَ المشهورَة، فقال:

«مَراثي الجاهليّة الـمشهورةُ الـمُسْتَحْسَنةُ الـمُستَجادةُ الـمقدَّمةُ معلومةٌ موسومة، منها قصيدةُ مُتمِّم ابنِ نُوَيْرَةَ في أخيه مالِكٍ، على أنّ سائرَ شعره غيرُ مَذموم، وإنْ تقدَّمَتْهُنَّ العَيْنِيَّةُ الّتي أوّلُها:

لَعَمْـرِي، ومـا دَهْـري بِتَـأْبينِ هالِـكٍ وَلا جَـزَعٍ مِمّـا أَصـابَ فأَوْجَعـا

ومنها قصيدةُ دُرَيْدٍ [يَعْنِي ابنَ الصِّمَّةِ الْـجُشَمِيّ] في أَخيهِ عَبْدِ الله الّتي أوّلُها:

أَرَثَّ جَدِيـدُ الحَبْـلِ مِـنْ أُمِّ مَعْبَـدِ بِعاقِبَـةٍ، وأَخْلَفَـتْ كُـلَّ مَوْعِـدِ

ومنها قصيدةُ كعبِ بنِ سعدٍ الغَنَوِيِّ يَرثي أخاه، وهي الّتي أوّلُها:

تَقــولُ سُــلَيْمى: مــا لِجِسْــمِكَ شــاحِبًا كأَنَّــكَ يَحْميــكَ الــشَّرابَ طَبيــبُ

ومنها قصيدةُ أَعْشى باهِلَةَ أَبِي قُحافَةَ، وهي الّتي أوّلُها:

إنّي أَتَتْنــــي لِســــانٌ لا أُسَرُّ بِهــــا مِــنْ عَلْــوَ لا عَجَــبٌ منهــا ولا سَــخَرُ».

ثمَّ أَشارَ إلى **مَراثي الخنساءِ** في أَخَوَيْها، **ومَراثي أَوْسِ بنِ حَجَرٍ التَّميميّ** في فَضالَةَ بنِ كَلَدَةَ الأسديّ، **ومَراثي لَبِيدٍ** في أخيه أَرْبَدَ، **ومَراثي مُهَلْهِلٍ** في أَخيهِ كُلَيْبٍ.

وقال عن قصيدةِ دُرَيْدٍ بعد ذلك: «**وكان الأصمعيُّ يقدِّمُها جدًّا، وهِيَ أَهْلُ ذاكَ**»، وبالرُّجُوع إلى (الأصمعيّات) يتبيَّنُ أنّ الأصمعيَّ اختارَ قصيدَةَ دُرَيْدٍ وقصيدةَ أَعْشى باهلةَ وقصيدةَ كعب بن سعد وبعض مراثي المهلهل.

فهؤلاءِ أشهرُ شعراء المراثي وأشهر قصائدهم، ومعظم هذه القصائد طِوالٌ، فيها الرّثاء بأشكالِه المختلفةِ مِن بكاءٍ ونَدْبٍ يُعَدِّدُ فيه الشّاعرُ مَحاسِنَ الميت ويَبكيه، وتَعَزٍّ تُرافِقُه الحكمةُ والتَّأَسِّي، وفي بعض المقطَّعاتِ تأبينٌ يكتفي فيه الشّاعرُ بذكر محاسنِ الميت وتَعدادها؛ ويأتي في سياق ذلك معانٍ عدّة تتكرّر في القصائد والمقطعات.

رابِعًا: أمثلةٌ من مراثي الْجاهليّين، وألفاظها الغريبة، ومعانيها:

المثال الأوّل:

لِلْخَنْساءِ، وهي تُماضِرُ بنت عمرِو بنِ الحارث بن الشَّريد، من بني سُلَيْمٍ، وهي من أشهر شواعر العرب، عاشت أكثر عمرها في الْجاهليّة، وأدركت الإسلامَ فأسلمَتْ، وأكثرُ شعرِها في رثاء أَخَوَيْها صخرٍ ومُعاوية، وكانا قد قُتِلا في الْجاهليّة، وكانت تقول الأبياتَ اليَسيرة، فلمّا أُصيبَتْ بأَخِيها صَخْرٍ جَدَّتْ وأَجادَت، وكان معاويةُ أخاها لأبيها وأُمِّها، وصخرٌ كان أخاها لأبيها، وكانت به أَمَسَّ لِفَضلِه ولِشِدَّةِ بِرِّه بها، فقد شاطَرَها مالَهُ مَرَّات؛ وقُتِلَ معاويةُ أوّلًا فثَأَرَ بِهِ صَخْرٌ، ثُمّ قتلَهُ بنو أسد؛ فرثَتْهُ بقصائدَ كثيرة، ومنها قولُها:

١-قَــــذًى بِعَيْنِــــكِ أَمْ بِــــالْعَيْنِ عُــــوّارُ؟ أَمْ أَوْحَشَــتْ أَنْ خَلَــتْ مِــنْ أَهْلِهــا الــدّارُ؟

٢-تَبْكي لِصَخْرٍ هِيَ العَبْرى وقَدْ ثَكِلَتْ ... ودُونَهُ مِنْ جَديدِ التُّرْبِ أَسْتارُ

٣-لا بُدَّ مِنْ مِيتَةٍ في صَرْفِها غِيَرٌ ... والدَّهْرُ في صَرْفِهِ حَوْلٌ وأَطْوارُ

٤-يا صَخْرُ! وَرّادَ ماءٍ قَدْ تَناذَرَهُ ... أَهْلُ المِياهِ، وَما في وِرْدِهِ عارُ

٥-مَشْيَ السَّبَنْتى إِلى هَيْجاءَ مُعْضِلَةٍ ... لَهُ سِلاحانِ أَنْيابٌ وأَظْفارُ

٦-عَبْلُ الذِّراعَيْنِ، قَدْ تُخْشى بَوادِرُهُ ... عِنْدَ الوَقيعَةِ لِلأَقْرانِ هَصَّارُ

٧-فَما عَجولٌ عَلى بَوٍّ تُطيفُ بِهِ ... لَها حَنينانِ: إِعْلانٌ وَإِسْرارُ

٨-تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ حَتَّى إِذا ادَّكَرَتْ ... فَإِنَّما هِيَ إِقْبالٌ وإِدْبارُ

٩-يَوْمًا بِأَوْجَدَ مِنّي حِينَ فارَقَني ... صَخْرٌ، ولِلدَّهْرِ إِحْلاءٌ وإِمْرارُ

١٠-وإِنَّ صَخْرًا لَوالِينا وسَيِّدُنا ... وإِنَّ صَخْرًا إذا نَشْتُو لَنَحَّارُ

١١-وإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... كأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نارُ

١٢-طَلْقُ اليَدَيْنِ بِفِعْلِ الخَيْرِ ذُو فَجَرٍ ... ضَخْمُ الدَّسيعةِ في الأَلْأَواءِ صَبّارُ

١٣-مِثْلُ الرُّدَيْنِيِّ، لَمْ تَنْفَدْ شَبيبَتُهُ ... كأَنَّهُ تَحْتَ طَيِّ البُرْدِ أُسْوارُ

١٤-لِيَبْكِهِ مُقْتِرٌ أَفْنَى حَلُوبَتَهُ ... دَهْرٌ وحالَفَهُ بُؤْسٌ وإِقْتارُ

١٥-ورُفْقَةٌ حارَ هادِيهِمْ بِمَهْلَكَةٍ ... كأَنَّ ظُلْمَتَها في الطُّخْيَةِ القارُ

١٦-لَمْ تَرَهُ جارَةٌ يَمْشي بِساحَتِها ... لِريبَةٍ حِينَ يُخْلي بَيْتَهُ الْجارُ

الألفاظ الغريبة:

١- العُوَّار: أشدُّ الرّمَدِ وأَغْلَبُهُ.

٣- صُروف الدَّهْرِ: حِدْثانُهُ.

٤- تَعْني بالماءِ: الموتَ.

٥- السَّبَنْتَى: الْجَرِيءُ الصَّدْرِ، وهو من صفاتِ النَّمِر.

٦- العَبْل: المُمْتَلئ. والبَوادِرُ: ما يَعْجَلُ بِهِ ويَبْدُرُ منه. والأقران: جَمْعُ القِرْن، وهُوَ المُماثِلُ لكَ في الشّدّةِ والبأْس. والهصّار: الَّذي يَقْهَرُ عدوَّه.

٧- العَجُول: الثَّكْلَى. والبَوُّ: ولدُ النّاقةِ يُنْحَرُ ويُحْشَى تِبْنًا ويُقَرَّبُ لِلنّاقةِ فتَرْأَمُهُ لِتَدِرّ.

٨- تَرتَعُ: تَرْعى. وادّكرَت: تذكَّرَتْ.

٩- أَوْجَدُ: أشدُّ وَجْدًا، و(الوَجْدُ) مِنْ معانيهِ: شدّةُ الحُزْن؛ ويُروَى: بأَوْجَعَ.

١١- تأتمّ: تقتدي. والعَلَمُ: الْجَبَلُ.

١٢- ذو فَجَرٍ: صُحِّفَ في (التعازي والمراثي) إلى (ذو فَخَرٍ)، والصَّواب (ذو فَجَرٍ) أي: ذو عطاءٍ وكَرَمٍ وجُودٍ ومعروف؛ من التّفَجُّر في الخير، وهو الانبعاثُ فيه؛ ومثلُه قول مطرودٍ الخزاعيّ:

يبكينَ شَخصًا طويلَ الباعِ ذا فَجَرٍ ... آبي الهَضِيمَةِ فرّاجَ الْجَلِيلاتِ

وضخم الدَّسيعة: كبيرُ الْجَفْنَةِ، وهي القَصْعَة، كِنايةٌ عنِ الكَرَم. واللّأواء: الشّدّة.

١٣- الرُّدَيْنِيّ: الرُّمْح، منسوبٌ إلى امرأةٍ اسمُها (رُدَيْنَة) كانت تُقَوِّمُ الرّماحَ.

١٤- المُقْتِر: الفقير. والحَلوبَةُ: الدّابَّةُ ذاتُ الحليب.

١٥- المَهْلَكَةُ: الأرض الّتي يَهْلِكُ مَنْ يَضِلُّ فيها. والطُّخْيَة: الغَيْمُ الرَّقيقُ الَّذي يُوارِي النُّجومَ فيتَحَيَّرُ الهادي، واللَّيْلةُ المُظْلِمَة.

المثالُ الثّاني:

لِجَليلةَ بنت مُرَّةَ أو أُخْتِها ماويَّةَ بنت مُرَّة في رثاء زوجِها، وكان كُلَيْب تزوّجَها؛ قال المبرّد: «فقالت ماويَّةُ بنتُ مرّة امرأةُ كُلَيْب، تشتكي ما بها مِن قتلِ أخيها زوجَها، وهي قصيدةٌ محيطةٌ بالمعنى المقصود، جيدةُ الكلامِ بوَفْرَةِ التّشَكّي»:

١-يـــا بْنَـــةَ الأَقْـــوامِ إِنْ شِـــئْتِ فَـــلا ... تَعْجَـــلي بِـــاللَّوْمِ حَـــتَى تَسْـــأَلي

٢-فَـــإِذا أَنْـــتِ تَـــبَيَّنْتِ الّـــتِي ... عِنْـــدَها اللَّـــوْمُ فلُـــومي وَاعْـــذِلي

٣-إِنْ تَكُـــنْ أُخْـــتُ امْـــرِئٍ لِيمَـــتْ عَـــلى ... شَـــفَقٍ مِنْهـــا عَلَيْـــهِ فَافْـــعَلي

٤-قَتْـــلُ جَسّـــاسٍ -عَـــلى وَجْـــدي بـــهِ- ... قـــاطِعٌ ظَهْـــري ومُفْـــنٍ أَجَـــلي

٥-لَـــوْ بِعَيْنِـــي فُـــدِيَتْ عَـــيْنٌ سِـــوى ... أُخْتِهـــا فَـــانْفَقَأَتْ لَمْ أَحْـــفِلِ

٦-تَحْمِـــلُ العَـــيْنُ قَـــذى العَـــيْنِ كَـــما ... تَحْمِـــلُ الأُمُّ قَـــذى مَـــا تَفْـــتَلي

٧-يـــا قَـــتيلًا قَـــوَّضَ الدَّهْـــرُ بـــهِ ... سَـــقْفَ بَيْتَـــيَّ جَميعًـــا مِـــنْ عَـــلِ

٨-هَـــدَمْ البَـــيْتَ الَّـــذي اسْتَحْدَثْتُـــهُ ... وَبَـــدا في هَـــدْمِ بَيْتـــي الأَوَّلِ

٩-ورَمـــاني قَـــتْلُهُ مِـــنْ كَثَـــبٍ ... رِمْيَـــةَ المُصْـــمِي بِـــهِ المُسْتَأْصِـــلِ

١٠-يـــا نِســـائِي دُونَكُـــنَّ اليَـــوْمَ قَـــدْ ... خَصَّـــني الدَّهْـــرُ بِـــرُزْءٍ مُعْـــضِلِ

١١-خَصَّـــني قَـــتْلُ كُلَيْـــبٍ بِـــلَظًى ... مِـــنْ وَرائِـــي وَلَظًـــى مُسْـــتَقْبِلي

١٢-لَيْـــسَ مَـــنْ يَبْكـــي لِيَوْمَـــيْنِ كَمَـــنْ ... إِنَّـــما يَـــبْكي لِيَـــوْمٍ يَـــنْجَلي

١٣-دَرَكُ الثَّـــــائِرِ شَـــــافِيهِ وَفي ... دَرَكِـــي ثَـــأْرِيَ ثُـــكْلُ المُـــثْكِلِ

١٤-لَيْـــتَهُ كـــانَ دَمـــي فاحْـــتَلَبوا ... دَرَكًـــا مِنْـــهُ دَمًـــا مِـــنْ أَكْحَـــلي

١٥-جَـــلَّ عِنْـــدي فِعْـــلُ جَسّـــاسٍ فَيـــا ... حَسْـــرَتا عَـــمّا انْجَلَـــتْ أَوْ تَـــنْجَلي

١٦-إِنَّـــني قاتِلَـــةٌ مَقْتُـــولَةٌ ... وَلَعَـــلَّ اللهَ أَنْ يَرْتـــاحَ لي

الألفاظ الغريبة:

٤- وَجَدَ بِهِ، وَجْدًا: أحبّه.

٥- لم أَحْفِل: لم أُبالِ.

٦- القذى: ما يخرج من النّاقة والشّاة بعد الولادة؛ وقذى العَيْن: ما يقعُ فيها فيؤذيها. وما تَفْتَلِي: ما تَفْطِمُ، تعني الولدَ.

٧- قوّضَه: هدَمَه.

٩- من كَثَب: مِنْ قُرْبٍ وتَمَكُّنٍ. والمُصمِي: الصائد الَّذي يصيب الصَّيْدَ فيقتُلُه مكانَه. والهاء في (به) عائدٌ على (قَتْله)؛ جعلت قتلَ زَوْجِها كالسَّهمِ الَّذي يصيب الرَّمِيّةَ فيقتُلها مكانَها.

١٠- قولها: (دونكنَّ) متعلِّقٌ بالفعل (خصَّني). والرُّزْءُ: المُصيبة. والمُعْضِل: الشّديد المُستَغلِق.

١١- اللَّظى: النّار، أو لَهَبُها الخالص.

١٢- قولها: (يبكي ليومَيْنِ) لا تَعْني يومَيْنِ اثْنَيْنِ، بل يومًا بعدَ يومٍ، كقولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كَرَّةً بعدَ كَرَّةٍ. وتَنْجَلِي: تنكشف.

١٣- الدَّرَك: اللَّحاق، أي لحاقه بثأره. والثُّكْلُ: فقدان الحبيب والولَد. وأثْكَلَها ولدَها: أفْقَدَها إيّاه، فهو مُثْكِلٌ.

١٤- الهاء في قولها: (لَيْتَهُ) عائدٌ على (دَرَك الثّائر) في البيت السّابق. واحتَلَبَ الضَّرْع: استخرج ما فيه من اللَّبَن؛ واستعارته للدَّمِ يُستَخْرَج من الجسم. والأَكْحَل: عِرْقٌ في وَسَطِ الذِّراع.

١٥- جَلَّ: عَظُم. والفاعل في قولها (انجَلَتْ) مستَتِرٌ عائدٌ على (المصيبة) أو ما في معناها، وإن لم يسبق لها ذِكْر، فإنّ السِّياقَ والمعنى دالّان عليها.

١٦- لعلّ اللهَ أنْ يرتاحَ لي: أنْ يُنْقِذَني من البليّة؛ والرَّوحُ: الاستراحة من غمّ القلب.

المثالُ الثّالث:

لأَوسِ بن حَجَرٍ التَّمِيميّ في رثاء سيّدٍ هو فَضَالَةُ بن كَلَدَةَ الأسديّ:

١- أيَّـــتُها النَّفْـــسُ أَجْمِـــلي جَـــزَعا إنَّ الَّـــذي تَحْـــذَرينَ قَـــدْ وَقَعـــا

٢- إنَّ الَّـــذي جَمَّـــعَ السَّـــماحَةَ والنْـــ ـــنَجْدَةَ والـــحَزْمَ والقُـــوى جُمَعـــا

٣- الأَلْـــمَعِيَّ الَّـــذي يَـــظُنُّ لَـــكَ الظْـــ ـــظَنَّ كـــأَنْ قَـــدْ رأى وقَـــدْ سَـــمِعا

٤- والـــمُخْلِفَ الـــمُتْلِفَ الـــمُـــرَزَّأَ لَمْ يُمْـــتَعْ بِضَـــعْفٍ ولَمْ يَمُـــتْ طَبَعـــا

٥- والحـــافِظَ النّـــاسَ في الْـــجُدوبِ إذا لَـــمْ يُـــرْسِلوا تَحْـــتَ عائِـــذٍ رُبَعـــا

٦- وعَـــزَّتِ الشَّـــمْأَلُ الرِّيـــاحَ وقَـــدْ أَمْســـى ضَجـــيعُ الفَتـــاةِ مُلْتَـــفِعا

٧- وشُـــبَّةَ الـــهَيْدَبُ العَبـــامُ مِـــنَ الْـــ أَقْـــوامِ سَـــقْبًا مُجَلَّـــلًا فَرَعـــا

٨- وكانَـــتِ الكاعِـــبُ الـــمُمَنَّعَةُ الْـــ حَسْـــناءُ في زادِ أَهْلِهـــا سَـــبُعا

٩- أَوْدى فَـــلا تَنْفَـــعُ الإِشـــاحَةُ في شَيْءٍ لِـــمَنْ قَـــدْ يُحـــاوِلُ البِـــدَعا

١٠- لِيَبْكِـــكَ الـــشَّرْبُ والـــمُـــدامَةُ والْـــ ـفِـــتْيانُ طُـــرًّا وطـــامِعٌ طَمِعـــا

١١- وذاتُ هِـــدْمٍ بـــالٍ نَواشِرُهَـــا تُصْـــمِتُ بالـــماءِ تَـــوْلَبًا جَـــدِعا

١٢- والـــحَيُّ إِذْ حـــاذَروا الصَّـــباحَ بِأَقْـــ ـــوامٍ وجاشَـــتْ نُفُوسُـــهُمْ جَزَعـــا

الألفاظ الغريبة:

١. الجزَع: نَقيضُ الصَّبر، وأَشدُّ الحُزن الَّذي يَقْطَعُ الإنسان عمّا هو بِصَدَدِه من العمل.

و(أَجْمِلي جَزَعًا) أظْهِري الجَميلَ في جَزَعِك. وقال المبرّد في تعليقه على القصيدة:

«تقول العرب: الحذر أشدُّ مِن الوَقيعة. وإنّما حَقُّ الشّيء المُتَخَوَّفِ أن يكون صاحبه مرتاعًا حَذَرَ وقوعِه، فإذا وقع البأسُ ارتفع ذلك الحذرُ».

٣- الأَلْمَعِيّ: شديد الذّكاء الَّذي إذا لَمَعَ له أوَّلُ الأمْرِ عَرَفَ آخِرَه.

٤- قال المُبَرِّد: «يقول: يُتْلِفُ جُودًا وكرَمًا، ويُخْلِفُ نَجْدَةً واكتسابًا، وقوله: (لم يُمْتَعْ بِضَعْفٍ) أي لم يُقْرَنْ به؛ تقول: (أَمْتَعَ اللهُ بفلانٍ) أي أبقاهُ اللهُ حتّى يتمتّع به أحبّاؤُه ...، وقولُه: (ولم يَمُتْ طَبَعًا) يُقال: طَبِعَ يَطْبَعُ طَبَعًا إذا غلَبَ عليه الحِرْصُ حتّى يُغَطِّيَ على قلبِه؛ ويُقال: طَبِعَ السَّيْفُ إذا رَكِبَهُ الصَّدَأُ حتّى يُغَطِّيَ على صميمِ الحديدة». المُرَزَّأ: الَّذي يُرْزَأُ بمالِهِ كثيرًا، لكَثْرةِ ما يُسأَلُ فيُعطي.

٥- قال المُبَرِّد: «وقوله: (والحافظ النّاسَ في تَحُوطَ) يُقالُ للسَّنَةِ الجَدْبَةِ: تَحُوطُ وقَحُوطُ، بالتّاء والقاف جميعًا. وقولُه: (إذا لم يُرسِلُوا خَلْفَ عائذٍ رُبَعَا) العائذ: الَّتي معَها ولَدُها، فإذا كانتِ السَّنةُ الجَدْبَةُ نَحَرُوا الفِصالَ لِئَلَّا تُضِرَّ بالأمَّهات». والرُّبَع: الَّذي يُولَدُ في الرّبيع.

٦- قال المُبَرِّد: «وقولُه: (وعزَّتِ الشَّمأَلُ الرِّياحَ) يقولُ: غلبَتِ الرِّياحَ، وتلكَ عَلامةُ الجَدْبِ والقَحْطِ؛ لأنَّ الجَنوبَ هيَ الَّتي تأتي بالنَّدى والمطَرِ؛ ويُقال: عَزَّ فلانٌ فلانًا إذا قهَرَهُ... والكَميعُ: الضَّجِيعُ... والمُلْتَفِع: المُلْتَحِف، فهُوَ مُنْقَبِضٌ عنها مشغولٌ بِما يُلاقِي مِنَ القَرِّ».

٧- قال المُبَرِّد: «وقوله: (وشُبِّهَ الهَيْدَبُ العَبامُ) فالهَيْدَبُ: المُسْتَرْخِي، والعَبام: الثَّقيلُ الَّذي لا يكادُ يَنْبَعِث؛ فشُبِّهَ في انقباضِه بالسَّقْبِ، وهُو ولَدُ النّاقةِ إذا كانَ ذَكَرًا، وإن كانَ أُنْثَى فحائِلٌ. (مُلَبَّسًا فَرَعَا) [وهي روايةُ المبرّد، بدلًا من (مُجَلَّلًا فَرَعا)] أَيْ قد جُعِلَ عليهِ جِلْدُ الفَرَعِ، وهُو فَصِيلٌ كانوا يتقرَّبُون بهِ في الجاهليّةِ، فقالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: (لا فَرَعَ) فأبطلَهُ الإسلام».

٨- قال المُبَرِّد: «وقوله: (وكانتِ الكاعِبُ المُمَنَّعةُ الحسناءُ) الكاعبُ: الّتي كَعَبَ ثدياها؛ قال اللهُ جلَّ وعزَّ: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾. والممنَّعة: المحفوظةُ المخبَّأة، كانت كالسَّبُعِ في زادِ أهلِها، وإنّما مِنْ شأْنِها أنْ تُتَرَّفَ وتُنَعَّمَ إذا كانت في هذهِ الصِّفة»؛ أي: صارت تأكلُ أيَّ شيءٍ بعدما كانت تختارُ أطايب الطعام.

٩-أَوْدى: هَلَك. **والإشاحة**: الحَذَر؛ وقال الزَّبيديّ في (تاج العروس): **«والإشاحَةُ الحَذَرُ والخَوْفُ لِمَن حاولَ أَن يَدْفَع الموتَ، ومُحاوَلَتُه دَفْعَه بدْعَةٌ»**.

١١-قال المُبَرِّد: **«وقولُه: (وذاتُ هِدْمٍ) فالأَهْدامُ: خُلْقانُ الثِّيابِ؛ فيَصِفُ الفقيرةَ وأَنَّه كانَ لَها مَلْجًا. وقوله: (عارٍ نَواشِرُها) مِنَ الضُّرِّ والجوعِ والبؤس، والنَّواشِرُ: عروقُ الذِّراع، كما قال زهير:**

ودارٌ لها بالرّقمتَيْنِ كأنّها ... رواجِعُ وَشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ

وقولُه: (تُصْمِتُ بالماءِ) أي تُسَكِّنُ طفلَها بالماء، وتسكّنُه إِذْ لم يَكُن له ثُفْلٌ [الثُّفل: ما لا يُشْرَب، كالحَبِّ والدّقيق والتَّمر]. **والجَدِعُ: السَّيِّئُ الغِذاء...»**. والتَّوْلَبُ: الصَّغير؛ وقيل: هو صغير الحمار الوحشيّ، فاستعارَهُ؛ وقال الجرجانيّ في (أسرار البلاغة): **«فأجرى (التَّوْلَبَ) على ولدِ المرأةِ، وهوَ لولدِ الحِمار في الأصل، وذلك لأنّه يصِفُ حالَ ضُرٍّ وبُؤس، ويَذكُرُ امرأةً بائسةً فقيرةً، والعادةُ في مثلِ ذلكَ الصِّفةُ بأوْصافِ البَهائم، لِيكونَ أبلغَ في سوءِ الحالِ وشدّةِ الاختلال»**.

خامِسًا: المعاني العامّة في الرثاء:

تَشِيعُ في قصائدِ الرّثاءِ ومقَّطعاتِه معانٍ كثيرةٌ غايتُها تصويرُ الفَجِيعةِ وأثرِها في نَفْسِ الشّاعر، وفي نَفْس غيرِه أحيانًا، وما آلَتْ إليه حالُ الشّاعر والنّاس مِن بَعْدِه، وتصويرُ المَرْثِيّ وما كان يحملُه مِن صفاتٍ ومآثرَ ومناقب، ويُرافِقُ ذلكَ معانٍ أُخرى متعلِّقةٌ بهذين الجانبين؛ وفي الإمكان ردُّ ذلك كلِّه إلى مجموعةٍ من المعاني، لعلَّ أبرزَها:

١- وصفُ حُزْنِ الرّاثي والدَّعوةُ للبكاء على المَرْثِيّ:

يَكْثُرُ في مثل هذه الحالِ دَعْوَةُ العَيْنِ للبكاء، أو ذِكْرُ كَثْرَةِ دموعها وغزارتها، ولا سيّما عند النِّساء اللَّواتي يَكْثُرُ في شِعرهِنّ التَّفَجُّع الحارّ، فإنّ النّساء - كما يقول ابنُ رَشيق- **«أَشْجَى**

النّاسِ قلوبًا عند المصيبة، وأشدُّهم جَزَعًا على هالِك، لِمَا ركّبَ اللهُ - عزّ وجلّ- في طبعهنّ مِنَ الخَوَرِ وضَعْفِ العَزيمة»؛ ومِنْ ذلكَ قول أمّ عمرٍو أختِ ربيعةَ بنِ مُكَدِّمٍ الكِنانيّ:

مـا بـالُ عَيْنِـكِ مِنْهـا الـدَّمْعُ مُهْـرَاقٌ ... سَـحًّا، فـلا عـازِبٌ عَنْهـا وَلَا راقِ

أَبْكِـي عـلى هالِـكٍ أَوْدَى فـأَوْرَثَني ... بَعْـدَ التَّفَـرُّقِ حُزْنًـا حَـرُّهُ بـاقِ

ثُمَّ تقول:

فسَـوْفَ أَبْكيـكَ مـا ناحَـتْ مُطَوَّقَـةٌ ... ومـا سَرَيـتُ مـعَ السّـاري عـلى سـاقِ

أَبْكِـي لِذُكْرَتِـهِ عَـبْرَى مُفَجَّعَـةً ... مـا إِنْ يَجِـفُّ لَـها مِـنْ ذُكْـرَةٍ مـاقِي

وقولُ الخنساء:

أَلا مـا لِعَـيْنِكِ أَمْ مـا لَـها ... لَقَـدْ أَخْضَـلَ الـدَّمْعُ سِرْبالَـها

وقولُها:

أَمِـنْ حَـدَثِ الأيّـامِ عَيْنُـكِ تَهْمُـلُ ... وتَبكـي عـلى صَـخْرٍ، وفي الـدَّهْرِ مـذْهَلُ

ومن رائعِ شعرِهنَّ الَّذي يصوّر بكاءَ المرأة وأثرَ فَقْدِها المَرْثِيَّ في حياتها ونَفْسِها ما قالته فاطمةُ بنتُ الأَحْجَمِ الخُزاعيّةُ تَرْثي زَوْجَها:

يـا عَـيْنُ جُـودي عِنْـدَ كُـلِّ صَـباحِ ... جُـودي بأَرْبَعَـةٍ عَـلى (الْجَرّاحِ)

قـد كُنْـتَ لـي جَـبَلًا أَلُـوذُ بِظِلِّـهِ ... فتَرَكْتَنـي أَمْـشي بِـأَجْرَدَ ضـاحِ

قـد كُنْـتُ ذاتَ حَمِيَّـةٍ مـا عِشْـتَ لي ... أَمْـشي الـبِرَازَ، و كُنْـتَ أَنْـتَ جَنـاحي

فاليَـوْمَ أَخْضَـعُ لِلـذَّليلِ، وأَتَّقـي ... مِـنْهُ، وأَدْفَـعُ ظالِـمي بِالـرّاحِ

وإذا دَعَـتْ قُمْـرِيَّةٌ شَـجَنًا لَـها ... يَوْمًـا عـلى فَـنَنٍ دَعَـوْتُ صَـباحي

وأَغُـضُّ مِـنْ بَـصَري، وأَعْلَـمُ أَنَّـهُ ... قَـدْ بـانَ حَـدُّ فَـوارِسي ورِمـاحي

وفي ذلك تعبيرٌ مُؤثِّرٌ عن قلقِ هذه المرأةِ وخوفِها وشعورِها بالفراغِ القاتلِ الَّذي تركَهُ زوجُها بعد موتِه، فتغيّرَتْ حياتُها من حالٍ إلى حالٍ؛ وذكَرَ القاليُّ أنَّ ابنَ دُرَيْدٍ أَخْبَرَهُ أنَّ أُمَّ المؤمنينَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها تَمَثَّلَتْ بهذهِ الأبياتِ بعدَ وفاةِ النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم.

ولكنَّ الرجالَ -وإنْ كانَ الغالبَ عليهم التَّماسُكُ وإيثارُ الظُّهورِ بالحَزْمِ والبُعْدِ عنِ الاسْتِكانَةِ- لا يخلو شِعْرُهم أحيانًا مِنَ الجَزَعِ إذا كانت صِلَةُ الشّاعرِ شديدةً بالمَرْثِيّ، أو كان المرثيُّ ذا فضلٍ كبيرٍ عليه وعلى مَنْ حَوْلَه؛ وذلك كقولِ مَطْرُودِ بنِ كَعْبٍ الخُزاعيِّ يَرْثي عبدَ المُطَّلب وبَني عبدِ مَنافٍ جميعًا، وكان مَطْرودٌ قد لَجَأَ إلى عبدِ المُطّلِبِ فحَماهُ وأحْسَنَ إليه:

يا عَيْنُ جُودي وأَذري الدَّمْعَ واحْتَفِلي ... وابْكي حَبِيسَةَ نَفْسي في المُلِمّاتِ

وابْكي على كُلِّ فَيّاضٍ أَخي حَسَبٍ ... ضَخْمِ الدَّسيعَةِ وَهّابِ الْجَزيلاتِ

٢- تصويرُ البَواكِي في المَآتِم:

وكأنّ الشّاعرَ يستعينُ ببكاءِ النِّساءِ في رثاءِ صاحبِهِ بعدَ أنْ دعا عينَه للبكاء عليه؛ وبعض الشُّعراء لا يُظْهِرُ بكاءَه، ولكنَّه يعوّضُ ذلك بوَصْفِ مَآتِمِ النِّساءِ وقد تجمّعْنَ للنُّواحِ، يَبْكِينَ وهنّ حاسراتٌ، ويَفْعَلْنَ ما كانت تفعلُه النِّساءُ في الجاهليَّة ممّا نهى الإسلامُ عنه، مِن لَطْمِ الوُجوهِ والصُّدورِ وخَمْشِها وضَرْبِها بالنّعالِ والجلودِ ونَتْفِ الشَّعَرِ أو حَلْقِهِ ونحوِ ذلك؛ ومِن هذا قولُ الرَّبيعِ بنِ زيادٍ العَبْسِيّ يَرثي مالكَ بنَ زُهَيْرٍ العبسيّ:

مَنْ كانَ مَسْرورًا بِمَقْتَلِ مالِكٍ ... فَلْيَأْتِ سَاحَتَنا بِوَجْهٍ نَهارِ

يَجِدِ النِّساءَ حَواسِرًا يَنْدُبْنَهُ ... يَلْطُمْنَ أَوْجُهَهُنَّ بالأَسْحارِ

قَدْ كُنَّ يَخْبَأْنَ الوُجوهَ تَسَتُّرًا ... فاليَوْمَ قَدْ أُبْرِزْنَ لِلنُّظّارِ

يَضْرِبْنَ حُرَّ وُجوهِهِنَّ عَلى فتًى ... عَفٍّ الشَّمائِلِ طَيِّبِ الأَخْبارِ

٣- استعظامُ الفَجِيعَةِ بالميتِ وإِكْبارُ شأنِهِ والتَّعَجُّبُ مِن ذَهابِ مِثْلِه:

يَظهرُ ذلك حينَ يتعجّبُ الشَّاعِرُ مِن أنَّ مَظاهِرَ الطّبيعة لا تزالُ على حالِها بعدَ موتِ المَرْثِيّ؛ وعَدَّ المبرِّدُ مِنْ عجيبِ ما قيلَ في ذلك قول النّابغةِ في حِصْنِ بنِ حُذَيْفَةَ الفَزارِيِّ الذُّبيانيّ[1]:

يَقُولُونَ: حِصْنٌ، ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ وكيفَ بِحِصْنٍ، والْجِبالُ جُنوحُ
ولَمْ تَلْفِظِ المَوْتى القُبورُ، ولَمْ تَزُلْ نُجومُ السَّماءِ، والأَدِيمُ صَحيحُ
فَعَمّا قَليلٍ، ثُمَّ جاءَ نَعِيُّهُ فَظَلَّ نَدِيُّ الحَيِّ وَهْوَ يَنُوحُ

ومِن ذلك قولُ أَوْسِ بنِ حَجَرٍ:

أَلَمْ تُكْسَفِ الشَّمْسُ والبَدْرُ والْـ ـكَواكِبُ لِلْجَبَلِ الواجِبِ
لِفَقْدِ فَضالَةَ لا تَسْتَوي الْـ ـفُقودُ ولا خَلَّةُ الذّاهِبِ

فهو يَعْجَبُ مِن ألّا تُكْسَفَ الشَّمسُ ولا يُخْسَفَ البَدْرُ ولا تَغِيبَ الكواكبُ لِسُقوطِ هذا الرَّجُلِ الشّبيهِ بالْجَبَلِ في عِظَمِه، وذلك على اعتقادِ الْجاهليّين بأنّ الشّمسَ والقمرَ لا يُكْسَفانِ إلّا لِمَوتِ عظيمٍ، فلا يَسْتَوِي فَقْدُ غَيْرِه وفَقْدُه، وهو الَّذي تَرَكَ خَلَّةً لا يَسُدُّها سِوَاه؛ ثُمَّ راحَ أَوْسٌ يُعَدِّدُ مناقبَهُ الكثيرة.

٤- تَعْدادُ مَناقِبِ الميتِ ومحاسِنِه:

لا يَخْلُو من هذا مُعْظَمُ رثائهم، إذ **يُعَدِّدونَ ما كان يتّصفُ به المرثيُّ مِن شجاعةٍ ونجدةٍ وحَمِيَّةٍ ومجدٍ وشَرَفٍ وكَرَمٍ وسَخاءٍ وعقْلٍ وعِفَّةٍ ونحوِ ذلك مِن صفاتِ الفتوَّةِ والرُّجولة، ويَنْفُونَ عنه كلَّ صفةٍ تَشِينُهُ، وكأنَّ الرّاثيَ يُصَوِّرُ بذلكَ الرَّجُلَ الكامِلَ المِثالَ**؛ ويأتي ذلك في الغالبِ بَعْدَ

---

[1] قال صاحبُ (الحُلَل في شرح أبيات الجُمَل) وقد نَسَبَ البيتَين الأَوَّلَيْنِ لِزُهَيْر: «أَرادَ أَنَّهم يقولون: (ماتَ حِصْنٌ)، ثمَّ يَسْتَعْظِمُون أن يَنْطِقُوا بذلك، ويقولون: كيفَ يَجُوزُ أن يَمُوتَ والجِبالُ لَمْ تُنْسَفْ، والنّجوم لم تنكَدِر، والقبورُ لم تُخْرِجْ موتاها، وجِرْمُ العالَمِ صَحيحٌ لَمْ يَحْدُثْ فيهِ حادِث؟». وقولُه: (والجبال جُنُوح) أي راسِخَةٌ مُستَقِرَّة. والنَّعِيُّ: الَّذي يأتي بخَبَرِ الموت. والنَّديُّ: مَجْلِسُ القَوْمِ الَّذي يجتمعون فيه، والقَومُ المُجتَمِعُونَ أيضًا، يُطْلَق على المكان وعلى أهلِه؛ وقد نَدا القَومُ وانتَدَوْا وتَنادَوْا إذا اجتَمَعُوا.

البُكاءِ أو الدَّعْوَةِ إلى البُكاءِ أو استعظامِ الموتِ، حتّى كأنّ الشَّاعِرَ منهم -كما يقولُ المبرِّد- يقدِّمُ بذلكَ «**اعتذارًا مِنْ إفْراطِ التَّفَجُّعِ باستحقاقِ المَرْثِيِّ**» لهذا الرّثاءِ والبُكاء؛ ومن ذلك ما جاءَ من أبيات أَوْسٍ بعدَ البَيْتَيْنِ السّابقَيْنِ، والشّواهدُ على ذلك كثيرةٌ فيما سبقَ من القصائدِ، ولكنَّ أبرَز ما يظهر ذلكَ في رائيّة أَعشى باهلةَ، فقد أكثرَ فيها مِنْ نَفْيِ ما يُسِيْءُ إلى أخيه، ووصَفِهِ بما يَحْسُنُ من الصِّفات، ومثالٌ آخرٌ على ذلكَ ما جاءَ في رثاءِ الخِرْنِقِ بنتِ هِفّانَ بنِ بَدْرٍ تَرْثي زَوْجَها وولدَها وأَخَوَيْهِ لأَبيه:

لا يَبْعَدَنْ قَوْمي الَّذينَ هُمُ ... سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ

النّازِلونَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطَّيِّبونَ مَعاقِدَ الأُزُرِ

إِنْ يَشْرَبوا يَهَبوا وإِنْ يَذَروا ... يَتَواعَظوا عَنْ مَنْطِقِ الهُجْرِ

قَوْمٌ إذا رَكِبوا سَمِعْتَ لَهُمْ ... لَغَطًا مِنَ التَّأْييهِ والزَّجْرِ

والخالِطينَ نَحِيتَهُمْ بنُضارِهِمْ ... وذَوِي الغِنى مِنْهُمْ بِذي الفَقْرِ

هَذا ثَنائي ما بَقِيتُ عَلَيْهِمُ ... فَإِذا هَلَكْتُ أَجَنَّني قَبْري

ولولا البَيْتُ الأوّلُ لَاشْتَبَهَتْ سائرُ الأَبياتِ بقصائدِ المديح، حتّى يَصِحّ فيها قَوْلُ قُدَامَةَ بنِ جعفرٍ في حديثِه السّابقِ عن الفرْقِ بينَ الرِّثاء والمديح.

٥- الرّغبةُ في تَفْدِيَةِ المَرْثِيّ:

هذا معنًى قليلُ الورود في المراثي الجاهليّة، ومَرَدُّ ذلك إلى أنَّ الشّاعرَ الجاهليَّ واقعيٌّ في مِثْلِ هذه الحال، يعلَمُ أنَّ تَفْدِيَةَ الميتِ لا تُقَدِّمُ شيئًا ولا تؤخّر، فإنَّ القضاءَ إذَا حُمَّ فإنَّه لا مَردَّ له؛ ولذلك يُعْقِبُ بعضُ مَنْ يُفَدِّي المرثيَّ بالإقرارِ والخضوعِ لهذا القدَرِ المَحْتُوم؛ كقولِ أمِّ عَمْرٍو أُخْتِ رَبيعةَ بنِ مُكَدِّم:

لَوْ كانَ يَرْجِعُ مَيْتًا وَجْدُ ذي رَحِمٍ ... أَبْقى أَخي سالِمًا وَجدِي وإِشفاقِي

أَوْ كانَ يُفْدى لَكانَ الأَهْلُ كُلُّهُمُ ... وما أُثَمِّنُ مِنْ مالٍ لَهُ واقِ

لَكِـنْ سِـهامُ المَنايـا مَـنْ نُصِـبْنَ لَـهُ لَمْ يُنْجِـهِ طِـبٌّ ذِي طِـبٍّ ولا راقِ

ومِـمّن فدَّى الـمَرْثيَّ كَعْبُ بنُ سَعْدٍ الغَنَوِيُّ في قولِه:

فَلَـوْ كانَـتِ المَـوْتى تُبـاعُ اشْـتَرَيْتُهُ بِـما لَـمْ تَكُـنْ عَنْـهُ النُّفـوسُ تَطيـبُ

بِعَيْنَـيَّ أَوْ كِلْـتا يَـدَيَّ، وقيـلَ لي: (هُـو الغـانِمُ الْـجَذْلانُ) حـينَ يَـؤوبُ

فـإِنْ تَكُـنِ الأَيّـامُ أَحْسَـنَّ مَـرَّةً إِلَيَّ فقَـدْ عـادَتْ لَـهُنَّ ذُنـوبُ

ولأنَّ هذه الرَّغبَةَ غَيْرُ مُمكِنَةٍ استعمل الشُّعراءُ حرفَ الشرطِ (لَوْ) وهو حرفُ امتناعٍ لِامتناعٍ في تعريفِ النُّحاةِ، ويَحْمِلُ مَعْنَى التَّمَنِّي عندَ أصحابِ المعاني، وفي ذلكَ من الدَّلالةِ على الحَسْرَةِ على الميتِ والانكسارِ والخضوعِ لِقَدَرِ الموْتِ ما لا يَخْفَى.

٦- الدُّعاءُ لِلْميت:

إذا كانت تفديَةُ المرثيِّ رغبةً غَيْرَ ممكنةِ التَّحقيقِ فإنَّ الشّاعِرَ الْجَاهليَّ لَجَأَ إلى شيْءٍ آخَرَ كانَ قادرًا عليه، وهو الدُّعاءُ للميت؛ ويَكْثُرُ في هذه الحال دعاؤُهم بـ(أَلَّا يَبْعَدَ) وبـ(أَلَّا يُبْعِدَه اللهُ) وبأنْ (يُسَلِّمَ) على الميتِ أو على قبرِه، وبأنْ يَجُودَ الغمامُ على قبرِه و يَسْقِيَهُ، وكأنَّما هي رغبةٌ في إحياءِ قبرِه بالنّباتِ إذْ لا أمَلَ في حياةِ مَنْ حَجَبَتْهُ الصَّفائِحُ والتّراب، كما كان الشّاعرُ يَدعُو بالسُّقْيا لِدِيارِ الأحبَّةِ بعد أَنْ يَحْجُبَهُم عنه النَّأْيُ، فالشّاعِرُ في كِلْتا الحالَيْنِ يَشْعُرُ بِحَرارةِ الفِراقِ وشدّتِه؛ ومن أمثلةِ دعائِهم للميتِ بـألَّا يَبْعَدَ أو بـألَّا يُبعِدَه اللهُ قولُ أُمِّ عَمْرٍو أختِ ربيعةَ بنِ مُكَدِّم:

فَاذْهَـبْ فَـلا يُبْعِـدَنْكَ اللهُ مِـنْ رَجُـلٍ لاقـى الّتـي كُـلُّ حَـيٍّ مِثْلَهـا لاقِ

وقولُ الخِرْنِق:

لا يَبْعَـدَنْ قَـوْمي الَّـذينَ هُـمُ سُـمُّ العُـداةِ وآفَـةُ الْـجُزُرِ

وجَمَعَ حاطِبُ بنُ قيسٍ الأَوْسيّ في رثاءِ عَمْرِو بنِ حُمَمَةَ الدَّوْسِيِّ بينَ السَّلامِ على قَبْرِهِ والدُّعاء له بأن يسقيَهُ القَطْرُ وبألّا يُبْعِدَهُ اللهُ، فقال[1]:

سَلامٌ على القَبْرِ الَّذي ضَمَّ أَعْظُمًا ... تَحومُ المَعالي حَوْلَهُ فَتُسَلِّمُ
سَلامٌ عليْهِ كُلَّما ذَرَّ شارِقٌ ... وما امْتَدَّ قِطْعٌ مِنْ دُجى اللَّيْلِ مُظْلِمُ
فيا قَبْرَ عَمْرِو جادَ أَرْضًا تَعَطَّفَتْ ... عليْكَ مُلِثٌّ دائِمُ القَطْرِ مُرْزِمُ

ثمّ قال:

فَلَوْ وَأَلَتْ مِنْ سَطْوَةِ المَوْتِ مُهْجَةٌ ... لَكُنْتَ، ولكِنَّ الرَّدى لا يُثَمْثِمُ
فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ حَيًّا ومَيِّتًا ... فقدْ كنْتَ نُورَ الخَطْبِ والخَطْبُ مُظْلِمُ

فالفَقْدُ هُوَ فَقْدُ الإنسانِ للإنسانِ، وما المرورُ بالدِّيارِ أو القبورِ والدُّعاءُ بالسُّقْيا لها إلّا تعلُّقٌ بِمَنْ حِيلَ بينَ الإنسانِ وبَيْنَهُ بالفِرَاقِ والبُعْدِ أو بالموْت؛ ولا نَنْسَيَنْ أَنَّ الشّاعِرَ المُحِبَّ كثيرًا ما كانَ يَبْكي حينَ وقوفِهِ على ديارِ الأحبَّة كما يبكي مَن يقفُ على قبرٍ لِيَرْثِيَ فَقِيدًا.

ولا يقتصِرُ دعاؤُهم على السُّقيا وحدَها، فإنّ منهم مَنْ يدعو بالبَرَكةِ، ومنهم مَن يدعو بألّا يَزالَ القَبْرُ لَهُ أَرَجٌ مِنَ المِسْكِ والرَّيْحانِ وأن يظلَّ محفوفًا بالظِّلال، وأمثالِ ذلك.

٧- التّعزّي والتأسّي:

يتكرّر في هذا المعنى التّصبُّرُ والتّجلُّدُ الممزوجُ بالألمِ على الفقيدِ الَّذي لا يُنْسى، مع التَّفكُّرِ في مصيرِ كلِّ حيّ، وأنَّ الموتَ وِرْدٌ لا بُدَّ منه، وسبيلٌ لا بدَّ من سلوكِها، مع التّأسِّي بالآخَرينَ مِمَّنْ أُصِيبوا بأهلِهم؛ وكثيرًا ما يستحضِرُ الرّاثي مُعادِلًا لَهُ مِنَ الحيوان يتأسّى بِهِ أو يشارِكُهُ في حزنِهِ كالحمامِ أو النّاقةِ أو غير ذلك ممَّا يُذَكِّرُ الرّاثي بفقيدِه ويجدِّدُ لَهُ حُزْنَهُ مِنْ جِهَةٍ، ويكونُ لَهُ عِبْرَةً ومُذكِّرًا بأنَّ الموتَ قضاءٌ لا مَوْئِلَ منه من جهةٍ أُخرى.

---

[1] كلّما ذَرَّ شارِق: كلّما طلَعَتِ الشَّمْس، والشّارِقُ: الشّمسُ، أَو قَرْنُها. والقِطْعُ: الطّائفة من اللّيْل. والمُلِثُّ: الدّائمُ المُقِيم. ومُرْزِم: مُصَوِّت بالرَّعْد. ولا يُثَمْثِم: لا يُبْطِئ.

وتتجاذبُ الرّاثيَ في مثل هذه الحالِ **نَزْعَةٌ عقليّةٌ** تحاولُ انتشالَهُ مِن حَمْأةِ الحُزْنِ واستغراقِهِ فيه، **ونَزْعَةٌ عاطفيّةٌ** تَشدّه إلى تلك الحمأة ليكتويَ بِحَرِّها؛ وقد مرَّ بعضُ ذلكَ التّنازعِ حينَ يدعُو أحدُهم بألّا يَبْعَدَ صاحِبهُ، ولكنَّه يَعْطِفُ على ذلكَ بأنَّ الحتوفَ مَوَارِدُ لا مَصْرِفَ عنها ولا مَوْئِلَ، وبأنَّها سبيلٌ مَسلوكة، وبأنَّ كلَّ حيٍّ لاقيها.

ومن ذلك قولُ الخنساء:

أَلا يا صَخْرُ لا أَنْساكَ حَتّى ... أُفارِقَ مُهْجَتي ويُشَقَّ رَمْسي
ولَوْلَا كَثْرَةُ الباكِينَ حَوْلي ... عَلى إِخْوانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسي
ولكنْ لا أَزالُ أَرى عَجولًا ... ونائِحَةً تَنوحُ لِيَوْمِ نَحْسِ
هُما كِلْتاهُما تَبْكي أَخاها ... عَشِيَّةَ رُزْئِهِ أَوْ غِبَّ أَمْسِ
وما يَبْكينَ مِثْلَ أَخي ولكِنْ ... أُعَزّي النَّفْسَ عَنْهُ بالتَّأَسّي

فالخنساء تتأسّى بغيرها وإن كانت لا تنسى أخاها.

وفي مثلِ هذهِ الحال يظهر تجلُّدُ الرّجالِ أشدّ مِن النساءِ، ولهذا يبدأُ أوسُ بنُ حَجَرٍ قصيدتَهُ بقوله:

أَيَّتُها النَّفْسُ أَجْمِلي جَزَعا ... إنَّ الَّذي تَحْذَرينَ قَدْ وَقَعا

على أنّهُ ينبغي ألّا يُنْسَى أَثَرُ الصِّلَةِ بين الرّاثي والمرثيّ في مثل هذهِ الحال، فليستِ الخنساءُ الّتي تَرثي أخاها كأوسٍ الَّذي يَرْثِي رجلًا شريفًا ليسَ من قبيلته؛ ولكنْ لو أخَذْنا مثالًا آخَرَ لوجَدْنَا التجلّد واضحًا عندَ الرَّجُلِ ولو كان المرثيُّ أخاه، فهذا عَمْرُو بنُ مَعْدِيكَرِبَ يقول في رثاءِ أخيهِ (زَنْدٍ):

كَمْ مِنْ أَخٍ لي صالِحٍ ... بَوَّأْتُهُ بِيَدَيَّ لَحْدا
ما إِنْ هَلَكْتُ لِفَقْدِهِ ... لَيْسَ البُكاءُ يَرُدُّ (زَنْدا)
أَلْبَسْتُهُ أَثْوابَهُ ... وخُلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتُ جَلْدا

٨- الحكمة:

يَكْثُرُ بُروزُ الحِكمة في المَراثي الطِّوال ولا سِيَّما تلك الّتي قالَها شُعراءُ عُرِفوا بنزعَتِهِمُ العقليّة أو بتألُّهِهِمْ، مثلُ لَبيدِ بنِ رَبيعةَ، ولكنْ يَنْدُرُ أنْ تَخْلُوَ معاني المراثي مِنْ أَثَرِ الحكمةِ ولو بِأنْ يُلِمَّ بها الرّاثي إلمامًا، وقد مرَّتْ أمثلةٌ على ذلك فيما سبق؛ غيرَ أنَّ عُمْقَ الحكمة النابعةِ مِنَ التفكُّر في الحياة والموت والأيّام وصروفِها تَظْهَرُ أكثرَ ما تظهرُ في شعرِ لبيدٍ وأمثالِه، وفي أشعارِ مَنْ رَثَوْا أنفسَهُم؛ كقول يزيدَ بنِ خَذّاقٍ العبديِّ:

هَلْ لِلْفَتى مِنْ بَناتِ الدَّهْرِ مِنْ واقِ أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمامِ المَوْتِ مِنْ راقِ

وهُوَ سؤال استنكاريٌّ معناهُ النّفْيُ؛ ثمّ قال بعدَما صوَّرَ حالَهُ وقد هَيَّأَهُ النّاسُ وحمَلُوه إلى قبرِه:

هَوِّنْ عَلَيْكَ ولا تُولَعْ بإشْفاقِ فَإنَّما مالُنا لِلْوارِثِ الباقِي

وأمّا لَبيدٌ فقد ظهرتِ الحكمةُ كثيفةً في مطالع مراثيه وغيرِها، كقصيدتِه في رثاء النُّعمانِ بنِ المُنْذِرِ الّتي يقول في أوّلها:

أَلا تَسْأَلانِ المَرْءَ ماذَا يُحاوِلُ أَنَحْبٌ فَيُقْضَى أَمْ ضَلالٌ وباطِلُ
حَبائِلُهُ مَبْثُوثَةٌ بِسَبيلِهِ ويَفْنى إذا ما أَخْطَأَتْهُ الحَبائِلُ
إذا المَرْءُ أَسْرى لَيْلَةً ظَنَّ أَنَّهُ قَضى عَمَلًا، والمَرْءُ ما عاشَ عامِلُ
فَقُولا لَهُ إنْ كانَ يَقْسِمُ أَمْرَهُ: أَلَمّا يَعِظْكَ الدَّهْرُ؟ أُمُّكَ هابِلُ!

ويسترسِلُ في مثلِ هذه الحكمةِ إلى أحَدَ عَشَرَ بَيْتًا مِن القصيدة، ثُمَّ يَرْثي النُّعمانَ، ولكنَّه يعودُ بعدَ ذلك ليستنبِطَ العِبْرَةَ مِن مَقْتَلِه ومِنْ تَذَكُّرِ مَنْ مَضى مِنَ الملوكِ إلى آخِرِ القَصيدة.

٩- التّحريضُ على الثّأر، أو التّهديدُ والوَعيدُ للأعداء، أو التّشَفّي بأخذ الثّأر:

هذا خاصٌّ ببعضِ القصائدِ الّتي يُرثَى فيها قَتِيلٌ سقطَ في معركة؛ كقول دُرَيْدِ بنِ الصِّمَّةِ يُهَدِّدُ قَتَلَةَ أخيه في آخرها:

فـإنْ تُمْكِـنِ الأيّـامُ والـدَّهرُ تَعْلَمـوا بَنـي قـارِبٍ أنّـا غِضـابٌ لِـ(مَعْبَدِ)

ولم يتجاوزْ هذا البَيْتَ؛ غيرَ أنَّ بعضَ المقاطع مِن قصائِدِ الرّثاء تتجاوزُ ذلك حتّى تتحوَّلَ تلك المقاطعُ إلى بابٍ مِن أبوابِ الفَخْرِ أو الهجاءِ، فمِثْلُ هذا أَوْلَى أنْ يُدْرَجَ في بابِهِ ويُدْرَسَ مَعَ أشباهِهِ، ويَبْقَى سائرُ القصيدةِ المتعلّقُ بالرّثاءِ في بابِهِ؛ فقولُ مُهَلْهِلٍ في قصيدةٍ رثى بها أخاه كُلَيْبًا[1]:

فَلَـوْ نُـبِّشَ المَقـابِرَ عَـنْ كُلَيْـبٍ فَيُخْـبَرَ بـ(الذَّنائِبِ) أيُّ زِيـرِ

بِيَـوْمِ الشَّعْثَمَـيْنِ لَـقَرَّ عَيْنًـا وكَيْـفَ لِقـاءُ مَـنْ تَحْـتَ القُبـورِ؟

وإنّي قـد تَرَكْـتُ بِـ(وارِداتٍ) بُجَـيْرًا في دَمٍ مِثْـلِ العَبـيرِ

يَنُـوءُ بِصَـدْرِهِ والـرُّمْحُ فيـهِ ويَخْلِجُـهُ خِـدَبٌّ كَـالبَعيرِ

هَتَكْـتُ بِـهِ بُيـوتَ بَنـي عُبَـادٍ وبَعْـضُ القَتْـلِ أَشْـفى لِلصُّـدورِ

إلى آخِرِ القصيدةِ؛ ومثلُ هذا الشِّعرِ مِنَ الأَوْلى أَنْ يُعَدَّ مِنَ الفَخْرِ أو الحماسةِ في سياقِ قصيدةٍ واحدةٍ جَمَعَتْ معانيَ الفخرِ والحماسةِ والرّثاء، وربّما جَمَعَت معها الهجاءَ أحيانًا، بِحَسَبِ العواطفِ الّتي تنازَعَتِ الشّاعرَ حين أنشدَ قصيدتَه، لا أَنْ تُعَدَّ جميعًا مِنْ بابِ الرّثاء.

سادِسًا: ظواهرُ فنّيّةٌ وأسلوبيّة في المراثي الجاهليّة:

في ختام الحديث عن الرّثاء يحسُنُ التّنبيه على بعض الظّواهر الشّكليّة والمعنويّة والأسلوبيّة في مراثي الجاهليّة، وهي:

---

[1] الذَّنائب: مَوْضِعٌ بنَجْد. والشَّعْثَمانِ: رجُلان من بَكْرِ بنِ وائل، وهما معاوية وصُرَيْم ابنا الشَّعثَمِ بنِ معاوية، وقيل: هما شَعْثَم وعَبد شَمْس ابنا معاوية بن عامر بن ذُهْل، وقيل غَيْرُ ذلك. ووَارِدات: المَوضِع الَّذي قَتَل فيه مُهلهلٌ بُجَيْرًا. ويَنُوءُ: يَنْهَض. ويَخْلِجُه: يَجْذِبُه. وخِدَبٌّ: ضَخْمٌ.

١ - **يُلْحَظُ أنّ هناك صلةً واضحةً بين الرّثاء وأغراضٍ شعريّةٍ أخرى**، ولا سِيَّما الفخرِ والحماسة، ثُمّ الهجاء، إذ كثيرًا ما تكون هذه الأغراضُ جَنْبًا إلى جنبٍ في القصيدة الواحدة، ولا يعني ذلك أنّ القصيدةَ تُقْسَمُ أقسامًا مشتّتةً، بل تكون الأغراض متشابكةً متكاملةً يُفْضِي بعضُها إلى بعض، وتتواشجُ حتّى تكونَ قصيدةً واحدةً متلائمةَ الأجزاء تعبّر عن العواطفِ الصّادقة المترابطة الّتي تعتلج في نفس الشّاعر.

٢ - **قِلّة المَراثي الّتي تبدأُ بذكرِ النّساء أو الأطلال أو رحلة الظّعائن**، وهي قلّةٌ لا تَصِلُ إلى حَدِّ النُّدرةِ الّتي ذهبَ إليها ابنُ الكَلْبِيِّ، فقد نقل عنه ابنُ رَشِيقٍ أنّه لا يعلَمُ مَرْثِيَةً أوّلُها نَسِيبٌ إلّا قصيدةَ دُرَيْدِ بنِ الصِّمَّةِ الّتي أوّلُها:

أَرَثَّ جَديدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ بِعاقِبَةٍ وأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

بَلَى إنّ هنالِكَ قصائدَ أُخرى ابتدأَتْ بذِكْرِ النّساء؛ ومن ذلك قصيدةُ لَبِيدٍ في رثاءِ أخيه الّتي أوّلُها:

طَرِبَ الفُؤادُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَطْرَبِ وَعَناهُ ذِكْرى خُلَّةٍ لَمْ تَصْقَبِ

وقول سُلْمِيٍّ بن غُوَيّةَ الضَّبِّيِّ يَرْثِي قومَه:

أَلا نَادَتْ أُمامَةُ باحْتِمالِ لِتَحْزُنَني، فَلا بِكِ، ما أُبالي

على أنَّ ذِكْرَ النّساءِ لَمْ يَكُنِ الهدفُ منه الغَزَلَ، وإنّما كان في الغالبِ سَبيلًا إلى ذِكْرِ مَن يرثيه الشّاعر، ولهذا تَخْلُو هذه المطالعُ أو تَكادُ مِنْ ذِكْرِ المحاسنِ والأيّام الخوالي والحنين إليها كالّذي في غير ذلك من القصائد، ويظهَرُ فيها الحديثُ عنِ البَيْنِ والصَّرْمِ واللَّوْمِ ونحوِ ذلك، ويُعَقِّب الشّاعر بعد ذلك بأنّه غيرُ مبالٍ بذلك، وأنَّ ذِكْرَ المرأةِ ما هو إلّا ضَلالةٌ أو سَفَه، فإنَّ وَقْعَ الفَجيعةِ والخَطْبِ الشّديدِ أَنْساهُ كُلَّ فَجيعةٍ غيرِها وهوَّنَها عليه، ولهذا لا يجوزُ عَدُّ مثلِ هذهِ المطالعِ مِنَ المطالعِ الغَزَليّة؛ وكذلك القصائدُ الّتي ابتدأَتْ بذكرِ الأطلال أو الظّعائنِ لا تكادُ تختلفُ عن هذه؛ وكأنّما جاء أولئكَ الشُّعراءُ بذِكْرِ النِّساءِ والدّيار والظُّعن لِجامِعِ (الفِرَاق) بين

ذِكْرِها وذِكْرِ المرثي، فكلُّ ذلكَ مَقْرُونٌ بالحزنِ الشّديد، ولكنَّ الفَجيعةَ تكونُ أعظمَ بالفَقيدِ الَّذي لا أمَلَ في لقائه.

٣- ابتداءُ كثيرٍ مِن المَراثي الطِّوالِ بالحِكْمَة: وقد سبقَ الكلامُ على هذا.

٤- نُدْرَةُ رثاءِ الأَطفالِ والنّساء: حتّى يكادُ ذلكَ يكونُ مَعْدُومًا في الشعر الجاهليّ، على خلافِ ما نجده بعد ذلك في الشعر بعد الإسلام؛ ولم أجِدْ بعدَ طُول التّنْقيبِ عمّن رَثى أُمَّه أو أُخْتَه أو ابنتَه أو امرأتَه سِوى قَوْلِ قَيْسِ بنِ مَسعودٍ المُراديِّ يرثي امرأتَه:

سُعَيْدَ قُومي عَلى سُعْدى فَبَكّيها ... فَلَسْتِ مُحْصِيَةً كُلَّ الَّذي فيها

في مَأْتَمٍ كَظِباءِ الرَّوْضِ قَدْ قَرِحَتْ ... مِنَ البُكاءِ عَلى سُعْدى مَآقيها

وأمّا رثاء الوَلَدِ وقد صار رَجُلًا فليسَ قليلًا.

ولعلَّ نُدْرةَ رِثاء الأطفالِ والنّساءِ لِمَا ذكره ابن رشيق عن صعوبة رثائهما، فقال: «**ومِن أشدِّ الرِّثاءِ صُعوبةً على الشّاعر أَنْ يَرْثِيَ طِفلًا أو امرأةً، لِضِيقِ الكلامِ عليهما وقلّةِ الصِّفات**»، يَعني أَنَّ شُعوبَ الكلام على أَفْعَالهما أو صفاتِهما ضيّقةٌ يَصْعُبُ السَّيْرُ فيها على الشّاعر، على خِلافِ الكلامِ على الفارسِ أوِ الشّريفِ وأمثالِهما، وكأنَّ ظروفَ حياةِ العرب في الْجَاهلية ومعيشَتَهم القائمةَ على الحاجة إلى القويّ العَتِيد كانت وراءَ ذلك، فإنَّ فَقْدَ المرأةِ أو الطّفلِ لم يكن يؤثِّرُ تأثيرَ فَقْدِ سِواهما، وإنْ كانَ الإنسانُ -سَواءٌ أكانَ جاهليًّا أم إسلاميًّا- يُمِضُّهَ فِقْدانُ أَيِّ عزيز؛ ولهذا كَثُرَ رثاءُ النِّساءِ والأطفالِ بَعْدَ الإسلامِ بالتّدريج، لاختِلافِ ظروفِ الحياةِ ولتأثيرِ الإسلامِ في نفوسِ النّاسِ، حتّى وُجِدَ بَعْدَ زمَنٍ مَنْ يُكْثِرُ مِن رثاءِ أولادِه كابن الرُّوميّ، أو زوجِه كابنِ جُبَيْرٍ الأندلسيِّ. الَّذي أَلّفَ ديوانًا في رثاء امرأتِه؛ فالأمر يرجع إلى الظُّروفِ الحَضاريّةِ المحيطةِ بالشّاعرِ وعصرِه.

٥- يُلْحَظُ أنّ الغالِبَ على مراثيهم وضوحُ ألفاظِها وبُعْدُها عنِ الغَريب، وكذلك وضوحُ المعاني وبُعْدُها عن الغموض؛ وذلك راجعٌ إلى قُرْبِ هذا الغَرَضِ من النّفسِ الإنسانيّة وشيوعِ

ألفاظه وطولِ حياتِها على مرّ العصور، ولا سِيَّما ما يتعلق بالْـجَوانب العاطفيّة في هـذا الغـرَض، وهـو في هـذا شَـبيهٌ بـالغَزَل؛ ويضـافُ إلى ذلـك بُعْـدُ الشُّـعراءِ في مثـل هـذه الحـال عـن الصَّـنْعةِ، وانسياقُهُم وراءَ سجاياهم وعواطفهم الصّادقة.

٦- كانَ تأجُّج العاطفةِ والإحساسُ بعظيمِ الفاجعةِ وراءَ ظاهرةٍ لفظيّةٍ هـيَ **كَثْرَةُ استعمال مُبالَغَةِ اسمِ الفاعلِ والصِّفةِ الْمُشَبَّهةِ بالفعل**، وتقـترِن بهـذهِ الظّاهرةِ في كثيرٍ مِـنَ الأحيـانِ ظـاهرةٌ أُخْرَى هي **تَقْسِيمُ البَيْتِ** تقسيمًا تتوافر بِهِ قَوافٍ داخليّةٌ، وهو ما يُسَمِّيه البلاغيُّون بـ(**التَّرْصيع**)، وذلكَ في جُمَلٍ اسميّةٍ دالّةٍ على ثَباتِ الصِّفاتِ الّتي يذكرُها الشّاعر في الـمرثيّ، فيتآزَرُ اللَّفْظُ والـمعنى على تعميقِ الشُّعورِ بإحساسِ الرّاثي؛ ومثالُ ذلكَ قولُ الخنساء:

الـــمَجْدُ خَلَّتُـــهُ، والْـــجُودَ عِلَّتُـــهُ والصِّـــدْقُ حَوْزَتُـــهُ إِنْ قِرْنُـــهُ هابـــا
رَكّـــابَ مُفْظِعَـــةٍ، حَمّـــالَ مُضْـــلِعَةٍ إِنْ خـــافَ مُعْضِـــلَةً سَـــنَّى لَـــها بابـــا
شَـــهّادَ أَنْـــدِيَةٍ، هَبّـــاطَ أَوْدِيَـــةٍ حَمّـــالَ أَلْوِيَـــةٍ، لِلْـــوِتْرِ طَـــلّابَا

٧- وقريبٌ مِن ذلك **ظاهرةُ (التَّكْرَارِ)**، ويكون ذلك إمّا بتكرارِ عباراتٍ أو بعضِها، وإمّا بالإلحاحِ على لفظٍ أو اسمٍ يَغْلِبُ أَنْ يكونَ اسمَ الـمرثيّ، وفي ذلكَ دلالةٌ على تمكُّنِ الـمعنى الَّذي يُكَرِّرُهُ الشّاعرُ بتكرارِ العبارةِ في نفسِه، وكـذلكَ تَكـرارُ اللَّفـظ، ويَـدُلُّ تكـرارُ اسـمِ الـمرثيّ عـلى شدّةِ تعلُّقِ الشّاعرِ به وتَشَبُّثِهِ باسمِهِ بَعْدَ فِقْدَانِ جِسْمِه؛ ومثالُ تَكرارِ العباراتِ قَوْلُ الـمُهَلْهِل:

عَـــلَى أَنْ لَـــيْسَ عَـــدْلًا مِـــنْ كُلَيْـــبٍ إِذا طُـــرِدَ اليَتـــيمُ عَـــنِ الْـــجَزورِ
عَـــلَى أَنْ لَـــيْسَ عَـــدْلًا مِـــنْ كُلَيْـــبٍ إِذا رَجَـــفَ العِضـــاهُ مِـــنَ الـــدَّبورِ
عَـــلَى أَنْ لَـــيْسَ عَـــدْلًا مِـــنْ كُلَيْـــبٍ إِذا مـــا ضِـــيمَ جـــيرانُ الـــمُجيرِ

فكرَّر صِيغَةَ الشَّطْرِ الأوّلِ سَبْعَ مَرّات؛ ويُلْحَظُ أنَّ اسمَ (كُلَيْبٍ) رافقَ هذا التّكرارَ للعبارة.

٨- **تَوارَدَ الشُّعراءُ على بعضِ العباراتِ في غَرَضِ الرّثاء**، كما تَوارَدُوا على أمثالِها في الأغراضِ الأُخْرى؛ ومِن هذه العباراتِ قَوْلُهم: (إنَّ الرَّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثْلَها) وما يقاربُها؛ كقَوْلِ لَبيدٍ:

إنَّ الرَّزِيّـــةَ لا رَزِيّـــةَ مِثْلَهـــا فِقْـــدانُ كُـــلِّ أَخٍ كَضَـــوْءِ الكَوْكَـــبِ

وقَوْل زُهَيْرٍ:

إنّ الرَّزِيّـــةَ مـــا لَـــها مَـــثَّلُ فِقْـــدانُ مَـــنْ يَنْمـــي إلى الحَـــزْمِ

ومن العبارات الّتي توارد عليها الشّعراء قولُهم: (فَاذْهَبْ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ) أو (فَلا تَبْعَدَنْ) ونحوُهما ممّا سَبَقَ في أثناءِ الحديثِ عن الدُّعاءِ للميت.

فهذا هوَ شِعرُ الوفاءِ في الْجاهليّة، شِعرُ القلوبِ المُحْتَرِقَة، أصدَقُ الشِّعر وأشْرَفُه.

****

مصادر و مراجع للاستزادة:

١- **العمدة:** لابن رشيق.

٢- **طبقات فحول الشّعراء:** لابن سلّام الجمحيّ.

٣- **التّعازي والمراثي:** للمبرّد.

٤- **المراثي:** لمحمّد بن العبّاس اليزيديّ.

٥- **العقد الفريد:** لابن عبد ربّه، وقد خصّص منه للرثاء (كتاب الدّرّة في التّعازي والمراثي).

٦- **العصر الْجاهليّ:** د. شوقي ضيف.

٧- **الأدب الْجاهليّ:** د. غازي طليمات، وعرفان الأشقر.

٨- **الشّعر الْجاهليّ، خصائصه وفنونه:** د.يحيى الْجبوريّ.

٩- **في الأدب الجاهليّ:** د.هاشم صالح منّاع.

١٠- **دراسات في الشّعر الجاهليّ:** د. أنور أبو سويلم.

١١- **قصيدة الرّثاء، جذور وأطوار:** د.حسين جمعة.

١٢- **الشّعر وأيّام العرب في الجاهليّة:** د.عفيف عبد الرّحمن.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

القسم الثّالث

فنـون النّـثْرِ الجاهِلِيّ

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

تمهيدٌ في النّثر الجاهليّ:

ينقسم الكلام الَّذي وصل إلينا منسوبًا إلى الجاهليّين إلى شعرٍ ونثر:

فالشِّعر في الأصل اللُّغَويّ مأخوذٌ من قولهم: شَعَر إذا فَطِنَ وعَلِمَ، وفي الاصطلاح: هو الكلام الموزون المقفّى من أوّله إلى آخره، والَّذي له معنًى شعريّ وأسلوب شعريّ وقصَدَ إليه الشّاعرُ قَصْدًا؛ لأنّ الشّاعرَ علِمَ ذلك كلَّه وفطن له.

والنّثر مأخوذٌ في الأصل اللُّغَويّ مِنْ نَثْرِ الشّيء، وهو رَمْيُهُ مُتَفَرِّقًا؛ تقول: نثرتُ الحبَّ ونحوَه إذا رميتَهُ متفرّقًا؛ فهذا الأصلُ اللُّغَويّ يدلُّ على أنّ النّثرَ هُوَ الكلام الَّذي يتكلّم به النّاسُ عامّةً خاليًا من الوزنِ والنّظامِ الموسيقيّ، ولكنْ عند الحديث عن النّثر في الأدب يُعْنَي النّثر الَّذي تعمّد صاحبُه تجويدَه وبذل فيه جُهدًا من حيثُ صياغَتُهُ ولُغَتُهُ ووسائلُه الفنيّةُ للتّأثير في السّامعين.

ويمكنُ تصنيفُ ما وصل إلَيْنَا عن الجاهليّين من هذا النّثر في أنواع عدَّة: الخطابة، وسَجْع الكُهّان، والوصايا، والحِكَم والأمثال، وهنالك الرسائل والعُهود والأحلاف.

ولا بُدَّ قبلَ الوقوفِ عند أنواع النّثر الجاهليّ من التّنبيه على أمرَيْنِ تَناوَلَهُما بعضُ دارسي النّثر الجاهليّ: الأوّل حول أسبقيّة الشّعر والنّثر، إذ يرى بعضُهم أنّ النّثر أسبق، ويخالفهم آخرون، وكلٌّ يأتي بحُجَجٍ يتخيّل صِحَّتَها يُؤَيِّدُ بها رأيَهُ وينقض رأي الآخر، وهي قضيّة لا تعدو أن تكونَ ضربًا من الجِدالِ الَّذي لا فائدة تُرْتَجى من ورائه؛ فليس يُهِمُّ كثيرًا أن يكون النّثر أسبق أو الشّعر، بلِ المُهِمُّ هو هذا الَّذي وصل إلينا من الشّعر والنّثر وكلّ ما يتعلّق بهما؛ ولذلك نضربُ صَفْحًا عن هذا الأمر.

والأمر الثّاني هو توثيق النّثر الجاهليّ، إذ لا يكاد مُعْظَمُ دارسي الأدب الجاهليّ يثقونَ إلّا بالقليل النّادرِ من هذا النّثر، وليس لهم حُجَّةٌ في ذلك إلّا أنّ هذا النّثر لم يصل إلينا مُدوّنًا من الجاهليّة، وإنّما دُوِّنَ بعدَ زَمَن، وأنّ حِفظ النّثر ليس سهلًا كحفظ الشّعر، ثمّ يَعْطِفُون على هذا التّشكيكِ بالقول: **«إنّ هذا الَّذي وصل إلينا على أنّه نثرٌ جاهليّ إنّما يُصَوِّرُ لنا مادّةَ ذلك النّثر**

وروحَهُ وطبيعتَه وكثيرًا مِنَ مَلامِحِهِ، لكنْ لا بصورةٍ دقيقة، وإنّما بصورةٍ عامّة؛ لأنّ هذا النّثر الّذي وصل إلينا نَحَلَهُ أُناسٌ بعد الإسلام، ولكنْ لا بُدَّ أنّهم كانوا يَقِيسُون على نماذجَ وأساليبَ جاهليّة».

ولا داعِيَ للوُقُوف عند هذا الزّعم طويلًا، لأنّ القضايا الّتي عُولِجَتْ في توثيق الشّعر الجاهليّ من كتابةٍ وروايةٍ وتدوينٍ ونَحْلٍ تنطبق على النّثر الجاهليّ نفسِه، فما وصل إلينا من هذا النّثر عن رواةٍ ثقاتٍ يكون إنكارُهُ والتّشكيك فيه ضَرْبًا مِنَ العَبَثِ الّذي لا ينتهي؛ ثمّ إذا صحّ أنّهم وضعوا هذا النّثر على نماذجَ وأساليبَ جاهليّةٍ كانت لديهم أفليس من الأجدر أن تَصِلَ إلينا تلك النّماذجُ الّتي كانوا يَقِيسُونَ عليها؟!

وربّما احتجَّ بعضُهم لهذا التّشكيكِ باختلافِ رِوايةِ بعضِ ذلك النّثر؛ وليس ذلك بحُجَّةٍ، لأنّ الاختلاف ممّا يقع في الشّعرِ وفي النّثرِ، لأسبابٍ تتعلّق بالقائل أحيانًا وبالنّاقل أحيانًا وبمصدر النّاقل أو اختلافِ مصدر النّاقلين أحيانًا أخرى؛ ولكنّ ذلك كلَّه لا يُخوِّلُ أحَدًا الشّكّ في صحّةِ أصلِ هذه الآثار.

واحتجّ بعضُهم بأنّ هناك مَنْ لم يتورَّعْ عن وَضْعِ الحديث على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فالأَحْرى ألّا يتورّعَ عن وَضْعِ الخُطَبِ ونحوِها على خطباء الجاهليّة، وهذه حُجَّةٌ واهيَةٌ جِدًّا، لأنّ أسبابَ وَضْعِ الحديثِ ودَواعِيَه كثيرةٌ جدًّا دَرَسَها علماءُ الحديث، بخلاف دَواعي الوضْعِ على خطباء الجاهليّة؛ ولا أدَلَّ على ذلك مِنْ أنّ ما وصل إلينا من خُطَبهم وسائرِ نثرهم لا يُعَدُّ شيئًا إذا ما قِيْسَ بما وصل إلينا من شعر الجاهليّة، فلا يكاد المَرْءُ يجد لأشهر خطبائهم خُطَبًا تزيد على أصابعِ اليَدِ الواحدة، وهي خُطَبٌ قصيرةٌ في الغالب، ليس من الصّعب حفظُها وتَناقُلُها.

وكلُّ هذا التّشكيك الّذي دَأَبَ عليه الدّارسونَ يَرْجِعُ إلى افتراضاتٍ وأوهامٍ وتخيّلاتٍ تحتاج إلى الدّليل العلميّ الملموس المُقْنِع؛ ولذلك يجبُ الوقوفُ من هذا النّثر موقفَ القاضي

العادل الَّذي يُحاكِمُ مُتَّهمًا ما، وإلّا حَكَمَ كلُّ امرئٍ بحَسَبِ هَواه وظُنونه، وإنّ الظّنّ لا يُغْني مِنَ الحقِّ شيئًا.

وسيكون الكلامُ فيما يأتي على أربعة أنواع رئيسة من النّثر الجاهليّ، هي: الخَطابة، وسَجْع الكُهّان، والوصايا، والحِكَم والأمثال.

وقل رب زدني علما
Damascus University

أوّلًا: الخَطابة الجاهليّة

١- دَوَاعي ازدهارِ الخَطابة في الجاهليّة:

كانت حياة العرب في الجاهليّة، بأوجه النّشاط المختلفة فيها من حربٍ وصُلْح، ومنافراتٍ ومفاخَراتٍ، ووفادة على الملوك، ومواسمَ للتّجارة والحجّ، ومناسباتٍ اجتماعيةٍ مختلفة، تُؤهِّل الجاهليّين لأَنْ يُهيِّئوا لهذه الأحوال ما يناسبُها مِن خُطَبٍ تُبَلِّغُهم ما يُريدون، وينهضُ لهذه الخُطَبِ أُناسٌ ملكوا أَعِنَّةَ البيانِ بما فُطِروا عليه من فصاحةٍ وبديهةٍ وذَلاقةِ لِسان، حتّى إنّ الجاحظَ سحَبَ هذا الوصفَ على العربِ عامّةً حينَ قال: «**وكلُّ شيءٍ للعربِ فإنّما هُوَ بديهةٌ وارتجال، وكأنّه إلهامٌ، وليس هناكَ معاناةٌ ولا مُكابَدةٌ ولا إِجالةُ فِكرٍ ولا استعانة، وإنّما هو أنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إلى الكلام ... عندَ المُقارَعةِ أوِ المُناقَلَةِ أو عند صِراعٍ أو في حرب، فما هو إلّا أنْ يصرِفَ وَهْمَهُ إلى جُمْلَةِ المَذْهَبِ وإلى العَمودِ الَّذي إليه يَقْصِدُ، فتأتيه المعاني أَرْسالًا، وتَنْثالُ عليه الألفاظُ انثيالًا ...** »، وهذه مبالغةٌ مِن الجاحظ، لأنّ في العرَبِ العَيِيَّ والفصيح، مثلما أنّ فيهم الجريءَ والجبان، ولولا وجودُ الحَصَرِ والعِيِّ مع الفصاحةِ والبَيانِ، لَما وَصفُوا ذلك كلَّه في أشعارهم.

٢- أشهر خطبائهم:

اشتُهِر بالخطابةِ في كلِّ قبيلةٍ عددٌ من هؤلاء الفصحاء، **ففي قريشٍ** كانَ هاشمُ بنُ عبد مَنافٍ، وابنُه عبد المطّلب، وأميّة بن عبد شمس بن عبد مَناف، وابنُه حَرْبُ بن أميّة، ونُفَيْلُ بن عبد العزّى، وعُتْبَةُ بن رَبيعة بن عبد شمس، وسُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو العامريّ القرشيّ، وغيرهم، **وفي الخَزْرَجِ**: قيسُ بنُ شمّاس، وابنُه ثابتُ بن قيس خطيبُ النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، **وفي الأوسِ**: سعدُ بن مُعاذ، **وفي تميم**: أَكْثَمُ بن صَيْفيّ، وعُطارِدُ بنُ حاجِبِ بنِ زُرارة، وقيس بن عاصم، **وفي مَذْحِج**: الأَفْوَه الأَوْديّ، **وفي إياد**: قُسُّ بنُ ساعدة، **وفي شيبانَ**: هانئُ بنُ قَبيْصَة، **وفي عَدْوان**: عامر بن الظَّرِب؛ وغيرُ هؤلاء كثيرٌ في كلّ قبيلة.

٣- مكانةُ الخَطيب:

كانت القبائل محتاجةً إلى الخُطباء حاجتَها إلى الشّعراء، ليقوموا في الـمقاماتِ الـمختلفة؛ على أنّ الشّاعرَ كان مقدَّمًا على الخطيبِ عند قدماء الجاهليّين، ولكنّ الأواخرَ منهم قدّموا الخطيب، وقد علّل أبو عمرو بن العلاءِ ذلك بقوله: «**كان الشّاعرُ يُقَدَّم على الخطيب، لِفَرْطِ حاجتهم إلى الشّعر الَّذي يُقَيِّدُ عليهم مآثِرَهم، ويُفَخِّمُ شأنَهم، ويُهَوِّلُ على عدوِّهم ومَنْ غزاهم، ويُهَيِّبُ مِنْ فرسانهم، ويُخَوِّفُ مِن كَثْرَةِ عددهم، ويهابُهم شاعرُ غيرِهم فيراقبُ شاعرَهم؛ فلمّا كثر الشّعر والشُّعراء، واتّخذوا الشّعرَ مَكْسَبَةً، ورحلوا إلى السُّوقَةِ، وتسرَّعوا إلى أعراضِ النّاس، صارَ الخطيبُ عندَهم فوقَ الشّاعر**»؛ وفي كلام أبي عمرٍو إشارةٌ خفيّةٌ إلى أنّ الخطباء كانوا في العادة مِنْ أشراف النّاس وسادَتِهم، على خلافِ الشّعراء، فإنّ فيهم مَنْ لم يكن كذلك، فلجأ إلى التّكسّب بالشّعر والرّحلة لِمَدْحِ كلّ مَنْ يُعطيه.

٤- هَيْئَةُ الخطيب وصفاته:

كان للخطباء تقاليدُ وهيئاتٌ يحرِصُون عليها، وصفاتٌ لا غنى عنها؛ فكان مِنَ التّقليد أنْ يَلُوثَ الخطيبُ عِمامَتَهُ على رأسه، لأنّها مِن كمالِ هَيْئَةِ الرّجلِ وجَمالِهِ، وقد أُثِرَ عن عمرَ بنِ الخَطّاب رضي الله عنه قولُهُ: «**العَمائمُ تِيجان العرب**»، وعن عليِّ بنِ أَبي طالِبٍ رضي الله عنه: «**جَمالُ الرّجلِ في عِمَّتِهِ**»، وكان الخطيبُ يُمْسِكُ بيده عَصًا أو مِخْصَرَةً أو رُمحًا أو قَوْسًا يتّكئ عليها ويُشيرُ بها، فيرفعُها ويضعُها مُعَزِّزًا بها كلامَه، وقد عابَ عليهمُ الشُّعوبيُّونَ ذلك بعد الإسلام لجهلِهم سَبَبَهُ؛ فردّ عليهم الجاحظُ بقوله: «**إنّ حَمْلَ العصا والمِخْصَرَةِ دليلٌ على التّأهُّبِ للخُطْبَةِ والتّهيُّؤِ للإطنابِ والإطالة، وذلك شيءٌ خاصٌّ في خطباء العرب، ومقصورٌ عليهم، ومنسوبٌ إليهم، حتّى إنّهم لَيَذْهَبون في حوائجِهم والمَخاصِرُ بأيديهم، إِلْفًا لها وتوقّعًا لبعضِ ما يُوجِبُ حَمْلَها والإشارةَ بها**»، ومِن عادتِهم أَنْ يُشْرِفَ الخطيبُ على النّاسِ حتّى يَرَوْهُ، فيستحوذَ على قلوبهم، فإمّا أن يصعَدَ مرتفَعًا مِنَ الأرض، وإمّا أن يركب على راحلته، فيَخْطُبَ بالنّاسِ وهو يرفع يدَهُ ويَضَعُها مُستَعِينًا بما يُمْسِكُه مِن عصًا أو رُمْحٍ أو قَوْسٍ.

ومن صفات الخطيب الّتي لا بدَّ منها أن يكونَ ثابتَ القلبِ قليلَ التّلفُّتِ، حاضرَ البَديهة، لا يتهيّبُ النّاسَ عندما يَرْمُونَ بأبصارهم إليه ويُقْبِلونَ عليه؛ ولا بدّ له أن يكونَ جَهيرَ الصّوت، سليمَ النُّطْقِ، كثيرَ الرِّيْق؛ ولذلك عابوا التَّنَحْنُحَ والارتعاشَ والسُّعالَ والعَبَثَ باللِّحْيَة وتَصَبُّبَ العَرَقِ، لأنّه دليلٌ على تَهَيُّبِ النّاسِ أو العِيّ؛ وقد وصفوا تلك المحاسنَ وهذه المعايبَ في أشعارٍ ساقها الجاحظ في (البيان والتّبيين).

٥- مناسبات الخَطابةِ وأمْثِلَتُها:

للخَطابةِ مواطنُ ومناسباتٌ كثيرة، إذ كانوا يحتاجون إليها في المُنافَراتِ، والحروب، والدّعوةِ إلى السِّلمِ والصّلح، وفي وِفاداتهم على الملوك، ومواسم الحجّ، والمناسبات الاجتماعيّة كالزّواجِ والعَزاءِ وغيرِ ذلك؛ وفيما يأتي أمثلةٌ قليلةٌ منها، لاستخلاصِ الظّواهر الفنيّة في الخُطْبَةِ الجاهليّة.

فمِنَ المُنافَراتِ المشهورة في الجاهليّة مُنافَرَةُ عبدِ المطّلب بنِ هاشمٍ وابنِ أَخِيه حَرْبِ بن أميّةَ، ومنافرةُ جَريرِ بنِ عبد الله البَجَليِّ وخالد بن أَرْطَاةَ الكَلْبِيّ، ومنافرةُ عامرِ بنِ الطُّفَيْلِ وعَلْقَمَةَ بنِ عُلَاثة؛ وممّا جاء في منافرةِ عامرٍ وعلقمةَ - وقد ساقَها الأصفهانيُّ عن الأصمعيّ، وأبي عُبيدة، وابن الكلبيّ، والمفضّل الضَّبِّيّ، وأبي عمرو الشَّيبانيّ، وهي طويلةٌ كانت بينهما مراجعةٌ في الكلام- أنّ عامرًا قال: **«والله لَأَنا أَرْكَبُ منكَ في الحُماةِ، وأَقْتَلُ منكَ للكُماة، وخَيْرٌ منكَ لِلْمَوْلى والمَوْلاة؛** فقال علقمةُ: **والله إنِّي أَعَزُّ مِنك، إنّي لَبَرٌّ وإنّك لَفاجِر، وإنِّي لَوَفِيٌّ وإنّك لَغادر، فَفِيمَ تُفاخرني يا عامر؟** فقال عامر: **والله إنّي لَأَنْزَلُ مِنكَ لِلْقَفْرَة، وأَنْحَرُ منك للبَكْرَة، وأَطْعَمُ منك لِلْهَبْرَة، وأَطْعَنُ منكَ للثُّغْرَة»**.

ومِن خُطَبِهم المشهورةِ أيّامَ الحروب خُطبةُ هانئ بن قَبِيْصَة الشّيبانيّ يومَ ذي قار، يُحَرِّضُ قومَهُ على الحرب، وقد ساقَها القاليُّ بسندِه إلى أبي عُبيدةَ؛ قال هانئ: **«يا معشرَ بَكْر! هالكٌ مَعْذور، خَيْرٌ مِنْ ناجٍ فَرور؛ إنّ الحَذَرَ لا يُنْجِي مِنَ القَدَرِ، وإنّ الصّبرَ مِنْ أسبابِ الظَّفَر؛**

المَنِيّةُ ولا الدَّنِيّة، استقبالُ المَوْتِ خَيْرٌ مِنِ اسْتِدْبارِه، والطّعنُ في النُّحُورِ أَكْرَمُ منهُ في الأَعْجازِ والظُّهور؛ يا آلَ بَكْر! قاتِلُوا! فما لِلْمَنايا مِنْ بُدّ».

ومِن خُطَبِهم في الدّعوة إلى الصُّلح خُطبةُ مَرْثِدِ الخَيْرِ بنِ يَنْكَفَ الحِمْيَرِيّ، وكان قَيْلًا، فوقَعَ تنازُعٌ على السّيادة بين سُبَيْعِ بن الحارث، ومَيْثَمِ بن مُثَوِّبٍ مِن قومِه، فخاف أن يقع بين حيَّيْهِما شرٌّ، فدعاهما، فخطب فيهما، وسمع منهما، ثمّ عادَ فخطَبَ قائلًا: **«لا تُنْشِطُوا عُقُلَ الشّواردِ، ولا تُلْقِحُوا العُونَ القَواعِد، ولا تُؤَرِّثوا نِيرانَ الأحقاد، ففيها المَتْلَفَةُ المُسْتَأْصِلَة، والجائحةُ والأَلِيْلَة؛ وعَفُّوا بالحِلْمِ أَبْلادَ الكَلْم، وأَنِيبُوا إلى السّبيلِ الأَرْشَدِ والمنهَجِ الأَقْصَد، فإنّ الحربَ تُقْبِلُ بِزِبْرِجِ الغُرور، وتُدْبِرُ بالوَيْلِ والثُّبُور»**، ثمّ قال شعرًا أوّلُه:

ألا هل أتى الأقوامَ بَذْلِي نصيحةً ... حَبَوْتُ بها مِنِّي سُبَيْعًا ومَيْثَمَا

«فقالا: لا أيّها الملك، بل نقبَلُ نُصْحَك ...».

ومن خُطَبِهم في الوِفادة على الملوك خُطبة أَكْثَمَ بنِ صَيْفيّ، يعزّي فيها المَلِكَ عمرَو بنَ هند اللَّخْميّ وقد مات أخوه:

«أيّها المِلِك! إنّ أهلَ هذه الدّارِ سَفْرٌ لا يَحُلُّونَ عُقَدَ الرِّحالِ إلّا في غيرِها، وقد أتاكَ ما ليس بَمَرْدودٍ عنك، وارْتَحَلَ عنك ما ليس براجعٍ إليك، وأقام معك مَنْ سيَظْعَنُ عنكَ ويَدَعُك؛ واعلَمْ أنّ الدّنيا ثلاثةُ أيّامٍ:

فأَمْسِ: عِظَةٌ، وشاهِدُ عَدْلٍ، فَجَعَكَ بنفْسِهِ، وأبقى لكَ وعليكَ حكمَتَه.

واليومَ: غنيمةٌ وصديق، أتاكَ ولم تَأْتِه، طالَتْ عليك غَيْبَتُهُ، وستُسْرِعُ عنك رِحْلَتُهُ.

وغدًا: لا تَدْرِي مَنْ أَهْلُهُ، وسيأْتِيكَ إنْ وَجَدَكَ.

فما أحسنَ الشّكرَ للمُنْعِمِ والتّسليمَ للقادِر! وقد مَضَتْ لنا أصولٌ نحنُ فُروعُها، فما بقاءُ الفروعِ بعدَ الأصولِ؟ واعلَمْ أنّ أعظَمَ مِنَ المُصِيبَةِ سوءُ الخَلَفِ منها؛ وخَيْرٌ مِنَ الخَيْرِ مُعْطِيه، وشرٌّ مِنَ الشّرِّ فاعِلُهُ».

ومِن خُطَبهم في المواسم خطبةُ قُسِّ بنِ ساعِدةَ الإياديّ في سُوقِ عُكاظ، وقد رآه النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم يومَذاكَ راكبًا على جَمَلٍ أحمرَ يَخْطُبُ بالنّاس ويقول:

«أيّها النّاس! اجتمِعُوا واسمَعُوا وعُوا، انْظُرُوا واذْكُروا؛ مَنْ عاشَ مات، ومَنْ ماتَ فات، وكلُّ ما هُوَ آتٍ آت؛ ليلٌ داجٍ، ونهارٌ ساجٍ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، ألا إنّ أَبْلَغَ العِظاتِ السّيرُ في الفَلَواتِ، والنّظرُ إلى مَحَلِّ الأموات؛ إنّ في السّماءِ لَخَبَرًا، وإنّ في الأرضِ لَعِبَرًا؛ ما لي أَرى النّاسَ يذهبونَ فلا يرجِعُون؟ أَرَضُوا هناكَ بالمُقامِ فأَقاموا، أَمْ تُرِكُوا فَناموا؟

يا مَعْشَرَ إيادٍ! أينَ الآباءُ والأجداد؟ وأين المريضُ والعُوّاد؟ وأَينَ الفَراعِنَةُ الشِّداد؟ وأينَ مَنْ بَنَى وشَيَّد، وزخرَفَ ونَجَّدَ، وغرَّه المالُ والوَلَد؟ أَلَمْ يكونوا أكثرَ منكم أَموالًا، وأطولَ منكم آجالًا؟

في الـــــذّاهبينَ الأوَّلِيـــــــنَ مِـــنَ القُـــرونِ لنـــا بَصـــائِرْ
لَـــــمّا رأَيْـــــتُ مَـــــوارِدًا لِلْمَـــوْتِ لَـــيْسَ لهـــا مَصـــادِرْ
ورَأَيْـــــتُ قَـــــوْمِي نَحْوَهـــــا يَـــمْضِي الأَكـــابِرُ والأَصـــاغِرْ
أَيْقَنـــتُ أَنِّـــي لا مَحـــــا لَـةَ حَيْـثُ صـارَ القَوْمُ صائِرْ»

ومن خُطَبِهم في المناسبات الاجتماعيةِ خُطبةُ أَبي طالبٍ –وقيلَ: حَمْزَة– عَمِّ النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم في زواجِ السّيدةِ خَدِيجَةَ رضِيَ اللهُ عنها:

«الحمدُ للهِ الّذي جعلَنا مِنْ زَرْعِ إبراهيم، وذُرِّيَّةِ إسماعيل، وجعلَ لنا بَلَدًا حَرامًا، وبَيْتًا مَحْجُوجًا، وجعلَنا الحُكّامَ على النّاس؛ وإنَّ محمّدَ بنَ عبدِ الله، ابنَ أَخي، لا يُوازَنُ به فَتًى مِنْ قريشٍ إلّا رَجَحَ علَيْه، بِرًّا وفَضْلًا، وكَرَمًا وعَقْلًا، ومَجْدًا ونُبْلًا، وإنْ كانَ في المالِ مُقِلًا، فإنّ المالَ ظِلٌّ زائلٌ، وعاريَّةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ؛ ولهُ في خديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ رَغْبَةٌ، ولها فيهِ مثلُ ذلك، فما أَحْبَبْتُمْ مِنَ الصَّداقِ فَعَلَيَّ».

٦– الظّواهر الفنيّة في الخُطَب الجاهليّة:

سبقَ القَوْلُ إنّ ما وصل إلينا من خُطَبِ الجاهليّة قليل، وإنّ ما وصل إلينا لأشهر خطبائهم لا يكاد يتجاوزُ أصابعَ اليَدِ الواحدة؛ ولذلك يصعُبُ أن تُعْطَى أحكامٌ خاصّةٌ لكلِّ خطيب، ولكن يمكن ممّا وصل إلينا من خطبهم أن يُشارَ إلى ظواهرَ عامّةٍ كانت في خطبهم، من حيثُ الشّكلُ، ومن حيثُ المضمونُ.

أ – ظواهرُ في الشّكل:

إنّ أول ما يلفت النّظرَ في خُطَب الجاهليّة هُوَ **القِصَر**، فمعظمُ خطبِهم الّتي بين أيدينا كهذه الخُطَبِ السّابقة قِصارٌ، ولكنْ لا يَعْدَمُ الباحِثُ بعضَ الخطبِ الّتي تتّسم بالطّول، وهي قليلة، كخُطبةِ النّابغة الذُّبيانيّ حينَ وَفَدَ على عمرو بن الحارث الغَسّانيّ وطلَبَ إطلاقَ أَسرى بَنِي ذُبْيانَ، والخُطبةُ الّتي ذكر الجاحظُ أنّ قيسَ بنَ خارجةَ بنِ سِنانٍ الغَطَفانيَّ خطبَها يومًا إلى اللّيل، في حرب داحسٍ والغبراءِ؛ وربّما كان سببُ قلّة الخطبِ الطّويلة ضياعُ كثيرٍ من خطبهم، ولا شكَّ في أنّ الخُطَب الطّويلة أصعبُ حِفظًا من القصيرة.

ومن الظواهر الشّكليّة الواضحة في الخُطبة الجاهليّة أنّ **السَّجْعَ كثيرٌ فيها**، وهذا السّجع قد يكون شاملًا للخطبة، كما في خطبة قُسٍّ بن ساعدة، وكما هُوَ في المنافرات مثل منافرة عامر وعلقمة، وكذلك كان كلام الحُكّام الّذين يَحْكُمون بين المتنافرين، حتّى جَعَل الجاحظُ السّجعَ

صفةً عامةً لأَحْكام الحُكّام، فقد ذكر عددًا منهم فقال: «كانوا يَحْكُمُونَ ويُنَفِّرُونَ بالأَسْجاع»؛ ومثال ذلك قول نُفَيْلِ بنِ عبدِ العُزّى العَدَوِيِّ القُرَشِيِّ –وهو جَدُّ عُمَرَ بنِ الخَطّاب رضي الله عنه– يُخاطِبُ حَرْبَ بنَ أميّةَ بنِ عبدِ شَمْسِ بنِ عَبْدِ مَناف ويُنَفِّرُ ابنَ عَمِّ أَبيهِ عبدَ المُطَّلِب بنَ هاشمِ بنِ عبدِ مَناف عليه: **«يا أبا عَمْرو! أَتُنافِرُ رَجُلًا هو أطولُ مِنْكَ قامَةً، وأَعظَمُ منك هامَةً، وأَوْسَمُ منك وَسامَةً، وأَقَلُّ منك مَلامَةً، وأَكثرُ منك وَلَدًا، وأَجْزَلُ منك صَفَدًا، وأَطْوَلُ منك مِذْوَدًا؟ وإِنِّي لَأَقولُ هذا، وإِنَّكَ لَبَعيدُ الغَضَب، رَفِيعُ الصَّوْتِ في العَرَب، جَلْدُ المَرِيرة، جَلِيلُ العَشِيرة؛ ولكنَّكَ نافَرْتَ مُنفَّرًا»**.

وقد يكونُ السّجعُ غالبًا، كما في خطبةِ هانئ بن قَبِيْصَة؛ وقد لا يكون غالبًا، كما في خطبة أبي طالب.

وتتميّز هذه الخُطَبُ **بِقِصَرِ العبارة، وتوازُن العباراتِ المُتتالِيَة**، وهو مثلُ السَّجْعِ ممّا يُوَفِّرُ لها موسيقى تؤثِّرُ في المستمع.

وربّما لجأ الخطيبُ إلى **الاعتمادِ على الشِّعر** واختتامِ الخُطْبة به، ولكنّ ذلك نادرٌ في خطبهم، ومثالُه خُطبة ابنِ ساعدة، وخُطبة مَرْثِدِ الخَيْرِ.

ب- ظواهرُ في المَضمون:

ممّا يُلْحَظُ في مُعظَمِ الخطب الجاهليّة **وَحْدَةُ الغَرَض**، ولكنّنا لا نعدَمُ خُطَبًا تتعدّدُ أغراضُها،كخطبةِ النّابغةِ الذُّبيانيّ أمامَ عَمْرِو الغسّانيّ، فقد بدأها بمدح الملك، ثمّ انتهى إلى طلبِ إطلاقِ الأسرى، وكذلك خُطبةُ عبدِ المُطَّلِبِ أمامَ سيفِ بنِ ذِي يَزَن أوِ ابنِه مَعْدِيكَرِبَ بنِ سَيْفٍ، فقد بدأَ بمدحِ الملِكِ، ثُمّ افتخرَ بقَوْمِه قُرَيْش، وهنَّأَ الملِكَ في آخرها؛ وفي الإمكانِ القولُ إنّ للخطيبِ غَرَضًا رئيسيًّا، مَهَّدَ لهُ بما يستميل إليهِ المُخاطَب ويُكْسِبُهُ وُدَّه، فإذا ما انتهى إلى غَرَضِهِ وَجَدَ عندَه ما يطلُبُه، كما كان الشّاعُر يَفعلُ في القصيدِ.

ومن الظّواهر المعنَويّةِ **وضوحُ الأفكار، وبعدُها عن الغموض والتّعقيد**، وهو أمرٌ مَلحوظ في جميع الخطب؛ كما يُلحظ أنّ الخطبةَ تتسلسل في الغالب تسلسلًا منطقيًّا، لها افْتِتاحٌ

وجَسَدٌ واختتام، إِذْ تبدأُ في العادة بعبارة تتضمّنُ نداءً أو مُخاطَبةً أو نحوَ ذلك ممّا يشدّ الأسماع إلى الخطيب، ثمّ يذكر ما يريد، ويختمها بعبارةٍ تحملُ حِكْمَةً أو نحوها مما يلخّص المُرادَ.

ويُلحظُ أنّ **الإنشاءَ**، مِن أمرٍ ونهيٍ ونداءٍ واستفهامٍ وتمنٍّ وتعجّبٍ، **يَغْلِبُ على الخبر**؛ ولا شكّ في أنّ ذلك ممّا يُبقي المخاطَبِينَ مشدودين إلى الخطيب، لأنّ الإنشاءَ أسلوبٌ يستدعي مشاركةَ الآخَرِينَ، أكثرَ من الخبر؛ فكانَ مِنْ فِطْنَتِهِمْ أَنَّ الخطيبَ عندما يستعمل الخبرَ يلجأُ إلى التّأكيد بالقَسَمِ وأَحْرُفِ التّنبيهِ وأحرفِ التّوكيد وغيرِها من أساليب التّأكيد، وربّما لجأ إلى الموازَنَةِ والمقارنة، وهو مِمّا يُكْسِبُ الخبرَ حيويّةً تبعِدُهُ عن جَفافِ الخبر العاديّ.

وكلَّ هذه الظّواهر الشّكليّة والمعنويّة كانت توفِّر للخُطبةِ الجاهليّة جمالًا فنيًّا أحسَّ به الجاهليّون فاستلذّوا سماعَها، حتّى شبَّهوها «بالثّيابِ المُوَشّاةِ وبالحُلَلِ والدّيْباج وأشباهِ ذلك،كما في رثاءِ أبي قُرْدُودةَ الطّائيّ لابنِ عَمّارٍ خَطِيبِ مَذْحِجَ حين قُتِلَ، فقال:

ومَنْطِقٍ خُرِّقَ بِالعَواسِلِ لَذٍّ كَوَشْيِ اليُمْنَةِ المَراحِلِ

وهكذا تبيّنَ أنّ الخَطابةَ في الجاهليّة توافَرتْ لها أسبابٌ جعلتها تزدهر، فاشْتُهِرَ بها في كلِّ قبيلةٍ عددٌ من البلغاء الفُصَحاء تميَّزُوا بصفاتِ الخطيبِ النّاجح، فخطبوا في مناسباتٍ مختلفةٍ، ووفّروا لخطبهم مظاهرَ فنيّةً في شكلِها ومضمونها جعلَتِ النّاسَ تتأثّرُ بها وتُقْبِلُ عليها بآذانٍ مُصْغِية، وقلوبٍ واعية.

ثانيًا: سَجْع الكُهّان

الكَهانَةُ، بفتح الكاف، مصدرُ: كَهَنَ لَهُ، إذا قَضَى له بالغيبِ، وقلّما يُقالُ إلاّ: تَكَّهَنَ؛ وقد كَهُنَ إذا صار كاهنًا؛ والحِرْفَةُ: الكِهانة، بكسر الكاف؛ ويلحق بالكِهانة العَرافة والتَّنْجِيم؛ والعرب تُسَمِّي كاهنًا كلَّ مَنْ تَعاطَى عِلْمًا دقيقًا، ومنهم مَنْ يُسَمِّي المُنَجِّم والطّبيبَ كاهنًا.

والكِهانةُ ظاهرةٌ معروفةٌ عند جميع الأممِ على اختلافِ درجاتها في التَّحضُّر؛ وقد تكَلَم على الكِهانة كثيرٌ من أهل العلم قديمًا وحديثًا وبسطوا القولَ فيه وأوجزوا؛ والكِهانةُ ضُروبٌ عِدّة، فمِن الكُهّان في الجاهليّة مَن كان يَذْكُرُ أنّ له صاحبًا مِنَ الْجِنِّ، يُخْبِرُه بما يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ مِنَ السّماء، أو يخبره بما يطرأ ويكون في أنحاء الأرضِ مِمّا يَخْفَى عليه، ويُسمَّى ذلك الْجِنِّيُّ رَئِيًّا، ومِنَ الكُهّان مَنْ كان يَسْتَدِلُّ على الأمور بظنِّه وحَدْسِهِ وتَخْمِيْنِهِ، وهي مَقْدِرةٌ لا تُنْكَرُ عندَ بعضِ النّاس، ولكنّهم كانوا يَزْعُمونَ أنّهم يعرفون تلك الأمورَ بالزَّجْرِ والطَّرْقِ بالحصى. والنُّجومِ ونحو ذلك، ومِنْهم مَنْ يَستَنِدُ إلى التّجربةِ والعادة، فيتوقّعُ أمورًا بناءً على مُقَدِّماتٍ مِنَ الكلام أو الأفعال أو الأقوال سَلَفَتْ في حوادِثَ أُخرى.

١ - الكهانة عند العرب:

عرَفَ العربُ هذا الضَّرْبَ مِنَ العِلْمِ في الجاهليّة، وكان شائعًا فيهم، ولا سِيَّما في اليمن، حتّى كان العرب يأتونهم مِن كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ يستشيرونهم ويَصْدُرونَ عن رَأْيِهِمْ؛ ولعلّ كَثْرَةَ انتشارهم في اليمن راجعٌ إلى كَثْرَةِ المعابدِ الوثنيّة فيه، وإلى تقديسِهمُ الشّمسَ والقمرَ والنّجومَ منذ أقدم عصورِهم.

وقد **اشتهر بالكِهانةِ عددٌ من الرّجالِ والنّساء**، لَيْسُوا بكَثْرَةِ الخُطَباء، فمن الكُهّانِ المعروفين: سَطِيحٌ، وهو رَبِيعُ بنُ رَبِيعَةَ الذِّئْبِيُّ الغَسّانيّ مِن أهلِ الْجَابِيَةِ بالشّام، وشِقُّ بنُ الصَّعْبِ البَجَليُّ القَسْرِيّ الأَزْديّ، وسَلَمَةُ بنُ المُعَقَّلِ الحارثيّ، وسَلَمَةُ بن أَسْحَمَ القُضاعيّ، وكانَ سادِنًا للعُزَّى، والكاهنُ بنُ حبيبٍ الخُزاعيّ، وعَوْفُ بن رَبيعةَ الأَسَدِيّ، وغيرُهم؛ ومِنَ

الكَواهِنِ: طَرِيفَةُ الخَيْرِ الَّتي كانت معَ مُزَيْقِياءَ عَمْرِو بنِ عامِرٍ مِنْ سَبَأ، وزَبْراءُ القُضاعيَّةُ كاهِنَةُ بَنِي رِئامٍ في اليَمَنِ، وكاهِنَةُ ذِي الخَلَصَةِ -وهو صَنَمٌ للعَرَبِ بـ(تَبالةَ) - وسَلْمَى الهَمْدَانيّة، والزَّرقاءُ بِنْتُ زُهَيْرٍ الْجَدِيسيَّة، ونَجَاح كاهِنَةٌ كانت بالحِجاز، وغيرُهُنّ؛ ويُلْحَظُ أنّ معظم هؤلاء الكُهّان والكَواهِن من قبائل اليمن.

٢- مناسبات الكهانة وأمثلةٌ مِنْ سَجْعِ الكُهّان:

احتاجَ الجاهليّون إلى هؤلاء الكُهّان في كثير من أمورِهم وشؤونهم الخاصّةِ والعامّة، كالزَّواجِ والوِلادةِ والحرب ودَفْعِ الدِّيَاتِ والإقامةِ والظَّعْنِ، وكانُوا يُحَكِّمُونَهم في مُنافَراتِهم ومُفاخَراتِهم؛ فكانوا يَقْصِدُونَهم ليستشيرُوهُمْ ويَسْتَنْبِئُوهُم، ثُمَّ كانُوا يَصْدُرُونَ عَن رأيِهم، وربّما خالَفُوهم.

وما يُهِمُّنا مِن هؤلاءِ الكُهّانِ ما وصل إلينا مِن آثارهم الأدبيّة، ولذلك سنقفُ عند أمثلة من أقوالهم، لِنَرى كيف كانوا يتكلّمون، وما الظَّواهر الفنيّة في كلامهم.

فمن ذلك أنّ رُقَيَّةَ بِنْتَ جُشَمَ زَوْجَ عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ والدِ بَنِي عامرٍ ولَدَتْ لَهُ نُمَيْرًا وهِلالًا وسُواءَةَ، ثُمَّ حمَلَتْ فأتَتْ كاهِنَةَ ذِي الخَلَصَةِ فأَرَتْها بَطْنَها، فنظرَتْ إليها ومَسَّت بَطْنَها وقالت: **«رُبَّ قبائِلَ فِرَق، ومَجالِسَ حِلَق، وظُعُنٍ خُرُق، في بَطْنِكِ زُقّ»**، فلمّا جاءَها المَخاضُ قالت: «أعرِفُ ضَرِطِي بِهِلالٍ!»، أَيْ: هُوَ غُلامٌ كما أنّ هِلالًا كانَ غُلامًا.

ومنه أنَّ عَمْرَو بنَ بَرّاقَةَ الهَمْدانيّ – وكان شاعرًا صُعْلُوكًا- أراد الإغارةَ على رجلٍ مِنْ مُرادٍ يُقالُ له (حَرِيم)، فأَتى سَلْمَى الهَمْدانيّةَ يَسْتَشِيرُها، فقالت[1]: **«والخَفْوِ والوَمِيْض، والشَّفَقِ كالإِحْرِيض، والقُلَّةِ والحَضِيض! إنَّ حَرِيمًا لَمَنِيعُ الحِيْز، سَيِّدٌ مَزِيز، ذُو مَعْقِلٍ حَرِيز؛ غَيْرَ أَنِّي أَرى الحُمَّةَ سَتُظْفِرُ مِنْهُ بِعَثْرَة، بَطِيئَةِ الْجَبْرَة؛ فأَغِرْ ولا تُنْكَعْ»**، فأغارَ عمرٌو فاسْتاقَ كلَّ شَيْءٍ لَه.

---

[1] الخَفْوُ: اللَّمَعانُ الضَّعيف؛ والوَميض: أَشَدُّ لَمَعانًا مِنه. والإِحْرِيض: حِجارةُ النَّوْرَةِ (الكِلْس). والحِيْز: النّاحية. ومَزِيز: فاضل. والحُمَّة: القَدَر، واحِدَةُ الحِمام. وتُنْكَع: تُرَدّ.

ومنه أنّ زَبْراءَ القُضاعيّةَ الكاهنةَ أَنْذَرَتْ بَنِي رِئامٍ مِن غَزْوِ بَنِي ناعِبٍ وبَنِي واهِنٍ، فقالت[1]: **«واللَّوْحِ الخافِقِ، واللَّيْلِ الغاسِقِ، والصّباحِ الشّارِقِ، والنَّجْمِ الطّارِقِ، والمُزْنِ الدَّافِقِ! إنَّ شَجَرَ الوادِي لَيَأْدُو خَتْلا، ويَحْرُقُ أَنْيابًا عُصْلا، وإنَّ صَخْرَ الطَّوْدِ لَيُنْذِرُ ثُكْلا، لا تَجِدُونَ عَنْهُ مَعْلا»**؛ وكان في القَوْمِ سُكارَى، فسَخِرُوا منها، فطَرَقَهُمُ العَدُوُّ فقَتَلُوهُم.

ومنه ما كانَ مِن مُنافَرَةِ هاشِمِ بنِ عبدِ مَنافٍ وابنِ أَخِيهِ أُمَيَّةَ بنِ عبدِ شَمْسِ بنِ عبدِ مَناف، إذ أَتَيَا الكاهِنَ بنَ حبيبٍ الخُزاعيَّ - وكانَ عَلَى مَرْحَلَتَيْنِ مِنْ مَكّة- وكانَ معَ أُميّةَ والِدُ زَوْجِه أَبُو هَمْهَمَةَ بنُ عبدِ العُزَّى الفِهْريُّ، فقال الكاهن: **«والقَمَرِ الباهِرِ، والكوكبِ الزّاهِرِ، والغَمامِ الماطِرِ، وما بِالْجَوِّ مِن طائِرٍ! وما اهْتَدَى بعَلَمٍ مُسافِرٍ، مِنْ مُنْجِدٍ وغائِرٍ، لَقَدْ سَبَقَ هاشِمٌ أُميَّةَ إلى المَآثِرِ، أَوَّلٌ مِنْهُ وآخِرٍ، وأَبُو هَمْهَمَةَ بذلِكَ خابِرٍ»**، فقَضَى لهاشِمٍ بالغَلَبَةِ.

ومنه أنّ بني تميمٍ أغاروا على لَطِيمَةٍ[2] لِكِسْرَى، فأوقعَ بهم، وقَتَلَ المُقاتِلَةَ، فبلَغَ ذلك بني الحارثِ بنِ كعبٍ مِن مَذْحِج، وحالَفُوا قبائلَ أُخرى مِن اليَمَنِ وساروا يُرِيدُونَ بني تميمٍ، فحذَّرَهم سَلَمَةُ بن المُعَقَّلِ كاهنُ بني الحارِث فقال: **«إنّكم تَسِيرُونَ أَعْقابًا، وتَغْزُونَ أَحْبابًا، سَعْدًا ورِبابًا، وتَرِدونَ مِياهًا جِبابًا، فتَلْقَوْنَ عليها ضِرابًا، وتَكُونُ غَنِيمَتُكُمْ تُرابًا؛ فأَطِيعُوا أَمْرِي ولا تَغْزُوا تَمِيمًا!»**، فخالَفُوه، فقاتلَهُم بنو تميمٍ وهزَمُوهم هَزِيمَةً نَكْراءَ.

ومنه أنّ عبد المطّلب بن هاشم كان له ماءٌ بالطّائف يقال له (ذو الهَرِم) فغلبه عليه جُنْدُبُ بنُ الحارثِ الثّقفيُّ، فنافرهم عبدُ المطّلب إلى سَلَمَةَ بنِ أَبي حَيّةَ القُضاعيّ، وهو المعروف بعُزَّى سَلَمَة، وكانَ بالشّامِ، فخَبَّؤُوا له خَبِيئًا لِيَخْتَبِرُوه فعَرَفَه، فطلبوا إِلَيْهِ الحُكْمَ، فقال: **«أَحْكُمُ بالضِّياءِ والظُّلَم، والبَيْتِ والحَرَم! أَنَّ الماءَ ذا الهَرِم، للقُرَشِيِّ ذِي الكَرَم»**.

---

[1] اللَّوْح: الهواءُ الَّذي بين السّماء والأرض. يَأْدُو: يَخْتِلُ. وحَرَقَتْ أَنْيَابُه: حَكَّ بَعْضُها بَعْضًا. والعُصْلُ: المُعْوَجّة. والمَعْلُ: المَنْجَى.

[2] عِيْرٌ فيها تِجارةٌ مِنْ بَزٍّ وطِيْبٍ.

٣ - الظّواهر الفنيّة لسجع الكهّان:

هذه الأمثلةُ مِن آثار كُهّان الجاهليّة تُعطي صورةً لكلامِهم وظواهرِه الفَنِّيَّةِ شَكْلًا ومضمونًا.

أ- ظواهرُ الشَّكل:

يُلحَظُ أنّ أبرز ما في كلامهم من حيثُ الشّكلُ هو **ملازمَتُه السَّجْعَ**، حتّى قال الجاحظُ في بعضهم: «كان حازِي جُهَيْنةَ وشِقٌّ وسَطِيحٌ وعُزَّى سَلَمَة وأشباههم يتكهّنون ويحكمون بالأسجاع»، والحازي: الكاهن؛ وقد ضرَبَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بِسَجْعِهِمُ المثَلَ، إِذِ اقْتَتَلَتِ امرأتان مِن هُذَيْلٍ، فرمَتْ إحداهما الأُخرى بحَجَرٍ فأصابَتْ بطنَها وهيَ حامِلٌ، فقتلَتْ ولدَها، فقضى بأنْ يُودَى الطِّفْلُ غُرَّةَ عبدٍ أو أَمَةٍ، فقال وَلِيُّ المرأةِ الّتي غَرِمَتْ: **«كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لا شَرِبَ ولا أَكَل، ولا نَطَقَ ولا اسْتَهَلّ، فمِثْلُ ذلكَ يُطَلّ»**، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: **«إنَّ هذا مِن إخوانِ الكُهّان»**، وذلك بسبب سَجْعِه الَّذي سجَعَ؛ وهذا السّجع الَّذي يلازم كلامَهم يعتمدُ في الغالب على سَجْعَةٍ واحدة، على خِلافِ كلامِ الخُطَباء، فإنّهم يُنَوِّعون فيه.

وممّا نلاحظُ أيضًا **قِصَرُ عباراتهم وتوازنُها**، وهي في الغالبِ أقصرُ مِن عباراتِ الخطباء؛ بل إنّ أقوالَهم هذه جُمْلَةً تتميّزُ بالقِصَر، إذ لا تكادُ تصلُ إلى عَشْرِ سَجَعاتٍ في أطوَلِها إلّا نادرًا؛ وكلّ ذلك يوفّرُ لأقوالهم ما يَبْهَرُ السّامعَ ويؤثّرُ فيه.

وأمّا **خَلْطُ الشّعرِ بالنّثرِ** الَّذي تُلْحَظُ قلّتُه في خُطَبِ الجاهليّين، فقلّما نلقاهُ في آثارِ كهّانِهم أيضًا، وإن كانَ بَعْضُ تَكَهُّنِهم شِعرًا أحيانًا.

ب- ظواهرُ المضمون:

يُلحَظُ في سجع الكهّان من حيثُ المضمونُ: **كَثْرَةُ أَقْسامِهِم بمظاهرِ الطّبيعةِ** من نجومٍ وكواكبَ، وبَرْقٍ وغَمامٍ ورِياح، وحَيَوان، ونحو هذا؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ في هذه الأشياء قُوًى وأرواحًا خَفِيَّةً؛ ولأنّ الاعتماد على القَسَمِ مِن أساليبِ التّوكيدِ والمبالغة، فهم يؤثّرونَ بأَقْسامِهم هذه فيمَنْ جاء إليهم؛ وقد جاء القَسَمُ بمظاهرِ الطَّبيعةِ وغيرِها في القرآن الكريم كثيرًا

تَنْبيهًا على عَظَمَةِ الخالِقِ وتمهيدًا للأمر الَّذي تتناولُه الآياتُ بعدَ القَسَمِ، ولله تَعالى أَنْ يُقْسِمَ بِما شاءَ مِن خَلْقِه، ولكنْ لا أَثَرَ لِلْقَسَمِ بشيءٍ مِن ذلك في أحاديثِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهذا مِنَ الفَوارِقِ المُمَيِّزةِ لكلامِ الله سُبْحانَهُ مِنْ كلامِ رَسُولِه.

وتكثُرُ في كلامِهِمُ **الألفاظُ الغامِضةُ** الّتي ربّما ألجأهم إليها السّجع، وربّما لجؤوا إليها ليوفّروا لعباراتهم غموضًا يسمَحُ بتعدّد تأويلِها، وربما كانت كثرتُها لأنَّ معظمَهم مِنَ اليمن، وفي لغةِ اليمنِ ألفاظٌ ليسَتْ في لغةِ الشَّمال.

وبذلك روّج كُهّانُ الجاهليّة أقاويلَهم بأَسْجاعٍ كانت تروقُ السّامعين، فيَسْتَمِيلون بها القلوب، ويستَصْغُون إليها الأسماعَ، فكان لهم ذلكَ الأثرُ والسّيطرةُ على الجاهليّين، حتى جاء الإسلامُ فذمَّهم، ونَهى عن غِشْيانِهم، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: **«مَنْ أَتَى كاهِنًا أو عَرّافًا فقد كَفَرَ بما أُنزِلَ على مُحَمَّد»**، وعندما ذُكِرَ له أنّهم يُحَدِّثونَ أحيانًا بِشيء فيكونُ حقًّا قال: **«تِلْكَ الكلمةُ مِنَ الحَقِّ، يَخْطَفُها الْجِنِّيُّ، فَيُقِرُّها في أُذُنِ وَلِيِّه، فَيَخْلِطُونَ معَها مِئَةَ كَذْبَة»**.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

ثالثًا: الوَصايا الجاهليّة

١- تَعْرِيفُ الوَصِيَّةِ وبعضُ ما أُلِّفَ فِيها:

الوصيّةُ الأدبيّةُ ضَرْبٌ منَ الأدبِ الرّفيع، يحملُ مِنَ النّصائحِ ما يَتَوَخّى المُوصِي بها خَيْرَ المُوصَى، مِن أَمْرٍ بما يكون فيه خَيْرُه، ونَهْيٍ عمّا يكونُ فيه شَرُّه؛ والرُّجوعُ إلى الأصل اللُّغَويّ للوصيّة يكشِفُ جانبًا من تعريفِها ومِن هدفِها، فالعربُ تقول: وَصَيْتُ الشَّيْءَ بِغَيْرِهِ إذا وَصَلْتَه، ومنه يُقالُ: أَرْضٌ وَاصِيَةُ النَّبات إذا اتَّصَل نَباتُها، وفَلاةٌ وَاصِيةٌ إذا اتّصلَتْ بفَلاةٍ أُخرى، وكلُّ مَنْ كانَتْ بينَهُ وبينَ غيرِهِ صِلَةٌ فهو وَصِيُّهُ، ومِنْ ثَمَّ كان معنى (الوَصِيَّةِ) الصِّلةَ الّتي أَرادَ المُوصِي أَنْ يَصِلَ بها المُوصَى، وهي الصِّلَةُ بينَ الوَصِيِّ ووَصِيِّهِ.

وقد جاءَنا عنِ الجاهليّينَ مجموعةٌ مِن الوصايا شِعْرًا ونَثْرًا، حَفِظَها العرَبُ إلى ما بعدَ الإسلام، ومَدارُ الحَدِيثِ هُنا عَمّا جاءَ نَثْرًا، وقد أدرَكَ العلماءُ الأوائلُ قيمَتَها فخَصَّصوا لها كُتُبًا جَمَعُوها فيها، ككِتابِ (وصايا العرب) لهشامِ بنِ مُحَمَّدٍ الكَلْبيّ، و(الوصايا) لأَبي حاتِمٍ السَّجِستانِيّ، طُبِعَ مع كِتابِه (المُعَمَّرُون)، و(وَصايا المُلوكِ وأَنْباءُ أَبْناءِ المُلوك) أو (وصايا ملوك العرب في الجاهليّة) لأبي الطَّيِّبِ محمّد بن إسحاق بن يحيى النحويّ، ويُعرَفُ بابنِ الوَشّاءِ وهو مطبوع، وجُلُّ ما فيه مِن الوصايا والأشعار مُخْتَلَقٌ، ونُسِبَ لِدِعْبِلِ بنِ عليٍّ الخُزاعيّ الشّاعر، و(كتاب الوصايا) لأَبي حَنِيفةَ الدِّينَوَرِيّ؛ وفي هذا العصرِ جَمَعَ أحمد زَكِي صَفْوَت عددًا منها في كتابه (جَمْهَرَة خُطَبِ العَرَب)، وجَمَعَ مُحَمّد نايف الدُّلَيْمِيّ وَصايا العربِ في الجاهليّة والإسلام في كتابِه (جَمْهَرَة وَصايا العرب) في ثلاثة أجزاء، استأثَرَتْ وصايا الجاهليّةِ بِبَعْضِ الجُزْءِ الأَوَّل.

٢- دَواعِي الوصايا وأَمْثِلَةٌ مِنها:

يَلْحَظُ مُتَتَبِّعُ الوصايا الّتي وصلت إلينا من الجاهليّين أنّ الآباءَ والأمّهاتِ والملوكَ والسّادةَ والحكماءَ كانوا يُلْقُونَ وصاياهم إلى أبنائِهم وأبناءِ قبائلهم ومَنْ يُهِمُّهم فَلاحُهُمْ

ونَجاحُهُمْ، يُلَخِّصُون فيها تَجارِبَهُمْ في الحياةِ بعدَما عَرَكَتْهُمْ وعَرَكُوها، فذَاقُوا حُلْوَها ومُرَّها، وخَبِروا خَيْرَها وشَرَّها، وعرفوا شِدَّتها ولينَها.

وقد يتبادرُ إلى الأذهانِ أنَّ مِن شَرْطِ الوَصيَّةِ أَنْ يُلْقِيَها رَجُلٌ أَدْبَرَتْ عنه الحياةُ وأَقْبَلَ عليه الموتُ، فأَلْقَى وَصِيَّتَهُ كالمُوَدِّع، وليسَ هذا شَرْطًا ضَرُوريًّا، فقد تكون مِن حَيٍّ لا يَزالُ في عُنْفُوانِهِ إلى حَيٍّ مِثْلِهِ ولكِنْ تَنْقُصُهُ خِبْرَتُهُ؛ على أَنَّ جُلَّ ما وَصَلَ إلينا مِن وَصايا الجاهليِّينَ قالَهُ أُناسٌ مُعَمَّرُونَ.

ولا بُدَّ لمعرفةِ الوصايا الجاهليّة مِن الوقوفِ على بعضِ أمثلتها، لِلاطّلاع على بعضِ مضْمُونِها وبعضِ الظّواهر الفنّيّة الّتي قامت عليها.

أ- فمِن وصايا الجاهليّين عددٌ قليلٌ توجَّه بِهِ الآباءُ أو الأمّهاتُ إلى أبنائِهم أو بناتِهم حينَ أَقْبَلُوا على **الحياة الزّوجيّة**، ومِن أشهر تلك الوصايا وصيّةُ أُمامةَ بنتِ الحارثِ الشَّيْبانيّةِ امرأةِ عَوْفِ بن مُحَلِّم الشَّيْبانيّ حينَ أَرادوا حَمْلَ ابنتِها إلى الحارِثِ بنِ عَمْرٍو الكنديّ المَلِكِ، فقالت لها:

«أَيْ بُنيَّة! إنَّ الوصيّةَ لَوْ تُرِكَتْ لِفَضْلِ أَدَبٍ تُرِكَتْ لِذلِكِ مِنْكِ، ولكنَّها تَذْكِرَةٌ للغافِلِ، ومَعُونَةٌ للعاقِلِ؛ ولو أنَّ امرأةً اسْتَغْنَتْ عنِ الزَّوْجِ لِغِنى أَبَويْها، وشِدَّةِ حاجَتِهِما إلَيْها، كُنْتِ أَغْنى النّاسِ عنه، ولكنَّ النِّساءَ لِلرِّجالِ خُلِقْنَ، ولَهُنَّ خُلِقَ الرِّجالُ.

أَيْ بُنيَّة! إنّكِ فارَقْتِ الْجَوَّ الَّذي مِنْهُ خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الَّذي فيهِ دَرَجْتِ، إلى وَكْرٍ لَمْ تَعْرِفيهِ، وقَرِيْنٍ لَمْ تَأْلَفِيهِ، فأَصْبَحَ بِمُلْكِهِ عَلَيْكِ رَقيبًا ومَلِيكًا، فكُوني لَهُ أَمَةً يَكُنْ لَكِ عَبْدًا وَشِيْكًا!

يا بُنيّة! احْمِلِي عَنِّي خِصالًا عَشْرًا، تَكُنْ لَكِ فَخْرًا وَذِكْرًا:

- الصُّحْبَة بالقَناعَةِ، والمُعاشَرَة بِحُسْنِ السَّمْعِ والطَّاعَة.

- والتَّعهُّد لِمَوْقِعِ عَيْنِهِ، والتَّفَقُّد لِمَوْضِعِ أَنْفِهِ؛ فلا تَقَع عَيْنُهُ مِنْكِ عَلى قَبِيحٍ، ولا يَشَمّ مِنْكِ إلّا طِيبَ رِيحٍ؛ والكُحْلُ أَحْسَنُ الحُسْنِ المَوْجُودِ، والماءُ أَطْيَبُ الطِّيبِ المَفْقُودِ.

– والتَّعَهُّد لِوَقْتِ طَعامِهِ، والهُدُوُّ عِنْدَ مَنامِهِ؛ فإنَّ حَرارَةَ الْجُوعِ مَلْهَبَةٌ، وتَنْغِيصَ النَّوْمِ مَغْضَبَةٌ.

– والاحْتِفاظ بِبَيْتِهِ ومالِهِ، والرِّعاية عَلى نَفْسِهِ وحَشَمِهِ وعِيالِهِ؛ فإنَّ الاحْتِفاظَ بالمالِ حُسْنُ التَّقْدِيرِ، والإِرْعاءَ عَلى العِيالِ والحَشَمِ جَمِيلُ حُسْنِ التَّدْبِيرِ.

– ولا تُفْشِي لَهُ سِرًّا، ولا تَعْصِي لَهُ أَمْرًا؛ فإنَّكِ إِنْ أَفْشَيْتِ سِرَّهُ لَمْ تَأْمَنِي غَدْرَهُ، وإِنْ عَصَيْتِ أَمْرَهُ أَوْغَرْتِ صَدْرَهُ.

– ثُمَّ اتَّقِي مَعَ ذلِكِ الفَرَحَ إِنْ كانَ تَرِحًا، والاكْتِئابَ عِنْدَهُ إِنْ كانَ فَرِحًا؛ فإنَّ الخَصْلَةَ الأُولى مِنَ التَّقْصيرِ، والثّانيةَ مِنَ التَّكْديرِ؛ وكُونِي أَشَدَّ ما تَكُونِينَ لَهُ إِعْظامًا، يَكُنْ أَشَدَّ ما يَكُونُ لَكِ إِكْرامًا، وأَشَدَّ ما تَكُونِينَ لَهُ مُوافَقَةً، يَكُنْ أَطْوَلَ ما تَكُونِينَ لَهُ مُرافَقَةً؛ واعْلَمِي أَنَّكِ لا تَصِلِينَ إِلى ما تُحِبِّينَ حتّى تُؤْثِرِي رِضاهُ عَلى رِضاكِ، وهَواهُ عَلى هَواكِ، فِيما أَحْبَبْتِ وكَرِهْتِ؛ واللهُ يَخِيْرُ لَكِ!»، فحُمِلَتْ إليه، فعَظُمَ مَوْقِعُها منه، ووَلَدَتْ لَهُ مِنَ المُلُوكِ سَبْعَةً.

وأوصى أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ التَّمِيمِيُّ بَنِيهِ، فقال:

«يا بَنِيَّ! لا يَغْلِبَنَّكُمْ جَمالُ النِّساءِ عَنْ صَراحَةِ النَّسَبِ، فإنَّ المَناكِحَ الكَرِيمَةَ مَدْرَجَةٌ لِلشَّرَفِ».

ب– ومِنْ **وصايا المُلوكِ إلى أَبْنائِهِمْ** وَصِيَّةُ المُنْذِرِ بنِ المُنْذِرِ بنِ ماءِ السَّماءِ إلى ابنِهِ النّعمانِ، فقد دعاهُ وهو غلامٌ شابٌّ فقال:

«يا بُنَيّ! إنَّ لي فيكَ رَأْيًا دُونَ غَيْرِكَ مِنْ وَلَدِي، فإنِّي آمُرُكَ بما أَمَرَنِي بِهِ والِدِي، وأَنْهاكَ عَمّا نَهانِي عَنْه:

آمُرُكَ بالذُّلِّ في عِرْضِك، وذلكَ أَنْ تَكُونَ ذَلُولًا في المَعْرُوف، وعلَيْكَ الانْخِداعُ في مالِكَ.

وأُحِبُّ لكَ خَلْوَةَ اللَّيْلِ وطُولَ السَّمَرِ؛ وأَكْرَهُ لكَ إِخْلافَ الصَّديقِ واطِّرافَ المَعْرِفَةِ.

وأَنْهاكَ عَنْ مُلاحاةِ الحُكَماءِ، ومُزاحِ السُّفَهاءِ.

إِنَّ لكَ عَقْلًا وجَمالًا ولِسانًا؛ فاكْتَسِ مِنْ ثَناءِ النّاسِ ما يُؤَيِّدُ جَمالَكَ، ودَعِ الكَلامَ وأَنْتَ عَلَيْهِ قادِرٌ، ولْيَكُنْ لكَ مِنْ عَقْلِكَ خَبِيْءٌ تَدَّخِرُهُ أَبَدًا لِيَوْمِ حاجَتِك».

ج- وثَمَّةَ **وصايا** كان يُدْلِي بها **الآباءُ إلى أبنائِهم حين يَبْلُغونَ مِنَ العُمْرِ مَبْلَغًا يَتَوَقَّعُونَ فيهِ المَوْتَ بينَ لَيْلَةٍ وضُحاها**، فيشعُرون بأنَّ تَجْرِبَتَهم صارَتْ حَقًّا لأبنائِهم وعليهم أَنْ يُؤَدُّوهُ إليهم؛ فمِنْ ذلك أنَّ الحارِثَ بنَ كَعْبٍ - وقِيلَ: مالِكَ بنَ المُنْذِرِ البَجَلِيَّ، وكانَ عَلى دِينِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ - جَمَعَ بَنِيهِ فذَكَرَ لَهُمْ بَعْضَ أَخْلاقِهِ، ثُمَّ أَوْصاهُمْ، فقال في وَصِيَّتِه:

«... يا بَنِيَّ! كونوا جميعًا ولا تَفَرَّقُوا فتكُونُوا شِيَعًا، وإِنَّ مَوْتًا في عِزٍّ، خَيْرٌ مِنْ حياةٍ في ذُلٍّ وعَجْزٍ؛ وكلُّ ما هُوَ كائِنٌ كائِن، وكُلُّ جَمْعٍ إلى تَبايُن.

والدَّهْرُ صَرْفانِ: فصَرْفُ بَلاءٍ، وصَرْفُ رَخاءٍ، واليَوْمُ يَوْمانِ: فيَوْمُ حَبْرَةٍ، ويَوْمُ عَبْرَةٍ؛ والنَّاسُ رَجُلانِ: رَجُلٌ مَعَكَ، ورَجُلٌ عَلَيْكَ.

زَوِّجُوا النِّساءَ مِنَ الأَكْفاءِ، وَلْيَسْتَعْمِلْنَ في طِيبِهِنَّ الماءَ، وإِيّاكُمْ والحَمْقاءَ، فإِنَّ ولَدَها إلى أَفَنٍ ما يَكُونُ.

إِنَّهُ لا راحَةَ لِقاطِعِ القَرابَةِ؛ وإِذا اخْتَلَفَ القَوْمُ أَمْكَنُوا عَدُوَّهُمْ، وآفَةُ العَدَدِ اخْتِلافُ الكَلِمَةِ.

والتَّفَضُّلُ بالحَسَنَةِ يَقِي السَّيِّئَةَ، والمُكافَأَةُ بالسَّيِّئَةِ الدُّخُولُ فيها، والعَمَلُ بالسُّوءِ يُزِيلُ النَّعْماءَ، وقَطِيعَةُ الرَّحِمِ تُورِثُ الهَمَّ، وانْتِهاكُ الحُرْمَةِ يُزِيلُ النِّعْمَةَ، وعُقُوقُ الوالِدَيْنِ يُعْقِبُ النَّكَدَ، ويَمْحَقُ العَدَدَ، ويُخْرِبُ البَلَدَ؛ والنَّصِيحَةُ تَجُرُّ الفَضِيحَةَ، والحِقْدُ يَمْنَعُ الرِّفْدَ، ولُزُومُ الخَطِيَّةِ يُعْقِبُ البَلِيَّةَ، وسُوءُ الرِّعَةِ يَقْطَعُ أَسْبابَ المَنْفَعَةِ، والضَّغائِنُ تَدْعُو إلى التَّبايُنِ.

ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ[1]:

---

[1] الأَفَنُ: الفَسادُ وضَعْفُ الرَّأْي.

أَكَلْتُ شَبابِي فَأَفْنَيْتُهُ وأَنْضَيْتُ بَعْدَ دُهورٍ دُهورا
ثَلاثَةُ أَهْلِينَ صاحَبْتُهُمْ فَبادُوا وأَصْبَحْتُ شَيْخًا كَبيرا
قَليلَ الطَّعامِ حَسيرَ القِيا مِ قَدْ تَرَكَ الدَّهْرُ خَطْوِي قَصيرا».

د- وهناك **وصايا** تركَها مجموعةٌ مِنَ **السّادة لعشائرِهِمْ** عامّةً، فمن ذلك قولُ هُبَيْرَةَ بنِ صَخْرٍ الكلبيّ:

«يا بَنيَّ ويا عَشِيرَتَاه! أُوْصِيكُمْ بِتَقْوى اللهِ والصَّبْرِ على المَضَضِ، ففِيهِ الفَوْزُ، لا فَوْزُ القِسِيِّ.

حافِظُوا على الحُرَمِ، فإنَّ الهَلاكَ في الغَفْلَةِ عنها.

والفَشَلُ في التّخاذُلِ؛ غِيظُوا العَدُوَّ بإِظْهارِ السُّرورِ، وإِبْداعِ الأُمُورِ.

واذْكُرُوا المَجامِعَ والمَواسِمَ يَأْمَنْ سِرْبُكُمْ، فإنَّ المُحافَظَةَ أَمْنٌ.

وإنّما المُعَسْكَرُ لِمَنْ صَبَرَ.

ولْيُحَيِّكُمْ ربُّكُمْ!».

هـ - وهنالِكَ وصايا وجَّهَها حكيمٌ مِنَ الحكماء إلى قومٍ استشارُوه، منها ما كَتَبَ بِهِ أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ في رسالةٍ إلى جُهَيْنَةَ ومُزَيْنَةَ وأَسْلَمَ وخُزَاعَةَ، فقال:

«لا تَفَرَّقُوا في القَبائِلِ، فإنَّ الغَرِيبَ بِكُلِّ مَكانٍ مَظْلُومٌ؛ وإِيّاكُمْ والوَشائِظَ، فإنَّ الذِّلَّةَ معَ القِلَّةِ.

إنَّ العارِيَّةَ لَوْ سُئِلَتْ: أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟ لَقالَتْ: أَبْغِي أَهْلِي ذَمًّا.

مَنْ يَتَتَبَّعْ كُلَّ عَوْرَةٍ يَجِدْها.

والرَّسُولُ مُبلِّغٌ غَيْرُ مَلُومٍ، ...

أَشْرافُ القَوْمِ كالمُخِّ مِنَ الدَّابَّةِ، فإنَّما تَنُوءُ الدَّابَّةُ بِمُخِّها، ...

والدَّالُّ على الخَيْرِ كفاعِلِه.

والجَزَاءُ بِالجَزَاءِ، والبَادِئُ أَظْلَمُ.

والشَّرُّ يَبْدَؤُهُ صِغارُه».

٣-الظَّواهِرُ الفَنِّيَّةُ في الوَصايا الجاهليّة:

إنّ تدبُّرَ الوصايا السّالفةِ يَكْشِفُ عنِ الملامح العامَّةِ لوصايا الجاهليّين، في أشكالِها ومعانيها؛ فيُلْحَظُ أنّها **تتّسم بالإيجازِ والقِصَرِ في الغالب**، وهُوَ أمرٌ مُتَوقَّعٌ، لأنّ المُوصِي يريد لوصِيَّتِه أن تُحْفَظَ، بِمَعْنَى أنْ تُراعَى وتُطَبَّقَ ولا تُضَيَّعَ، وأَنْ يُحْفَظَ نَصُّها، وقد صَرَّح كثيرٌ مِنَ المُوصِينَ بهذا، فقال زُرارَةُ بنُ عُدُسٍ التّميمِيُّ وهو يُمَهِّدُ لوصيّته: **«خُذُوا مِنْ أَدَبِي واثْبُتُوا عِنْدَ أَمْرِي، واحْفَظُوا وَصِيَّتِي»**، وقال عَوْفُ بنُ كِنَانَةَ الكَلْبِيّ: **«يا بَنِيَّ! احْفَظُوا وَصِيَّتِي، فإنّها أَنْصَحُ الجِبِلَّةِ لَكُمْ، وإِنْ أَنْتُمْ حَفِظْتُمُوها سُدْتُمْ قَوْمَكُمْ بَعْدِي»**.

وممّا يُلْحَظُ أنّ **السَّجْعَ في وصاياهم أقلُّ منه في خُطَبِهم**، ذلكَ أَنَّ عددًا كبيرًا منها كانَ خاليًا من السَّجْعِ إلّا ما جاء اتِّفاقًا؛ ولكنَّ فيها وصايا اطَّرَدَ فيها السَّجْعُ كوصيّةِ أُمَامَةَ لابنَتِها، وكأنَّها أَرادَتْهَا وصيَّةً مُزَيَّنَةً كما تُزَيَّن العَرُوس؛ وثمّة وصايا يأتي فيها السَّجْعُ مَقْصُودًا ولكِنْ من غَيْرِ اطِّراد، وبعضُ السَّجْعِ كانَ يأْتِي داخِلِيًّا في العبارةِ الواحدة، مثل: «الذِّلّة معَ القِلَّة» و«المُعَسْكَرُ لِمَنْ صَبَرَ»؛ ومن فوائِدِ السَّجْعِ أَنَّهُ أَعانَ على حِفْظِ تلك الوصايا.

وجاءَتِ **الوصايا المسجوعَةُ متوازنَةَ العباراتِ** في الغالِب؛ وأمَّا **الشِّعْرُ فقَلَّما اقْتَرَنَ بوصاياهم المنثُورَة.**

وهذه الظّواهرُ في شَكْلِ وصاياهُمْ تَعْنِي أنَّ مِنْهُم مَنْ كان يتعمَّدُ التّنميقَ والصَّنْعَة اللّفظيّة، مُعْتَمِدًا على الفَنِّ للتَّأْثِيرِ فِيمَنْ يُلْقِي إليهِ بِوَصِيَّتِه.

وبالنَّظَرِ إلى معاني هذه الوصايا يُلْحَظُ في أسلوبِها **كَثْرَةَ اعتمادِها على صِيغَتَيِ الأمرِ والنَّهْيِ** مِن أساليبِ الإنشاء، وهما الصّيغتانِ المناسبتانِ لهذا النّوع مِنَ الأدب؛ لأنّ المُوصي إنّما يوجِّه المُوصَى، فيأمرُهُ بما فيه خَيْرُه ورَشادُه، ويَنْهَاهُ عمّا فيه ضُرُّهُ وفَسادُه؛ في حينَ كانَتِ الخُطْبَةُ تتميّزُ بتنوُّعِ أساليبِ الإنشاء فيها، مِن استفهامٍ ونداءٍ وتعجُّبٍ وتَمَنٍّ وأمرٍ ونهيٍ.

وممّا يُلْحَظُ أيضًا **قِلَّةُ اعتمادِ هذه الوصايا على الصُّوَرِ البيانيَّةِ**، من تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ، وإن كنّا لا نعدَم أمثلةً لذلك، كقول عَمْرِو بنِ الغَوْث بنِ طيِّئ: «**فارْعَوْا مَرْعَى الضَّبِّ الأعْوَر، يَرَى جُحْرَهُ ويَعْرِفُ قَدْرَه؛ ولا تَكُونُوا كالْجَراد، يَأْكُلُ ما وَجَدَ، ويَأْكُلُهُ ما وَجَدَه؛ وإيَّاكُمْ والبَغْيَ، فإنَّ اللهَ إذا أَرادَ هَلاكَ النَّمْلَةِ جَعَلَ لَها جَنَاحَيْنِ**»، وكقولِ صَعْبِ بنِ سَعْدِ العَشِيرَةِ: «**يا بَنِيّ! أَوْسِعُوا الحُبَّا، وحُلُّوا الرُّبا**»، فكَنَى عَنْ عِظَمِ الهِمَّة بسَعَةِ الحُبا، وعَنِ الأَمْرِ بإكرامِ الضّيفِ بالحُلولِ بالرَّبَواتِ لإيقادِ النّار.

وبعضُ هذه الوصايا **قد يَسْبِقُها كلامٌ يُمَهِّدُ بِهِ المُوصِي لِوَصِيَّتِه**، فيُظْهِرُ شدّةَ حَدَبِهِ وحُبِّه لأبنائِهِ وقومِه، وحِرْصَهُ على ما فيه صَلاحُهم، كما في وَصِيَّةِ أُمامَةَ ووَصِيَّةِ المُنْذِرِ لابنِهِ النُّعمان.

وممّا يميّزُ هذه الوصايا عامّةً **وضوحُ العِبارةِ واللَّفْظ**، فهذا يساعدُ على بلوغِ الهدف مِنَ الوصيّة، وهي تُشْبِهُ الخُطْبَةَ في ذلك، وتُخالِفُ سَجْعَ الكُهّان، لأنّ هدفَ الوصيّةِ والخُطْبَةِ الوَعْظُ والاعتبارُ والنُّصْح، وهدفَ سَجْعِ الكُهّانِ -في الغالبِ- التّهويلُ والتّهويم، فكانُوا يأتُونَ بما يجعلُ عباراتِهم غامضةً، ولذلك كانت أقْوالُهُمْ أقلَّ ما وصلَ إلينا من النّثر الجاهليّ.

وهذه الوصايا تتميّزُ **بدقّةِ المعنى وإحكامِهِ وتكثِيْفِهِ في ألفاظٍ قليلة**، فكانت هذه المزيّةُ إلى جانبِ وضوحِ ألفاظِها ومعانيها سببًا في ذهابِ عددٍ كبيرٍ من عباراتِهِمْ أمثالًا كما ذهبَتْ بَعْضُ عباراتِ الخُطباء.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

رابعًا: أمثال الجاهليّين وحِكَمُهم

١- تعريف:

المَثَلُ: قولٌ سائرٌ، قِيْلَ في مَقامٍ ما، بلفظٍ مُوجَزٍ، أو مَعْنًى دقيقٍ صائبٍ، أو تشبيهٍ حَسَنٍ، أو كنايةٍ لطيفة، فدار بين النّاسِ واستعملوهُ لِما يُشْبِهُ المَقامَ الَّذي قيلَ فيه أوّلَ ما قيل؛ وهُوَ مأخوذٌ مِنَ المُثُولِ بِمَعْنَى القيام، فكأنّهم أقاموا لَفْظَ (المَثَلِ) مَقامَ غيرِه، لِتَوافُقِ الحالينِ في المعنى.

والحِكْمَةُ: قولٌ بليغٌ مُوْجَزٌ، أصاب صاحِبُهُ الحقيقةَ فيما رَمَى إليه؛ وتَرْجِعُ الحكمةُ في معناها إلى العِلْمِ والإتقانِ والرَّدِّ عَنِ الْجَهْلِ والفَساد.

والفَرْقُ بين الحكمةِ والمَثَلِ أنّ المثَلَ ما شاعَ بين العامّةِ والخاصّة، ويُطْلَقُ على الحالِ وما شابَهَها، في حين لا تقع الحكمة إلّا على معنًى مِنَ المعاني في جانبٍ من جوانبِ الحياة، وتدور بين خاصّة النّاس دونَ عامّتهم، فإذا شاعَتْ وأشبهتِ المثَلَ في سَيْرُورتها سُمِّيَتْ مَثَلًا؛ ولذلك جمعت كتبُ الأمثالِ كثيرًا من الحِكَم، حتّى إنّ بعضَ العلماء عَرَّفَ الأمثالَ بأنّها الحِكَم؛ قال أبو عُبَيْدٍ القاسِمُ بنُ سَلّامٍ: «هذا كِتابُ الأمثالِ، وهي حِكْمَةُ العرب في الجاهليّة والإسلام، وبها كانت تُعارِضُ كلامَها، فتبلُغُ بها ما حاولَتْ مِن حاجاتِها في المَنْطِقِ بكنايةٍ غَيْرِ تَصْريحٍ، ...».

وإذا كانتِ الوصايا والخُطَبُ وسَجْعُ الكُهّانِ مُعَرَّضةً لاختلافِ الرّواية -وإنْ كانَ ذلك الاختلافُ غَيْرَ واسِعٍ- فإنّ الأمثالَ والحِكَمَ قلَّما وقع فيها ذلك؛ لأنّ مِن عادةِ العَرَبِ أَنْ يُجْرُوا الأمثالَ والحِكَمَ بألفاظِها من غَيْرِ أَنْ يُغَيِّروا صِيغَتَها، ولأنّها قصيرةٌ مُوجَزَةٌ، دائرةٌ بينَ النّاس، حتّى إنّ كثيرًا مِن النّاس يستعملونها على هَيْئَتِها وهم لا يعرفون سببَ قَوْلِها ولا خَبَرَه.

٢- التّأليفُ في الأمثال:

جاءَ الإسلامُ وعلى ألسنةِ العَرَب ما لا يكادُ يُحْصَى- مِنَ الأمثال والحِكَمِ الموروثة عن الجاهليّين، ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتّى بدأت الجهود لتصنيفِ تلكَ الحِكَم والأمثال في كُتُبٍ

مُفْرَدَة؛ بَلْ إنّ **مِنَ الحِكَمِ ما كانَ مُدَوَّنًا قَبْلَ الإسلام**، ففي خبرِ سُوَيْدِ بنِ الصّامِتِ الأَوْسِيّ أنّه قَدِمَ مكّةَ حاجًّا أو مُعْتَمِرًا، فدعاه النّبيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ إلى الإسلام، فقال سُوَيْدٌ: «لعلّ الَّذي مَعَكَ مِثْلُ الَّذي معي، فقال: وما الَّذي معك؟ قال: مَجَلَّةُ لُقْمانَ، يَعْنِي حِكْمَةَ لقمان»، والمَجَلَّةُ: الكِتاب، مُشْتَقَّة مِنْ (جَلَّ) إذا عَظُمَ، ولذلك قِيلَ: لا يُطْلَقُ لفظُ (المَجَلّة) على الكِتابِ إلّا أنْ يَكُونَ كِتابَ حِكْمَةٍ، لِجَلالِ الحِكْمَةِ وعِظَمِ شَأْنِها، ورُوِيَ عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ أنّه قال: «قرأْتُ مِن حِكْمَةِ لُقْمانَ أَرْجَحَ مِن عَشَرَةِ آلافِ بابٍ».

وفي **القرنِ الأوّلِ** ألّفَ كلٌّ مِنْ عُبَيْدِ بنِ شَرْيَة الجُرْهُميّ (٦٧ هـ)، وعِلاقةِ بنِ كِرْشِمٍ – ويُقال: كَرْسَم – الكِلابيّ (كان حيًّا قبل سنة ٦٤ هـ)، وصُحارِ بنِ عَيّاشٍ العبديّ (٤٠ هـ) كتابًا في الأمثال، وقد بقيَتْ هذه الكتبُ بين أيدي النّاس حتّى نقَلَ عنها أبو عُبَيْدٍ البَكْريُّ الأندلسيّ (٤٨٧ هـ) في كتابه (فَصْل المَقال)، وذكر ابنُ النّديم (توفِّيَ بعد ٣٧٧ هـ) أنّه رأى كتاب عُبَيْدٍ في نحو خمسين ورقة.

وفي **القرنِ الثّاني** أَلَّفَ في الأمثالِ كلٌّ مِن الشَّرْقيِّ بنِ القُطاميّ الكلبيّ، والمُفَضَّلِ الضَّبِّيّ، وأبي عَمْرٍو الشّيبانيّ، وأبي عُبيدة، والأصمعيِّ، وأبي زيدٍ الأنصاريّ، وأبي عُبَيْدٍ القاسمِ بنِ سلاّم، وغيرهم.

ثمّ تتابعتِ المؤلَّفاتُ بعدَ ذلك حتّى بلغَتْ كتُبُ الأمثال الّتي اعتمد عليها أبو الفضل أحمد بن محمّد المَيْدانيّ أكثرَ من خمسين كتابًا؛ ومِنْ أَجْمَعِ كتبِ الأمثالِ الّتي وصلت إلينا كتاب (جَمْهَرَة الأمثال) لأبي هلالٍ العسكريّ، و(مَجْمَع الأمثال) للميدانيّ، و(المُسْتَقْصَى في الأمثال) للزّمخشريّ؛ وقد اعتمدت هذه الكتب الجامعةُ على ترتيبِ الأمثال ترتيبًا معجميًّا، فتداخَلَتْ أمثالُ الجاهليّةِ وما بعدها، فصار «مِنَ الصّعبِ تمييزُ جاهليِّها مِنْ إسلامِيِّها في كثيرٍ مِن الأحيان»، إلّا أَنْ يكونَ في قصّة المَثَلِ ما يَدُلُّ على جاهليّته مِن حوادثِ الجاهليّة أو أسماءِ أعلامها، أو ما يخصّهم مِن مُعْتَقَداتٍ وعادات.

٣- أشهرُ حُكَماء الجاهليّة:

إنّ أسماءَ كثيرٍ مِن قائلي الأمثالِ والحِكَم مَجْهُولَةٌ، إمّا لِقِدَمِ المثَلِ، وإمّا لأنّ قائلَه مِن عامّة العرب، غَيْرَ أنّ كثيرًا مِن الحِكَمِ والأمثالِ الجاهليّةِ نطَقَ بها أُناسٌ عُرِفوا بالحكمةِ وسِعَةِ التّجربةِ في قبائلِهم، فكانوا يلجؤونَ إليهم فيما ينشأُ بينهم مِن خصامٍ ونِزاع، فكانوا حُكّامَهُم القُضاةَ بَيْنَهُم، إلى جانبِ أَنَّهُم حُكَماؤُهم؛ فَعُدَّ مِن قُدماءِ حُكَمائهم لُقْمانُ عادٍ فيما كانَ مُتَداوَلًا بَيْنَ الْجاهِلِيِّينَ مِنْ قَصَصٍ حَوْلَ عادٍ، وكان فيهم بَعْدُ حُكَماءُ وحُكّامٌ، **ففي اليَمَنِ** مَثَلًا: الأَفْعَى الْجُرْهُمِيُّ وعَمْرُو بنُ حُمَمَةَ الدَّوْسِيُّ، **وفي تَمِيمٍ**: أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ وحاجِبُ بنُ زُرَارَةَ والأَقْرَعُ بنُ حابِسٍ وضَمْرَةُ بنُ ضَمْرَةَ ورَبِيعَةُ بنُ مُخاشِنٍ، **وفي قَيْسِ عَيْلانَ**: عامرُ بنُ الظَّرِبِ العَدْوانيّ وغَيْلانُ بنُ سَلَمَةَ الثّقفيُّ، **وفي قُرَيْشٍ**: عبدُ المُطَّلِبِ بنُ هاشِمٍ وابنُهُ أَبو طالِبٍ والعاصُ بنُ وائلٍ، **وفي بَنِي أَسَدٍ**: رَبِيعَةُ بنُ حُذارٍ وابنُهُ سُوَيْدٌ؛ **وفي كِنانَةَ**: يَعْمُرُ الشَّدّاخُ وصَفْوانُ بنُ أُمَيّة؛ **وكانت فيهم حكيماتٌ حاكِماتٌ** مشهوراتٌ، منهنّ: صُحْر بنتُ لُقمانِ عادٍ، وهند بنتُ الخُسِّ، وجُمْعَةُ بنتُ حابِس، وابنةُ عامرِ بنِ الظَّرِبِ.

٤- أمثلة من أمثال الجاهليّين وحِكَمِهم:

مِمّا رُوِيَ عَن أَكْثَمَ بنِ صَيْفِيٍّ قَوْلُهُ لِبَنِيه: «**... عَلَيْكُمْ بالبِرِّ فإنَّهُ يُنْمِي العَدَد، وكُفُّوا أَلْسِنَتَكُمْ فإنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْه؛ إنَّ قَوْلَ الحَقِّ لَمْ يَدَعْ لي صَدِيقًا...؛ لَمْ يَهْلِكْ مِنْ مالِكَ ما وَعَظَكَ؛ وَيْلٌ لِعالِمِ أَمْرٍ مِنْ جاهِلِهِ؛ الوَحْشَةُ ذَهابُ الأَعْلامِ؛ يَتَشابَهُ الأَمْرُ إذا أَقْبَلَ، فإذا أَدْبَرَ عَرَفَهُ الأَحْمَقُ والكَيِّس؛ البَطَرُ عِنْدَ الرَّخاءِ حُمْقٌ...**»، أَرادَ بالأعلامِ العُظَماءَ، وقولُه: « **... رُبَّ قَوْلٍ أَنْفَذُ مِنْ صَوْل، والحُرُّ حُرٌّ وإنْ مَسَّهُ الضُّرُّ...؛ حافِظْ على الصّديقِ ولَوْ في الحَريق؛ ولَيْسَ مِنَ العَدْلِ سُرْعَةُ العَذْل**».

ومِمّا رُوِيَ لِعامر بنِ الظَّرِبِ قولُهُ لِقَوْمِهِ وقَدِ اجْتَمَعُوا إلَيْهِ حينَ كَبِرَ وخافُوا مَوْتَهُ، وطَلَبُوا إلَيْهِ الوَصيَّةَ[1]: «**مَنْ جَمَعَ بينَ الحقِّ والباطِلِ لَمْ يَجْتَمِعا لَه، وكانَ الباطِلُ أَوْلَى بِه، وإنَّ الحقَّ لَمْ يَزَلْ يَنْفِرْ مِنَ الباطِلِ، ولَمْ يَزَلِ الباطِلُ يَنْفِرُ مِنَ الحقِّ؛ لا تَفْرَحُوا بالعِلْق، ولا تَشْمَتُوا بالزَّلَّة؛ وبِكُلِّ عَيْشٍ يَعِيشُ الفَقِيرُ؛ ومَنْ يُرِ يَوْمًا يُرَ بِه؛ وأَعِدُّوا لِكُلِّ أَمْرٍ قَدْرَه، قَبْلَ الرِّماءِ تُمْلَأُ الكَنائِنُ، ...**».

ومِن أمثالِهم: «**(إنَّ الْجَبانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ)**، الحَتْفُ: الهَلاكُ...؛ قالَ ابنُ الكَلْبيّ: أَوَّلُ مَنْ قالَهُ عَمْرُو بنُ مَامَةَ[2] في شِعْرٍ لَه، وكانَتْ (مُرادٌ) قَتَلَتْهُ، فقالَ هذا الشّعرَ عندَ ذلك، وهُوَ قَوْلُه:

لَقَدْ حَسَوْتُ المَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ ... إنَّ الْجَبانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

والثَّوْرُ يَحْمي أَنْفَهُ بِرَوْقِهِ

يُضْرَبُ في قِلَّةِ نَفْعِ الحَذَرِ مِنَ القَدَر...».

ومِنْها قَوْلُهم: «**(أَتَتْكَ بِحائِنٍ رِجْلاهُ)**، كانَ المُفَضَّلُ [الضَّبِّيُّ] يُخْبِرُ بقائلِ هذا المَثَلِ فقال: إنّهُ الحارِثُ بنُ جَبَلَةَ الغَسّانيّ، قالَهُ لِلْحارِثِ بنِ عَيِّفٍ العَبْدِيِّ، وكانَ ابنُ العَيِّفِ قد هَجاه، فلمّا غَزا الحارِثُ بنُ جَبَلَةَ المُنْذِرَ بنَ ماءِ السّماءِ كانَ ابنُ العَيِّفِ مَعَه، فَقُتِلَ المُنْذِرُ، وتفرَّقَتْ جُموعُه، وأُسِرَ ابنُ العَيِّف فأُتِيَ به الحارثُ بنُ جَبَلَة، فعندها قال: (أَتَتْكَ بِحائنٍ رِجْلاهُ)، يَعْنِي مَسِيرَهُ معَ المُنْذِرِ...؛ وقِيلَ أَوّلُ مَنْ قالَهُ عَبِيدُ بنُ الأَبْرَصِ حينَ عَرَضَ للنُّعْمانِ بنِ المُنْذِرِ في يَوْمِ بُؤْسِهِ، وكانَ قَصَدَهُ لِيَمْدَحَهُ، ولم يَعْرِفْ أَنَّهُ يَوْمُ بُؤْسِهِ، فلمّا انتهى إلَيْهِ قالَ لَهُ النُّعمان: ما جاءَ بِكَ يا عَبِيدُ؟ قال: أَتَتْكَ بِحائِنٍ رِجْلاهُ...».

ومنها قولُهم: «**أيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ**»، وأَوَّلُ مَنْ قالَهُ النّابغةُ حينَ قال:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ، أَيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ

---

[1] العِلْقُ: الشَّيْءُ النَّفِيسُ. والرِّماءُ: المُراماةُ بالسِّهام. والكَنائِنُ: جَمْعُ الكِنانَةِ، وهِيَ جَعْبَةُ السِّهام.

[2] أَخُو عَمْرِو بنِ هِنْد مَلِكِ الحِيرةِ.

ومِن أمثالِـهمُ الـمَشهورة: «**مَنْ أَجْـدَبَ انْتَجَـعَ**»، و«**ومَـنِ اسْـتَرْعَى الـذِّئْبَ فَقَـدْ ظَلَـمَ**»، و«**الذَّوْدُ إِلَى الذَّوْدِ إِبِلٌ**»، و«**رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا**»، و«**أَسْـمَعُ جَعْجَعَةً وَلا أَرَى طِحْنًا**»، و«**إِنَّ البُغَاثَ بِأَرْضِنا تَـسْتَنْسِرُ**»، و«**أَعْـطِ القَـوْسَ بارِيْهـا**»، و«**عِنْـدَ (جُهَيْنَـةَ) الخَبَرُ اليَقِـينُ**»، و«**تَسْـمَعَ بالـمُعَيْدِيِّ خَـيْرٌ مِـنْ أَنْ تَـراهُ**»، و«**الصَّـيْفَ ضَـيَّعْتِ اللَّـبَنَ**»، و«**جَـزاءُ (سِـنِمَّارَ)**»، و«**مَواعِيـدُ (عُرْقُوبٍ)**»، و«**مُجِيرُ (أُمِّ عامِرٍ)**».

٥- الظَّواهِرُ الفنّيّةُ للأمثالِ والحِكَمِ الجاهليّة:

يدُلُّ النّظرُ في الأمثالِ والحِكَمِ السَّابِقَةِ وفي غيرها على مجموعةٍ مِنَ الظّواهر الفنّيّةِ لِحِكَم الجاهليّينَ وأمثالِـهم، شَكْلًا ومَضْمُونًا.

أ- ظَواهِرُ في الشَّكْل:

يُلْحَظُ أَنّها **تتميَّزُ بالـقِصَرِ والإيجاز**، وأنّ أغلَبَها يتكوّن مِن جُمْلَةٍ واحِـدَةٍ لا غـيرَ، وإِنْ كـان ثَمَّةَ أمثالٌ تتجاوزُ ذلك، كقولِـهِمْ: « **العَبْدُ يُقْرَعُ بالعَصا، والحُرُّ تَكْفِيهِ الإِشـارَة**»، وقولِـهم: « **إِنَّ الحَمَاةَ أُوْلِعَتْ بالكَنَّةِ، وأُوْلِعَتْ كَنَّتُهَا بالظَّنَّة**».

ويُلْحَظُ أنّ قِسْمًا كبيرًا منهـا تتـوافرُ لـه **عنـاصِرُ مُوسيقيَّةٌ مِـنْ وَزْنٍ أَوْ سَـجْعٍ أَوْ جِنَـاسٍ**، ويغلِبُ على الأمثالِ الـمَوْزُونةِ أَنْ تَكُـونَ أَبْعـاضَ أَبْيـاتٍ مـن الشّعر، كقـولِـهِمْ: «**أَعْـطِ القَـوْسَ بارِيْها**»، فإنّ أصلَه قولُ الشّاعر:

يا بارِيَ القَوْسِ بَرْيًا لَسْتَ تُحْسِنُهَا ... لا تُفْسِدَنْها، وأَعْطِ القَوْسَ بارِيْها

وقَوْلِـهِمْ: «**قَدْ قِيلَ ذَلِكَ إِنْ صِدْقًا وإِنْ كَذِبًا**»، أَصْـلُهُ قَوْلُ النُّعْمانِ بنِ الـمُنْذِرِ للرَّبِيعِ بنِ زِيادٍ العَبْسِيّ مِنْ أَبياتٍ:

قَدْ قيلَ ذلِكَ إِنْ صِدْقًا وإِنْ كَذِبًا ... فَما اعْتِذارُكَ مِنْ شَيْءٍ إِذا قيْلا؟

وقولِـهِمْ: «**لِأَمْرٍ ما يُسَوَّدُ مَنْ يَسُودُ**»، و«**لَمّا اسْتَدَّ ساعِدُهُ رَماني**».

ومِمّا جاء مَسْجُوعًا أو مُجانَسًا قولُهم: **«اللَّيْلُ أَخْفَى لِلْوَيْل»**، و**«لِكُلِّ ساقِطَةٍ لَاقِطَةٌ»**، و**«لَجَّ فَحَجَّ»**، و**«لَوْ قُلْتُ: تَمْرَة، لَقالَ: جَمْرَة»**، و**«لَا فِي العِيرِ، ولَا فِي النَّفِيرِ»**، وقولُهم: **«لَأَشْأَنَنَّ شَأْنَهُمْ»** أَيْ: لَأُفْسِدَنَّهُ، وشَأَنَهُ: إذا أَصابَ شُؤُونَ رَأْسِهِ، وهي قِطَعُ الْجُمْجُمة، و**«لِكُلِّ مَقامٍ مَقَالٌ»**.

ومِمّا يُلْحَظُ في الأمثالِ أَيْضًا **مُخالَفَةُ القِياسِ في النَّحْوِ والصَّرْفِ في بَعْضِها**، وهو نادِرٌ؛ إذِ اسْتَجازُوا فيها مِنَ الحَذْفِ وغَيْرِهِ مِمّا يَقَعُ في ضَرائرِ الشّعرِ مالم يَسْتَجِيزُوهُ في سائِرِ كَلامِهِم؛ كقولِهم: **«أَجْنَاؤُها أَبْناؤُها»**، فجَمَعُوا (الجاني) على (أجناء)، و(الباني) على (أبناء)، وإنّما جَمْعُهُما (جُناةٌ) و(بُناةٌ)، ولكنَّ قائلَ المَثَلِ هكذا نَطَقَ به فحَفِظُوهُ بِلَفْظِه؛ وكقولِهِمْ: **«أَعْطِ القَوْسَ بارِيْهَا»** بسُكونِ الياءِ مِن (باريْها) لأنّها هكذا وردَتْ في الشّعرِ الَّذي أُخِذَ مِنْهُ المَثَلُ؛ وقولِهِمْ: **«خُذِ اللِّصَّ قَبْلَ يَأْخُذَكَ»** فنصَبُوا (يأخُذَك) بـ(أنْ) مُضْمَرَةٍ؛ وقولِهِمْ: **«تَسْمَعَ بالمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ»** بِنَصْبِ (تَسْمَعَ) بـ(أَنْ) مُضْمَرَةٍ؛ وقَوْلِهِمْ على لِسانِ الحَجَلَةِ تُخاطِبُ القَطَا فيما صاغُوه على لِسانِ الحَيوانِ مِن أمثالِهم: **«قَطَا قَطا! بَيْضُكِ ثِنْتا، وبَيْضِي مِئَتا»** أَيْ: (ثِنْتَانِ) و(مِئَتانِ).

ومِمّا سارَتْ علَيْهِ العربُ في الأمثالِ أَنّها **تُجْرِيها كما جاءَتْ ولا** تُغَيِّرُها **عن لفظها الأوّل**، كما في هذه الأمثالِ السّابقةِ المُخالِفَةِ للقياس، وكما في قولهم: **«الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ»** بكَسْرِ التّاء، يقولُونَهُ للمذكَّرِ والمؤنَّث، وللْمُفْرَدِ والمثَنَّى والجمع؛ وكما في قولهم: **«يَداكَ أَوْكَتا وفُوْكَ نَفَخ»** يقولونَهُ للمذكَّرِ والمؤنّث، وللمُفْرَدِ والمثنّى والجمع.

ب- ظواهِرُ في المَضْمون:

لاحَظَ النُّقّادُ مُنْذُ القَدِيمِ أنَّ **الأمثالَ حِينَ تُطْلَقُ إنّما يُرادُ بها تَشْبِيهُ حالٍ بحالٍ، أو يُرادُ الكِنايةُ بالمَثَلِ عَنْ معنًى ما**، ولذلكَ قالَ المُبَرِّدُ فيما نقل عنه الميدانيّ: «المَثَلُ مأخوذٌ مِنَ المِثالِ، وهُوَ قَوْلٌ سائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حالُ الثّاني بالأَوَّلِ، والأَصْلُ فيهِ التَّشْبِيهُ»، وذكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ القاسِمُ بنُ سَلّامٍ أنّه اجْتَمعَ للعَرَبِ في أمثالِها: «إيجازُ اللَّفْظِ، وإصابةُ المَعْنَى، وحُسْنُ التَّشْبِيهِ»،

ووصفَها (إبراهيمُ النَّظّامُ) بأنّها نِهايةُ البَلاغَةِ، لِاشْتِمالِها على: «إيجازِ اللّفظ، وإصابةِ المعنى، وحُسْنِ التّشبيه، وجَودةِ الكِناية».

وهذا الحُكْمُ النّقديّ واقعٌ على المَثَلِ حينَ يُتَمَثّلُ به، ولا يَخْرُجُ عن هذا الحُكْمِ أَيُّ مَثَلٍ؛ وأمّا الأمثالُ والحِكَمُ نفسُها فإنّ منها ما لا يقعُ فيه تشبيهٌ ولا استعارةٌ ولا كنايةٌ، كقولهم: **«إِنْ لَمْ تَغْلِبْ فَاخْلِبْ»**، و**«أَمْرَ مُبْكِياتِكِ لا أَمْرَ مُضْحِكاتِك»**، و**«إِذا ضَرَبْتَ فَأَوْجِع، وإِذا زَجَرْتَ فَأَسْمِعْ»**.

ومنها ما يَعْتَمِدُ على التّصويرِ مِن تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ،كقولهم: **«تَجُوعُ الحُرَّةُ ولا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْها»**، و**«كالمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضاءِ بالنّارِ»**، و**«مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ ظَلَمَ»**، و**«اتَّخَذَ اللَّيْلَ جَمَلًا»**.

بل إنّ **مِن أمثالِهم ما اعتمدوا فيه على قِصَصٍ خَياليّةٍ أَجْرَوْها على ألسنةِ البهائم** كما فعَلَتِ الأُمَمُ الأُخرى، كقولِهِمْ -إذا كانَ مِمّا عَرَفُوهُ مِن الأَمثالِ قَبْلَ الإسلام-: **«إِنّما أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الأَبْيَضُ»**، قالَ المَيْدانِيّ: «يُرْوَى أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنينَ عَلِيًّا رضيَ اللهُ تَعالى عنه قالَ: إِنَّما مَثَلي ومَثَلُ عُثْمانَ كَمَثَلِ أَثْوارٍ ثَلاثَةٍ كُنَّ في أَجَمَةٍ أَبْيَضَ وأَسْوَدَ وأَحْمَرَ، ومَعَهُنَّ فيها أَسَدٌ، فكانَ لا يَقْدِرُ مِنْهُنَّ عَلى شَيْءٍ لِاجْتِماعِهِنَّ عليه؛ فقالَ لِلثَّوْرِ الأَسْوَدِ والثَّوْرِ الأَحْمَرِ: لا يُدِلُّ عَلَيْنَا في أَجَمَتِنا إِلّا الثَّوْرُ الأَبْيَضُ، فإِنَّ لَوْنَهُ مَشْهُورٌ ولَوْنِي عَلى لَوْنِكُما، فلَوْ تَرَكْتُمانِي آكُلُهُ صَفَتْ لَنا الأَجَمَةُ؛ فقالا: دُونَكَ فَكُلْهُ! فأَكَلَهُ، ثُمَّ قالَ لِلْأَحْمَرِ: لَوْنِي عَلى لَوْنِكَ، فَدَعْنِي آكُلِ الأَسْوَدَ لِتَصْفُوَ لَنا الأَجَمَةُ؛ فقال: دُونَكَ فَكُلْهُ! فأَكَلَهُ، ثُمَّ قالَ لِلْأَحْمَرِ: إِنِّي آكِلُكَ لا مَحالَةَ! فقالَ: دَعْنِي أُنادِي ثَلاثًا؛ فقالَ: افْعَلْ! فنادَى: أَلا إِنِّي أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الأَبْيَضُ؛ ثُمَّ قالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ تَعالى عَنْهُ: أَلا إِنِّي هُنْتُ -ويُرْوَى: وَهَنْتُ - يَوْمَ قُتِلَ عُثْمانُ، يَرْفَعُ بِها صَوْتَهُ؛ يَضْرِبُهُ الرَّجُلُ يُرْزَأُ بِأَخِيهِ»؛ وقولُهُمْ: **«بَقِيَ أَشَدُّه»**، قال الميدانيّ: «ويُرْوَى: (**بَقِيَ شَدُّهُ**)؛ قيل: كانَ مِنْ شَأْنِ هذا المَثَل أَنَّهُ كان في الزَّمانِ الأَوَّلِ هِرٌّ أَفْنَى الجِرْذَانَ وشَرَّدَها، فاجْتَمَعَ ما بَقِيَ منها فقالَتْ: هَلْ مِنْ حِيلَةٍ نَحْتَالُ بِها لِهذا الهِرِّ لَعَلَّنا نَنْجُو منه؟ فاجتَمَعَ رأيُها عَلى أَنْ تُعَلِّقَ في رَقَبَتِهِ جُلْجُلًا إِذا تَحَرَّكَ لَها سَمِعْنَ صَوْتَ الجُلْجُلِ فأَخَذْنَ حَذَرَهُنَّ؛ فَجِئْنَ بالجُلْجُلِ، فقالَ بَعْضُهُنَّ: أَيُّنا يُعَلِّقُ الآنَ؟ فقالَ الآخَرُ: (بَقِيَ أَشَدُّهُ)،

أَوْ قال: شَدُّهُ؛ يُضْرَبُ عندَ الأمرِ يَبْقَى أَصْعَبُه وأَهْوَلُه؛ وهذا ممّا تمثَّلَ بهِ العرَبُ عن أَلْسُنِ البَهائِم»؛ وقولُهم: «**الحَذَرُ قبلَ إرسالِ السَّهْمِ**» قالَ الميدانيّ: « تَزْعُمُ العَرَبُ أنَّ الغُرابَ أرادَ ابنُهُ أَنْ يَطِيرَ، فرَأَى رَجُلًا قَدْ فَوَّقَ سَهْمًا لِيَرْمِيَهُ فَطارَ، فقالَ أَبُوهُ: اتَّئِدْ حتّى تَعْلَمَ ما يُريدُ الرَّجُلُ؛ فقالَ لَهُ: يا أَبَتِ! الحَذَرُ قَبْلَ إِرْسالِ السَّهْمِ»[1].

ولا يَخْفَى على النّاظر **أَثَرُ البيئةِ العربيّةِ في كثيرٍ مِن أمثالِهم**، إذ يَظْهَرُ فيها أَثَرُ حياتِهم وبيئاتِهمُ المُختلفةِ وحيوانِها ونباتِها وما إلى ذلك، كما في قولهم: «**إنْ تَسْلَمِ الجِلَّةُ فالنِّيبُ هَدَر**»، والجِلَّةُ: الإبِلُ العظيمة، والنِّيب: النّوقُ المُسِنَّة، و«**إنّكَ لَعالِمٌ بِمَنابِتِ القَصِيصِ**»، القَصِيصُ: شُجَيْرَةٌ تَنْبُتُ عِنْدَ الكَمْأَة، و«**أَنْ تَرِدَ الماءَ بِماءٍ أَكْيَسُ**».

فهذا أَبْرَزُ ما يبدُو مِن ظواهِرَ فنيَّةٍ في أمثالِ العَرَبِ وحِكَمِهِمُ الّتي جادَتْ بها قَرائحُهم فدارَتْ على ألسِنَتِهِمْ، لِيَكُونَ ذلكَ «أَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ، وآنَقَ لِلسَّمْعِ، وأَوْسَعَ لِشُعُوبِ الحديثِ».

[1] فوَّقَ السَّهمَ: وَضَعَ فُوقَهُ في الوَتَرِ؛ والفُوقُ: مَوضِعُ الوَتَرِ مِنَ السَّهْمِ.

أعلام الشّعراء الجاهليّين

كان الشّعراء في الجاهليّة على طبقاتٍ عدّةٍ في إجادةِ الشّعر، فمنهم الفُحولُ ومَن هم دُونَ ذلك، كما هي حالُ الشّعراء في كلّ العصور، حتّى إنّ مِن أسبابِ ضياعِ كثيرٍ من الشّعرِ الجاهليّ وسقوطِه أنّه لم يكن يستحقّ الحفظ كما هي حالُ الشّعر في العصورِ الأُخرى؛ وقد غلبَت على بعضِ الشّعراءِ أغراضٌ دُون أغراض، لأسبابٍ تتعلّقُ بطبيعة حياتهم الحضريّة أو البدويّة أو الدّينيّة أو بظروفِهم الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة أو السّياسيّة، إذ كان منهم البدويُّ والقَرويُّ، والمُتحنّفُ والكتابيُّ والمُشْرِكُ، والشّريف والوَضيع، والغنيّ والفقيرُ، والسيّدُ والمَسُود؛ وفيما يأتي تَصنيفٌ لشعراء الجاهليّة بحسَبِ ما سبق، وتعريفُ بعضِ أعلامهم، وقد **أفدنا ذلك من كتب التّراجم ومقدّمات دواوين الشّعراء والموسوعات**:

١. فحول الشّعراء:

منهم: **امرُؤ القيسِ بنُ حُجْرِ بنِ الحارث الكِنْديّ**: وهو من بني آكل المُرَار، وكانُوا مِن ملوكِ العرب، إذ كان جدُّه وأبوه وأعمامُه ملوكًا على عدد مِن قبائلِ العربِ الشَّماليّين لأسبابٍ ذكرها المؤرّخون؛ وكان أبوه ملِكًا على بني أسدٍ وغَطَفان، وأمُّه أخت كُلَيبٍ سيّدِ تغلِب وبكر ابنَي وائل قبل أن يفترِقا بسبب مَقتَلِه، وخاله الآخَرُ المهلهل الشّاعر؛ وقد قال الشّعرَ وهو غلام، وجعل يشبّب ويلهو ويعاشر صعاليكَ (فقراءَ) العرب، فبلغ ذلك أباه، فنهاه فلم ينتَهِ، فأبعَدَه إلى (دَمُّون) بحضرموتَ في اليمَن، موطنِ آبائه وعشيرته الأوّل، فأقام فيها ثمّ جعل يتنقّل مع أصحابه في أحياء العرب، يشرب ويطرب ويغزو ويلهو، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه لِبَغْيِهِ عليهم، فبلغه ذلك وهو جالس للشّراب فقال: ضيّعَني صغيرًا وحمّلني دمه كبيرًا، لا صَحْوَ اليوم ولا سُكْرَ غدًا! اليومَ خَمْرٌ وغدًا أَمْرٌ! ونهض من غده فلم يزل يسعى حتّى ثأر لأبيه، وقال في ذلك شعرًا كثيرًا؛ ولاحَقَهُ ملِكُ الحِيرةِ المنذرُ بنُ ماءِ السّماء، فلجأ إلى بعض القبائلِ ثمّ لجأ أخيرًا إلى ملك الرُّوم ليُعينَه على استردادِ مُلكِ آبائه، وماتَ مسمومًا بعد عودتِه مِن عِندِه.

وهو من شعراء الطّبقة الأولى من الجاهليّين، وله ديوان مشروح شروحًا عدّةً مطبوعة، وأجودُها شرحُ السُّكّريّ الّذي جمع شروحَ الأصمعيِّ وأبي عمرٍو الشّيبانيّ وغيرِهما من العلماء الرُّواة، وآخر بشرح الأعلم الشّنتمريّ مُفرَدًا مِن أشعار الشّعراء السّتّة الجاهليّين.

النّابغة الذّبيانيّ زياد بن معاوية الذُّبيانيّ الغطفانيّ المُضَريّ، أبو أُمامة؛ من شعراء الطّبقة الأولى، كانت تُضْرَب له قبّةٌ بِسُوقِ عُكاظ فتقصده الشّعراء لتَعْرِضَ عليه أشعارها؛ وكان أبو عمرو بن العلاء يفضّله على سائر الشّعراء، وهو أحد الأشراف في الجاهليّة، وكان حَظِيًّا عند ملك الحِيرة النّعمان بن المنذر إلى أن غضب عليهِ لمَدحِه بعض ملوك غسّان بالشّام، وقيلَ لِتغزُّله بامرأتِه، وسَعْيِ بعضِ مُنافِسيه للإيقاعِ بينهما، فغاب عنه زمنًا، ثمّ رضيَ عنه فعاد إليه.

وشعره كثير، وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلُّفَ في شعره ولا حشو؛ وله ديوان مطبوعٌ طبعاتٍ عدّة، إحداها بشرح ثعلب، وأخرى بشرح الأعلم الشّنتمريّ مُفرَدة مِن أشعار الشّعراء السّتّة الجاهليّين.

زُهَيْرُ بن أبي سُلْمى ربيعةَ بنِ رياح المُزَنيّ: مِن مُضَر بن نِزار، حكيم الشّعراء في الجاهليّة، وهو من شعراء الطّبقة الأولى، وفي أئمّة الأدب مَن يفضّله على شعراء العرب كافّة، كان أبوه شاعرًا، وخالُ أبيه بَشامة بن الغدير شاعرًا، وأخته سلمى شاعرة، وأخته الخنساء شاعرة وهي غيرُ الخنساء السُّلَميّة الشّهيرة، وابناه كعب وبُجَيْر شاعرين.

وكان ينظم بعض قصائده في شهر وينقّحها ويهذّبها في سنة، فكانت تُسمَّى (الحوليّات)؛ وله ديوان مطبوعٌ بشرح الأعلم الشنتمريّ مُفرَدًا مِن أشعار الشّعراء السّتّة الجاهليّين.

الأعشى مَيْمُون بن قيس بن جندل: من بني قيس بن ثعلبة مِن بكر بن وائل، مِن ربيعةَ بن نِزار، أبو بَصِير، يُعرَف بأعشى قيس، ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير، ولُقِّب بالأعشى لضعف بصره؛ وهو من شعراء الطّبقة الأولى، وكان كثير الوفود على الملوك من العرب وغيرِهم، غزير الشّعر، يَسْلُك فيه كلَّ مَسْلَك، وليس أحد ممَّن عُرِف قبلَه أكثر شعرًا منه؛

وكان يغنّي بشعره، ويُلَقَّبُ بـ(صنّاجة العرب)؛ وعاش عمرًا طويلًا فأدرَكَ الإسلام ومدح الرّسول وأرادَ الوفود عليه لولا أنّ قُرَيشًا صرفته، فأرجأ وفودَه فمات قبلَ أن يَفِد.

وله ديوان مطبوع طبعات عدّة بشرح ثعلب إحداها بتحقيق الدّكتور محمّد محمّد حُسَيْن، وكان طبَعَه قبلَه أحد المستشرقين، وأجودُها بتحقيق الدكتور محمود الرّضوانيّ.

أَوْسُ بن حَجَر التّميميّ: أبو شُرَيح، شاعر تميم في الجاهليّة، وكان شاعِرَ مُضَر كلِّها قبلَ أن يظهر النّابغة وزُهَيْر، ورأى ابن سلّامٍ الجمحيّ أنّه ليس أقلّ من أصحاب الطّبقة الأولى، وإنّما جعلَه في الطّبقة الثّانية لأنّه جعل كلَّ طبقة أربعة شعراء؛ وهو زوج أمّ زهير بن أبي سُلمى؛ وكان كثير الأسفار، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند، في الحيرة، ولم يدرك الإسلام.

وفي شعره حكمة ورقّة، وكانت تميم تقدّمه على سائر شعراء العرب؛ له ديوان مطبوع جمعه الدّكتور محمّد يوسف نجم.

بِشْرُ بن أبي خازم الأسديّ: أبو نَوْفَل، من بني أسد بن خزيمة، مِن أهل نجد، شاعر فحل، من الفرسان الشّجعان؛ وله قصائد جِيادٌ في الفخر والحماسة، ومات قتيلًا في غزوة أغار بها على بني صعصعة بن معاوية.

وله ديوان جمعه الدّكتور عزّة حَسَن.

طَرَفة بن العبد البكريّ: من شعراء ربيعة بن نزار، ولد في بادية البحرَيْن، وتنقّل في بقاع نجد، واتّصل بالملك عمرو بن هند فجعله مع المتلمِّسِ الضُّبَعيّ في ندماء أخيه قابوس، فساءَته سيرتُه، فهجاهما، فأرسله بكتاب إلى المُكَعْبِر (عامله على البحرين وعُمان) يأمره فيه بقتله، فقتله في (هَجَر) شابًّا، قيل: كان ابن عشرين عامًا، وقيل: ابن ستّة وعشرين.

وهو من أصحاب المعلّقات، وله ديوان مطبوعٌ بشرح الأعلم الشنتمريّ مُفرَدًا مِن أشعار الشّعراء السّتّة الجاهليّين.

عَبِيد بن الأبرص الأسديّ: من شعراء مُضَر، من دُهاةِ الجاهليّة وحكمائها، عاصر أمرَأَ القيس، وبينهما مُساجَلاتٌ شعريّة حين قتلت بنو أسدٍ أبا امرئ القيس؛ وعُمِّر طويلًا حتّى قتله

أحد ملوك الحِيرة وقد وفَدَ عليه في يوم بُؤْسِه؛ وشعرُه كثير الحكمة، يغلب عليه اهتمامه بأمور قومه.

ومن العلماء من جعل بائيّتَهُ من المعلّقات، له ديوان مطبوع حقّقه أحد المستشرقين، ثمّ حقّقه الدّكتور محمّد عليّ دقّة.

علقمة بن عَبَدة التّميميّ: كان معاصرًا لامرئ القيس، وبينهما مُساجَلةٌ شعريّة، قيل إنّه لُقِّب بالفحل لتغلّبه على امرئ القيس، وقيل للتّمييز بينه وبين شاعر تميميّ آخَر يُلَقَّب بعلقمة الخَصِيّ هو أبو الوضّاح علقمة بن سهل أحد بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم؛ ووفد الفحلُ على أحد ملوك غسّان لفكّ أخيه من الأسر، فمدحه وأطلقه له.

وله ديوان مطبوعٌ بشرح الأعلم الشّنتمريّ مُفرَدًا مِن أشعار الشّعراء السّتّة الجاهليّين.

المُخبَّل، ربيع بن مالك بن ربيعة بن عَوْف **السَّعديّ التّميميّ**: أبو يزيد، من بني أنف النّاقة، من مخضرمي الجاهليّة والإسلام، هاجر إلى البصرة، وعُمِّر طويلًا في الجاهليّة وكان ممّن نازَعَ الزِّبْرِقانَ بنَ بَدْرٍ التّميميّ الرّئاسةَ، وبينهما مُهاجاةٌ، ومات في خلافة عمر أو عثمان.

وجمع شعره بعض المعاصرين.

الحارث بن حِلِّزة اليَشكريّ البكريّ: من أهل بادية العراق، كان أبرص فَخُورًا، وفي الأمثال (أفخَرُ مِن الحارث بن حلّزة)، ارتجل قصيدته الهمزيّة الّتي تُعَدّ من المعلَّقات بين يدَيْ عمرو بن هند الملك بالحيرة في الدّفاع عن قومه بني بكر في أمرٍ وقع بين بكرٍ وتغلب بعد الصّلح بينهما، جمع فيها كثيرًا من أخبار العرب ووقائعهم؛ وكان مِن المُعَمَّرين.

ووصل إلينا قليلٌ مِن شعرِه، وأجودهُ المعلّقة الهمزيّة؛ وله ديوان جمعه بعض المعاصرين.

سُوَيد بن أبي كاهل اليشكريّ البكريّ: أبو سعد، من مخضرمي الجاهليّة والإسلام، وعُمِّر في الإسلام زمنًا طويلًا، وكان يسكن بادية العراق.

وأشهر شعره عينيَّته الّتي كانت تُسَمَّى في الجاهليّة (اليتيمة) وهي من القصائد الطّوال، ويبدو أنّه كان يزيدُ عليها بعد إسلامه، وحفظ الرّواة منها نيّفًا ومئة بيت؛ وله ديوان جمعه بعض المعاصرين.

المتلمّس جَرير بن عبد العزّى -أو عبد المسيح- الضُّبَعيّ: من بني ضُبَيعة بن ربيعة بن نزار: قيل هو خالُ طرفة بن العبد، ولكنّ اسم أمّ طَرَفة: وَردة بنت قتادة بن مشنوء بن عمرو بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة، وهذا ينفي أن يكونَ المتلمّس خالَهُ، بحسب ما هو شائعٌ؛ لأنَّ المتلمِّسَ من بني ضُبَيعة بن ربيعة بن نزار؛ إلّا أن تكون بين المتلمّس وأُمّ طَرَفة قَرابةٌ من جهة النِّساءِ، فقيل: إنَّه خالُهُ لهذه القرابة، وليس خَالَهُ أَخا أمّه؛ وفي الأمثال (أشأَمُ مِن صحيفة المتلمّس)، وهي كتاب حمله من عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين، وفيه الأمر بقتله، ففضّه وقُرئ له ما فيه، فقذفه في نهر الحيرة، ونجا.

ومعظم ما بقي من شعره مرتبط بخبره وخبر طرفة مع ابن هند وأمر الصّحيفة ومقتلِ طرفة وفِرارِ المتلمّس وتحريضه بني بكر، إلى جانب قليل من القصائد والمقطّعات في الفخر والمدح ورثائه لنفسه؛ وله ديوان مطبوع برواية الأثرم عن الأصمعيّ وأبي عُبَيْدة وأبي عمرٍو الشّيبانيّ.

المُسيِّب بن عَلَس: من ربيعة بن نزار، والمُسَيِّب -بكسر الياء، وقيل بفتحها- لَقَبُه، واسمه زُهَيْر، وكنيته أبو فضّة؛ وكان أحد المُقِلّين المُفَضَّلين في الجاهليّة؛ وهو خال الأعشى مَيْمُون، وكان الأعشى راويتَه فتأثّر به كثيرًا حتّى تداخَلَ بعضُ شعرِهما، وقد سمَّهُ بعض العَجَمِ فمات.

وله ديوان مطبوع جمعه الدّكتور عبد الرّحمن الوَصيفيّ.

عمرو بن قَمِيئة البكريّ: شاعر جاهليّ متقدِّم، أقام في الحيرة مدَّة، وصحب حُجْرًا أبا امرئ القيس الشّاعر، وخرج مع امرئ القيس حين توجّه إلى قيصر طلَبًا لِمُلْكِ آبائه، فمات في الطّريق، فكان يُقال له (الضّائع).

وفي شعره مدحٌ وفخر وغزل وحكمة، وكان واسع الخيال؛ وله ديوان حقّقه حسن كامل الصيرفيّ.

النَّمِر بن تَوْلَب العُكليّ: من المخضرَمين، عاش طويلًا في الجاهليّة، وكان فيها شاعر الرِّباب، ولم يمدح أحدًا ولا هجا، وكان فارسًا مِن ذَوِي النّعمة والوجاهة ومِن أجواد العرب المذكورين، كثيرَ الأضياف، وهَّابًا لِمالِه؛ وأدرك الإسلام وهو كبير السّنّ، ووفد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وروى عنه حديثًا؛ وعاش إلى أن خَرِفَ فكان هِجِّيراهُ: (اقْرُوا الضَّيْفَ، أَنِيخُوا الرّاكبَ، انْحَرُوا له!)؛ وعدّه السَّجستانيّ في المُعَمَّرين؛ وفي المؤرّخين مَن يذكر أنّه نزل البصرة (وقد بُنِيَتْ في أيّام عُمَر).

وكان شعرُه يُشبَّه بشعر حاتم الطائيّ لجودته ومعانيه، كان أبو عمرو بن العلاء يسمّيه (الكيِّس) لحسن شعره وجودته؛ له ديوان جمعه الدّكتور نوري حمّودي القيسيّ.

كعب بن زُهَيْر بن أبي سُلْمى المُزَنيّ: شاعر عالي الطّبقة، كان ممّن اشتُهِر في الجاهليّة، ولـمّا ظهر الإسلام أسلم أخوه بُجَيْرٌ، ولم يُسلِم، وهجا النّبيّ ﷺ وأقام يشبّب بنساء المسلمين، فهدر النبيّ دمَه، فلمّا كان فتحُ مكّة كتب إليه أخوه أنّ النّبيّ يعفو عمّن جاءَه تائبًا، فجاء مُستأمِنًا وقد أسلم، وأنشده لاميّتَه المشهورةَ التي مطلعُها: (بانَتْ سُعادُ فقلبي اليومَ مَتْبولُ) فعفا عنه النّبيّ ﷺ وخلع عليه بُردَتَه؛ وهو مِن أسرةٍ عَرِيقة في الشّعر: أبوه زهير بن أبي سلمى، وأخوه بُجَيْر، وابنه عُقْبة، وحفيدُه العَوّام، كلُّهم شعراء.

وله ديوان مطبوع صنعه أبو سعيد السّكّريّ.

الحُطَيْئَة جَرْوَلُ بن أوس العبسيّ: من المُخَضْرَمين، وكان هجّاء، لم يكد يَسْلَمُ من لسانه أحد، حتّى إنّه هجا أمه وأباه وزوجه ونفسَه، وأكثرَ مِن هجاء الزِّبرقان بن بدر بتحريضٍ مِن منافسِيه في الرّئاسة، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه بالمدينة، فاستعطفه بأبيات، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس، فقال: إذًا تموت عيالي جوعًا! فاشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم، وأخذ عليه ألاّ يهجُوَ أحدًا منهم بعدئذٍ.

وهو من فحول الشّعراء المعدودين، كان راويةً لشعر زهيرٍ وابنه كعب، وفي شعره أغراضٌ كثيرةٌ أجاد فيها وأحسن؛ وله ديوان مطبوع من صنعة ابن السِّكِّيت والسُّكَّريّ والسِّجِستانيّ، حقّقه نعمان طه.

لَبِيد بن ربيعة العامريّ: أحد الشّعراء الفرسان الأشراف في الجاهليّة، من أسرةٍ سادَت بَني عامر بن صعصعة؛ وأدرك الإسلام ووفد على النّبيّ ﷺ، وعاش عمرًا طويلًا؛ وكان خيرَ شاعرٍ لقومِه، يمدح سادتَهم، ويرثيهم، ويذكر مآثرَهم، وهو أحد أصحاب المعلّقات؛ وكان كريمًا نَذَرَ ألّا تَهُبّ الصَّبا إلّا نَحَرَ وأطعم.

وجُمع شعره في ديوان حقّقه الدّكتور إحسان عبّاس.

النّابغة الجَعْدِيّ قيس بن عبد الله العامريّ: شاعر مُفْلِق، صحابيّ، من المُعَمَّرين؛ اشتُهِر في الجاهليّة، وكان ممّن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل الإسلام، ووفد على النبيّ ﷺ فأسلم ومدحَه؛ وكان يَفِدُ على الخلفاء، وَرَدَ على عمر وعثمان رضي الله عنهما، وله معهما أخبارٌ حِسان، وشارك في الفتوح، ومات في أصبهان أيّام معاوية، وقد كُفّ بصره، وجاوز المئة والعشرين.

وله ديوان جمعه بعض المعاصرين.

أبو ذُؤَيْب الهُذَليّ خُوَيْلِد بن خالد: مِن مُضَر، شاعر فحل، مخضرَم، وفد على النّبيّ ﷺ ليلةَ وفاته، فأدركه وهو مُسَجًّى وشَهِدَ دَفْنَه، واشترك في الفتوح، وعاش إلى أيّام عثمان فشهد فتح إفريقيّة؛ وأشهَرُ شعرِه عينيّةٌ رثى بها خمسة أبناء له أُصِيبوا بالطّاعون في عام واحد؛ قال البغداديُّ: هو أشعر هُذَيْلٍ غَيْرَ مُدافَع.

وله ديوان مطبوعٌ مُفرَدًا مِن ديوان هُذَيْل.

الشّمّاخ بن ضِرار الذُّبيانيّ: اسمه مَعْقِل بن ضرار، والشّمّاخ لقبه؛ شاعر مخضرَم، شارك في الفتوح أيّام عمر بن الخطّاب، وشهد القادسية، ثمّ شارك في فتح أذربيجان، فاستُشْهِد في غزوة مُوقانَ في خلافة عثمان بن عفان؛ وكان شديد متون الشّعر، ومِن أَرْجَزِ النّاس على البديهة؛

واشتُهِر بوصف القَوْسِ والحُمُرِ الوحشيّة، وتُعَدّ قصيدته الرّائيّة الّتي وصف فيها القوسَ والقوّاسَ دُرّةَ شعره.

وجُمِعَ شعره في ديوان حقّقه الدّكتور صلاح الدّين الهادي.

٢- الشّعراء الحنفاء:

هم الّذين كانوا يَرَونَ أنّهم على ما بقيَ مِن دينِ إبراهيم عليه السّلام؛ وأصلُ التّسمية مِن الحَنَف وهو المَيْل، أي المَيْل عمّا كان عليهِ المُشرِكون مِن عبادة الأصنام والأوثان إلى توحِيدِ الله تعالى، وقد وصفَ الله تعالى إبراهيم بأنّه ﴿كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمران: ٦٧]؛ ويقع الاضطراب في نسبة بعضِ أشعارِهم بينهم لتشابُه موضوعاتِهم الدّينيّة.

منهم: **زيد بن عمرو بن نُفَيل بن عبد العُزّى بنِ رِياح العَدَويّ القُرشيّ**: أحد الحكماء الحنفاء الموحِّدين من شعراء الجاهليّة؛ اعتزل عبادة الأوثان وعابَها، وامتنع من أكل ما ذُبِح لها، ثمّ رحل إلى الموصِلِ والجزيرةِ والشّام باحثًا عن الدّين الحقّ فلم يَرضَ باليهوديّة ولا النّصرانيّة، فعاد إلى مكّة يعبد الله على دين إبراهيم عليه السّلام، وكان يرفض وأد البنات، لا يعلم بِبنتٍ يُراد وَأْدُها إلّا قصد أباها فكفاه مَؤُنتَها، حتّى إذا كَبِرَتْ أعادها إلى أبيها، أو زوَّجَها؛ وكان رئيسَ بني عديٍّ في حربِ الفِجَارِ الأوّل بين قُرَيشٍ وهَوازِن.

ولمّا كان بالشّام أخبره بعض الرُّهبان باقترابُ بعثةِ النَّبيِّ فأقبلَ مسرعًا يريد مكّةَ، فلمّا توسَّطَ أرضَ لَخْمٍ -وقيل أرضَ جُذامٍ- عَدَوْا عليه فقتلوه، وذلك قبلَ بِضعِ سنينَ مِن البَعثَةِ؛ وسُئِل عنه النّبيُّ ﷺ فقال: يُبعَث يومَ القيامة أُمَّةً وَحْدَه؛ وله شعر قليلٌ مجموع.

ورَقةُ بنُ نَوْفَلِ بن أسَد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ بنِ كِلاب الأسَديّ القُرَشيّ: كانَ أوّلًا مِن الحُنفاء، ثُمَّ طافَ في أنحاء عدّة مِن البلاد في جزيرة العرب والشّام والجزيرة يطلبُ الدّينَ، فتعلّم الكتابة والقراءةَ بلغةِ أهل الكتاب إلى جانب الكتابة بالعربيّة، وتنصَّر في وقتٍ متأخّرٍ من حياتِه، وأدرك بَعْثَةَ النّبيّ وصدّقَه وماتَ بعد وقتٍ قصيرٍ؛ ولذلك يَعُدُّه بعضُ العلماء مِن الصّحابة، وبَعضُهم يَعُدُّه مِن أهل الفَتْرَة؛ وله شِعرٌ مجموعٌ.

أميّة بن أبي الصَّلْتِ الثّقفيّ: ولد في الطّائف في بيت يجمع العزّ والشَّرف، فأبوه شاعر كان سيّدًا في قومه، ووالدتُه رُقَيّة بنت عبد شمس بن عبد مَناف بن قُصَيّ. بن كِلابٍ من شريفات قُريش؛ وهو ممّن حرّموا على أنفسهم الخمر ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهليّة؛ وكان تاجِرًا، قَدِمَ دمشق قبل الإسلام، ولقيَ الرُّهبانَ، واطّلع على الكتب القديمة، ولم يقتنع بما كان عليه أهل الكتاب، وعَلِم منهم أنّ هنالكَ نبيًّا يُبعَثُ في بِلاد العرب، فرجا أن يكونَ هُو؛ ولـمّا بُعِثَ النّبيّ ﷺ قدِم إلى مكّة وسمع منه آيات من القرآن الكريم، وانصرف عنه، فتبعَتْه قُريش تسألُه عن رأيه فيه؛ فقال: أشهد أنّه على الحقّ؛ قالوا: فهل تتّبعه؟ فقال: حتى أنظُرَ في أمره؛ وخرج إلى الشّام، وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وحدثت وقعةُ بَدْرٍ في السّنة الثّانية، وعاد أمية من الشّام يريدُ الإسلام، فعَلِمَ بمَقْتَلِ مَن قُتِل مِن المشركين في بدرٍ وفيهم ابنا خالٍ له، فامتنع، ورثى قتلى الـمُشرِكين؛ ثمّ أقام في الطّائف إلى أن مات.

وأخبارُه كثيرة؛ وبعضُ شعرِه من الطّبقة الأُولى، وله ديوانٌ صُنِع قديمًا، ولكنّه ممّا ضاعَ مِن دواوين الشّعراء، ثمّ جُمِع في القرنِ العشرين مرّاتٍ عدّةً أجودُها وأعلاها ما جمعَه وحقّقه ودرَسَه الأستاذ الدّكتور عبد الحفيظ السّطليّ رحمه الله.

عامر بن الظَّرِب العَدوانيّ: عَلَمٌ مِن الخطباء البلغاء والرُّؤساء قادة الجيوش، كان حَكَمَ مُضَرَ وفارسَها، وهو ممّن حَرّم الخمر في الجاهليّة، ولقّبوه بـ(حَكَم العرب) أو (قاضي العرب) و(ذي الحِلْم)، وكانوا لا يَعْدِلُون بفهمه فهمًا ولا بحكمه حُكْمًا، وهو أوّل مَن جلس على مِنْبَرٍ أو سريرٍ وتكلّم، فسمَّوه (ذا الأَعواد)، وأوّل مَن قُرِعَت له العصا، وفيه قيل: (إن العصا قرعت لذي الحلم)، ويُعَدّ أحدَ الـمُعَمَّرين.

وجُمِعت أشعارُه في (ديوان الشُّعراء الـمُعَمَّرين).

٣- الشّعراء الفُرسان ووُصّاف الخيل:

مِنهم **أبو دُؤاد جاريةُ بن الحجّاج الاياديّ**: من الشّعراء الـمُقِلّين، وهو أحد نُعّاتِ الخيل الـمُجيدين، وكان يُربّي الخيل لنفسه ويتعهّدها لغيره، فكان على خَيْلِ بعضِ ملوك المناذرة؛

وجاور كعبَ بن أمامة الإياديّ السّيّدَ الـجَواد، فكـان إذا هلـك لأبي دُؤادٍ شيءٌ مِـن مالِـه أخلفَـه، فضُرِب المثل به فقالوا : (كجار أبي دُؤاد)، وقيل: إنّ جارَه هو الحارث بن هَـمّـام بن مُرّة بن ذُهْل بن شَيْبان.

وله ديوان شعر شرحَه ابنُ السِّكِّيت قديمًا، وأُعِيد جمعُه وتحقيقُه حديثًا.

طُفَيل بنُ عَوْفِ بنِ كعبٍ الغَنَويّ: مِن قبيلة غَنِيّ مِـن قَـيْسِ عَـيْلان؛ شـاعر فحـلٌ قـديمٌ، يُقال إنّه من أقدَمِ شعراء قيس عيلان، وكان مِن سادة قومه وأغنيائهم وفرسانهم الشّجعان؛ وقـد أكثرت كتب أنساب الخيل من الاستشهاد بشعره، لخبرته بالخيل وأوصافها وأمراضـها ودَوائهـا، ولقّب بـ(طُفيل الخيل) لكثـرة وصـفه إيّاهـا، وبـ(الـمُحبِّر) لجـودة شـعره ولحسـن وصـفه الخيـل، وهـذا يَعني أنّـه كـان ممّـن ينقّحـون أشـعارهم ويعيـدون النّظـر فيهـا، وروى شـعرَهُ زُهيـر بـن أبي سُلمى.

وطُبع ديوانه بشرح الأصمعيّ مرّاتٍ عدّة.

سَلَامة بنُ جَنْدَلٍ بنِ عبدِ عَمْرٍو التَّميميّ: أبو مالك، شاعرٌ مُجيدٌ فحلٌ مُقِلّ، مـن فرسـان تمـيمٍ المعـدودين، وينتمـي إلى أسرة عُـرِف عـدد منهـا بالشّـعر والفروسـيّة، فـأبوه فـارس شـاعر، وكذلك أخوه أحمرُ بن جندل، وقيل إن الشعر استمرّ في عقبـه، في ولـده (عسعس)؛وسـلَامةُ مـن وُصّاف الخيل في الجاهليّة.

وقـد أكثـر اللُّغويّـون الاستشـهاد بشـعره، وجمـع شـعرَه كـلٌّ مِـن الأصـمعيّ وأبي عمـرٍو الشّيباني، وحققّه الدّكتور فخر الدّين قباوة، وله طبعات أُخرى.

الـحُصَين بنُ حُمامِ بنِ ربيعة الـمُرّيّ الذُّبيانيّ: أبو يزيد، شاعر مُقِلّ، وفارس مذكور، كـان سيّد بني سهم بن مُرّة (من ذُبْيان)، يُعَدُّ مِن أوفيـاءِ العـرب، ويُلَقَّـب بـ(مانِع الضَّـيْم)، وهـو ممّـن نبذوا عبادة الأوثان في الجاهليّة؛ قال أبو عُبَيدة: "اتّفقوا على أنَّ أشعر الـمُقِلّين في الجاهليّة ثلاثـة: المسيّب بن عَلَس، والمتلمِّس، وحُصَين بن الـحُمام الـمُرّيّ"؛ ومات قُبَيل ظهور الإسـلام، وقيـل: أدرك الإسلام.

وله ديوان جمعه بعض المعاصرين.

عامر بن الطُّفَيل العامريّ: أحدُ شُعراء بني عامر بن صعصعة، وهو فارسُهم، ويُعَدّ من فرسان العرب المشهورين، وضربوا بفروسيّته المثل فقالوا: «أفرَسُ مِن عامر»؛ ولـمّا مات سيّدُ قومِه عمُّه أبو بَراءٍ مالِكُ بن عامر الملقَّب بـ«مُلاعِبُ الأسنّة» جعله قومُه سيّدًا عليهم؛ وقاد عامر بن الطفيل قومَه في عدد من المعارك، ولـمّا جاء الإسلام وفد مع قومه على النّبيّ ﷺ في عام الوفود، واتّفق مع أربَد بن قَيْسٍ أخي لَبيد بن ربيعةَ لأمّه على الغدرِ بالنّبيّ فَحِيلَ بينهما وبَينَه، ودعاهُ النّبيّ إلى الإسلام فقال : أُسْلِمُ على أنَّ لي الوَبَرَ ولكَ المَدَر؟ فقال رسول الله: (لا)، فولّى وهو يقول: والله يا محمّدُ لَأَمْلَأَنَّها عليكَ خَيْلًا جُرْدًا ورِجالًا مُرْدًا، ولَأَرْبُطَنَّ بكلِّ نخلةٍ فَرَسًا؛ فقال رسولُ الله: (اللّهمَّ اكْفِني عامِرًا واهْدِ قَوْمَه)؛ فلـمّا انصرف أُصِيبَ بالطّاعون في الطريق وماتَ قبلَ أن يصل إلى قبيلته، ثمّ أصابت صاعقةٌ أربَدَ فأحرقته؛ وهو الّذي غدَرَ بأصحابِ بِئْرِ مَعُونَةَ وقد أجارَهم عمُّه أبو البراء، حتّى قُتِلُوا عَن آخرِهم سِوى عمرو بن أميّة؛ وهو صاحب المنافرةِ المشهورة بينه وبين علقمة بن عُلَاثة، واحتكما فيها إلى كِبارِ العرب ومنهم كِبارُ قُرَيشٍ، فأبَوْا أنْ يُغَلِّبوا أحدَهما على الآخَر.

ويغلِبُ على شِعرِه الفخر، وشَرَحَ ديوانَه أبو بكر محمّد بن القاسم الأنباريّ بروايةِ أبي العبّاس أحمد بن يحيى ثَعلَب ، وطُبع مرّاتٍ عِدّة.

عنترة بن شدّاد العَبْسيّ: أحدُ الشّعراء الفرسان، وأوفرُهم شهرةً، من أغْرِبةِ العرب وسُمُّوا أغربةً لأنَّ أمّهاتهم سُود، أمُّه جاريةٌ حبشيّة كانت عند شدّاد أحدِ سادة بني عبس، فولدَتْ له عنترةَ أسودَ مثلَها، فأنكرَ نسبَه واستعبَدَه، ثمّ استلحقَهُ واعترفَ بنسبِه حينَ رأى بأسَهُ في إحدى المعارك؛ ويُلَقَّب (عنترةَ الفَلْحاءِ) لشَقّ في شفتِه السُّفلى، و(عنترة الفوارس)؛ واشتُهِر بحبِّه ابنةَ عمِّه عبلةَ بنت مالك، وشارك في حرب داحسٍ والغَبْراء بين عبسٍ وذبيان، وكان أحد فرسانها المُبَرِّزين؛ واشتُهِر بفروسيّته وعِفَّتِه ومُروءتِه ونجدتِه ونُبْلِ أخلاقِه؛ واختُلِف في خبرِ وفاتِه، والرّاجح أنّه قُتِلَ وقد أسَنّ، وذلك قُبَيل الإسلام.

ويغلب على شعره الفخر، وميميّتُه إحدى المعلَّقات، وجُـمِع شعرُه قـديمًا، ونُشر مـرّاتٍ عدّة أفضلُها بتحقيق محمّد سعيد مولويّ مع دراسة وافية.

عمرو بن مَعْدِي كَرِب الزُّبَيـديّ الـمَذحِجيّ: أبـو ثـور، كـان أبـوه رئـيس زُبَيْدٍ، وآلَـتِ الرِّئاسةُ إلى ابنَيْه عبدِ الله ثُمّ عمرو بعدَ مَقْتَلِ أخيه؛ وعُدَّ عَمْرٌو فارس اليمن في الجاهليّة، وفـارسَ زُبَيدٍ وسيّدها في الإسلام، وكان مَضْرِبَ المثل في الفروسية فقيل: (فـارسٌ ولا كَعَمْـرو)؛ وأسـلم سنة تسعٍ للهجرة، ثمّ ارتدّ بعد وفـاة النّبـيّ، وسرعـان مـا رجـع وتـاب؛ وشـهد معركـة اليرمـوك وأَبْلى فيها بلاء حسنًا، وفيها ذهبت إحدى عينَيْه، كما شهد معركتَيِ القادسيّة ونهاونـد، وكثُرت جِراحُه في نهاوند حتّى استُشْهِد.

وجمع شعرَهُ أبو عَمْرٍو الشّيباني، ثمّ ابنُ الأعرابيّ، ثمّ أبو سعيد السُّكّريّ، وفُقِدَ ما جمعـوه، فجمع ما بقي من شعرِه هاشم الطعّان في العراق سنة ١٩٧٠م، ومُطاع الطّرابيشيّ سنة ١٩٧٤م وطبعَه مجمع اللّغة العربيّة بدمشق.

دُرَيد بن الصِّمّة الـجُشَميّ: من هَوازن، شاعر فارسٌ فَحل، مِـن ذوي الـرّأي الّـذين كـان يُرْجَع إلى رأيهم في الجاهليّة، وهو ابنُ أُختِ عمرو بن معـد يكـربَ الزُّبيـديّ، أُمُّـه رَيْحانـة؛ وكـان سيّدَ بني جُشَم وفارسهم وقائدهم، وكان مظفَّرًا ميمونَ النَّقيبة، غزا نحو مئة غـزاةٍ مـا أخفـق في واحدة منها؛ وقد جعله محمَّد بن سلّام الـجُمَحيّ أوّلَ الشّعراء الفُرسان، ويُعَـدّ مـن الـمُعمَّرين، وأدرك الإسلام ولم يُسلم، وقُتِلَ في يومِ حُنَيْن خرَجَ مع قومِه مُظاهِرًا للمُشْرِكين.

وكان الأصمعيّ يفضّل بعض شعره على شعر النّابغـة الـذبيانيّ؛ وجمـعَ ديوانَـه الأصـمعيّ وأبو عمرٍو الشّيبانيّ وأبـو سـعيد السُّـكّريّ، وضـاعَ مـا جمعُـوه، فأعـاد جمـعَ مـا بقـيَ منـه وطبعَـه الدّكتور عُمَر عبد الرّسول وغيرُه.

٤- الصَّعاليك:

منهم: **حاجزُ بنُ عَوْفٍ الأزديّ**: من الشّعراء الصّعاليكِ العَدّائين الّذين كانوا يغزون على أرجلِهم ويُدْرِكون الخيلَ عَدْوًا؛ وهو شاعر مُقِلّ ليسَ مِن مشهوري الشّعراء.

وجمع شعرُه الدّكتور صالح العجلونيّ في رسالة دكتوراه بعنوان (شعر قبيلة الأزد...).

قيس بن الحِدَاديّة: وهو قيس بن منقذ، من بني سَلُولِ بنِ كَعْبٍ، مِن خُزاعة، نُسِب إلى أمِّه وهي من بني (حِدَاد) من مُحارِب بن خَصَفة أو مِن حَضْرَمَوت، أو مِن بني (حُدَاد) مِن كِنانة؛ وتبرَّأت منه قبيلته في سوق عُكاظ، وأشهدت على أنفسها أنّها لا تحتمل جريرةً له ولا تطالب بجريرة عليه، كان شجاعًا فاتكًا كثير الغارات، قتله بعض بني مُزَيْنَةَ في غارةٍ لهم؛ ووصفه المرزبانيّ بأنّه "شاعرٌ قديمٌ كثيرُ الشّعر".

وجمع ما بقي منه الدّكتور حاتم الضّامن في مجلّة المَوْرِد العراقيّة.

أبو الطَّمَحانِ القَيْنيّ: حنظلةُ بن الشّرْقيّ، وقيل: ربيعة بن عوف بن غنم بن كنانة، أحد بني القَيْنِ بنِ جَسْرٍ من قُضاعة: شاعرٌ فارسٌ مُعمَّر، مِن الصّعاليك؛ كان مِن عُشَراءِ الزُّبَير بنِ عبدِ المطّلب وهو تِرْبٌ له، وأدرك الإسلامَ فأسلَمَ، ولم يَرَ النّبيّ ﷺ .

جمع محمّد نايف الدُّلَيْميّ ما بقي من شعره، وكذلك الأستاذ عبدُ المُعين الملوحيّ في (أشعار الصّعاليك).

السُّلَيْك بنُ السُّلَكَة: والسُّلَكَةُ أمُّه، وهو السُّليك بن عُمَير بن يَثْرِبيّ بن سِنان السَّعْدِيّ التّميميّ، شاعرٌ فاتكٌ عَدّاءٌ أسوَدُ، وهو أحدُ أغربةِ العرب، مِن شياطينِ الجاهليّة، ويُلَقَّب بالرِّئْبال، وكان يُضرب به المثلُ في العَدْوِ فيُقال «أَعْدَى مِنَ السُّليك»؛ وكان أدلَّ النّاس بالأرض وأعلمَهم بمسالِكها؛ له وقائعُ وأخبارٌ كثيرة، وكان لا يُغِيرُ على مُضَرَ، وإنّما يُغِيرُ على اليمن، فإذا لم يُمْكِنْه أغارَ على رَبِيعة؛ قتلَهُ أَسَدُ بنُ مُدْرِكٍ الخَثْعَميّ.

وجمع شعره الدّكتوران حميد آدم ثويني وكامل سعيد عواد، وطُبع في بغداد.

تأبّطَ شَرًّا: أبو زُهَيرٍ ثابتُ بنُ جابرِ بنِ سفيان، مِن بني فَهْمٍ مِن قيس عَيْلان، واختُلِف في تلقيبِه (تأبّط شرًّا)، وأقربُ ذلك أنّه لُقِّب به لقوله في بعض شعرِه:

تَأَبَّطَ شَرًّا ثمَّ راحَ أَوِ اغتدى يُوائِمُ غُنْمًا أو يُشيفُ إلى ذَحْلِ

وهو أحد الشّعراء الصّعاليك، وهو من فُتّاك العرب المشهورين، واشتُهِر بسرعة عَدْوِه، فكان يغزو على رجلَيْهِ فلا يُلْحَق، مات أبوه صغيرًا فتزوّجت أمّه أبا كَبيرٍ الهُذَليّ، فضاق به أبو كبير وحاول قتلَهُ مِرارًا فلم يُفلح؛ وغضِبَ تأبّطَ شرًّا على هُذَيلٍ فكان دائمَ الغزوِ لها؛ واجتمع ببعض الصّعاليك كالشَّنفرى، وعمْرِو بن بَرّاقة، والسُّلَيك بن السُّلكة، فكانوا يغزون مجتمعين أو متفرِّقين؛ وقُتِل في بعض غاراته على هذيل، وقيل: بل لدغَتْهُ أفعى فمات.

جمع شعره وحقّقه عليّ ذو الفقار شاكر.

الشّنْفَرى: وفي اسمه خلاف، إذ قيل إنّ (الشّنفرى) هو اسمه وهو الرّاجح، وقيل: بل لُقِّب به لِعِظَم شَفَته، واسمُهُ عَمْرُو بنُ مالِك الأزديّ، من بني الحَجْرِ بنِ الهِنْوِ بنِ الأَزْد وهو الرّاجح أيضًا، وقيل: مِن بني سَلامان بن مُفَرِّج، وقيل: من بني الحارث بن ربيعة، من الأزد القحطانيّين، وكانت أُمُّهُ سَبيّةً في هُذيلٍ بَعْدُ؛ وفي أخبار نشأته وتصعلُكه روايات كثيرة، منها أنّه نشأ في بني فَهْمٍ، ثمّ صار في بني سَلامان حتّى شبَّ بينهم، واجتمع بِتأبّط شرًّا وعمرو بن بَرّاقةَ وآخَرينَ من صعاليك العرب وشرعوا يُغِيرون على القبائل، يقتلون وينهبون؛ وكان سريعًا في جريه يسبق الخيل إذا تبعَتْه، فضُرب المثل بشدّةِ عَدْوِه فقيل: (أَعْدى مِن الشّنفرى)؛ ويُعَدّ من فُتّاك العرب وخُلَعاهم.

له أخبارٌ كثيرةٌ مرتبطةٌ بأشعارِه مِن طفولتِه إلى مَقْتَلِه؛ وأشهرُ شِعرِه طَويلتاهُ: اللّاميّة المشهورُ بـ(لاميّة العَرَب) الّتي استهوَتِ الشُّرّاحَ والدّارِسِينَ قديمًا وحديثًا، والتّائيّةُ الّتي أوّلُها: (ألا! أُمُّ عَمْرٍو أَجْمَعَتْ فاسْتَقَلَّتِ)؛ وروى شعرَه وشرَحَه أبو فَيْدٍ مُؤَرِّجُ بنُ عَمْرٍو السَّدوسيّ (١٩٥هـ)، وهو محقّقٌ مطبوع، وكان العلّامةُ عبد العزيز المَيْمَنيّ جمعَ بعضَ شعرِه في كتابه «الطّرائف الأدبيّة».

٥- شعراء أهل الكتاب:

أشهرُهم اثنان؛ الأوّل عديّ بن زيد بن حِمار بن زيد العِباديّ: ينتهي نسبه إلى بني تميم، و«العِبَاديّ» نسبةٌ إلى العِبَاد، وهم مجموعة من قبائل شتّى في الحِيرةِ كانوا نَصارى؛ وُلد في

الـحِيْرة حاضرة الملوكِ اللّخميّين الـمُوالِين للفُرس، وكـان أبـوه يعمـل في بـلاط كسرى، فـتعلّم عديٌّ القراءة والكتابة بالعربيّة والفارسيّة، فكانت له مكانة لدى أكاسرة الفرس وملوك الحيرة ، إذ عمِلَ ترجمانًا في بلاط كسرى مع أخوَيْنِ لـه، وأرسـله في سِفارةٍ إلى القسـطنطينيّة فمـرّ بدمشـق وفيها قالَ أوّل شعرِه؛ ثمّ ماتَ في سجن النّعمان بـن المنـذر آخـر ملـوك الحِيرة بِمَكِيـدةٍ دبّرهـا لـه بعض أعدائه مِن العِباديّين.

روى شعرَه وشرحَه من القـدماء ابـنُ الأعـرابي وابـن دُرَيـد، وطبـع الـدّكتور محمّـد جبّـار الـمُعيبد ديوانه عن نسخةٍ مخطوطةٍ جمعَت دواوين عدد من الشّعراء.

والثّاني السَّمَوْءَل بن غريض بن عادياء الغسّانيّ الأزديّ: مِن أهلِ تَيْماء، جعله ابـنُ سـلاّم أوّلَ طبقة شعراءِ يَهودَ؛ وهم ثمانية فيهم أخوه سَعْيَة، وبيتُهُ بيتُ الشِّعر في يَهود، فهو شـاعرٌ وأبـوه شاعرٌ، وأخوه سَعْيَة شاعر متقدِّم مُـجيد؛ وكـان لـه حِصـنٌ يُعـرَفُ بـ(الأبلق) بنـاهُ جَـدُّه عاديـاء، فكان السَّـموأل يُضِـيف العـرب حـين تَنْـزِل بالحصـن ويَمِيْرُهـا منـه؛ وبالسَّـموأل ضُـرِب المثـل في الوفاء لأنّه تركَ ابنَهُ يُقْتَل على ألّا يُفَرِّط في دروعٍ أَوْدَعَها امرؤ القيسِ عنـدَه أمانـةً، في خـبرٍ طويـل مشهورة.

وديوانُه مطبوع بصَنْعةِ نِفْطَويهِ إبراهيم بن عرَفة.

٦- شعراء القرى العربيّة

من شعراء يَثْرِب (المدينة المنوَّرة):

حسّان بن ثابت الـخَزْرَجيّ: أبو الوليد، ويُكْنى أيضًا بأبي عبد الرحمن، ويُلَقَّب بالـحُسام؛ صحابيّ أنصاريّ نجّاريّ، من بني النَّجّار أخـوالِ جَـدِّ النّبيّ ، من فحولِ الشّعراء الـمُخضرَمين؛ كان أبوه من أشراف الخزرج، وأمُّه الفُرَيعة أدركَتِ الإسلام فأسـلمَت وبايعَـت، وأسـلم حسّـان بعد الهجرة وعمرُه نحو ستّين سنة، وعُرِف بشاعر النّبـيّ لأنّـه هـاجَى شُـعراءَ الـمُشرِكين ومـدح النّبيّ وكبارَ الصّحابة ورثى شُهداءَهم؛ وكان في الجاهليّة يـتردَّد عـلى ملـوك الغساسـنة في الشّـام،

وتردَّد أيضًا على ملوك الحيرة في عهد النّعمان بن المنذر، وكان شاعر الخزرج فهاجَى شعراءَ الأوس؛ وتُوفِّيَ في المدينة المنوَّرة في خِلافة عليٍّ أو مُعاوِية.

وهو أشعَرُ أهل القُرى؛ وله ديوان مطبوعٌ جمعَه محمّد بن حبيب.

كعبُ بنُ مالكٍ الـخَزْرَجيّ: من أكابر الشعراء؛ نشأَ في الجاهليّة في بيت اشتُهِرَ أهلُه بالشّعر، وكان كاتبًا حاسبًا؛ وهو من أوائلِ الأنصار إسلامًا، وكان من شعراء النّبيّ ﷺ، وشهد أكثر الوقائع وله أخبارٌ كثيرة، وعاش سبعًا وسبعين سنةً، وتُوفِّيَ سنةَ خمسينَ للهجرة أو بعده بقليل.

وله منزلةٌ في الشّعر فوضعه ابنُ سلّامٍ في طبقةٍ فحولِ شعراءِ القُرى العربيّة، ووصفَهُ بأنّه شاعرٌ مُجِيد؛ وصنع ديوانه سامي مكّي العاني.

قيس بن الـخَطِيم الأَوْسيّ: من فحولِ شعراءِ الجاهليّة، موصوفٌ بالجَمال، وأدركَ الإسلامَ ولم يُسْلِم وأسلمت زَوجُه؛ وهو شاعرُ الأوس، وأحدُ صناديدها، وله في وَقْعَةِ بُعَاث بين الأوس والخزرج أشعارٌ كثيرة، وقَتَلَتْه الخزرجُ غِيلَةً قبلَ الهجرةِ بعامَيْن؛ ولمّا قدِم النّابغة إلى المدينةِ أنشده شِعرَه فأُعجِب به وأثنى عليه.

ولهُ ديوانٌ مِن رواية ابن السّكّيت عُنِيَ بتحقيقِه ناصر الدّين الأسد.

أبو قيس بن الأَسْلَتِ؛ صَيْفيّ بنُ عامرٍ الأَوْسيّ: كان رأسَ الأَوْسِ وشاعرَهم وخطيبَهم وقائدَهم في حروبهم؛ وتألّه في الجاهليّة، ولمّا ظهر الإسلام اجتمع برسول الله ﷺ، وتريَّثَ في قَبول الدَّعوة فمات قبلَ أن يُسْلِم؛ وكانت بينه وبين حسان بن ثابت في الجاهليّةِ مُهاجاةٌ ونقائض.

له مجموعُ شعرٍ جُمِع في عصرِنا.

ومِن شعراءِ مكّة:

عبدُ الله بنُ الزِّبَعْرى السَّهْميّ القُرَشيّ: كان مِن شعراءِ قريشٍ في الجاهليّة، وكان لسانَ المشركينَ قبلَ إسلامِهِ شديدًا على المسلمينَ إيذاءً وهِجاءً وتحريضًا إلى أن فُتِحَت مكَّة، فهرب إلى نَجْران، ثمّ أسلَمَ واعتَذَر، ومدَحَ النّبيَّ ﷺ فأمرَ له بِحُلّةٍ.

وضعه ابنُ سلّامٍ في أوَّل طبقة شعراء مكّة؛ وجمع شعرَه الدّكتور يحيى الجبوريّ، ثمّ الدّكتور فاروق اسليم.

ضِرار بنُ الخطّابِ بنِ مِرْداسٍ الفِهريّ القُرَشيّ: كان أبوه سيّدَ بني فهرٍ، وضِرارٌ فارسٌ شاعرٌ مِن القادة في الجاهليّة، وهو مِن ظَواهرِ قُريش، لا يأتي إلى البَطحاءِ إلّا قليلًا، وقد جمَعَ مِن حُلفاءِ قريش ومُرّاقِ كِنانةَ ناسًا، فكان يُغِيرُ بهم ويَسْبي ويأخُذُ المال، وكان أحدَ قادةِ قُريشٍ في حَربِ الفِجَار في الجاهليّة؛ ثمّ حارب الإسلام بسَيْفِه وشعرِه، وشارك في يومَيْ أُحُدٍ والخندق، وأسلَمَ يَوْمَ فتحِ مكّة وحسُنَ إسلامُه، وشارك في يوم القادسيّةِ وفتح المدائن وغيرِهما، وذُكِر أنّه مات في الشّامِ مُجاهِدًا.

وهو مُقدَّمٌ على ابنِ الزِّبَعرى في الشّعر؛ وجمع شعره الدّكتور فاروق اسليم.

أبو عَزَّةَ الجُمَحيّ القُرَشيّ: عَمْرُو بنُ عبد الله بن عثمان، أدرك الإسلام، وأُسِرَ يومَ بدر، فأُتِيَ به إلى رسول الله ﷺ فمَنَّ عليه وأطلقه عَطْفًا على بناتِهِ ولِفَقْرِهِ على ألَّا يُظاهِر عليه أحدًا، فمدحَه، ثمَّ لمّا كان يومُ أُحُدٍ دعاه صَفوانُ بن أُميّة سيّدُ بني جُمَح للخروجِ فقال: إنّ محمّدًا قد مَنّ عليّ وعاهدْتُه ألّا أُعِين عليه، فلم يزل به يُطْمِعُه حتّى خرج، وقال شعرًا يحرّض به على قتال المسلمين، فلمّا كانت الوقعة أَسَرَهُ المسلمون فقال: يا رسولَ الله مُنَّ عليَّ، فقال ﷺ: (لا يُلْدَغُ المؤمنُ مِن جُحْرٍ مرّتَيْن، لا تَرْجِع إلى مكّةَ تَمْسَحُ عارِضَيْكَ وتقولُ: خدعْتُ محمّدًا مَرَّتَيْن!)؛ فقُتِل صَبْرًا.

وذكَرَ ابنُ سلّامٍ أنّ له شعرًا كثيرًا.

أبو سفيان المُغيرة بنُ الحارثِ بنِ عبد المطّلب بن هاشم: وهو ابن عمِّ رسول الله ﷺ وأخوه مِن الرَّضاع، وكان يألَفُه في صِباهما، فلمّا أظهر النّبيُّ الدَّعوة إلى الإسلام عاداهُ وهجاهُ

وهجا أصحابَه، وكانت بينه وبين شعراء الرّسول مُهاجاةٌ؛ ثمَّ لقيَ مع ابنه جعفر النّبيَّ وهو في طريقِه لفتح مكّة، فأعرضَ عنه لِما كان منه، فتذلّل له أبو سفيان حتى رضيَ عنه وأسلم يومَ فتح مكة، ثمّ شَهِدَ غزوَةَ حُنَينٍ والطّائف، وأبلى في حُنَيْنٍ بلاءً حسنًا؛ وتُوفِّي في خِلافةِ عُمَر رضي الله عنه.

وله شعرٌ جمعه الدّكتور حسن أحمد الأشلم.

أبو طالبٍ عبدُ مَنافِ بنُ عبدِ المطّلب بن هاشمٍ القُرَشيّ: عمُّ النّبيّ ﷺ، وهو شَقيق أبيه من أم واحدة، وهو كافِلُه ومُربِّيه بعد وفاةِ جَدِّه وأُمِّه، ولـمّا أظهر الدَّعوة إلى الإسلام حماهُ مِن قُريشٍ وصدَّهم عنه.

لهُ شعرٌ صحيحٌ، وحُمِلَ عليه شعرٌ كثير لم يَقُلْه؛ وجمع شعرَه أبو هِفّان عبد الله بن أحمد المِهزميّ البصريّ، وحقّقه محمّد حسن آل ياسين وغيرُه.

الزُّبير بنُ عبدِ المطّلب بن هاشم: ثاني أعمام النّبيّ ﷺ بعدَ الحارث، وكانت له رئاسة بني هاشم بعد أبيه؛ وهو كأبي طالبٍ شقيقُ والدِ النّبيّ وأكبرُ أبناء فاطمة بنت عمرٍو المخزوميّة، ولذا بعثه عبد المطّلب إلى يثربَ حين مرِضَ عبدُ الله ليعتنيَ به، وحضر وفاتَه عند أخوالِ أبيه، وأوصى إليه عبد المطّلب بالحكومةِ بعدَه؛ وكان قائد بني هاشم وبني المُطّلِب بن عبد منافٍ في آخِرِ أيّامِ حرب الفِجَار الثّانية وكان فيها رسولُ الله فتًى يجمع النِّبالَ لأعمامِه؛ وقد أسهم الزُّبير في حِلْفِ الفُضول، وشارك في بناء الكعبةِ، وتُوَفِّيَ قبلَ البَعْثَة وعُمُر النّبيّ بضعٌ وثلاثون سنة.

ويُعدّ من شعراء قريش وفرسانها وخطبائها والـحُكّام فيها، وجمع شعرَه وحقّقه الدّكتور عبد الحميد المعينيّ.

ومن شعراء الطائف:

أبو الصَّلْتِ عبدُ الله بنُ أبي ربيعة الثَّقفيّ: كان سيّدًا في قومه، وكان فيمَن وفد على ابن ذي يَزَن بعد طرد الأحباش من اليمن؛ وتزوّج بِرُقَيّة بنت عبد شمس بن عبد مَناف بن قُصَيّ. بن

كِلابٍ من شريفات قُريش، فولدَت له الشّاعرَ أميّة بن أبي الصّلت؛ وينسب إليه شعر تضطرب نسبة بعضِه بينه وبين ابنِه.

أمية بن أبي الصَّلْت: (مرّ في الشّعراء الحنفاء)

أبو مِحْجَنٍ الثّقفيّ: اختلف في اسمه؛ قيل: هو عمرو، أو عبد الله، أو مالك، ابن حبيب بن عمرو بن عُمَير، من أسرة غنيّة عريقة في الشّرف والسّيادة؛ شاعر فارس مخضرَم، أسلم بعد عام الوفود، ولم يستطع الإقلاعَ عن الخمرِ بعد إسلامِه، فحدَّه عُمَرُ رضي الله عنه، إلى أن تركها طواعيةً بعد وقعة القادسيّة في قصّة مشهورة، وشارك في الجهاد في بلاد فارس وغيرِها، فتوفِّيَ أيّامَ عثمان رضي الله عنه، وقبرُه في أذربيجان، وقيل في أرمينيا.

وذكره ابن سلّامٍ مع فحول شعراء الطّائف، ويُعدُّ مع الشعراء المقلين، وجُمع شعره قديمًا، ونُشِر محقّقًا حديثًا.

ومن شعراء البحرَيْنِ، وهي اليومَ ما بين الكُوَيْت وعُمان:

المُثَقِّبُ العَبْديّ: عائذُ بن مِحْصَن بن ثعلبة، مِن عبد القَيْس ثمّ مِن ربيعة بن نزار بن مَعَدّ؛ كان في زمن عَمْرِو بن هند، وهو خالُ الشّاعر الجاهليّ شأسِ بن نَهار العبديّ المُلقَّب بـ(المُمَزّق).

اهتمّ العلماءُ بشعره، واستحسنوا كثيرًا من أبياته ومعانيه، وأشاروا إلى معانٍ سبق إليها فقلّده فيها الشّعراء، وجُمع شعره قديمًا، ونشره محقّقًا حسن كامل الصَّيرفيّ.

المُمزّق العبديّ: شَأْسُ بن نَهار بن أسود، مِن عبد القَيْس ثمّ مِن ربيعة بن نزار بن مَعَدّ؛ واسمه في أكثر المصادر شَأْس، وقيل: يزيد؛ ولُقِّب بالمُمزّق -بفتح الزّاي أو بكسرِها- لبيتٍ قالَه، هو عند بعضهم:

فَإِن كنتُ مأكولًا فكُنْ خيرَ آكِلٍ وإلّا فأدرِكْني وَلَمّا أُمَزَّقِ

وعند غيرهم:

فَمَنْ مُبْلِغُ النُّعْمانِ أَنَّ ابن أُخْتِهِ عَلى العَيْنِ يعتادُ الصَّفا وَيُمَزِّقُ

أي يُغنّي، والعَين والصّفا موضِعان بالبحرَيْن؛ وهو ابن أخت الـمُثَقِّب العبديّ كما سبق؛ وجمع شعرَه الدّكتور عبد الحميد المعينيّ في كتابه (شعراء عبد القيس في العصر الجاهليّ).

الـمُفضَّلُ النُّكْريّ: هو مَعْشَرُ بن أَسْحَمَ من بني نُكْرَةَ من عبد القيس؛ قال ابن سلّام في تَلْقِيبِه بالمفضّل: فضّله قصيدتُه الّتي يُقال لها الـمُنْصِفةُ وأوّلها: (ألم ترَ أنّ جيرتَنا استقلُّوا...)؛ وجمع شعرَه الدّكتور عبد الحميد المعينيّ في كتابه (شعراء عبد القيس في العصر الجاهليّ).

أهم مصادر الشعر الجاهلي

تَوازعَتْ مادّة الشّعر الجاهليّ دواوين مفردة للشّعراء، وأخرى للقبائل، ومنتخبات عامّة (كتب الاختيارات الشّعرية وشروحها)، وكتب الأدب العامّة، وكتب التّاريخ والطّبقات والتّراجم، وكتب الجغرافية، وكتب اللّغة والنّحو وسائر عوم العربيّة؛ وسنعرّف أهمّ تلك المصادر فيما يأتي:

أ-الدّواوين المفردة:

دُوّن بعضها في العصر الجاهليّ كما سيأتي في الحديث عن التّدوين، وبعضها في صدر الإسلام والقرن الأوّل الهجريّ، ثمّ في القرن الثّاني وما بعدَه، وبعضها قد جمعه ورواه غيرُ ما راوٍ ثقة؛ ثمّ إنّ المعاصرين اجتهدوا في جمع أشعار بعضِ الشّعراء الّتي لم تُجمع من قبل.

ومن تلك الدّواوين المفردة المطبوعة للجاهليّين والمخضرمين الّذين أدركوا الجاهليّة والإسلام: دواوين الشّعراء السّتّة الجاهليّين؛ امرئ القيس، والنّابغة، وزهير، وطرَفة، وعنترة، وعلقمة الفحل، وكلّها رواها وشرحها الأصمعي، ثمّ جمعَها واستدرك عليها ما رواه غيرُه وشرحها الأعلمُ الشّنتمريّ؛ وديوان الأعشى، ولَقيط بن يعمر الإياديّ، وعَبيد بن الأبرص، وأَوسِ بن حَجَر، وبشر بن أبي خازم، والسّموءَل، والمثقِّب العبديّ، والمتلمّس، والمُرقّش الأكبر، والمُرقِّش الأصغر، والشّنفرى، وتأبّط شرًّا، وأبي قيس بن الأسلت، وأُحَيحة بن الجُلاح، والخِرنِق بنت هِفّان، عمرو بن كلثوم، والحارث بن حِلِّزة، والأفوه الأَوديّ، وخِداش بن زهيرٍ العامريّ، وعديّ بن زَيْدٍ العِباديّ، وحاتم الطّائيّ، وأُميّة بن أبي الصَّلْت، ودريد بن الصّمّة، وعامر بن الطُّفَيْل، ولَبيد، وقيس بن الخطيم، وحسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، والخنساء، كَعب بن زُهَيْرٍ، والحطيئة، والحادِرة، وتميم بن أُبيّ بن مُقبِل، والنّابغة الجعديّ، وعمرو بن معدي كرب، وأبي ذُؤَيْبِ الهذليّ، والعبّاس بن مِرداس، وخُفاف بن نُدبة، والشّمّاخ بن ضِرار، والنَّمِر بن تَولَب.

ب-دواوين القبائل:

جمع منها أبو عمرو الشيباني نيّفًا وثمانين، وعُنِيَ أبو سعيدٍ السكّريُّ بكثير منها، وذكر الآمديّ في (المؤتلف والمختلف) ستين ديوانًا من دواوين القبائل، وذكر ابن النديم في فهرسته ثمانية وعشرين ديوانًا من دواوين القبائل كلُّها منسوبة إلى صانعيها، وهو في أكثرها أبو سعيد السكّريّ؛ ولم يبقَ منها إلّا قطع من ديوان هذيل.

ولذلك توجّه الباحثون المعاصرون إلى إعادة جمعِ أشعارِ القبائل، ومعظمها مطبوعٌ؛ منها: أشعار بَني عامر بن صعصعة، وأشعار بَني قُشَيْرٍ، وأشعار بني عُقَيْلٍ، وهما مِن بني عامر، وأشعار بني تَغلب، وبني بَكْرٍ، وبني أسَدٍ، وطيِّئ، وكَلْب بن وَبرة، وكِنانة، وقُرَيْش، وثَقِيف، والأوس والخزرج، وذُبيان، وعَبْس، وتميم، وضبّة، ومَذْحِج، وحِمْيَر، وكِنْدة، وخَوْلان، وغيرها.

ج-كتب الاختيارات الشعرية وشروحها:

وهي اختياراتٌ لا يجمع بين ما اختارته جامع واضح سوى ذوق مَن اختارها، وأقدمُها ما اختاره الرُّواةُ بأمرٍ مِن مُعاوية بن أبي سُفيان ليروِيَها ابنُه، وهي اثنتا عَشْرةَ قصيدةً كما سيأتي في الحديث عن التّدوين، ومن أشهر كتبها المطبوعة:

المعلَّقات:

قِيل إنّها سُمِّيَت بذلك لنفاستها، أخذًا من كلمة العِلْق بمعنى النَّفيس، أو لأنّها عُلّقت على الكعبة، أو لأنّ الملك كان إذا أعجبته قصيدةٌ ما قال علّقوها، أي دوِّنوها؛ ويقال: إنّ أوّل من رواها مجموعةً في ديوان خاصّ بها حمّادٌ الرّاوية، وهي عنده سبع: لامرئ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة؛ وهي عند المفضّل الضّبّيّ سبعٌ أيضًا، غير أنّه أسقط اثنتين من رواية حماد هما قصيدتا الحارث بن حلزة وعنترة وأثبت مكانهما قصيدتَي الأعشى والنّابغة؛ ثُمّ إنّ التّبريزيّ جمعَ بينها في شرحه وأضاف إليها قصيدة عبيد بن الأبرص البائيّة، فهي عنده عشرُ قصائد.

وقد عُنِيَ الشُّرّاح بهذه المجموعة مِرارًا، وطُبع من شروحهم **شرحُ ابن الأنباريّ** المتوفّى سنة ٣٢٨ هـ، و**شرح الزَّوزنيّ** المتوفى سنة ٤٨٦هـ، وهما على رواية حمّاد، ثم **شرح التبريزيّ** المتوفى سنة ٥٠٢.

المفضّليّات:

هي اختياراتٌ منسوبة إلى جامعها المفضّل الضّبّيّ، وقد اختارها ليروِيَها المهديّ بن المنصور العبّاسيّ حين كلّفه بتأديبِه، وهي مئة وستّ وعشرون قصيدة، أضيف إليها أربع قصائد وُجِدت في بعض النسخ، موزّعة على سبعة وستين شاعرًا منهم سبعة وأربعون جاهليًّا، منهم: المرقّشان الأكبر والأصغر، والحارث بن حلّزة، وعلقمة بن عبدة، والشَّنفرى، وبشر بن أبي خازم، وتأبّط شرًّا، وعوف بن عطيّة، وأبو قيس بن الأسلت، والمسيّب، وعبد المسيح بن عسلة الشيباني، وجابر بن حُنيّ التغلبي.

الأصمعيّات:

هي اختياراتٌ منسوبة إلى جامعها الأصمعيّ، وبلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين، وهي لواحد وسبعين شاعرًا منهم نحو أربعين جاهليًّا، منهم: المهلهل، والحارث بن عُبَاد، وامرؤ القيس، ودريد بن الصِّمّة، وأبو دؤاد الإيادي، وذو الإصبع العدواني، وسلامة بن جندل، وطرفة بن العبد، وعروة بن الورد، وقيس بن الخطيم، وشعية بن الغريض، والسموءَل.

جمهرة أشعار العرب:

لأبي زيد محمّد بن أبي الخطّاب القرشيّ، تضمّ تسعًا وأربعين قصيدة طويلة، موزّعة على سبعة أقسام، في كل قسم سبع قصائد، معظمها لشعراء جاهليّين أو مخضرمين.

والقسم الأول للمعلّقات، وأصحابها عندَه: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة؛ والقسم الثاني للمجمهَرات، وهي لعبيد بن الأبرص، وعديّ بن زيد، وبشر بن أبي خازم، وأميّة بن أبي الصلت، وخداش بن زهير، والنمر بن تولب، وعنترة؛ والقسم الثالث للمنتقَيات أي المختارات، وأصحابها هم: المسيّب بن علس، والمرقّش

الأصغر، والمتلمّس، وعروة بن الورد، والمهلهل بن ربيعة، ودريد بن الصمّة، والمتنخل الهذلي؛ والقسم الرابع للمذهَبات، وجميعها لشعراء من الأوس والخزرج، جاهليين أو مخضرمين، وهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، ومالك بن العجلان، وقيس بن الخطيم، وأُحَيحة بن الجُلاح، وأبو قيس بن الأسلت، وعمرو بن امرئ القيس؛ والقسم الخامس للمراثي، وأصحابها هم: أبو ذؤيب الهذلي، وعلقمة بن ذي جدن الحِمْيَريّ، ومحمد بن كعب الغنوي، وأعشى باهلة، وأبو زُبيد الطائي، ومتمّم بن نويرة، ومالك بن الريب؛ والقسم السادس للمَشُوبات، وهي لشعراء مخضرمين، وهم: نابغة بني جعدة، وكعب بن زهير، والقُطاميّ، والحطيئة، والشمّاخ، وعمرو بن أحمر، وتميم بن أبيّ بن مقبل؛ والقسم السابع للملحمات، وجميعها لإسلاميّين، وهم: الفرزدق، وجرير، والأخطل، والراعي النّميريّ، وذو الرمة، والكميت، والطرماح.

مختارات ابن الشّجَري:

وهي مختارات من الشعر الجاهلي والإسلامي، جمع فيها ابن الشجري خمسين قصيدة، مضافًا إليها بعض المقطّعات؛ فيها شعر للشنفرى، وطرفة، ولقيط الإيادي، والمتلمّس، وزهير، وبشر بن أبي خازم، وعَبيد بن الأبرص، والحطيئة، ولم تخل هذه المختارات من بعض أخبار الشعراء.

منتهى الطَّلَب مِن أشعار العرب:

مؤلِّفُه محمّد بن المبارك بن محمّد بن ميمون البغدادي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، وهو من أجمع كتب الاختيارات، قال في مقدّمته: «هذا كتاب جمعْتُ فيه ألفَ قصيدة اخترتها من أشعار العرب الذين يُستشهَد بأشعارهم... وجعلته عشرة أجزاء، وضمّنت كلَّ جزء منها مئة قصيدة، وكتبت شرح بعض غريبها في جانب الأوراق، وأدخلت فيها قصائدَ المفضَّليات، وقصائدَ الأصمعيّ الّتي اختارها، ونقائضَ جرير والفرزدق، والقصائدَ الّتي ذكرها أبو بكر بن دُرَيد في كتاب له سمّاه (الشوارد)، وخيرَ قصائد هُذَيل، والّذين ذكرهم ابنُ سلّام الجمحيّ في كتاب (الطبقات)؛

ولم أُخِلّ بذكر أحدٍ من شعراء الجاهلية والإسلاميين الذين يُستشهد بشعرهم إلَّا مَن لم أقف على مجموع شعره ولم أره في خزانة وَقْفٍ ولا غيرِها؛ وإنما كتبتُ لكل أحد ممّن ذكرت أفصح ما قال وأجوده»؛ وهذا يبيّن قيمة هذا الكتاب، ولا سيّما أنّه اختار قصائد كاملةً إلّا بعضَ المقطّعات، وأخذ ما اختاره من أمّهاتِ المصادِر، ومِن دواوين الشّعراء، وقد طُبِعَ ما عُثِر عليه منه في تسعة مجلّدات، وهو قريبٌ مِن نِصْفِه.

دواوين الحماسة:

تشترك دواوين الحماسة في أنها تحتوي مقتطفات شعرية قصيرة مرتبة بحسب أغراضها، ومن أشهرها:

ديوان الحماسة لأبي تمام:

وهذا الديوان أسبق دواوين الحماسة، وقد بنى أبو تمّامٍ اختيار ما فيه من الشعر على أبواب المعاني؛ فباب لشعر الحماسة وهو أول الأبواب وأكبرها، وبه سُمِّيَت المجموعة كلها، وباب للمراثي، وباب للأدب، وباب للنسيب، وباب للهجاء، وباب للأضياف والمديح، وباب للصفات، وباب للسير والنعاس، وباب للملح، وباب لمذمّة النساء. ومعظمها لجاهليّين وإسلاميّين، وبعضُها لعباسيين، وقلّما روى فيها قصائد كاملة، وقد أخذها أبو تمام من الكتب، وانتقاها من الدواوين والمجاميع؛ وشُرِحت مرارًا، ومن شروحها المطبوعة: شرح المرزوقيّ وشرح التبريزيّ.

حماسة البحتريّ:

وهي مقطوعات قصيرة موزعة على مئة وأربعة وسبعين بابًا، وأكثر أبوابها في نزعات خلقية؛ اقتصر البحتري في مختاراته على الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي، وبلغ مجموع ما تضمنته ١٤٥٤ بيتًا لنحو ٥٩٠ شاعرًا.

حماسة ابن الشَّجريّ:

انتقى فيها ابن الشجري مجموعة قصائد ومقطّعات وأبيات على غرار ما في الحماسات الأخرى، ولاسيما حماسة أبي تمام، لشعراء الجاهلية وصدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي؛ وقد أثنى العلماء على هذا الكتاب، حتى قال ابن خلكان: "ضاهى به حماسة أبي تمام الطائي، وهو كتاب غريب مليح، أحسن فيه".

حماسة الخالديين = الأشباه والنظائر:

جمعه الأخوان الخالديان سعيد (٣٥٠هـ) ومحمد (٣٨٠هـ)، عُرِف الكتاب بـ(الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين) أو بـ(حماسة الخالديَّين)، وفي مقدمتهما للكتاب قولهما: "ونحن نضمّن رسالتنا هذه مختار ما وقع إلينا من أشعار الجاهلية، ومن تبعهم من المخضرمين، ونتجنّب أشعار المشاهير لكثرتها في أيدي الناس... ولا نُخْلِيها من غُرَر ما رويناه للمُحْدَثين، ونذكر أشياء من النظائر إن وردت، والإجازات إذا عنّت، ونتكلم على المعاني المخترَعة والمتَّبَعة..."[1]؛ ومزيّةُ الكتاب ما يورده من الأشباه والنظائر، وما تتضمّنه من الكلام على السرقات الشعرية، وهو جوهر موضوع الكتاب.

الحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج البصري:

هو أضخم الحماسات مادّةً، تناهز ضعف حماسة أبي تمام، وقد نهج فيها البصري نهج أبي تمام، وزاد عليه ثلاثة أبواب، هي: باب أكاذيب الشعراء وخرافاتهم، وباب ملح الترقيص، وباب الزهد والإنابة؛ ونسج فيها على منوال الخالديَّين في كتابهما (الأشباه والنظائر) وفي اقتصارهما على شعر الجاهليين والمخضرمين، سوى قطع معدودة، ساقها لبيان معنى سبق إليه شاعر متقدم.

---

[1] الأشباه والنظائر: ١/ ١٦.

الشروح:

أهمّها:

شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة، أنشد فيه كثيرًا من الشعر الجاهلي الذي قيل في أيام العرب، ونقل عنه مَن كتبوا في أيّام العرب مثل ابن الأثير في الكامل وابن عبد ربّه في العقد الفريد.

شروح الحماسة، ومنها شرح أبي علي المرزوقي، وفيه اهتمام بمعاني الشعر وبالنقد واللغة والاشتقاق، ومنها شرح التبريزي، وقد أخذ التبريزي كثيرًا مِن شرح المرزوقي، وعُنِيَ بتراجم الشّعراء واشتقاق أسمائهم وبأخبار الشعر ومناسباته، واعتمد في هذا على شرح أبي هلال العسكريّ، والمبهج لابن جني، وشرح الأعلم الشنتمري.

د-كتب تراجم الشعراء والأعلام:

وهي الكتب الّتي خصّصها أصحابُها للحديث عن الشّعراء أو غيرِهم، ومن أهمّها:

كتاب أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، وأسماء من قُتل من الشعراء لأبي جعفر محمد بن حبيب، و**معجم الشعراء** للمرزباني، **والمؤتلف والمختلف** للآمدي، وهما ذوا نفع كبير لما تضمّناه من الأخبار والشواهد لشعراء مغمورين.

ومن أهمّها:

طبقات فحول الشعراء لابن سلّام:

أودع فيه صاحبه في مقدّمته حديثًا دقيقًا عن الشعر الجاهلي وضياع كثيرٍ منه وروايته ورُواتِه وصحيحه ومصنوعه، وجعل كتابه في قسمين، أولهما للشعراء الجاهليين والمخضرمين، وثانيهما للشعراء الإسلاميين؛ ورتّب الجاهليين والمخضرمين في عشر طبقات، في كلّ طبقة أربعة شعراء، وألحق بهم طبقة لشعراء المراثي، ثم طبقةً لشعراء القرى، وهي المدينة وأكنافها، ومكة والطائف والبحرين، وجعل الإسلاميين أيضًا عشر طبقات، في كل طبقة أربعة شعراء.

فأما طبقات الشعراء الجاهليين والمخضرمين فكانت عنده على النحو الآتي:

الطبقة الأولى: امرؤ القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى.

الطبقة الثانية: أوس بن حجر، وبشر بن أبي خازم، وكعب بن زهير، والحطيئة.

الطبقة الثالثة: النابغة الجعدي، وأبو ذؤيب الهذلي، والشماخ بن ضرار، ولبيد بن ربيعة.

الطبقة الرابعة: طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وعلقمة الفحل، وعدي بن زيد.

الطبقة الخامسة: خداش بن زهير، والأسود بن يعفر، والمخبل بن ربيعة، وتميم بن أبي بن مقبل.

الطبقة السادسة: عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة بن شداد، وسويد بن أبي كاهل.

الطبقة السابعة: سلامة بن جندل، والحصين بن الحمام المري، والمتلمس، والمسيب بن علس.

الطبقة الثامنة: عمرو بن قميئة، والنمر بن تولب، وأوس بن غلفاء، وعوف بن عطية.

الطبقة التاسعة: ضابئ بن الحارث، وسويد بن كراع، والحويدرة (الحادِرة) الذبياني، وسُحَيْم عبد بني الحسحاس.

الطبقة العاشرة: أمية بن حرثان، وحريث بن محفض، والكميت بن معروف الأسدي، وعمرو بن شأس.

طبقة أصحاب المراثي: متمم بن نويرة، والخنساء، وأعشى باهلة، وكعب بن سعد الغنوي.

شعراء القرى:

المدينة: من الخزرج حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة.

ومن الأوس: قيس بن الخطيم، وأبو قيس بن الأسلت.

مكة: عبد الله بن الزبعرى، وأبو طالب بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث، ومسافر بن أبي عمرو، وضرار بن الخطاب.

الطائف: أبو الصلت بن أبي ربيعة، وأمية بن أبي الصلت، وأبو محجن، وغيلان بن سلمة، وكنانة بن عبد ياليل.

البحرين: المثقب العبدي، والممزق العبدي، والمفضل النكري.

شعراء اليهود: السموءَل بن عادياء، والربيع بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وشعية بن الغريض، وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذّيّال، ودرهم بن زيد.

الشعر والشعراء لابن قتيبة:

فيه مقدّمة نقدية نافعة في أقسام الشعر وعيوبه، ودواعي حِفْظِه، ودواعي قَوْلِه، والمطبوع منه والـمُتَكَلَّف، وعلاماتُ التّكلُّف، ومنهج القصيدة؛ ويلي المقدّمة تراجم ليست بالطويلة لما يزيد على مئتي شاعر من الجاهليين والمخضرمين، والشعراء الأمويين وبعض العباسيين، ووقف المؤلف عند ما استحسنه هو أو غَيرُه من أشعار كلّ شاعر ، سواء لقيمتها الأدبية، أو لعلاقتها بالترجمة، وما سَبَق إليه من المعاني فأُخِذَ عنه، وما سُبِق إليه فأخذه عمّن سَبَقَه؛ وقد اتّبع ابن قتيبة ترتيبًا زمنيًّا تقريبًا، ووقف انتخابه عند شعراء منتصف القرن الثالث للهجرة.

كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني:

ويعدّ أكبر مصدر للشعر الجاهلي وأصحابه وأخبارهم، وكان لصاحبه ذوق ناقد عالم بصير، فقد انتخب من الكتب التي سبقته أطرف ما فيها من أخبار وأشعار، وساقها بأسانيدها التي ترجع إلى مصادرها ورواتها الأوائل، مثل الأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني وغيرهم. كما كان يسوق آراء الرواة والنقاد في الشعر وشعرهم.

وتكمن أهمية ما جمعه الأصفهاني في احتوائه على ذكر كتب مفقودة، فضلًا عن علاقة الأخبار الواردة بالموسيقى والتاريخ والتراجم.

هـ-كُتُب الأدب العامّة وشروح الشّواهد:

وكتب الأدب العامّة كُتُبٌ جمعت ألوانًا من الأدب نثرًا وشِعرًا، ومن الأخبار، واللّغة والنّحو والنّقد، وغيرِ ذلك؛ ومن كتب الأدب العامّة الجيدة التي تشتمل على شعر جاهلي كثير

كتاب الكامل للمبرّد، **والبيان والتبيين والحيوان** للجاحظ، **والأمالي** لأبي علي القاليّ، **والأمالي** لليزيدي، **ومجالس ثعلب**، وعيون **الأخبار** لابن قتيبة، **والتّذكرة الحمدونيّة**.

وكتُب الشّواهد كتُبٌ اهتمّ أصحابُها بشرح شواهد النحو والصّرف والبلاغة وشواهد كتب التّفسير، ومعظمها أشعار للجاهليّين أو المخضرمين والإسلاميّين إلى نهاية عصر الاستشهاد في أواسط القرن الثّاني الهجريّ؛ ومنها: **شرح شواهد سيبويه** لابن السّيرافيّ، وما تتبّعه فيه أبو محمّد الأعرابيّ في كتابه **فُرحة الأديب**، **وشرح شواهد الإيضاح** لابن برّي، **ومعاهد التّنصيص على شواهد التّلخيص** للعبّاسيّ، **والمقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية** للعَينيّ، **وشرح شواهد مُغني اللّبيب** للسيوطيّ، **وشرح أبيات المُغني** لعبد القادر بن عُمر البغداديّ، **وخزانة الأدب ولبُّ لُباب لسان العرب** له، وهو من أفضل كتب شروح الشّواهد، وهو شرحٌ لشواهد الكافية للأستراباذي، فيه تراجم دقيقة لعدد من الشّعراء الجاهليين والمخضرمين، ونقل فيه عن مصادر مهمّة من دواوين الشّعراء والقبائل وكتب التّراجم هي في عِدادِ المفقود اليوم.

و-كتب النقد

وفيها أشعار جاهلية كثيرة، ومنها: **نقد الشعر** لقدامة بن جعفر، **وكتاب** الصناعتين لأبي هلال العسكري، **والوساطة بين المتنبي وخصومه** للجرجاني، **والعمدة** لابن رشيق القيرواني.

ز- كتب التّاريخ والجغرافية

وفي هذه الكتب شعر جاهلي كثير، يساق مساق الشواهد في النحو، لتأييد فكرة أو توثيق حادثة، أو الإشادة بمأثرة من مآثر العرب، وهذه الكتب منبع ثرّ يستقي منه الباحث فنون الأدب الجاهلي الأخرى، كالخطب والقصص والأمثال والوصايا.

ومن كتب السير والأخبار والتاريخ ين أيدينا: **سيرة ابن هشام**، **وتاريخ الطبري**، **والكامل في التّاريخ** لابن الأثير، **والبداية والنّهاية** لابن كَثير.

ومن كتب الجغرافية التي ضمّت عددًا من أبيات الجاهليين: **معجم ما استعجم** من أسماء البلدان والمواضع للبكري، **ومعجم البلدان** لياقوت الحموي، **وصفة جزيرة العرب** للهمداني، **والأزمنة والأمكنة** للمرزوقي.

ح-كتب اللغة والنحو وسائر كتب العربية:

وفي هذه الكتب شعر كثير، بعضه جاهلي، ومن أهم تلك الكتب: **كتاب سيبويه**، وفيه نحو ألف وخمسين بيتًا من الشعر، كثير منها من الشعر الجاهلي، ومنها **إصلاح المنطق** و**تهذيب الألفاظ** لابن السّكّيت يعقوب بن إسحاق، ومن تلك الكتب أيضًا: **المعجمات**، مثل **العَين** للخليل، **وجمهرة اللّغة** لابن دُرَيد، و**الصّحاح** للجوهريّ، **وتهذيب اللغة** للأزهريّ، و**لسان العرب** لابن منظور، **وتاج العروس** للزبيدي، وفيها شواهد كثيرة للجاهليّين والمخضرمين.

ط-بعض المراجع:

ومن المراجع التي لا يستغني دارس الأدب الجاهلي عنها: (**تاريخ آداب العرب**) لمصطفى صادق الرافعي، و(**تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي**) للدكتور شوقي ضيف، و(**الشّعر الجاهليّ**) للدكتور يحيى الجبوريّ، و(**مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية**) للدكتور ناصر الدين الأسد، و(**قضايا الشعر الجاهلي**) للدكتور علي العتوم، و(**الأدب الجاهلي**) للدكتور غازي طليمات والأستاذ عرفان الأشقر؛ وغيرها كثير من الدراسات التي تخصّص أصحابها في دراسة الشعر الجاهلي.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

صفحات مختارة من كتاب

(شعرنا القديم والنّقد الجديد)

أ.د. وهب أحمد رومية

كان في النّيّةِ أنْ أُضمِّن هذا الكتاب أشياءَ ممّا كتبَه كلُّ من درَّس الأدب الجاهليّ في جامعة دمشق، ممّنْ لم أُدْرِكْهُم وممّنْ أدرَكْتُهم وشرُفْتُ بالتّلقِّي عنهم أو بمشاركتهم في تدريسِ هذا المُقرّر؛ ولكنّي وجدتُ الكتابَ قد طالَ، فاكتفَيْتُ باختيارِ هذهِ الصّفَحات من كتاب (شعرنا القديم والنّقد الجديد) لأستاذِنا الدّكتور وهب أحمد روميّة، وقد شَرُفْتُ بالتّلَقِّي عنه في دبلومِ الدّراساتِ العليا ثُمّ بالتّدريسِ معه ومع الأستاذ الدّكتور حسين جمعة وزُمَلاءَ آخَرين.

ويحملُ هذا الكتابُ رَقْمَ (٢٠٧) مِن منشُوراتِ سلسلةِ (عالمِ المعرفة) الشَّهريّة الّتي تَصْدُرُ عن المجلسِ الوطنيّ للثّقافة والفُنونِ والآدابِ في الكُوَيْتِ الشَّقيق، وكان صدورُه عام ستّةٍ وتسعين وتِسْعِمئةٍ وألف للميلاد، والكتابُ قائِمٌ على محورَيْنِ اثْنيْن: قراءَةٍ ناقِدة للمنهجِ الأُسطوريّ في دراسةِ الشّعرِ الجاهليّ، ودراسةٍ جديدةٍ لهذا الشّعر تسعى إلى كَشْفِ رؤيةِ الذّاتِ الجاهليّةِ الشّاعرة لِنَفْسِها وللكونِ ومُشْكِلاتِه ونواميسِه؛ وجاءَ ذلكَ بأسلوبٍ أدبيٍّ بليغٍ عالٍ، بناءً على أنّ النّقدَ ينبغي أن يكونَ ضربًا من الإبداعِ على الإبداع، والبِناءِ على البِناء، بلغةٍ نقديّةٍ علميّةٍ رشيقةٍ متوهِّجةٍ، بعيدةٍ عن الغموضِ والتّهويمِ والغَثاثةِ والبُرودةِ والتّعالي على القارئ.

ولا غرْوَ، فهذا الكتابُ وَلِيدُ ما يزيدُ على أربعينَ سنةً من دراسةِ الأدبِ القديم وتذوُّقِهِ ونقدِهِ، فَضْلًا عن الاطّلاعِ الواسِعِ على مدارِسِ النّقدِ القديمِ والجديد؛ وكان الاختيارُ من الصَّفَحات (١٧٧ – ٢٠٠) من الفصلِ الثّالث الّذي جاء بعنوان (**رؤية الذّات في القصيدة العربيّة القديمة**)؛ وأعلمُ أنّ مستوى الحديثِ في هذهِ الصَّفَحاتِ أعلى مِن أنْ يُطالَبَ به الطّلّابُ وهم في أوّلِ مَدارِجِ العلم، ولكنّه ممّا ينبغي أن يطّلِعُوا عليه وعلى أمثالِه من الدّراساتِ الّتي تعمّقُ فهمَ الأدب الجاهليّ وتذَوُّقَهُ، وتكشِفُ ما فيه من مواطِنِ الجمالِ وأسرارِهِ وأدواتِه، وتحْمِلُهُم إلى مستوًى أعلى وأرقى في قادِمِ حياتِهم العلميّة إن شاء الله.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

رؤية الذات في القصيدة العربية القديمة

أليس في تراثنا النقدي مصطلحات تُقارب هذا العنوان؟ وإذا كان الأمر كذلك فَلِمَ العدول عنها إلى «رؤية الذات»؟

بلى، إن في التراث ما يُقارب هذا العنوان، ويطوف به، ولكنه لا يَعْدِله. فقد تجد في هذا الحديث أمشاجاً مردوداً بعضها إلى ما يعرف لدى الدارسين بـ «المقدمات» من غزل وظعن وعذل وشيب وشباب وغير ذلك، ومردوداً بعضها إلى الفخر والعتاب والاعتذار وغير ذلك مما يعرف لدى الدارسين بـ «أغراض الشعر»، ولكن وجدانك هذا يقع في حدود المقاربة والطواف، ولا يقع في حدود «العِدل». ولعلّ الناظر في مصطلح «المقدمة» الذي كتبت له السيرورة والشيوع فجرى على كل لسان، يرى أنه مصطلح يوشك أن يكون أصمّ أخرس لا يكاد ينطق بشيء سوى إشارته إلى مكانه في صدور القصائد، وهي إشارة هيّنة الشأن لا تبلّ الريق. وأما مصطلح «الأغراض الشعرية» فمصطلح يدمّر الإحساس بوحدة القصيدة، ويكافح النظرة العميقة إلى رمزيتها، ويصادر التفكير في طبقات المعنى، ويشوب فضاءها النفسي بكدرة قاتمة، ويلغي «مقولتها» الأم، ويلقي بيننا وبينها أستاراً صفيقة من التبدّد والتشتيت، بالإضافة إلى ما في هذا المصطلح من مباشرة وغلظة تجافيان روح الشعر وسحريته الحالمة.

وقد عدلت عن مصطلح آخر أدق وأعمق من سواه هو مصطلح «الكتابة الذاتية» لأنه ـ في ظني ـ يشعر المتلقي بمفارقة قاسية لا مسوّغ لها، فليس يصحّ أن نعبّر عن «حضارة شفهية» لا يميزها أمر كما تميزها «المشافهة» بمصطلح لا يدل على أمر كما يدّل على «الحضارة الكتابية»، وإذن هو مصطلح لا يناسب روح العصر

الـذي نتحدث عنـه ولا يـوائمهـا، بل يبلبل تصـوّرنا لـذلك العصر، ويقحم عليـه تصورات وأفكاراً غريبة عن سياقه التاريخي الاجتماعي.

وليس مصطلح «منـاسبـة القصيـدة» بأقل بغيـاً وطغيـانـاً على الـذات من المصطلحـات السابقـة ـ وبين المنـاسبة وأغـراض الشعـر صلة رحم واشجـة ـ فقـد انطمرت هذه «الذات» أحياناً كثيرة تحت تراب المناسبات ولا سيّما مناسبات المديح، وبرزت عاريـة لا يسترها ستر أو بقية من ستر تحت أضواء منـاسبات أخرى ولا سيّما مناسبات الفخر. فكأنّما كتب على هذه «الذات» أن تكون خرساء لا تنطق بكلمة أو ثرثارة لا تكفّ عن لغو الكلام. إنها ذات منفعلـة تلقّنها المناسبة الخارجية ما ينبغي، فتوصد في وجههـا أبواب الحلم، وتسدّ من حولها ثغور المخـاوف، فإذا لكل مناسبة أو حالة قول نقي صرف لا تشوبه أطياف ولا وساوس!!

وتأسيسـاً على مـا سبق لم يكن العـدول إلى مصطلح «رؤيـة الـذات» رغبـة في التجديـد، أو انبهاراً بـه، بل كـان رغبة في «الـدقة»، وحـرصاً عليهـا. وحري بهذا المصطلح أن يُعيد النظـر في القصيدة العـربية القـديمة لا أن يصنّف مـا قيل عنها، فليس من همّه إعادة تصنيـف ما تفرّق واضطـرب وتبعثر في الـدراسات التي أقيمت عليها، ودارت حولها ـ وهي كثيرة، وبعضها يستحق التقدير والثناء ـ، ولكن همّه أن يؤسّس نظرة جديدة إلى هذه القصيدة تختلف عن ضرائرها السابقات.

***

إن ضروب النشاط الاجتماعي ـ ومنها الإنتاج الأدبي ـ متداخلة بعضها في بعض، ولكن لكل منها صفته النوعية، ونسبيته، وتاريخيته، وقانونه الخاص الذي لا يناقض القانون العـام. وإن معرفة هذه الأمور شرط لا غنى عنه لأيـة دراسة حقة. وليس في النشاط البشري شيء لا دلالـة أو لا وظيفة لـه، ولكن الدلالات والـوظائف متنـوعة مختلفة لا تقع تحت حصر. ولعلّ الدلالة الشعرية من أغمض هذه الدلالات وأعقدها وأدقّها. فالشعـر إدراك فني مجسّد باللغة ـ وهـذه هي صفته النوعية ـ للعالم وأشيائه وناسه وأحداثـه وعلاقاته، ودلالته دلالة فنيـة مرهفة تتدّثر بالغمـوض أحياناً كثيرة. وليس هذا الإدراك الفني منبتّ الصلـة بالتاريخ، فهـو استجابة لحاجـات جمالية في واقع تاريخي اجتماعي محـدّد، وجـزء من بناء ثقافي عام معبّر عن مرحلـة اجتماعية

ـ وأغراضه من أبرز هذه التقاليد ـ قد مرّت بمراحل طويلة من التجريب الفني، ومن التطوير والإضافة والصقل حتى صارت إلى صورتها الراهنة. أريد أن أقول: حتى انتقلت من التعبير المباشر إلى «الرمز». وقد قلت غير مرة: إن أغراض شعرنا القديم هي رموزه، وإن هذه الأغراض ليست هي الشعر، ولا هي تخلق الشعر، بل الذي يخلقه هو التشكيل الجمالي للكلمات.

وإذا كنا نجد في هذا الشعر أغراضاً شبه محدّدة يتعاورها الشعراء، ويعيدون القول فيها دون حرج، فينبغي أن نتريّث في الحكم على هذه الأغراض، وعلى هؤلاء الشعراء. فلا نظن أن هذه الأغراض واحدة في كل الأحوال، ولو كانت كذلك لنَفِدَتْ طاقتها الفنية منذ زمن بعيد، ولكنها «رموز» يمنحها الشعراء طاقات فنية جديدة، ويجدّدون طاقاتها القديمة، ويوظفونها في التعبير عن مواقف وأمور شتى. وقد يظنّ ظانّ أن في هذا الكلام مقداراً من الحماسة أو التعصب للشعر القديم، ولكن مثل هذا الظن لا يعبّر عن حقيقة هذا الشعر، بل يعبّر عن موقفنا منه. وأبرز ما يميز هذا الموقف هو سوء ظنّنا بالشعر والشعراء.

في ضوء التصور السابق للشعر والشعراء عامة، ولشعرنا القديم خاصة، سأحاول الكشف عن رؤية الذات الشاعرة نفسها في علاقتها بالموضوع، سواء أكان هذا الموضوع إنساناً أم حيواناً أعجم، أم مكاناً، أم زماناً. ولن أفرّق بين شاعر جاهلي وآخر مخضرم بدوي لأن شعر البادية في صدر الإسلام امتداد متطوّر للتيار الفني الجاهلي. ومن المحقق «أن المرء لا يستطيع أن يرى نفسه إلاّ بعد أن يختار نقطة ومعياراً يقعان خارج نفسه»[٣]. وفي هذه الحال يمكن أن تكون الذات نفسها موضوعاً للتأمل أيضاً.

وسأقسم الحديث إلى قسمين، أتناول في أولهما بالتحليل والتفسير نصوصاً شعرية تتراءى لنا الذات فيها مقنّعة تعبّر عن نفسها من وراء قناع موضوعي أو معادل شعري، كالناقة والجواد والمطر والمرأة. وأتناول في ثانيهما بالتحليل والتفسير نصوصاً شعرية تبدو فيها الذات سافرة تبوح بأسرارها ومواجعها في تدفّق عاطفي سيّال تتداخل فيه حدود الزمن أو تتلاشى. وسأبين في أثناء ذلك كله موقفها من مأساتي الزمان والمكان اللتين كان يحسّهما الشاعر القديم إحساساً مروّعاً.

حقاً مشروعاً له أن يناهض هذا الحنين حفاظاً على حياته؟ ها نحن أولاء أمام حقوق مشروعة متناقضة متضاربة. فحنين الناقة إلى إلفها البعيد عنها حق مشروع لها. ومصادرة الشاعر لحنين الناقة حفاظاً على حياته حق مشروع له. فهل من سبيل إلى المصالحة والتوفيق بين هذه الحقوق المشروعة المتضاربة؟ ليس من سبيل أمام «المتلمّس» إلاّ أن يضمّ صوته المحزون إلى صوتها المتعب لعلهما ينجوان معاً من لظى الحزن، ومرارة التعب:

أمّي شآميةٌ إذ لا عراق لنا
قوماً نودّهُم إذ قومنا شوس

ولا يخفى ما في هذا القرار من المنطق والعقل، ففي العراق قومهما، ولكنهم متكبّرون أحرق الغيظ أكبادهم، فليممّا الشام لعلّ شذى المودّة يغني عن رائحة الأهل والأحباب. وإذا كان أمر يلفت النظر في هذا البيت فهو «الضمائر» ـ والضمائر علامة نصيّة جديرة بالاهتمام ـ، فقد ظلّ الشاعر على امتداد النص يتحدث عن نفسه وعن ناقته ـ على ما بينهما من التداخل والتنازع ـ حديثاً تنماز الضمائر العائدة على الشاعر فيه من الضمائر العائدة على الناقة: قلوصي، كأنه، فقلتُ/ حنّت، شاقتها، معقولة، راكبها، كأنها، حنّت، لها، عليكِ، طربتِ، ولم تلحي، إلفك، أمي. ولم يتحدث عنه وعن ناقته بضمير واحد إلا في هذا البيت ليدلّ بذلك على أن مصيرهما واحد مشترك، وأن قضيتهما واحدة على الرغم مما أثاره من غبار النزاع والجدل: لا عراق لنا، نودّهم، قومنا. أفكان الشاعر يمكر بنا هذا المكر الناعم الفتّان، أم بناقته، أم بنفسه؟ أم كان يمكر بهؤلاء جميعاً؟ ولِمَ لا؟ أليس بشاعر؟ وإذا لم تكن لغة الشعر مراوغة فماذا تكون إذن؟

ولكن «المتلمّس» لا يلبث أن يزيد القضية وضوحاً وانكشافاً، فيخاطب ناقته خطاباً يقرّ فيه بحقها المشروع في الحنين والعودة، ولكنه يرجىء تأدية هذا الحق حتى يقبض الموت روح «عمرو بن هند» وروح أخيه «قابوس». وفي هذا الحلّ من الإنصاف والاعتدال والحيطة بمقدار ما فيه من التعقل والاتزان والمنطق.

لن تسلكي سبل البوباة منجدة
ما عاش عمرو وما عُمّرتَ قابوس

وينبغي أن نتأمّل البيت قليلاً مرة أخرى، ففيه «التفات» بديع يدل على إحساس الشاعر بالخطر، فكأنه يقف أمامه وجهاً لوجه «**وما عمّرتَ قابوس**». فإذا طوى الموتُ عمرو بن هند وأخاه تحرّرت الناقة من عِقالها، وغدا بوسعها أن تنقاد لحنينها دون خوف، وأشرقت الشمس التي كان ينتظر «المتلمس» شروقها، فبددت الظلمة الكثيفة، وغدا بوسعة أن ينقاد لحنينه الذي أرمضه إلى الرمل دون وجل أو حذر. تُرى هل أكون مخطئاً إذا ظننت أن هذه الظلمات المتراكمة التي تكتنف مطلع النص هي ظلمات نفسية ترمز لحكم عمرو بن هند وأخيه، فإذا ماتا تبدّدت وتلاشت، وأشرقت في حياة «المتلمّس» شمس الحرية؟ وأن فكرة الهجوع في النص «وقد هجعوا» هي رمز لغيبة العقل وطغيان الموقف العاطفي الذي لم يتحرّر الشاعر منه إلا بعد ظهور «نجم سهيل» وهدايته له، أي إيقاظ عقله؟ وماذا لو ظننت بعد هذا كلّه أن الناقة التي جمح بها الحنين فلم تستطع مقاومته، بل لم تحاول مقاومته قط هي رمز «لعاطفة» الشاعر، وأن موقف الشاعر من الحنين هو رمز «لعقله» الذي استيقظ، وبدأ يبصّره بمواطن الخطر والهلاك؟ وأن النزاع بين الناقة والشاعر هو رمز للصراع المستعر بين «العاطفة» الجامحة التي لا يزيدها الزمن إلا ضراوة وجموحاً وبين «العقل» البصير الذي يقدّر فيحسن التقدير؟ هل أقول: إنها صحوة الروح التي يزيدها الخطر عمقاً وتوهّجاً؟

هذا هو المتلمّس أثقلته الغربة، ووطأته الصروف، فتصدّعت ذاته وانشطرت، فألقى ببعض ما في نفسه على «ناقته» لعلّه يبدّد طرفاً من أحزانه ومواجعه الضريرة، ونقل الصراع من هذه الذات المهيضة إلى صراع خارجي في ظاهره. بعبارة أوجز وأكثر تجريداً: لقد عبّر «المتلمّس» عن الذاتية القصوى بموضوعية قصوى، فبدت ذاته من وراء القناع، يقول غيورغي غاتشيف[٨]. «فالأثر الأدبي الذي يبدعه الفنان يتطور بعد موته أيضاً، ويكشف للناس عن مضمون فيه متجدد ومفاجيء دائماً. إن الفنان، وهو يؤلّف عمله الفني، لا يدرك إلا نسبة واحد بالألف من تفسيراته الممكنة»، أصحيح ما قاله غاتشيف حقاً أم «إن الأشياء الغامضة تحث العقل على ابتكارات جديدة»[٩] كما يؤكد غاتشيف نفسه؟

***

الذات وغموض الزمان

كان أبو عمرو بن العلاء يستجيد قصيدة المثقّب العبدي التي على النون، ويقول: «لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلّموه»[١٠]. وكنت منذ زمن بعيد استحسنت هذه القصيدة، وكتبت مبيناً وحدة موقفها النفسي على كثرة موضوعاتها وتباعدها، فليست تلك الموضوعات سوى أقنعة فنية مختلفة يتراءى من ورائها جميعاً موقف نفسي واحد تبعثه في النفس علاقة «الصداقة» المضطربة بين الشاعر وصديقه «عمرو». وأحبّ اليوم أن أنظر في هذه القصيدة نظرة مستأنفة لا تناقض النظرة السابقة، بل تكمّلها وإن اختلفت عنها في فهم طبيعة الموقف النفسي، وفي التركيز على موضوع «الناقة» دون سواه:

فَسَلِّ الهمَّ عنكَ بذاتِ لَوْثٍ
عُذافرةٍ كَمِطْرَقةِ القُيونِ
بصادقةِ الوَجيفِ كأنّ هرّاً
يُباريها ويأخذُ بالوضِينِ
كساها تامِكاً قَرِداً عليها
سَوَاديُّ الرَّضِيخِ مِنَ اللَّجينِ
إذا قَلِقَتْ أَشُدُّ لها سِنافاً
أمامَ الرّوْرِ من قلقِ الوَضِينِ
كأنَّ مواقعَ الثَّفِنَاتِ منها
معرَّسُ باكراتِ الوِرْدِ جُونِ
يَجُذّ تنفّسُ الصُّعَداءِ منها
قُوى النِّسعِ المُحَرَّمِ ذي المُتونِ
كأنَّ نفيَّ ما تَنفي يداها
قذافُ غَريبةٍ بِيَدَيْ مُعينِ
تَصُكُّ الحالبينِ بِمُشْفَتِرّ
لهُ صوتٌ أبحُّ منَ الرّنينِ

تَسُـــدُّ بـــدائمِ الخَطَـــرَانِ جَثْـلٍ
خَـــوايـــةَ فَـــرْجِ مِقـــلاتٍ دَهينِ
وتسمعُ للـــذبـــابِ إذا تغنّى
كتغْـــريـــدِ الحمامِ على الـــوُكـــونِ
فـألقيتُ الـــزمـــامَ لها فنـــامت
لعـــادتها مـن السّـــدَفِ المُبِينِ
كـــان مُنـــاخَهـــا مُلقى لِجَامٍ
على قَـــرواءَ مـــاهـــرةٍ دَهِينِ
يشُقُّ الماءَ جُـــؤجـــؤهـــا ويعلـــو
غـــواربَ كلِّ ذي حَـــدَبٍ بَطينِ
غَـــدَتْ قَـــوداءَ منشقّـــاً نَسـاهـا
تَجَاسَرُ بـــالنخـــاعِ وبـــالـــوتينِ
إذا مـــا قُمْتُ أَرحلُهـــا بليلٍ
تَـأَوَّهُ آهـــةَ الـــرجلِ الحزينِ
تقـــــولُ إذا دَرَأْتُ لها وَضيني
أهـــذا دِينُـــهُ أبـــداً وَدِيني
أكـلَّ الـــدهـــرِ حلٌّ وارتحالٌ
أمـــا يُبْقي عليَّ ولا يَقِيْنِي
فـأبقى بـــاطلي والجدُّ منهـــا
كَـــدُكّـــانِ الـــدّرابِنَـــةِ المَطينِ
فَـــرُحْتُ بها تُعـــارِضُ مُسْبَطِـــرّاً
على صَحْصـــاحِـــهِ وَعَلَى المُتُـــونِ
إلى عمـــرٍو وَمِـنْ عَمْـــرٍو أتتني
أخي النَّجَـــدَاتِ والْحِلْمِ الـــرصِيْنِ
فـإمـــا أن تكـــونَ أخي بحـقٍّ
فـأعـــرفَ منكَ غَثّي مـن سمِيني

وإلاّ فـــــاطّـــــرحْنِي واتخذني

عـــــــــدواً أتقيـكَ وتتقينـي

ومـــــا أدري إذا يمّمتُ أمـــــراً

أريـــــــــــدُ الخيرَ أيُّهما يَلِينـي

أألخيرُ الـــــذي أنـــا أبتغيـــهِ

أمِ الشرُّ الـــــذي هـــــو يبتغيني

دَعـي مـــــاذا علمت سأتّقيـــهِ

ولكـنْ بـــالمغيَّبِ نبئيني (١١)*

هل يمكن أن تكـون ناقة «المتلمّس» وناقة «المثقّب» دليلاً على تحوّل أو تغيّر في صورة الناقة الجاهليـة، أي في «نموذجهـا»؟ هذا جائز، فعلى كثرة وصـف الإبـل

---

* اللوث: الشدة. العذافرة: القوية. القين: الحداد. الوجيف: السير السريع. يباريها: يعارضها. الوضين: حزام يشد به الرحل على البعير.

التامك: السنام المشرف. القرد: المتلبد المجتمع. الرضيخ: النوى المدقوق. اللجين: الممتزج من ورق وعلف.

السناف: خيط يشد من اللبب إلى الوضين.

ثفنات البعير: ما مس الأرض من يديه ورجليه وكركرته فهي خمس. المعرّس: مكان التعريس، وهو النزول آخر الليل. باكرات الورد: القطا. الجون: أراد القطا الجوني وهو الأسود هنا.

النسع: سير تشد به الرحال. المحرم: الذي دبغ ولم يليّن. المتون: القوى.

المعين: الأجير. الغريبة: الرحى أو الناقة الغريبة، يقول هذه الناقة تدق ما وطئته وتطحنه كالرحى، أو يشبه ما تنفي يداها من الحصى بحجارة تقذف بها ناقة غريبة.

المشفتر: الحصى الذي يتطاير من وطئها.

الجثل: الكثيف الشعر. الخواية: الفرجة. المقلات: التي لا تلقح إلا بطيئاً، أو التي لا يبقى لها ولد. الدهين: قليلة اللبن.

الذباب: أراد صريف أنيابها فيما قال الأصمعي. الوكون: ج وكن وهو عش الطائر.

السدف: الصبح ها هنا.

المعزاء: الموضع الكثير الحصى. الوجين: الغليظ المرتفع من الأرض.

الكور: أداة الرحل. قرواء: سفينة. الدهين: المدهونة.

الجؤجؤ: الصدر. الحدب: ارتفاع الموج.

درأ الوضين للناقة: أعده ليشد الرحل به. الدين: العادة والشأن.

الدرابنة: جمع دربان وهو البواب. المطين: المصنوع من الطين.

المسبطر: الطريق الممتد. الصحصاح: المستوي. المتون: الغليظ الصلب.

في الشعر الجاهلي لا نـرى شاعراً يحاور ناقتـه، أو يلتفت إلى واقعها النفسي بما يعتلج فيـه من المشـاعـر والأحـاسيس إلا في هـاتين القصيدتين وضـاديّـة جميلـة لعبيـد بن الأبـرص. وهذا التحـوّل أو التغيّر هـو إرهاص واضح بـانتقـال المجتمع الجاهلي من الطبيعة إلى الحضـارة. وقد قوي هذا الإرهـاص في وصف الحيوانات الأخـرى كالجواد وحمار الوحش والبقرة الوحشية، ولم يزل ينمو ويتعاظم حتى غدا آية واضحة على هذا الانتقـال في شعر العصر الإسـلامي على نحو مـا يظهـر ذلك في قصيدة «مـالك بن الريب» البـائية المشهورة في تصويـره لجواده، وفي عينيّة «أبي ذؤيب» الفريـدة في بابها فيما أظن.

نحن هنا أمام نـاقة تحاور صاحبها، وتتأوّه وتتوجّع مما نـزل بها كالرجل الحزين. وينبغي أن تستوقفنا هـذه الصورة، فليس في الشعر الجاهلي كله ـ فيما أعـرف ـ تشبيه للناقـة بالرجل إلا في هـذا البيت. وليس هذا الـرجل ـ عند التحقيق ـ سوى المثقّب نفسه. وهي تشكـو ظلم صاحبها وعدم إشفـاقه عليها، وتستنكر سلـوكه استنكاراً ساخطـاً تسري فيه روح العتاب، وقـدر غير يسير من التأفف والضجر. لقـد تنامت صورة «الناقة» في النص، وتحوّلت تحوّلاً خليقاً بـالإعجاب والتأمل، فبدت أول أمرها صامتـة ثم بدأ تـأوّهها كالـرجل المحزون، ثم تحرّرت مـن العجمة، وسقط جـدارها الحاجز بينهـا وبين صاحبهـا، فإذا هي تحاوره في أمره وأمـرها متذمّـرة متأفّفة يـرهقها التفكير في الغاية الغـامضة التي لا تعرفها، ولكنهـا لا تكفّ عن الرحيل في سبيلها، فهي في حركة لا تهدأ ولا تتوقف.

إذا مـــــا قمـت أرحلهـــــا بليـلٍ
تـأوّه آهـــــــة الـــــرجـل الحزيـن
تقـــــــــولُ إذا درأت لها وضينـــي
أهـــــذا دينـــــه أبـــــداً ودينـي؟!
أكـلَّ الـــــدهـــــــر حـلٌّ وارتحالٌ
أَمَـــــــــا يُبْقـي عليَّ ولا يَقِيْنِـي؟!

وليس هـذا الموقف النفسي المضطرب المتلجلج الـذي يكتنفه الغموض والسـأم سوى موقف الشاعر نفسه، فكأنه قد قام بما يشبـه الاستدارة، فاتخذ من الناقة معادلاً شعرياً له

في لفتة فنية ماكرة، وفي لفتة أخرى هي أدق وأخفى راح يزاحم المعادل الشعري أو يتسلّط عليه، دون أن ينفيه، في صورة الرجل الحزين. فمّم كان «المثقّب» يشكو؟ وما سبب هذا العتاب الساخط الحزين الذي يتردّد في أرجاء القصيدة كلها في مواقف حواريّة مرهقة يلوذ أحد طرفيها بالصمت دائماً، فكأن الطرف الأول يحاور شبحاً غامضاً نشعر بوجوده المتسلط، ولكننا لا نسمع له صوتاً!!

أَفـــــــاطِمُ قبلَ بَيْنِكِ مَتِّعِيْنِي
وَمَنْعُكِ مـــــا سألتُ كأنْ تَبِيْنِي
فـــلا تَعِدي مـــواعـــدَ كـاذبـــاتٍ
تمرُّ بها ريـــــــــاحُ الصيفِ دوني
فـإني لـــــــــو تخالِفُني شِمالي
خِـــلافَكِ مـــا وصلتُ بها يميني
إذاً لقطعتُهـــــــا ولقلتُ: بِيني
كـــذلكَ أَجْتَـــوِي مَنْ يَجْتَـــوِيْني*

إنه عتاب ساخطٌ حزين، بعيد عن روح الغزل كل البعد، عتاب يكاد ينفجر وتضيء شرارته. وليس من سبب لهذا الضيق والتذمّر والشكوى سوى الغموض. ولنقل هنا غموض موقف فاطمة منه. وهو موقف يوشك أن يكون، بما فيه من العتاب والشكوى والغموض والإحساس بالظلم، صورة دقيقة من موقف «الناقة» من الشاعر. وهو في حديثه عن نساء الظعن يثير معاني الظلم والحبّ والقطيعة، ويقرن هذه المعاني كما فعل منذ قليل بتهديد يسري فيه الإحساس بالعجز والخضوع فيجوّفه، ويحيله إلى رمادٍ من الشكوى:

وهنّ على الـــرّجـــائزِ واكنـــاتٌ
قـــــــواتلُ كلّ أشجعَ مستكينِ
وهنّ على الظِّـــــلامِ مُطَلَّبـــــاتٌ
طـــويـــلاتُ الـــذّوائبِ والقُـــرونِ

*البين: الفراق والبعد. رياح الصيف: خصها دون غيرها لأنها لا خير فيها، وربما أراد بها ما يثور بينه وبين فاطمة من الخلاف والعناد وكل ما يذهب بالمودة. الاجتواء: الكراهية والاستثقال.

فقلتُ لبعضِهنّ وشُـــــــــدَّ رَحْلي

لهاجـــــــــرةٍ نَصَبْتُ لها جبيني

لعلّـــكِ إن صَرَمْـــتِ الحبـــلَ منـــي

كـــذاكِ أكـــونُ، مُصْحِبَتي قَـــروني*

إنه لا يبادر إلى القطيعة، ولكنه يـردّ عليها إذا وقعت بقطيعة مثلها!! بل هو يثير الغموض وينشر ضبابه فوق المشهد، فلا نكـاد نرى من حقيقة هؤلاء النساء المتوارية خلف الكلل والوصاوص سوى وميض يشعّ عن بعد من عيون أولئك الفاتنات:

ظَهَـــرْنَ بِكِلَّـــةٍ وَسَـــدَلْنَ أخـــرى

وَثَقَّبْـنَ الـــوصـــاوِصَ للعيـــونِ

ويكرّر الأمر عينـه في حديثه إلى صديقـه «عمرو» ـ وهو حديـث مقتضب شديد الاقتضاب ـ فيعاتبه عتاباً ساخطاً متـذمّراً نحسّ فيه مرارة الشكـوى، والعجز عن المواجهة أو الارتقاء إلى مستوى الندّ، والغموض المؤرّق القاسي:

إلى عمـــــرو ومـن عمـــــرو أتتني

أخي النجـــداتِ والحلـم الـــرصينِ

فـإمـــــا أن تكـــــون أخي بحـقّ

فـأعـــــرفَ منك غثّـي مـن سمينـي

وإلاّ فـــــاطّـــــرحني واتخذني

عـــــــــدواً أتّقيـك وتتّقينـي

فهل هذا كـل ما في القصيدة؟ أألنـاقة هي القنـاع أم المرأة أم صديقـه «عمرو»؟ وعن أي أمر يتحدث الشاعر؟ أعن صديقـه عمرو كما نفهم من مناسبة القصيدة؟ أم عن حبيبته كمايوهم الغزل؟ مهما نختلف في أمر هذه القصيدة فإننا لن نختلف في أن «الناقة» لم تكن مقصودة لذاتها، بل كـانت معادلاً شعرياً للمثقب. ونحن لم نقل في أمر هذه الناقـة بعد كلّ ما يجب قوله. وهذه هي موضوعـات القصيدة (المرأة والناقة

---

* الرجائز: مراكب النساء. واكنات: مطمئنات. مستكين: يستكين لهن ويخضع. الظلام: الظلم. مطلبات: مطلوبات. القرون: الضفائر. قروني: نفسي.

والصداقة + موضوع المستقبل الذي يتناوشه الخير والشر، ويلفّه الغموض، وتختم به القصيدة). ولكن موضوعات القصيدة ــ كما نعرف ـ ليست هي رؤية القصيدة، بل هي حامل هذه «الرؤية» والمعبّر عنها. ونحن حقاً رأينا الشاعر قلقاً مضطرباً ساخطاً يؤرقه الغموض ويشقيه، ولكننا لم نتبيّن سرّ ما هو فيه أو علّته. رأيناه متأففاً ضجراً يصبو إلى «الوضوح»، فتعذّبه هذه الصبوة وتشقيه شقاء روحياً مريراً، فهل خطر ببالنا أن الأمر أعقد وأهم من علاقة حب أو صداقة متقلّبة؟ وأنه يرتدّ في حقيقته إلى قضية/ مشكلة تقع في صميم الوجود نفسه؟ لنقرأ هذه الأبيات قراءة متأنيّة:

ومـــــا أدري إذا يممت أمـــــراً
أريـــــــــد الخير أيّهما يليني
أألخير الـــــذي أنـــــا ابتغيـــــه
أم الشرّ الـــــذي هـــــو يبتغيني
دعي مـــــاذا علمت سأتّقيـــــه
ولكـــن بـــــــــالمغيَّبِ نَبئيني

إن الأقدار تمكر بالشاعر وتخاتله، وإن الماضي ـ على ما فيه ـ واضح يمكن اتّقاؤه والاحتماء منه، ولن يسمح الشاعر لآلام الذاكرة أن تروّعه وترهقه، ولكن المشكلة الكبرى هي مشكلة هذا الغامض الراقد تحت أجنحة الزمن القادم السوداء. إنها مشكلة «الزمان» إذن، هذه المشكلة التي أرهقت عقل الشاعر الجاهلي، وروّعته ترويعاً فظيعاً.

طف في أرجاء هذا الشعر، وانظر حيث تشاء تجد الدهر أو الزمان واقفاً يترصّد هؤلاء الشعراء واحداً واحداً يخادعهم، ويمكر بهم، وينغّص عليهم صفو العيش، وينقلب بهم شرّ منقلب. فهم متوجّسون منه أبداً، مرتابون فيه أبداً، مروّعون بأحداثه وصروفه أبداً. لقد كانت الشكوى من الدهر على امتداد العصر الجاهلي شكوى كأنّ طعمها العلقم، وكانت أحداث ذلك العصر تزيدها كلّ يوم قسوة ومرارة. هذا شاعر من أوائل الشعراء ـ فيما يزعم ابن قتيبة ـ يتحدث عن الدهر الذي لا يعرف إلا إفساد كل ما هو صالح وتدميره:

ألقى عليَّ الـــدهـــرُ رجـــلاً ويـــدا
والـدهـــرُ مـــا أصلح يـومـــاً أفسـدا
يُصْلِحُـــهُ اليـــومَ وَيُفْسِـــدُهْ غَـــدا

وهذا النـابغة الذبيـاني يحدّثنا عن عجزه عن مـواجهة الدهـر في حوار داخلي مع نفسه:

تُكَلّفني أن يفعـلَ الـــدهـــرُ همَّهـــا
وهل وَجَـدَتْ قبلي على الـدهـرِ قـادرا

وهذا علقمة الفحل يرى أن الدهر يدمّر كل شيء:

بل كـلُّ قـــومٍ وإن عـــزّوا وإن كثـــروا
عَـــريفُهم بأثـــافي الشرّ مـــرجـــومُ

وليس هذا الراجم إلا الـدهر. وهذا الأعشى يصوّر ما فعلت بـه صروف الزمان ـ إذا صحت نسبة البيت إليه ـ:

وأنكـرتني ومـــا كـــان الـــذي نكـرتْ
مـن الحوادثِ إلا الشيبَ والصّلعـــــا

ولست أحبّ أن أستزيـد من الشواهد لأنها أكثر من أن يقف عليهـا واقف. وقد عبّر الشعراء عن الـدهر بألفاظ شتـى فهو الدهـر والزمان والليـالي والأيام والصروف والحوادث والأعصر وغير ذلك كثير. وهـم إمّا أن يتحدثوا عن الدهر مباشرة، وإما أن يتحدثوا عن آثاره المدمّـرة، فهو الذي يفسد الديار العـامرة، ويجعلها أطلالاً دوارس «أخنى عليها الذي أخنى على لُبَد» ـ ولُبَد آخر نسور لقمان وأطولها عمراً ـ، وهو الذي يهلك الشباب، ويحيل الجميل قبيحاً، والعـزيز ذليلاً، والقوي عاجـزاً، وهو الذي يفعل كل ما يخطـر وما لا يخطر بالبـال. وقد أحسّ الشاعر الجاهلي بعجـزه أمام هذا الخصـم الغاشم العنيـد، فأرهق عقله في التفكير فيه دون جدوى. وربما طـارده هذا الإحسـاس بالعجـز حتى انتهى به إلى رغبـة شـاذّة وغريبـة وقاسيـة، هي الرغبـة في «التشيؤ» لعله بـذلك يريح روحه المعذّبة، وعقله المرهق من مـرارة الإحساس، وعناء التفكير والوعي. وإلاّ فما معنى قول تميم بن أبي بن مقبل:

مـــا أطيبَ العيـشَ لـــو أَنَّ الفتى حجـــرٌ

تنبـــو المصـــائبُ عنـــه وهـــو ملمـــومُ

إنها رغبة في «التشيؤ الصلب» تحديداً، فإذا أصابته أحداث الدهر نبت عنه دون أن تصيبه بأذى!! ولم يرهق الدهر أفئدة الشعراء وقلوبهم وحدهم، بل أرهق الإنسان الجاهلي عامة، وليس مذهب «الدّهرية» إلا دليلاً على هذا الأمر:

«وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلاّ الدَّهر»(١٢).

وكثيراً ما اقترنت صـورة الدهـر بصورة الصيـاد الرامي المخـاتل الغدّار في شعـرنا القديم عامة لا في شعر العصر الجاهلي وحده.

وآية هـذا كله أن المشكلـة الغامضـة التي كانت تؤرق عقل «المثقـب» وروحه لم تكن مشكلة عارضـة، بل كانت مشكلة في صميم الوجـود الفردي والاجتماعي، أو قل: هي مشكلة الشاعر الـذي يتندبه القدر ليعبر عن هموم مجتمعه وأحلامـه. إنها مشكلة الزمان الآتي المجهـول أو« المغيّب» بتعبير «المثقّب» حيث تـرقد الأسرار، وتتلفّـع بضباب الخيـال وعشب النبوءات. وفي ضوء هذه المشكلة ينبغي أن نكمل الحديث عن الناقة.

لقد قلت إن ناقة «المثقّب» هي معادل شعري له، وهذا يعني أن ملامحها العامة ينبغي أن تعبّر رمزياً عنـه دون أن تفقد وجودها الموضوعي. لقـد عبّر الشاعر تعبيراً صريحاً لا غموض فيه أنه مهموم مُؤرّق، أرقه الغموض واشتباه الأمور عليه، فليس يعرف مـا يخبّىء له «الزمان»، وقـد أرمضه هذا الـزمان وأرهقه في واحدٍ من تجلّيـاته على نحو ما يظهـر في الموقف العاطفي. وأعلن أيضاً أن وسيلته للتحـرر من همومه وأرقه هي الناقة «**فسلّ الهم عنك بذات لوث**». فكيف تستطيع هذه الناقة أن تحرّر مبدعها من آلام الزمان وغموضه؟ لا يفلُّ الحديد إلا الحديد ـ فيما يبدو ـ. وإذا كان الزمان قـاسياً صلباً تكرّ أيامه ولياليه دون أن يلتفت إلى الوراء، «**وليس ببالي رضا المستريح ولا ضجر الناقم المتعب**» على حدّ تعبير أحمد شوقي، فليس أمام الناقة إلا أن تكـون صلبة قـاسيـة تمضي على أمّهـا دون توقف أو التفـات مهما تكن الظـروف والمشقات، فكأنها تباري الزمان نفسه وتصاوله، وتقف له رصداً ولو إلى حين. إنهما ـ كما أراهما ـ:

غـــريبانِ هـــذا بأسُـــهُ بـأسُ غـــاشمٍ
وهـــذا أخـــو الضرّاءِ جـــدَّ وشمّـــرا

هل جاوزت بهذه الرؤيـة والقول العلاقة بين الناقة/ الشاعـر والزمان؟ لا أظن. إنها منازلة غير متكافئـة، ولكن لا مناص منها. ولقد حصّن الشاعر نـاقته، وأمدّها بكل مـا يملك من أسباب القـوة، فقد غـذاها حتى عـلا سنامهـا واكتنز، وجعلهـا مقلاتاً لم تهدر طاقتها بكثرة الحمل والإرضاع، وتخيّرها من أكرم الإبل وأنجبها، فكأن مواقع ثفناتها لصغـرها معرّس القطا الجوني، وكأن مناخهـا ملقى لجام، يريد أنها إذا بركت تجافت عن الأرض، وذلك لعتقهـا وكرمها وبقاء قـوتها. وتخيّرها قلوصاً شـابة فصريف أنيـابها كصـوت الحمام. هكـذا أبـدع الشـاعـر ناقتـه، وسـوّاهـا بخيـالـه وإحساسه، فكانت «ذات لوث عذافرة كمطرقة القيون»، وكان خليقاً بها أن تنازل الدهر وتصاوله. وأتمنى أن تستوقفك هذه الصورة «كمطرقة القيون»، وأن تعيد النظر فيها لترى أنها صورة شقيقة لصورة تميم بن أبي بن مقبل «ما أطيب العيش لو أن الفتى حجـــر»، نشـأت كلتاهما في رحـم واحدة. وأحب أن تضيف إليهما صورة ثالثة لأبي ذؤيب الهذلي ـ وهو شـاعر مخضرم ـ وردت في سياق رثائه لأبنـائه الخمسة الذين ماتوا بالطاعون، يقول:

حَتـى كـأني للحـــــوادثِ مـــــروةٌ
بصفـــا المشرّقِ كل يـــومٍ تُقْـــرَعُ
وتجلّـــــدي للشـــــامتينَ أُريهمُ
أني لـــريبِ الـــدهـــرِ لا أتضعضعُ(١٣)*

ولا يغرنّك تجلـد «أبي ذؤيب» وتعاليـه على الموت وريب الدهـر، فقد أبكـاه هذا الدهر مرّ البكاء:

فـــالعينُ بعـــدهمُ كـأنَّ حِـــداقَهـــا
سُمِلَتْ بشـــوكٍ فهيَ عُـــوْرٌ تَـــدْمَعُ

* المروة: حجر أبيض براق تقتـدح منه النار. المشرّق: مسجد الخيف بمنى، وإنما خصّـه لكثرة مرور الناس به، فهم يقرعون حجارته بمرورهم.

ولكنه كان يعلم طبيعة الدهر «والدهر ليس بمعتب من يجزع»، فما جدوى الجزع إذن؟ إن أبا ذؤيب وهو يشبه نفسه بالصخرة التي تقرعها أقدام الناس أو الدهر كلّ يوم يتمنّى ـ بصورة مضمرة ـ لو كانت له صلابة الصخرة، أو لو كان مثلها تماماً إذن لكان أقدر على الصبر والتجلد اللذين كان يحاولهما بشق النفس، فتفضحه الدموع، وحرقة القلب. إن «مطرقة» المثقب، و «حجر» ابن مقبل، و «مروة» أبي ذؤيب ظلال مختلفة لحلم واحد أو رغبة واحدة، هي الرغبة في مقارعة الدهر، وهو حلم الانتصار على هذا الخصم الغاشم الغامض.

وليس من وظيفة لمظاهر قوة الناقة التي تحدثت عنها منذ قليل كالسنام المشرف المكتنز، والضخامة، والكرم، والعتق وسواها سوى تغذية فكرة «الصلابة» في مقارعة الدهر، أو قل: تغذية الصورة «كمطرقة القيون».

وأود أن أقف وأستوقفك قليلاً نتأمّل هذا «الهرّ» الذي يخدش الناقة ويظفّرها على امتداد الرحلة، فتقلق وتضطرب وتغذّ السير عجلى لا تلوي على شيء:

بصـــادقـــةِ الـــوجيـفِ كأن هـــرّاً
يُبـــاريها ويـأخـــذُ بـــالـــوضينِ

لست أدري لماذا يذكرني هذا البيت كلّما قرأته بقول شوقي:

وَخَـدّش ظُفْـرُ الـزمـانِ الـوجـوه
وغيّضَ مـن بشرِهـــــــا المعْجِبِ

وشوقي سليل هذا التراث وابنه البار، والصورة تتكرّر في الشعر الجاهلي في وصف حدّة الناقة ونشاطها وسرعتها كما في قول عنترة:

وكأنما تنـأى بجـانبِ دَفّهـا ال . . .
وحشيٍّ مـن هَـزِجِ العشيّ مـؤزّم
هـــرٍّ جنيـبٍ كلّما عطفتْ لـــه
غضبى اتّقاها بـاليـدينِ وبـالفم(١٤)*

* يقول: كأنها من نشاطها يخدشها هرّ قبيح الرأس تحت جنبها.

فهذا «الهرّ» يخدش الناقة ويظفّرها، فتنعطف إليه غضبى تريد الانتقام منه، فيحتمي منها بفمه ويديه، فلا تقوى على أن تناله بسوء. ومثل ذلك قول الأعشى:

بجُلالةٍ سُرُحٍ كأنّ بغرزِها
هِرّاً إذا انتعل المطيُّ ظِلالَها*

وقول أوس بن حجر:

كأن هرّاً جنيباً عند غُرضتِها
والتفّ ديكٌ بِرِجليها وخنزيرُ**

ويعدل الشماخ عن صورة «الهرّ» إلى صورة «ابن آوى»، ولكن دلالة الصورتين واحدة:

كأنّ ابنَ آوى مُوثَقٌ تحت نَحْرِها
إذا هو لم يَخْدِشْ بنابيهِ ظفّرا

ولا ضرورة لهذا التتبّع حقاً، فكل من قرأ الشعر الجاهلي يعرف أن الشعراء قد تعاوروا هذه الصورة. قال ابن قتيبة: «وقالت الشعراء في نفار الناقة وفزعها فأكثرت، ولم تعْدُ ذكر الهرّ المقرون بها وابن آوى»(١٥) قلت: بل ذكرت الديك والخنزير كما في بيت أوس السابق، وذكرت الأخيل أيضاً كما في قول «ضابىء البرجمي»:

بأدماءَ حُرجوجٍ كأنّ بدفّها
تَهاويلَ هرٍّ أو تَهاويلَ أخيلا***(١٦)

هل كان «شوقي» يبوح بما لم يكن أسلافه يحبّون البوح به إلاّ من وراءَ وراء؟

إن «الزمان» ـ في تصوّر شوقي ـ يخدش ويظفّر كهذا «الهرّ» أو «كابن آوى» في تصوّر أسلافه الجاهليين. وعلى أية حال فإن هذا «الهرّ» يعارض ناقة المثقّب ويخدشها ويظفّرها ويقلقها طوال الرحلة، فلا تقوى على أمر ـ أيّ أمر ـ إلا

---

* الغرز: ركاب الرحل من جلد مخروز يعتمد عليه في الركوب.
** الغرضة: حزام الرحل.
*** الدف: الجنب. التهاويل: ما يهول به. الأخيل: طائر يتشاءمون به.

أن تغذّ السير «بصادفة الوجيف»، فكأنها تطارد عـدوّاً خرافياً غامضاً، أو تفرّ من كابوس غامض لا يزال يقلقهـا ويروّعها. أو قل: إن الزمان الذي يخدِّش ظفـره الوجـــوه يعـــارض المثقّب ويخدشه ويظفّره ويقلقه طـوال رحلة الحياة فلا يملك إلاّ أن يمضي مروَّعاً تسوقـه الأقدار، وتتصرّف به الأسباب، وتخلف ظنونه الليالي، وتمكر به، فيزداد إحساسـاً بالعجز ووعياً بالقوة، وتسربله حيرة عقليّة قاسية!!

بل نحن نجد في بعض هـذا الشعر صورة «الهرّ» الـذي يخدش الناقة مقترنـة بأمرٍ آخر اقتراناً صريح الدلالة على الدهـر ونوائبه. ففي قصيدة «لجابر بن حُنيّ التغلبي» يذكـر فيها ما كـان من تفرّق قومـه بني تغلب، وتشتت أمرهم، وحزنـه عليهم، نراه يقدّم لهذا الذي هو فيه بحديث الناقة التي يخدشها «الهر». يقول:

أنـــافَتْ وزافَتْ في الـــزّمـــام كأنها
إلى غَـــرضهـــا أجـــلادُ هـــرٍّ مـــؤوّمِ
لِتَغْلبَ أبكـي إذ أثـــارت رمـــاحُهـــا
غَـــــــوائلَ شرٍّ بينهـــــــا متثلّـمِ
وكـــانـــوا هُمُ البـــانين قبلَ اختـــلافِهِمْ
وَمَنْ لا يَشِـــدْ بنيـــانـــه يتهـــدّم(١٧)

وفي قصيدة لامرئ القيس قالها في رحلته إلى الروم يطلب العون على بني أسد قاتلي أبيه نرى هذا الهرّ في حديث الناقة:

فَـــــدَعْ ذَا وَسَـلِّ الهمَّ عنـك بِجَسْرَةٍ
ذمـــولٍ إذا صـــامَ النهـــارُ وهجّـــرا
بعيـــــــــدة بين المنكبينِ كـأنّها
تـــرى عنـــد مجرى الضّفـر هـــرّاً مشجّـــرا
عليهـــا فتـى لم تَحمـلِ الأرضُ مثلَـــهُ
أبـــــرَّ بميثـــــاقٍ وأوفى وأصبرا

هــوالمُنْــزِلُ الأُلاّفِ من جَــوٍّ نــاعطٍ
بني أسـدٍ حَـزنـاً من الأرضِ أوعـرا(١٨)*

فهو يسلّي همّه بهذه النـاقة ـ كما يقـول ـ وهو هـمّ ثقيل، فليس استرداد ملك أبيه بالأمر السهـل اليسير. ولكن هذه الناقة ــ على قوتها ـ يخدشها هـذا الهرّ وينفّرها، أو قل: ولكن امرأ القيـس الفتى الذي لم تحمل الأرض مثله ــ كما يزعم ــ خدّشـه ظفر الزمان حتى أدماه، ولا يزال حتى ساعته قلقاً مرتاباً في موقف الدهر منه:

بكى صــاحبي لمّا رأى الــدربَ دونــه
وأيقـنَ أنّــــا لاحقــــانِ بقيصرا
فقلـتُ لــــــهُ: لا تبـكِ عينُـكَ إنما
نحــاولُ مُلكــاً أو نمــوتَ فَنُعــذَرا

ولكن الناقة ــ أو الشاعر ـ لا تستسلم، بل تستجمع قـواها، وتتحوّل من جفاف الصحراء إلى طـراوة اليمّ، فتغدو سفينة ماهرة تصارع الأمـواج العاتية، وتعلو عليها. لقد جفّ ريق الشاعر، وأنهكته مرارة العطش في هذه الصحراء، فليـبلّ ريقه بقطرات من الماء ولو خالطتها ملوحـــة البحـــر أو مــرارتـه. وأنا لا أعرف، ولا أحـد يعرف، إلى أين تتجـه هذه السفينـة، ولا أين مقاصـدها؟ لكأنها مؤرّقة بفكـرة «الرحيل» إلى ذلك «المجهول الغامـض» حيث ترقد الأسرار في شِعاب المرجـان واللؤلؤ، وتتدثّـر بموج البحر وفتنة العقل السـاحرة. أرأيت كيف تلتفّ الصـورة على نفسهـا؟ وكيف تتـداخل مستويـات الشعـر الصريحة والغـامضة؟ وهل كـان «المثقب» يعرف إلى أين يتّجـه حقاً؟ ألم يكن الغمـوض يلفّ ذلك المجهول الذي يسعى إليـه، ولكنه على الرغم من ذلك لا يكفّ عن الرحيل بحثاً عن السرّ «المغيّب»؟

ومــــا أدري إذا يمّمـتُ أمــــراً
أريـــــــــد الخير أيُّهما يليني

---

* الضفر: حبل مفتول يشد بـه البطان. المشجر: المربوط إليها. وصفها بـالنشاط حتى كأن هراً ربط إلى حزامها فهو يخدشها وينفرها. ناعط: حصن. الحزن: الغليظ الخشن من الأرض.

أألخير الـــــذي أنـــا أبتغيـــــه

أم الشرّ الـــــذي هـــــو يبتغيني

دعي مـــا قـــد علمت سأتّقيـــه

ولكـــن بـــــــــالمغيّب نبئينـــي

لقد أرهقه الزمان، وأنهكته مرارة التفكير فيه، فاشتبهت عليه المواقف، وحار في أمرها، فالغموض يكتنفها من كل جانب: موقف «فاطمة» منه غامض، وموقف صديقه «عمرو» منه غامض، وموقف الحياة منه غامض. إنه يأبى أن يستسلم لعجز «العقل»، ويصر على اكتشاف أسرار الزمان، ومعرفتها معرفة صافية نقيّة، ولكن الزمان خصم مراوغ، ومعرفة أسراره مطلب قصيّ معاند. وبين هذا الإحساس بالعجز والوعي بالقوة تكمن مأساة «المثقّب».

***

هوامش

(١) عبدالمنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب. ص: ١٢٣ . دار العودة ـ بيروت ط٢، ١٩٧٩م.
(٢) عبدالمنعم تليمة: أربعة مداخل إلى علم الجمال الأدبي (مواطن متفرقة).
(٣) غيروغي غاتشيف: الوعي والفن. ص: ١٩٣ . سلسلة عالم المعرفة. ١٩٩٠ م، ت: نيّوف نوفل، مراجعة: سعد مصلوح.
(٤) البغدادي: خزانة الأدب: ٦/ ٣٤٥، تحقيق عبدالسلام هارون، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٦م.
(٥) انظر القصة كاملة في الخزانة: ٦/ ٣٤٥، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة: ١/ ١٧٩، وفي ديوان المتلمس بتحقيق حسن كامل الصيرفي. معهد المخطوطات العربية ١٣٨٨/ ١٩٦٨م.
(٦)الديوان: ق ص: ٦٩ .
(٧) سورة طه: الآيتان ٩و١٠ .
(٨) الوعي والفن. ص: ٢٢٥ .
(٩) المرجع السابق. ص: ٦٧ .
(١٠) الشعر والشعراء: ١/ ٣٩٥.
(١١) المنتخب في محاسن أشعار العرب المنسوب للثعالبي: ٢/ ٢٧٠ . تحقيق عادل سليمان، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٤م والمفضليات.
(١٢) سورة الجاثية. آية: ٢٤ .
(١٣) شرح أشعار الهذليين ص: ٣.
(١٤) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري. ص ٣٢٥. تحقيق: عبدالسلام هارون. دار المعارف/ القاهرة ط.ع ١٩٨٠م.
(١٥) الشعر والشعراء ١/ ٢٠٦ .
(١٦) الأصمعيات ص ١٨١ . تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون. دار المعارف بمصر ط٣.
(١٧) المفضليات ق: ٤٣ ص: ٢٠٩ .
(١٨) الديوان ق: ٤ص ٦٤ و ٦٥ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف/ القاهرة ط٣. د.ت.

اللجنة العلمية :

أ.د. محمود سالم محمد

أ. د. حسين جمعة

أ. د. وهب رومية

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات